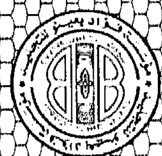
المستشرقون الألمان

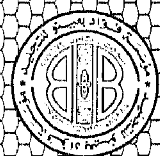
تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية

دراسات
جمعها وشارك فيها

صلاح الدين المنجد

دار الكتاب الجديد
بيروت - لبنان





المُسْتَشرِقونَ الألمان

المستشرقون الألمان

تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية

دراسات
جمعها وشارك فيها
صلاح الدين المنجد

الجزء الأول

دار الكتاب الجديد
بيروت • لبنان

الطبعة الاولى

دار الكتاب الجديد
بيروت • لبنان

١٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــد

إنّ اطّلاع الباحثين والمثقفين من العرب والمسلمين على الدراسات الجيّدة التي كتبها المستشرقون بتجرّد وإخلاص ، أصبح أمراً ضرورياً ، في سبيل وضع دراسات شاملة قريبة من الكمال تكشف جميع نواحي الحضارة العربية الاسلامية . ولا شيء يمهّد لهـــذا الاطلاع مثل معرفة سِير حياة هؤلاء العلماء ، والإحاطة بما قاموا به من أبحاث ودراسات .

لذلك رأيتُ أن أنشر تباعاً سِيَر هؤلاء المستشرقين الذين أدّوا للاسلام والعرب خدمات جليلة صادقة بدراساتهم ، وقـــد بدأتُ بسِير طائفة من المستشرقين الألمان وبعض النمساويّين .

وأنا اشكر القائمين على مجلة « فكر وفن » الألمانية ، الذين سمحوا لي باعادة نشر ما كانوا نشروه في مجلّتهم من هذه السِيَر ، كما أشكر أصدقائي المستشرقين الذين قدّموا لي كل عون لاتمام هذا المشروع ، آملاً أن تتاح لي الفرصة لإصدار مجلدات أخرى تضمّ سِير حياة مستشرقين آخرين .

بيروت　　　　　　　　　　صلاح الدين المنجد

محاضرات :

من عظمة الاستشراق الألماني

بقلم : الأستاذ صلاح الدين المنجد

اتيح لي أن أكون صديقاً لعدد كبير من المستشرقين الألمان منذ ثلاثين سنة ، وعرفت معظمهم شخصياً : شيوخهم وشبابهم ، وزرت بعض جامعات ألمانيا وألقيت فيها محاضرات مختلفة ، واطلعت على كثير من دراسات المستشرقين الألمان الماضين والمعاصرين ، ونقلت بعضها الى العربية في كتابي « المنتقى من دراسات المستشرقين » . لهذا كله ، أسمح لنفسي بالكتابة عن الاستشراق الألماني .

يذكر الأستاذ ألبرت ديتريش أن أوّل محاولة في ألمانيا لتدريس اللغة العربية كانت من قِبَل كريستمان المتوفي سنة ١٦١٣ م. فقد ألف كتيّباً لتعليم كتابة الحروف العربية ، بل إنّه أعدّ بنفسه للمطبعة الحروف العربية في قوالب الخشب . لكنّ الرائد الأوّل الذي وقف حياته كلّها على دراسة اللغة والحضارة الاسلامية هو رايسكه المتوفي سنة ١٧٧٤ . وتتابع بعد ذلك المستشرقون حتى كان القرن التاسع عشر عصر ازدهار وانتاج خصب للاستشراق الألماني . وما زال كذلك حتى الحرب العالمية الثانية ، فأُصيب بالضعف والبطء في الانتاج .

والمتتبع لحركة هذا الاستشراق يُلاحظ أنّه اختصّ بمزايا واضحة ، هي ، في رأيي :

١ — لم يخضع لغايات سياسية أو استعمارية أو دينية : كالأستشراق في بلدان أوروبية أخرى . . . فألمانيا لم يُتَحْ لها أن تستعمر البلاد العربية أو الاسلامية ، ولم تهتم بنشر الدين المسيحي في الشرق ، لذلك لم تؤثّر هذه الأهداف في دراسات المستشرقين الألمان ، وظلّت محافظةً على الأغلب ، على التجرّد ، غالباً ، والروح العلمية .

واذا ظهر في بعض الدراسات الاستشراقية الألمانية ، بعض الانحراف في الرأي ، أو الخطأ ، فهذا أمر لا يمكن تعميمه في الدراسات كلّها .

٢ — لم تكن دراسات المستشرقين الألمان عن العرب والاسلام والحضارة الاسلامية–العربية ، متصّفة ، على الأغلب ، بروح عدائية . نعم ، لقد وجد بعض المستشرقين الذين أتوا بآراء لا توافق العرب والمسلمين ، أو بآراء خاطئة تماماً ، كبعض آراء نولدكه (توفي سنة ١٩٣٠) عن الشعر الجاهليّ والقرآن الكريم أو آراء فولرز Vullers (١٨٨٠) عن القرآن وتهذيبه. لكنّ هذه الآراء معدودة ، فالاستشراق الألماني لم

ألقي هذا البحث في الاسبوع الثقافي الالماني–العربي ، الذي انعقد في مدينة توبنجن في ايلول (سبتمبر) عام ١٩٧٤ . وقد اعاد كاتبه النظر فيه ، ووسعه .

يعرف مستشرقين جعلوا ديدنهم عداء العرب والاسلام، وتعمّدوا الدسّ والتشويه في دراساتهم ، بل بالعكس، رافقت دراساتهم روح إعجاب وتقدير وحب وانصاف . نجد هذه الروح عند رايسكه الذي سمّى نفسه «شهيد الأدب العربي» والذي يعتبر واضع الأساس المتين لدراسة العربية في أوروبة ، ونجدها عند جورج جاكوب في كتابه «أثر الشرق في العصر الوسيط» ، ونجدها بين المعاصرين عند السيدة زيغريد هونكه في كتابها «شمس الله تسطع على الغرب» ، وعند أعظم المستشرقين الألمان في هذا العصر ، هلموث ريتر ، وعند شبولر ، وعند باريت في دراساته المتأخرة ، وعند غيرهم . بل أنّ بعضهم أسلم حباً بالعربية والاسلام مثل ريشر الذي سمّى نفسه بعد اسلامه «عثمان» ، وبعضهم اتخذ لنفسه اسماً عربياً مثل اوغوست مُلّر -الذي نشر طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة- فقد سمّى نفسه «امرؤ القيس بن الطحّان» ، وكان هذا ترجمة لأسمه الألماني . وقد نال بعضهم كثيراً من المتاعب والأذى في سبيل العربية . إنّ رايسكه ، الذي كان فقيراً ، وبقي كذلك ، مات مسلولا بعد انصرافه الطويل إلى العربية والشعر العربي القديم . وإن وُستنفلد كُفّ بصرُه من كثرة البحث والعمل على نشر النصوص العربية طول ستين سنة . وبعضُهم كان ينشر النصوص العربية التي كان يُحقّقها على نفقته رغم فقره . فقد طبع الاستاذ رايسكه الجزء الأول من «تاريخ أبي الفداء» سنة ١٧٥٤ م. على نفقته ، ولم يبع غير ثلاثين نسخة ، وطبع كذلك «لاميّة الطغرائي» بالعربية مع ترجمتها الى اللاتينية ، وما باع منها سوى مئة نسخة . ولقد بلغ من حماسة كريستمان للعربية أنه أعدّ بنفسه للمطبعة الحروف العربية في قوالب من الخشب ، حتى يسهل طبع النصوص العربية .

وهاتان الصفتان السابقتان أتاحتا للاستشراق الألماني أن يقدّم للعرب وللمسلمين خدمات واسعة ، وخاصة في الميادين الآتية :

آ - نشر النصوص القديمة :

لقد ظهرت النصوص العربية القديمة محقّقة بعناية الألمان منذ القرن الثامن عشر . كان رايسكه Reiske (-١٧٧٤) أول من نشر «معلقة طرَفة بن العبد» بشرح ابن النحّاس ، مع ترجمتها الى اللاتينية عام ١٧٤٢ . ثم ازدهر نشر النصوص في القرن التاسع عشر ، فنشرت مئات من نصوصنا القديمة الأساسية ، في الشعر العربي القديم في الجاهلية والاسلام ، واللغة والأدب والتاريخ والجغرافية والفلسفة والفِرَق والحساب والجبر والفلك والطبّ . ان مجموع ما نشره الألمان وحدهم يفوق ما نشره المستشرقون الفرنسيون والانكليز معاً . ومن المؤسف ان جمعية المستشرقين الألمان لم تكلف أحداً بوضع مسرد لجميع النصوص العربية التي نشرها الألمان . فهذا مفيد جداً ومهم . وقد ضرب بعض المستشرقين مثالا نادراً في تحقيق النصوص، من حيث العدد ، ومن حيث الدقة . ولقد نشر فون من حيث العدد ، ومن حيث الدقة . ونشر وستنفلد F. Wustenfeld (-١٨٩٩) ما يعجز مجمع علمي عن نشره .

فقد حقق «معجم البلدان» لياقوت ، و «وفيات الأعيان» لابن خلّكان ، و «طبقات الحفّاظ» للذهبي، و «تهذيب الأسماء واللغات» للنَوَوي ، و «الاشتقاق» لأبن دُرَيْد ، و«تواريخ مكّة» للأزرقي ، والفاكهي، والفاسي ، وابن ظهيرة . و «معجم ما استعجم» للبكري، و «عجائب المخلوقات» للقزويني ، و «السيرة» لابن هشام ، وغيرها . وكان كلّ ما حقّقه من الكتب الضخمة الصعبة الأساسية . وقد زادت آثار هذا العالم الكبير على المائتين .

وقد نشر فرايتاغ Freytag (-١٨٦١) «ديوان الحماسة» لأبي تمام بشرح التبريزي ، وترجمه الى اللاتينية .

ونشر روكرت Ruckert (–١٨٦٦) «مقامات الحريري» ، و «معلقة عمرو بن كلثوم» .

ونشر ڤبكه Wœpke (–١٨٦٤) «براهين الجبر والمقابلة للخيّام ، و «الفخري في الجبر والمقابلة» للكرخي .

ونشر فلوجل Flugel (–١٨٧٠) «فهرست ابن النديم» ، عمل فيه خمسةً وعشرين عاماً ، وحقق «كشف الظنون» لحاجي خليفة وعمل فيه ثلاثة عشر عاماً .

ونشر مُلر M. J. Muller (–١٩١١) «صور الأقاليم» للاصطخري .

ونشر توربكه Thorbecke (–١٨٩٠) «درّة الغوّاص» للحريري .

ونشر الورد Ahlwardt (–١٩٠٩) «الأصمعيّات»، و «رجز العجاج ، والزَفيان ، وروَبة» ، وديوان «طهمان الكلابي» ، و «الفخري في الآداب السلطانية» لابن الطقطقي .

ونشر ليبرت Lipert (–١٩١١) «تاريخ الحكماء» للقفطي .

ونشر متز Mez (–١٩١٧) «حكاية أبي القاسم البغدادي» .

ونشر يان Jahn (–١٩١٧) «شرح المفصل لابن يعيش» .

ونشر بيكر Becker (–١٩٣٣) «مناقب عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي .

ونشر مايرهوف Meyerhof (–١٩٤٥) «شرح أسماء العقار» لموسى بن ميمون ، و «العشر مقالات في العين» المنسوب لحنين بن اسحق .

ونشر برجستراسر G. Bergstrasser (–١٩٣٣) وبرتسل (١٩٤١) مجموعة نادرة من النصوص القرآنية، ورَعيا معهد أبحاث القرآن في جامعة ميونيخ ، لكن هُدّم هذا المعهد وأُتلف كلّ ما فيه ، اثناء الحرب العالمية الثانية . وقد نشرا نصوصاً قرآنية مهمة جداً . منها «التيسير في القراءآت السبع» ، و«المقنع في رسم مصاحف أهل الأمصار» ، و«مختصر الشواذ» لابن خالويه ، و«المحتسب» لابن جني ، و«طبقات القراء» لابن الجزري ، و «معاني القرآن» للفرّء ، و «الايضاح» للأنباري .

ومما يذكر عن برجستراسر أنه جاء الى القاهرة واستمع الى مقريء للقرآن ودوّن أنغامه بالنوطة .

ونشر سخاو Sachau (–١٩٣٠) الكثير من مؤلفات البيروني الرائعة ، «كالآثار الباقية ، وتاريخ الهند» ، وشارك مع مستشرقين آخرين في نشر كتاب «الطبقات الكبرى» لابن سعد .

ولا بُدّ أن نذكر هنا المكتبة الاسلامية لجمعية المستشرقين الألمان التي بدأ بنشرها العلاّمة الكبير هاموت ريتر(–١٩٧١) في استانبول عام ١٩٣١ ، وتبعه في إدارتها الاستاذ البرت ديتريش Dietrich والاستاذ فيلد E. Wild . وقد ظهر فيها نصوص قديمة محقّقة ذات شأن . فقد حقق ريتر الجزء الأول من «الوافي بالوفيات» للصفدي ، ثم تتابع على نشره علماء آخرون. وكتاب «فرق الشيعة» للنوبختي ، وكتاب «أسرار البلاغة» للجرجاني . ونشر هانس ڤير H. Wehr «كتاب الحكايات العجيبة» وهو أقدم من ألف ليلة وليلة ، ونشر ڤاغنر E. Wagner «ديوان أبي نواس».

وللاستاذ ريتر تحقيقات أخرى . فقد نشر «غاية الحكيم» المنسوب لمسلمة بن أحمد المجريطي ، و «رسالة الأرزاق» لابن سينا ، وكتاب «باتانجل» للبيروني .

ومما ظهر من النصوص العربية بعناية المستشرقين

الألمان : «طب العيون» لابن سينا ، نشره Hirschberg (–١٩٢٥) بمعاونة ليبرت ؛ وكذلك نشر «المنتخب في علاج العيون» للموصلي . وكتاب «نقط العروس» لابن حزم ، نشره زيبولد (–١٩٢١) ، و «المحاسن والمساوىء» للبيهقي ، نشره شوالي Schwally (–١٩١٩) ، ورسالة «الطير» لابن سينا بشرح السهروردي ، نشره شبيس Spies ، وكتاب «الأوائل» للعسكري، نشره فيشر (–١٩٤٩) ؛ و «عيون الأخبار» لابن قتيبة ، نشره بروكلمن (–١٩٥٦) ؛ والجزء التاسع من كتاب «كنز الدرر وجامع الغرر» لابن ايبك الدواداري ، نشره رويمر Roemer ؛ والجزء الثامن من الكتاب نفسه نشره هارمان V. Haarmann ، ونشر فان ايس J. Van Ess نصوصاً مختلفة عن المعتزلة ، ورسائل في الرد على القدريّة . ونشر هربرت بوسّه «التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية» لعبد الغني النابلسي .

ولا سبيل الى الاستقصاء ، فكلّ ما ذكرنا هو على سبيل المثال . وواضح أن ما نُشر هو ذو شأن في تراثنا ، وهذا دليل على مدى الاهتمام العميق بهذا التراث .

ومما يجدر ذكره أنّ كثيراً من هذه النصوص القديمة ، قد نقلها ناشروها ، أو غيرهم الى اللغة الألمانية.

ب — والأمرُ الثاني الذي خدم فيه المستشرقون الألمان العرب ، وكان من مظاهر نشاطهم هو **فهرسة المخطوطات العربية** الموجودة في مكتبات ألمانيا ، أو مكتبات العالم أو التنويه بها . وكان كريستمان J. Christmann (–١٦١٣) أول من وضع فهرساً لمخطوطات عربية اقتناها نبيل ألماني . ولعل أعظم أثر في هذا الميدان يعتبر فخراً للاستشراق الألماني هو فهرس المخطوطات العربية في مكتبة برلين الذي وضعه الورد في عشر مجلدات ضخام ، وصف فيه ما يقرُب من عشرة آلاف مخطوط . ولقد كان عملا جباراً .

وهناك عشرات من الفهارس المفردة وضعها آخرون للمخطوطات العربية . فقد وضع زيبولد الجزء الأول من فهرس مخطوطات جامعة توبنجن ، ووضع ڤايسڤايلر Weisweiler الجزء الثاني منه . ووضع أومير Aumer (–١٩٢٢) فهرس المخطوطات في مكتبة جامعة ميونيخ ، ووضع فلايشر Fleischer (–١٨٨٨) فهرساً للمخطوطات الشرقية في مكتبة درسدن الوطنية (٤٥٤) مخطوطاً . ووضع ڤير فهرس المخطوطات الموجودة في مكتبة جمعية المستشرقين الألمان ، وبروكلمن فهرس المخطوطات الموجودة في مكتبة الدولة في برسلو ، وبرنباخ Berenbach ، فهرس المخطوطات العربية في مكتبة جامعة هايدلبرج ، وغير ذلك . ويتابع الاستاذ زلهايم الآن فهرسة طائفة أخرى من المخطوطات العربية التي لم تفهرس في ألمانية . ووضع الاستاذ «اولمن» فهرساً لمخطوطات الكيمياء العربية في مكتبة شستربتي بدُبلن .

وقد كتب الاستاذ ريتر H. Ritter — الذي كان يعتبر مرجعاً نادر المثال في المخطوطات العربية — مقالات كثيرة عن مخطوطات استانبول. منها : مخطوطات تاريخية عربية في مكتبات استانبول لم تطبع بعد . صدرت في كتاب : ما ساهم به المؤرخون العرب (بيروت ، ١٩٥٩) ، والمخطوطات المكتوبة بخطوط أصحابها autographs في مكتبات تركية ، (صدرت في مجلة Oriens ، عام ١٩٥٣) . والمخطوطات العربية في الاناضول واستامبول . (صدرت في Oriens عام ١٩٤٩ و ١٩٥٠) ، ومخطوطات التفسير في اياصوفيا ، (صدرت في مجلة Türkiyat Meçmu'asi عام ١٩٤٥) ، وغيرها مما كتبه المستشرقون الألمان كثير .

وفي باب الارشاد الى المخطوطات العربية في العالم،

يدخل كتاب العلاّمة بروكلمن عن تاريخ الآداب العربية . فهو بنيان ضخم جبّار يدلّ على عظمة مؤلفه وقوة ارادته ومثابرته وصبره . وهو فخر للاستشراق الألماني . وسيبقى ، رغم نقصه ، مرجعاً لكل باحث لعشرات من السنين . وقد أمدّ الاستاذ ريتر هذا الكتاب في طبعته الأخيرة ، بكثير من الاضافات .

ج – والأمر الثالث الذي عنُي به الاستشراق الألماني هو **الاهتمام بالمعاجم العربية** . وكان يعقوب يوليوس (–١٦٦٧) أول من وضع معجماً عربياً–لاتينياً . ثم وضع فرايتاغ (–١٨٦١) معجماً مثله ، حلّ محلّه . وجاء نولدكه فكتب على هوامش نسخته من معجم فرايتاغ الكثير من الاضافات . يمكن أن يكون منها معجم خاص . وقد اهتم جورج كريمر (–١٩٦١) باستخراجها ، ونشر في عام ١٩٥٢ و ١٩٥٤ كرّاستين فيهما حرف الألف . وحاول فيشر (–١٩٤٩) أن يضع جذاذات ، بلغت الألوف ، لمعجم اللغة العربية مستمد من المصادر القديمة على اختلاف العصور ، ليكون معجماً تاريخياً يدل على تطوّر معاني الألفاظ وقد قضى في جمع ذلك ، وبمعاونة بعض تلاميذه ، قرابة أربعين عاماً . واذ كان عضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة ، فقد حمل اليه بطاقاته ، بعد أن أبدى المجمع رغبة في إخراج معجمه . ولم يخرج المجمع إلا كرّاسة واحدة صغيرة منه .

ووضع الاستاذ ڤير معجمه العربي الألماني الذي قصره على الألفاظ العربية المستعملة في عصرنا ، في الصحف ومؤلّفات الكتاب الحديثة ، مهملا الألفاظ القاموسية أو الأدبية التي ماتت أو لا تستعمل اليوم . وقد قضى في جمعه وقتاً طويلا ، ونقل الى الانكليزية . وأصبح مرجعاً لكل مستشرق ، وعالم .



د – وكان من الطبيعي أن يهتم المستشرقون الألمان ، **بالدراسات المختلفة في ميادين الثقافة الاسلامية**. وهناك دراسات هامّة ما تزال مرجعاً ، رغم مضيّ زمن على تأليفها ، كدراسة رايسكه عن التاريخ الاسلامي وضرورة اعتباره جزءاً من التاريخ العالمي ، ودراسات «فوك» عن اللغة واللهجات والأساليب ، ودور الرواية والرواة في الاسلام ، وشعر القبائل العربية الشمالية في الجاهلية ، والنبي محمد انساناً ومؤسساً لدين ، وغيرها ، ودراسات «شاخت» في الفقه الاسلامي ، ودراسات تشنر عن الفتوّة في الاسلام ، ودراسات «شبولر» عن تاريخ الاسلام في ايران ، وجنوب روسيا ، وآسية الوسطى ، ودراسة «مايرهوف» عن طب العيون في الاسلام ، ودراسة «ڤلهاوزن» عن الأمبراطورية العربية وسقوطها ، ودراسات «متز» عن الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري ، ودراسات «هرزفلد» الآثارية عن سرّ من رأى ، وسورية . ودراسات باريت° عن االقرآن ، وبراونه W. Braune عن الشعر الجاهلي ، و «كاسكل W. Caskel» عن القبائل العربية ، ودراسات «اولمن» عن الطب في الاسلام ، وغير ذلك .

ومن المستشرقين الأحياء الذين يتابعون دراساتهم الاسلامية في مختلف ميادين الثقافة العربية ممن عرفناهم أو قرأنا آثارهم : الأساتذة والدكاترة : شبيتالر A. Spitaler ، وديتريش Dietrich ، وزلهايم R. Sellheim ، وغاتيه Gatje ، وبورجل Ch. Burgel وشال A. Schall ، واولمن M. Ulmann ، وغروتزفلد H. Grotzfeld ، وڤيلد S. Wild ، وديم W. Diem وفيشر W. Fischer ، ونوت Noth ، وناجل Nagel وانده W. Ende ، وڤوكه H. Vocke ، واندرس G. Endress ، وغرامليش R. Gramlich ، وشولر G. Schoeler ودايبر H. Daiber ، وسنجر H. R. Singer وبوسّه Busse ، وروتر G. Rotter ، وغاوبه H. Gaube وهالم Halm ، وكونيتش P. Kunitzch ، وياسترو

O. Jastrow ، وباخمن P. Bachmann، ورادكه B. Radtke وڤايبرت R. Weipert ، ودنز A. Denz ، وكورّل Ch. Correll .

وقد شاركت النساء الألمانيات في الاستشراق ، وشاركن في الدراسات المختلفة . فمنهن عميدة المستشرقات انا ماري شمل A. Schimmel ، والسيدات سوسنة ڤلزر Wilzer ، وريراك ياكوبي R. Jakobi وانجليكا نوورث A. Neuwirth ، وانجليكا هارتمن A. Hartmann ، ومشتيلد بانكه Mechthild Pantke ودوروتيا كراوولسكي D. Krawulsky ، وفيلنت Vielandt وغيرهن .

٤ — وننتهي الى الميزة الرابعة من مزايا الاستشراق الألماني وهي **المنهج العلمي الدقيق** ، الذي يعتبر عند بعضهم مثالا نادراً يُحتذى .

ولست أنكر أن في انتاج بعض هؤلاء المستشرقين نقصاً أو أغلاطاً ، ولكن من هو العالم الكامل ؟ يكفي أنهم عملوا بحب وحماسة بقدر ما أسعفتهم به المعرفة والمصادر . ولقد استدرك بعضهم على بعض ، باخلاص، وصحّح بعضهم أخطاء بعض ، وكانوا علماء حقاً يقبلون كلّ نقد وتصحيح .

ومن المقدّمين في باب النقد المجرّد فلايشر الذي صحّح طبعات نفح الطيب ، ومعجم البلدان ، والفهرست ، والكامل للمبرد ، وكذلك ريتر الذي نقد وصحّح عشرات وعشرات من الطبعات التي صدرت في اوروبة والبلاد العربية .

*

ولا بُدّ أن ننوّه أيضاً بالمجلات الاستشراقية التي أصدرها الألمان ، منها مجلة المستشرقين الألمان ZDMG التي صدرت عام ١٨٤٧ بعد تأسيس الجمعية بسنتين وما زالت تصدر . ومجلة الاسلام Der Islam التي أصدرها Becker عام ١٩١٠ ويُشرف على تحريرها الآن الاستاذ شبولر Spuler . ومجلة Islamica التي صدرت عام ١٩٢٤ وبقيت الى عام ١٩٣٨ ؛ ومجلة الدراسات السامية Zeitschrift für Semitistik التي صدرت عام ١٩٢٢ وتوقفت سنة ١٩٣٥ ؛ ومجلة Die Welt des Islam التي صدرت عام ١٩١٣ ، وتوقفت عام ١٩٤٢ وعادت سنة ١٩٥١ . ومجلة عالم الشرق Die Welt des Orients التي صدرت عام ١٩٤٧ وما تزال ، ومجلة اوريانس Oriens التي أصدرها العلامة ريتر عام ١٩٤٨ ، ويرأس تحريرها الآن الاستاذ زلهايم . ويمكن أن نلحق بهذه المجلات أيضاً مجلة «فكر وفن» ، التي صدرت عام ١٩٦٣ .

وفي هذه المجلات مجموعة جيّدة من المقالات والدراسات والنصوص التي كتبها ونشرها الألمان يحتاج اليها كل عالم وباحث .

*

وثمة ناحية جديدة زاد اهتمام الاستشراق الألماني بها بعد الحرب العالمية الثانية ، هي تتبع أحوال العالم العربي المعاصرة ودراستها ، من النواحي الفكرية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والاتجاهات الجديدة والتيّارات الفعّالة ، ودراسة اللهجات العاميّة . وقد كان هذا طبيعياً نظراً لمكانة العالم العربي والاسلامي في زماننا ، وازدياد شأنه . فظهر مستشرقون جدد اهتموا بمثل هذه الأبحاث . وكان اهتمام الأجيال الماضية من المستشرقين بمثل هذه الأبحاث أقلّ . وكان من الذين اهتموا بها برجستراسر الذي كتب بحثاً عن «اللهجة الدمشقية بنصوصها النثرية» نشر عام ١٩٢٤ ، وهارتمن الذي كتب عن «اللورد كرومر وعباس حلمي ،

والطهطاوي» ، وعن «الصحافة العربيــة في الاراضي الاسلامية» ، و «دليل لهجة سوق بيروت» ، و «أغاني شعبية سورية» و «أغاني من صحراء ليبيا» . وكبفماير الذي كتب عن الادباء والشعراء المعاصرين في مصـر والشام في الثلاثينات .

*

وعلى الرغم من العوامل الماديــة الكثيرة التي تثبّط همــم الشباب الألمــان للتخصص في ميــدان الأستشراق ، ورغم عدم وجود مناصب في الجامعات لجميع المستشرقين الشباب ، فإنّ الاستشراق الألماني اليوم ماضٍ في سيره . وتكاد معظم الجامعات الألمانية تحتوي اليــوم على قسـم لتدريس اللغــة العربيــة والاسلاميّات ، وأحوال العالم العربي المعاصر . وقد اختصّت كل جامعــة بنوع من الدراســة ، حسب الاستاذ المشرف على القسم . نذكر من هذه الجامعات : جامعــة برلين ، وبوخــوم ، وبــون ، وارلنجــن ، وفرانكفورت ، وفرايبورغ ، وغيسن ، وغوتنجــن ، وهامبورغ ، وهايدلبرج ، وكيل، وكولن ، وماربورغ، ومــايز ، وميونيخ ، ومــونستر ، وسآربروكن ، وتوبنجن ، ورزبورغ .

والى جانب هذه المراكز ، أنشأت جمعية المستشرقين الألمــان معهداً في بيروت للدراسات الشرقية . وكان الاستاذ رويمر هو الذي أنشأه ، في أوائــل الستينات وتعاقب على ادارته رويمر ، وشتيبات ، و ويلد ، وبخمن. وفي هذا المعهد يقضي بعض المستشرقين الألمان الشباب سنة أو أكثر لمتابعة دراساتهم الاستشراقية والتعرّف على أحوال العالم العربي .

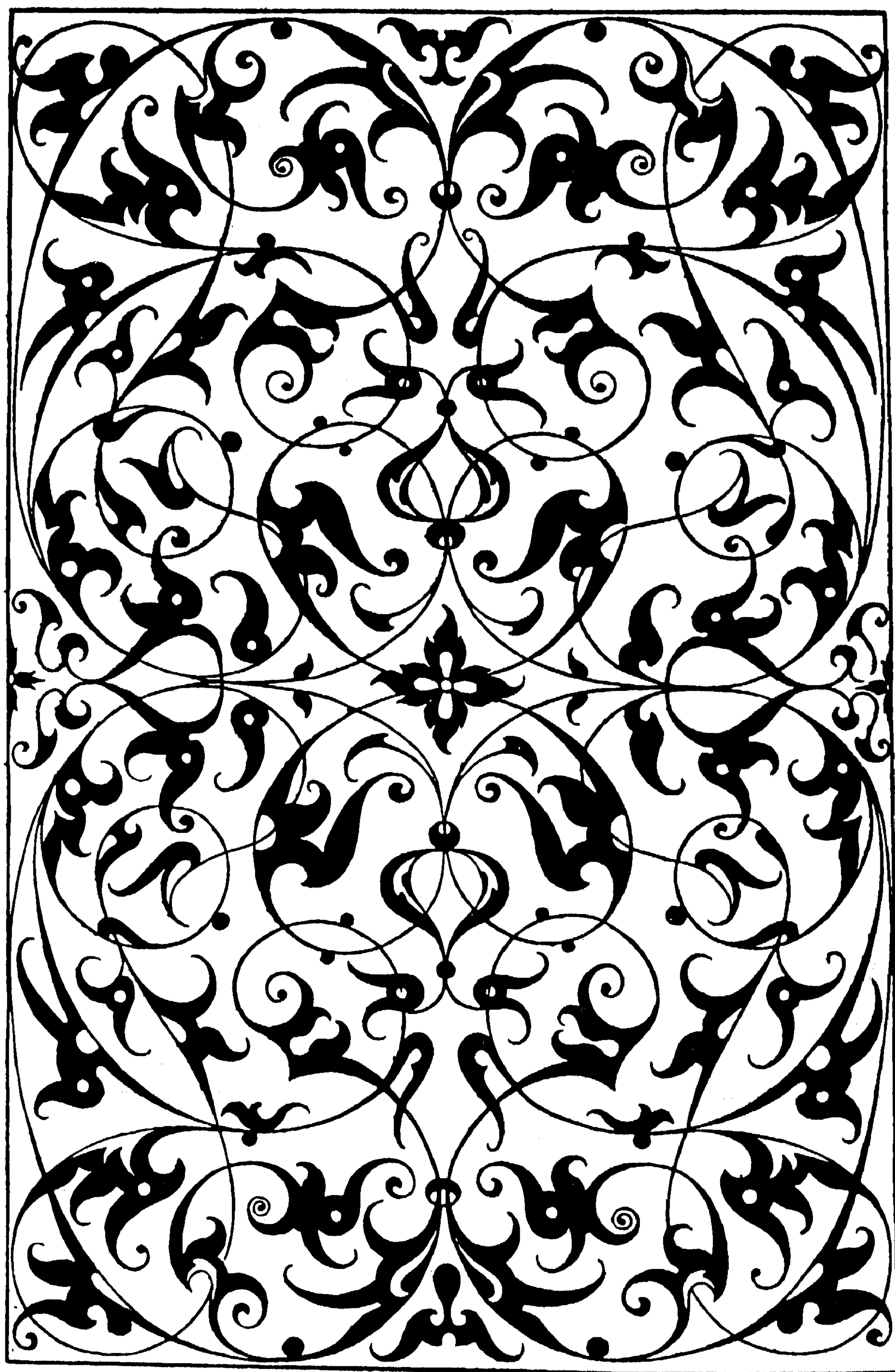
*

وقبل أن ننهي استعراضنا هذا لا بدّ أن نلحّ على أمرين هامين :

الأول : زيادة التعاون العلمي بين المستشرقين الألمان وعلماء العرب . فمثل هذا التعاون يفيد الطرفين، ويعطي ثمــاراً علمية جيّدة .

الثاني : العمــل على نقــل أحسن الدراسات الاستشراقية الألمانية ، في الماضي والحاضر الى اللغــة العربية ، نظراً لقلّة من يعرف الألمانية بين علماء العرب. ويمكن أن يتم هذا العمل بالتعاون بين الألمان والعرب معاً . ولا تخفى الفائدة التي تحققها هذه الترجمات الى اللغة العربية . فالاستشراق الألماني مقصّر في التعريف بنفسه . والمثقفون العرب بحاجة الى معرفة ما توصل اليه المستشرقون في دراساتهم في مختلف ميادين الثقافــة الاسلامية .

بيروت **صلاح الدين المنجد**



يوهان يعقوب رايسكه

(١٧١٦ - ١٧٧٤)

بقلم : الأستاذ يوهان فوك

قام الاستاذ الشهير يوهان فيوك J. Fück فى سنة ١٩٤٣ بوضع مؤلف ذى اهمية فائقة عن تأريخ الاستشراق والمستشرقين فى اوروبا من اوائل دراسات اللغة العربية الى القرن التاسع عشر ؛ ثم اتم هذه الرسالة فيما بعد ونشرها فى كتاب عنوانه :
Die arabischen Studien in Europa, Leipzig 1955
نود ان نورد هنا باباً من هذا الكتاب عن اول من جعل علم اللغة العربية علماً ودرساً مستقلا ، وهو يوهان يعقوب رايسكه J. J. Reiske الالمانى (١٧١٦ الى ١٧٧٤) .

كان اول من اعتنى باللغة العربية علماء الكنيسة المسيحية الذين بذلوا جهدهم فى درس لغة المسلمين غير ان هدفهم لم يكن هدفاً علميا بل انهم ارادوا الرد على الاسلام على اساس تراجم لاتينية للقرآن و«اهداء» المسلمين بواسطة تراجم عربية للأنجيل والكتب الاخرى ، اى ان غرضهم كان بعيدا عن تحقيق عادل ودراسة علمية . ولم يتغير هذا الوضع فى بلاد الغرب كلها حتى القرن السادس عشر تقريبا عندما اشتدت الرغبة لدى اهل الغرب فى ارسال المبشرين الى البلاد الإسلامية بعد ان فتح الاتراك مدينة استانبول سنة ١٤٥٣ . ثم اخذ بعض اهل العلم يؤمون الشرق ليحصلوا على مخطوطات عربية من استانبول ودمشق وغيرها من مدن الشرق ولتعلم اللغة العربية فى هذه المنطقة . وكان اول هؤلاء المستشرقين ويلهلم پوستل W. Postel الفرنسى الاصل الذى ارسله ملك فرنسا ، فرانس الاول ، سنة ١٥٣٤ الى مصر ثم الى استانبول حيث تعلم العربية والتركية والعبرانية وقليلا من اللغة الحبشية . ولما رجع پوستل الى وطنه عينه الملك استاذا للغات الشرقية فى جامعة باريس سنة ١٥٣٧ فألف فى تلك السنين كتابا فى النحو العربى اشار فيه الى اهمية اللغة العربية وادبها ولكن امله فى درس هذه اللغة كان فتح باب جديد للمبشرين النصارى فى بلاد الاسلام . ونجد فى كتابه هذا اخطاء بلا عدد ونستدل منه على ان معرفته بالعربية كانت ضعيفة غير كافية مع نشره فى اخر كتابه ترجمة لاتينية لسورة الفاتحة .
اما المخطوطات التى كان پوستل قد اتى بها الى اوروبا فقد باعها الى مكتبة جامعة هايدلبرج عندما وقع فى ضيق مالى وجرى عليه ما جرى من الحوادث الغريبة ؛ واصبحت هذه المخطوطات اساساً مهماً بنيت عليه دراسة اللغات الشرقية فى المانيا فى مهدها . فقام بعض اللاهوتيين بدراسة تراجم الانجيل العربية التى وجدت فى المخطوطات المذكورة ، وكان يعقوب كريستمان Christmann (١٥٥٤ الى ١٦١٣) الذى تعلم اللغة العربية من كتاب النحو لپوستل اول من عرض على الامير يوهان قاسيمير تشكيل كرسى خاص للدراسات الشرقية وبالخاصة العربية فى جامعة هايدلبرج ، وكان ذلك فى عام ١٥٩٠ غير ان هذا الاقتراح لم ينفذ قبل سنة ١٦٠٩ .
مع ان كريستمان ومن تبعه فى المانيا فى ذلك الزمان جعل من دراسته للعربية وسيلة لنشر النصرانية فى الشرق فقد قام فى فرنسا عالم بمنهاج اخر ، وهو يوسف سكاليجر Scaliger (١٥٤٠ الى ١٦٠٩) ، احد تلامذة پوستل . وكان هذا اول من الم بعلم عميق عن مختلف مناهج ضبط التواريخ فى الشرق والغرب وقام بجمع اخبار التقاويم لدى الملل والنحل كما سبقه فى ذلك العالم المتبحر البيرونى فى «كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية» من نحو ستة قرون مضت ، وقارن سكاليجر بين هذه التقاويم حتى انه الم بخصوصية التاريخ الهجرى وكان هذا غير معروف عند اهل الغرب ، ووقف ايضا على التأريخ الجلالى الذى ابدعه الرياضيون فى دولة السلطان ملكشاه السلجوقى (المتوفى ١٠٧٢) . ومن هنا تبدأ الدراسة الحقيقية لتأريخ الاسلام .

وفى هذا العصر ظهرت لاول مرة الحروف العربية فى الطبع فى اوروبا مع كونها غير حسنة الشكل . وازدادت معرفة العلماء بالطب العربى وارتباطهم بهذا العلم الذى كان مشهورا فى الغرب منذ القرون الوسطى على يد التراجم اللاتينية .
اما المملكة التى لعبت دوراً كبيراً فى تطور الدراسة الشرقية فهى هولاندا ، وكان تومس اربنيوس Erpenius (١٥٨٤ الى ١٦٢٤) اول من قام بنشر متن مأخوذ من الادب العربى فى اوروبا عندما طبع فى سنة ١٦١٥ «كتاب الامثال» للميدانى ؛ والف ايضا كتاب النحو العربى الذى كان يستعمله كل من اراد درس العربية فى الغرب نحو قرنين اى الى ان نشر سيلفستر دى ساسى S. de Sacy كتابه المشهور فى النحو العربى فى عام ١٨١٠ . واعتنى اربنيوس ايضا بطبع سورة يوسف . إن ما ابتدأ به هذا العالم اتمه خليفته فى جامعة لايدن ، يعقوب جوليوس Golius (١٥٩٦ الى ١٦٦٧) الذى نشر عدداً من الآثار العربية المشهورة ، منها «لامية العجم» للطغرائى و«عجائب المقدور» لابن عربشاه ، وتوج آثاره بتأليف قاموس عربى — لاتينى . زد على هذا انه اشترى فى اثناء سياحته فى سوريا وتركيا نحو ٢٥٠ مخطوطة عربية مازالت محفوظة فى مكتبة لايدن الى الآن ، واضاف اليها فيما بعد وارنر Warner ، احد تلامذة جوليوس ، ما يقارب من الف مخطوطة ذات قيمة ، فاصبحت مدينة لايدن مركزاً لتحصيل العربية فى اوروبا . ومما يدعو للاسف اننا نجد بعد ذلك فى الجامعة نفسها استاذا آخر اى البرشت شولتنس Schultens (١٦٨٦ الى ١٧٥٠) الذى يعتبر مثالا مثيلا لهؤلاء العلماء الذين لم يدرسوا اللغة العربية لقيمتها الادبية اوللتعمق فى تاريخ الاسلام اولدرس تطور الادب عند المسلمين بل لاستعمالها وسيلة لدرس العهد القديم واللغة العبرانية .
وعاش فى ايام هذا المستشرق الفلمنكى عالم المانى اسمه يوهان يعقوب رايسكه يستحق بان يدعى اول مستشرق حقيقى فى عهد غير ملائم للدراسات العربية ومن المدهش والجدير بالذكر انه قام بهذه الدراسة وادام عليها على الرغم من المصاعب التى اصابته فى ابان حياته .

ولد رايسكه فى عائلة دباغ فقير فى ٢٥ كانون الاول سنة ١٧١٦ فى قرية تسوربج Zörbig فى مملكة ساكسونيا ، وحصل على تربيته الثانوية فى الميتم المشهور فى مدينة هاله (وكان هذا الميتم الذى أسس سنة ١٦٩٥ مدرسة ذات شهرة فى ذلك العهد) وبقى فيه من سنة ١٧٢٨ الى سنة ١٧٣٢ ، واخذه «شوق لايوصف وغير قابل القمع لتعلم اللغة العربية» لم يدر الشاب ما سببه ، وعندما ابتدأ بدراسته فى جامعة لايبزج عام ١٧٣٣ اختار مواضيع تحصيله مستبداً برأيه وشرع فى دراسة اللغة العربية بنشاط كبير وتوفق فى درس النحو العربى دون الأخذ بمعونة اى معلم ما مستندا على موهبته الخاصة لتعلم اللغات فقط . وسعى ان يشترى كل ما وجد اذ ذاك فى اوروبا من الكتب العربية المطبوعة رغم فقره المدقع وكونه فى حاجة الى ضروريات الحياة لان والديه الفقيرين لم يستطيعا ان يعطياه اكثر من ٢٠٠ تالر فى مدة خمس سنوات (وكان التالر يساوى الدينار او اقل منه) . وفى سنة ١٧٣٥ بدا له ان يتجرأ على مطالعة «عجائب المقدور» لابن عربشاه ، وهذا كتاب مسجع صعب الاسلوب ، ولعلمه بنقائص الكتاب المنشور على يد جوليوس واغلاطه سافر فى شتاء ذلك العام الى مدينة دريسدن ، وكان معلوماً لديه ان احد مأمورى المكتبة الملكية هناك يملك نسخة مصححة مستندة على نسختى هذا المؤلف المحفوظتين فى مكتبة باريس ، فاستنسخها رايسكه باذن صاحبها . وقد اكمل الشاب مطالعة كل ما كان موجودا من الكتب العربية المطبوعة فى سنة ١٧٣٦ — اى لما اتم من عمره عشرين سنة ! — وفى هذه السنة ترجم الى اللاتينية رسالة هرمس المثلث بالحكمة التى كان مخطوطها محفوظا فى مكتبة لايبزج ، فقال المستشرق الكبير هـ . ل . فلايشير Fleischer عن هذه الترجمة سنة ١٨٧٠ ، اكثر من قرن بعد وفاة المؤلف : «انه لم يعد يوجد الآن شاب ابن عشرين سنة يستطيع القيام بترجمة احسن منها حتى ولوكان حاصلا على افضل التعليم ومتلقنا اصح الوسائل» وعبر كذلك عن رغبة واحدة يقول : «ليتنى اجتنبت غلطات رايسكه ، ولا ارغب فى فضل اخر» .
بعد ذلك كان على رايسكه ان يحصل على مخطوطات عربية فبعث اليه المؤلف الشهير لكتاب Biblia Hebraica وهو يوهان كريستوف ڤولف Wolf فى مدينة هامبورج (من ١٦٨٣ الى ١٧٣٩) بنسخة من مقامات الحريرى من مجموعته الخاصة ، ونشر رايسكه المقامة السادسة والعشرين بمتنها العربى وترجمتها الى اللاتينية استناداً الى هذه المخطوطة وإن سمى هذا التأليف فيما بعد eine elende Schülerprobe وسريعا ما تحسنت ترجماته وتفوق الاولية. واقرضه ڤولف المذكور مخطوطات اخرى لكى يتصرف بها فكان رايسكه ممنونا له لفضله هذا طول عمره. وكان كلما ازداد تعمقاً فى الادب العربى ازداد شغفا به ، واصبحت

امنيته الكبرى ان يكرس حياته لهذا العلم ويبذل كل وقته لهذا الهدف . ولم يكن ذلك ممكنا الا بدخوله مكتبة لايدن المشهورة وخزينة المخطوطات المحفوظة بها المساة «بوقف وارنر» . عزم رايسكه على السفر الى هولاندا رغم المشكلات العظيمة ، فرحل فى شهر مايو سنة ١٧٣٨ متوجها اولا الى هامبورج حيث قابله المؤلف ڤولف المذكور بكل لطف وقدمه ايضا لرايماروس Reimarus ، عالم واسع الصيت . ثم تابع رايسكه سفره الى مدينة امستردام وزار هناك الدكتور دورفيل d'Orville ، احد اساتذة اللغات القديمة وكان الاستاذ ڤولف قد كتب له خطاب توصية ، فود الاستاذ دورفيل ان يتخذ رايسكه معاوناً له ، ولكن الشاب الذى كان شغفا بمطالعة المخطوطات العربية لم يرد قبول الارتباط بوظيفة ما وردّ هذا العرض مع انه لوكان قبله لحسنت وضيعته المالية تحسنا ملحوظا ؛ ولكنه رفض القبول حتما كيلا يضيع الوقت اللازم لمطالعة الكتب الشرقية . ومع ذلك فقد قدم الاستاذ دورفيل له خدمات جميلة طيلة اقامته فى هولاندا وكان يوكله بقراءة التصحيحات لبعض كتبه وما يشبه ذلك من الاعمال الادبية والعلمية ومن التراجم كما كان يقوم بتسديد بعض مصاريفه فى اواخر اقامته بلايدن .

وصل رايسكه مدينة لايدن فى ٦ حزيران ١٧٣٨ وقام فى الحال بزيارة المستشرق شولتنس فعرف منه انه لا توجد هناك منح دراسية للطلبة الاجانب وان عطلة الصيف ستبدأ عن قريب . وقد زاد من غمه انه لم يسمح لـه بدخول المكتبة لعجزه عن ايفاء الرسوم . فصار مصححا عند احد الكتبيين ، وهو يوهان لوزاك ، الذى اعطاه بدلا لخدمته غرفة وطعاما فقط ، وكان يحصل القليل من المال باعطاء دروس خصوصية باللغة اليونانية والمكالمة باللاتينية للطلاب الهولانديين . وعندما تابع شولتنس التدريس بعد التعطيل الصيفى اصبح رايسكه تلميذا له وحصل بمساعدته على الاذن بمطالعة المخطوطات التى طالما اشتاق لرؤيتها . وكانت رغبته الاولى التعمق فى آثار المؤرخين وكتب الجغرافيا ، ولكن شولتنس اوصاه بدرس الشعر العربى . فنسخ الشاب سنة ١٧٣٩ ديوان جرير ، ولامية العرب للشنفرى ، وديوان الطهمان ، وفى السنة التالية الحماسة للبحترى ، واما معظم اوقاته فصرفها فى مطالعة اشعار الجاهلية الاكثر شهرة ، اى المعلقات ، ودرسها فى مخطوطين «وارنر ٢٩٢ و وارنر ٦٢٨» مع شرح التبريزى وشرح النحاس ؛ واختار اطولها ، وهى معلقة طرفة ، للتهذيب والتصحيح ، واتم هذا العمل او القسم الاكبر منه ، عام ١٧٤٠ ، ولكن الطباعة لم تتم الا بعد سنتين اى فى عام ١٧٤٢ ؛ ويحتوى كتابه هذا على المتن العربى بلا حركات مع ترجمته اللاتينية وحواش له ، وشرح النحاس ؛ وبعد ان يعلق المؤلف على الترجمة والحواشى بعض الملاحظات يظهر كيف تطورت افكار الشاعر ويوضح موضوعات القصيدة واحدا بواحد كما يفسر ايضا الاشكال الشعرية وطرز البلاغة بمعونة كثير من الابيات والعبارات المأخوذة عن المعلقات الاخرى وعن ديوان الهذلية والحماستين واشعار المتنبى وابى العلاء المعرى وسائر الشعراء ؛ وتعالج المقدمة انواع مخطوطات المعلقات وحواشيها وشروحها والاسماء التى تعرف بها ، ويقدم للقراء محتويات كل واحدة منها ويزيد المعلومات عن مجرى حياة مؤلفيها ، ويبحث فيما بعد حياة طرفة بالتفصيل كما انه يضيف ايضا جدولا للانساب تبدو منه علاقة القرابة بين طرفة وسائر الشعراء فى جزيرة العرب ويمكننا بواسطة ضبط التواريخ التى اقترحها رايسكه فى مقدمة تاليفه هذا . وكان رايسكه بهذا العمل اول من سلك الطريق الذى يسلك الى الآن فى الغرب عند شرح آثار الشعراء العرب ، ومن المسلّم به ان هذا الطريق هو احسن طريق يهدى بالشارح الى غايته العلمية .

ومع ذلك فان المنهاج الجديد كان بعيداً جداً عن الطرق التى بحث فيها الاستاذ شولتنس عن اصول اللغات السامية فى غمائم خياله ، ولم يقم رايسكه فى تأليفه بذكر مثل هذه المخيلات الغير معقولة : ان من اقتنع ببراهين رايسكه على ان المعلقات من شعر القرن السادس الميلادى فهو يعرف بان لا ثقة بما زعمه شولتنس عن الشعر العربى القديم العهد . اما شولتنس فلم يعرف كيف يفهم كتاباً فى العربية موضوعه لا علاقة له بتفسير التوراة ولا بنظريات اللاهوتيين .

ووقعت لذلك ولسبب اخر مناقشة شديدة بين هذين الرجلين المختلفى الاخلاق غاية الاختلاف . اما رايسكه فلم يبال بما قاله الكثيرون وثابر على سلك الطريق الذى عرفه صحيحا وطيدا ، ولم يكن له علاقة ما بعلم اللاهوت ، ولم يكترث بالسؤال هل لعلم التوراة ودرس اللغة العبرية اى فائدة من جراء درس العربية ام لا . ولم يكن باستطاعة الاستاذ شولتنس اقناع تلميذه هذا بان يتعلم اللغات السامية الاخرى غير العربية لان رايسكه كان قد ادرك ان هذا لن يجلب اثمارا مرضية لدرس علم اللغة العربية وادبها ، وعرف ان درس مشتقات الكلمات تلاعب على اساس جذور فرضية وان السعى لمعرفة المعنى الابتدائى للكلمات المشتركة فى اللغات السامية ما هو الا خرافات باطلة .

und mein damaliger Hauswirth, der Kriegsrath Lange, mir verschafften, die habe ich nur in den letzten Jahren meines hiesigen Studentenlebens genossen. Ich hätte sie noch länger genießen können; allein um das Jahr 1738 fuhr mir die Reise nach Holland in den Kopf, und ich war davon nicht abzubringen. Keine Vorstellungen der Gefährlichkeit einer Reise in ein fernes Land, ohne Geld, fielen mir bey, oder hatten auf meine, damals noch kindisch hitzige und der Welt unkundige Seele, einige Gewalt.

Ich sollte, ich mußte Leyden sehen. Darüber ließ ich alle in Händen habende Vortheile fahren. Meiner Reise nach Leyden, und dem Durste, die dortigen arabischen Manuscripte zu durchwühlen, opferte ich alle Aussichten meines künftigen Glückes auf. Das ist mir übel bekommen. Theuer, gar theuer, habe ich meine Thorheit büßen müssen! Ich bin zum Märtyrer der arabischen Literatur geworden! Ach, wenn doch mein damaliger brennender Durst nach dieser Literatur, der mich nur unglücklich gemacht hat, weil er zu frühzeitig kam, in einem Jahrhunderte, das ihn nicht brauchen, mithin auch nicht schätzen, und nicht belohnen, noch aufmuntern konnte, in eine Seele führe, die etwa einmal glücklichere Zeiten beleben möchte! wenn dergleichen Zeiten etwa einmal (wiewohl das nicht zu hoffen steht,) einbrechen sollten, da man die arabische Literatur höher achten, und fleißiger treiben wird, als man itzt thut. Ein Geist, mit einer solchen

صحيفة عن مذكرات الاستاذ رايسكه كتب فيها «واصبحت شهيد الادب العربي ...»

THARAPHÆ
MOALLAKAH
cum Scholiis
N A H A S.
e MSS. Leidensibus
Arabice edidit, vertit, illustravit
JOANN. JACOB. REISKE.



LUGDUNI BATAVORUM,
Apud JOANNEM LUZAC
MDCCXLII.

عنوان كتاب رايسكه عن معلقة طرافة.

حتى انه اعلن «ان اراد المرء ان يساعد على رواج دراسة العربية فعليه انه لا يدرسها كالاهوتي» . وثار ضميره كفقيه فى اللغة على طريقة شولتنس الهوائية فى معالجة النصوص العربية وكيف كان يتفادى الصعوبات إما باهمال الكلمات التى لم يفهم معناها دون ذكر ذلك اوبتغييرها تعسفا . لقد كان على علم بأنه لا يكفى لاصدار نشرة صحيحة كون المخطوط قائما على اسس سليمة فحسب بل القدرة على النقد ومعرفة اخطاء النقل وتكهن المعنى الذى يقصده المؤلف من القرينة واصلاح مواضع فساد المخطوطة بتصحيحات تناسب اصطلاحات المؤلف .

كلفته ادارة المكتبة فى لايدن بتبويب وتنسيق المخطوطات العربية ، ورحب رايسكه بهذه الفرصة التى امكنته من تدقيقها كلها فنسخ ما علق بها من الآثار ، مثلا المعارف لابن قتيبة ، والتأريخ والجغرافيا لابى الفداء ، وتأريخ حمزة الاصفهانى ومقتطفات من طبقات الاطباء لابن ابى اصيبعة وغيره . ولكنه لم يمكنه الحصول على درجة الدكتوراه فى كلية الاداب فى جامعة لايدن لان شولتنس ابى ذلك عليه إذ انه كان يريد ان يعين ابنه خليفة له على كرسى الدراسات الشرقية ، وود لو رايسكه ترك دراسة العربية تماما . لذلك افهم العالم الالمانى ان وضعيته بائسة بلا امل واقنعه بان يدرس قليلا من الطب ، فدرس رايسكه الطب لمدة بعض اشهر وحصل على درجة دكتور طب فى شهر مايو سنة ١٧٤٦ استناداً الى ما كان قد جمع من معلومات طبية من المؤلفات العربية مع ان اللاهوتيين فى لايدن اقاموا مشكلات جديدة مدعين انه كان مادياً لما عرضه من الابحاث العلمية فى امتحانه . سافر رايسكه فى ١٠ حزيران ١٧٤٦ من هولاندا ووصل مدينة لايبزج فى اوائل شهر تموز . ولما لم يرغب فى اجراء الطب فعلا وجب عليه ان يكسب يوميته بتصحيحات الكتب وباعطاء دروس خصوصية وبتراجم وما شابه ذلك من الاشغال غير المجدية . ولكن المهم انه بقى لديه وقت لمتابعة العربية ، والف فى شهر آب ١٧٤٧ كتاباً لاتينية عنوانه :

Prodidagmata ad Hagji Chalifae librum memorialem rerum a Muhammedanis gestarum exhibentia introductionem generalem in historiam sic dictam orientalem

36 THARAPHÆ

94 فلو كنت وغلا في الرجال لضرني عداوة ذي الاصحاب والمتوحد

95 ولكن نفي عني الرجال جراتي عليهم واقدامي وصدقي ومحتدي

96 لعمرك ما امري علي بغمة نهاري ولا ليلي علي بسرمد

97 ويوم حبست النفس عند عراكها حفاظا على عوراتها والتهدد

98 على موطن يخشى الفتى عنده الردى متى تعترك فيه الفرايص ترعد

99 واصفر مضبوح نظرت حواره على النار واستودعته كف مجمد

100 ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزود

101 لعمرك ما الايام الا معارة فما استطعت من معروفها فتزود



94 الوغل الضعيف الخامل الذي لا ذكر له والواغل الذي يدخل على القوم من غير اذنهم والوغل الذي يحضر الشراب ولم يدع عليه والوغل الشراب ايضا

95 ويروي ولكن نفي الاعادي والمحتد الاصل

96 الغمر والغُمر واحد الا انهم لا يستعملون بالقسم الا الفتح لكثرة استعمالهم اياه والغمة الامر المبهم لا يهتدى له والسرمد الطويل

97 اصل العراك الازدحام اي صبرت نفسي عند ازدحام القوم في الحروب والخصومات وعوراتها اي مخافة العدو.

FINIS.

MOALLAKAH. 37

Nam si obscurus essem inter illustres, profecto noceret mihi odium & amicis stipati, & solitarii.

95 Sed homines a me propulsat mea in ipsos audacia, & aggressio, & strenuitas, & prosapia.

Res meæ, ita valeas, neque interdiu me sollicitum tenent, neque nox mihi mea nimis longa.

Per diem, quo firmavi pedem in constipata acie & inter minas, loca mihi patentia præmuniens,

In campo, ubi heros vereatur exitium; ubi, cum te in aciem inseras, scapulæ contremiscant.

Perque *aleatoriam sagittam* flavam, fumosam, cujus vidi pullum igni adstantem, & quam ingessi dextræ avari:

100 Prodent sane dies tibi quod ignorabas, & adferet tibi nuncios is, quem nec commeatu instruxeras.

Dies, hercle, non sunt nisi depositum; quod itaque ab iis beneficii potes obtinere, capta.



العدو كقوله تعالى بيوتنا عورة اي حذا العدو ويروي روعاتها اي فزعاتها

98 الموطن مستقر الحرب والردي الهلاك وتعترك اي تزدحم والفريصة اللحم من اخر الكتف عند الجنب وهي اول ما ترعد

99 يعني بالاصفر السهم والمضبوح الذي غيرته النار وحواره رجوعه اذا جعل علي النار المجمد الذي يضرب بالسهام

100 اي ستظهر لك الايام ما لم تكن تعرفه ويأتيك بالاخبار من لا تامره ان يأتيك بها ولا تزوده

FINIS.

الصحيفتان الاخيرتان لكتاب رايسكه عن معلقة طرافة، مع متنها وترجمتها اللاتينية.

وهو رسالة فى التاريخ الاسلامى، نشرها تلميذ له، يدعى ي. ب. كولر Köhler سنة ١٧٦٦ فى كتابه عن ابى الفداء فى شكل ملحق (ص ٢١٥ — ٢٤٠) وفيه يرفض رايسكه فى مستهل مقدمته استعمال التعبير «شرقى» لانه غير مضبوط، ويستعمل بدلا منه تعبير «محمدى» او «مسلم» لان هذا العلم يبحث عن تاريخ المسلمين لا فى الشرق فحسب بل ايضا فى افريقيا واوروبا؛ ويريد المؤلف، كما قال، معالجة مادته فى ثلاثة ابواب: اولها البحث عن الملل والسلالات، ثانيها عن البلدان التى وقعت فيها هذه الحوادث التأريخية، وثالثها عن المصادر التى تخبرنا عن هذه الوقائع. ويلى هذا التمهيد الصريح بيان واضح حسن النظام.

الباب الاول (ص ٢١٨ — ٢٢١) يعدد العناصر الخمسة التى لعبت دوراً فى تاريخ الاسلام، وهم العرب، والايرانيون، والاتراك والتراكمة، والمغول والتتر، والبربر، ويبين موجزاً السلالات التى اخرجتها كل أمة، ويشير فى ملحق للباب الاول مرة اخرى الى اماكن هؤلاء السلالات وكيف انتشرت من الاندلس الى الشرق الاوسط. وفى الباب الثانى يذكر المؤلف استناداً الى آثار ابى الفداء، الممالك الاسلامية ومدنها المهمة ويبحث ايضا بوساطة مقدمة العالم العربى نفسه عن البحور والأنهار والجبال وينجز الباب مشيراً الى ما يجب ان يلم به من المعلومات على مدرسى الجغرافيا التأريخية. ويحتوى الباب الثالث — وموضوعه المنابع التأريخية — على فهارس الكتب النقدية مبتدئاً بتأليف ديربلو d'Herbelot المسمى ب Bibliothèque Orientale (المكتبة الشرقية)، وهى قاموس شامل على كل ما كان معروفا فى اوائل القرن الثامن عشر عن المواضيع الشرقية)، ويقدر رايسكه هذا التأليف غاية التقدير؛ ويذكر فيها بعد المطبوعات المعدودة التى يمكن ذكرها بهذا الخصوص وهى: E. Pocock

وتأليفات جرجيس المكين (المتوفى ١٢٧٣)، وابى العباس احمد الفرغانى المنجم المشهور فى اوروبا منذ القرون الوسطى، والاقسام المطبوعة من تاريخ ابى الفداء (وليس فى رأيه ابن عربشاه بمؤرخ حقيقى)، وما يسمى الجغرفى النوبى Geographus nubiensis؛ ثم يشير بالايجاز الى كتب الرحلة وما ألف فى اوروبا من الكتب حول التأريخ الاسلامى (مثلا قانتمر، Pétis de la

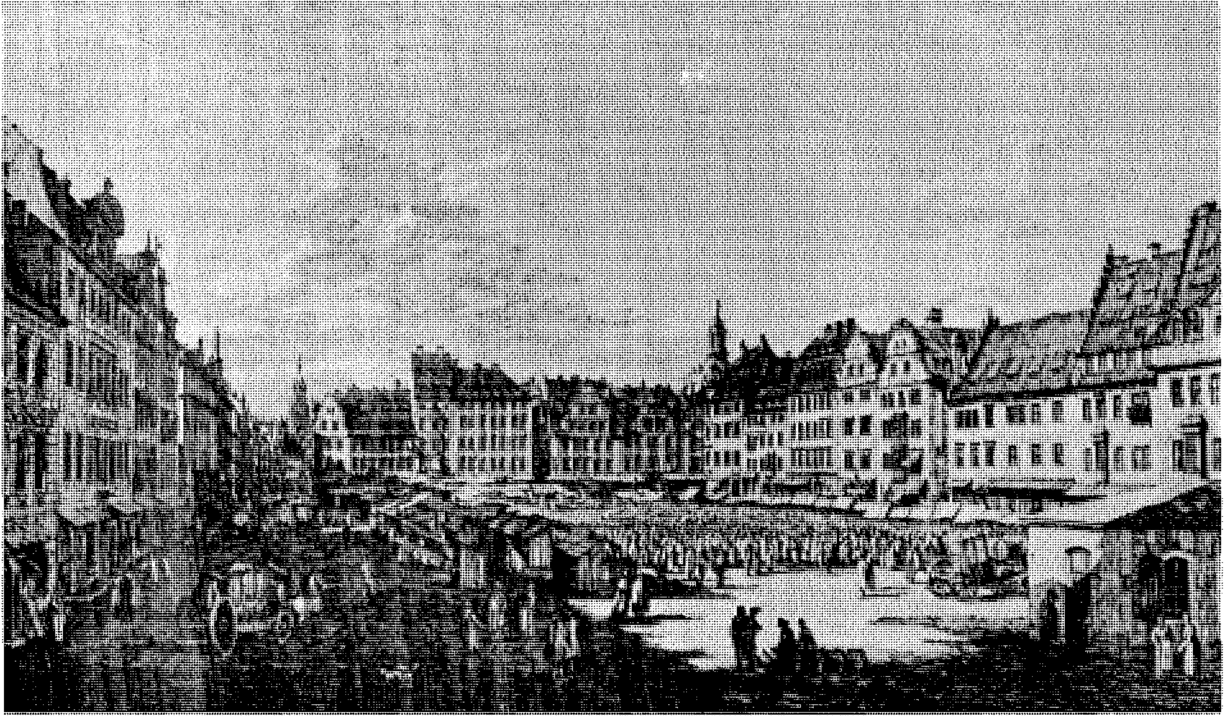
Croix وغيرهما) ، وبعد ذلك يبحث عن المصادر المخطوطة ، اى عن تأليفات ابى الفداء باجمعها ، عن ابن الشحنة ، حمزة الاصفهانى ، كتاب المعارف لابن قتيبة ، كتاب الاشتقاق لابن دريد ، كتاب الامثال للميدانى الذى قدره غاية التقدير. ثم يضيف بعض ملاحظاته فى فهرست المخطوطات الشرقية فى لايدن الذى اعتنى باحضاره هايمان Heymann ، ويتم مقالته مشيراً الى مجموعات المخطوطات الموجودة فى اوكسفورد ، باريس وفلورانسا التى كانت اقل اهمية من مجموعة مكتبة لايدن .

بعد ان عالج رايسكه موضوعه فى هذه الابواب الثلاثة ختم كتابه — على عادة عصره — بمديح يستحق المطالعة حتى فى ايامنا هذه ، يمدح فيه التأريخ الاسلامى ويوصى مواطنيه بتعدد الاسباب على درس هذا التأريخ الذى كان يهمل كثيراً فى اوروبا . ومع ان هذه التصريحات كانت مخاطبة لطبقة القراء غير الاختصاصيين فى هذا الحيز والذين لا علاقة خاصة لهم بتفرعات هذا العلم فقد اراد المؤلف استرعاء اهتمامهم لهذا الموضوع الجديد ، وبالرغم عن ذلك فان هذا المديح دليل صريح لادراك تصورات رايسكه ونظرياته العامة وإن نقص احيانا ارتباط منطقى ؛ تدل هذه السطور على ان العالم رأى تأريخ الشرق كقسم لتأريخ العالم العام ، وانه ظن ان درس هذا التأريخ كان واجبا على الانسان لاجل التواتر التأريخى ، كما أعتبر ايضا درس تاريخ اليونان والرومانيين القديمين واجبا على كل رجل مثقف وقد اجمع العلماء فى العالم على ذلك اجماعاً كاملا ولا ينكر احد اهمية التاريخ القديم . لقد تحقق لرايسكه من وصف ايران فى اثناء القرون الوسطى بقلم ابى الفداء انه كانت هناك عين الامم والاقاليم ، وعين العادات وانواع الحكومة التى تحققت له من مطالعته تأريخ هرودوت اليونانى ووصفه لايران القديمة . لذلك يطلب العالم من المؤرخ ان يعقّب ما حدث فى مدى العصور لتلك الممالك والولايات فى الشرق وفى افريقيا التى فتحها اليونان اوكانت من توابع الامبراطورية الرومانية ، ويراعى ايضا العلاقات المتبادلة والحوادث المشتركة بين الغرب والعالم الاسلامى التى كانت موجودة منذ ايام شارلمان الامبراطور الالمانى فى ايام هارون الرشيد ومنذ تأسيس دولة الروم ، من عهد النورمان فى صيقيليا والصليبيين الى فتوحات الاتراك العثمانية ، ويشير الى الفائدة التى سيحصلها مؤرخ الغرب من درس الشرقيات . وكثيرا ما اكد لقرائه بان التأريخ الشرقى لا يقصر عن تاريخ الغرب معنى او قيمة او محتويات ؛ وصرح بان المتخصص بالتأريخ كثيرا ما يرى الكفر والظلم ظافرين بلا عقاب يعيشان فى سعادة فانية بينما يرى ايضا التقوى وبساطة الخلق مهملين على سطح الارض او مداسين فى التراب ، فيبدو للناظر المتحير كأن كل شىء دائر فى دور عظيم مهول تحركه قوة عمياء مجهولة ، ومع ذلك لا يشك بان الثمر الاحلى والمحصول الاهم الذى انتجه درس التأريخ هو ادراك القوى التى تسيّر الافعال البشرية كما كشف عنها تأريخ بنى آدم . ومن اراد ان يتعلم من درس التأريخ مناهج السياسة ، ومن رغب فى تبصر الحكمة الالهية او طرق القضاء الاعمى ، او من ود ان يتفحص الاخلاق والشيم البشرية فانه يجد لذلك فى تأريخ الشرق امثلة بارزة عين البروز كما يجدها فى تأريخ اوروبا . ولا يتردد رايسكه بان يعطف على اعمال طغرل السلجوقى ، جنكز خان ، تيمور ومحمد الفاتح اهمية وقيمة اكبر من قيمة فتوحات اسكندر الاكبر ، وبلغ اعجابه بملوك ايران القديمة حدا انه شبه انتصار اليونان على الايرانيين بتصلف برغش يزعج الافيال ، ونظر الى تاريخ الاسلام بعين طويلة النظر ، وان اعتبر ظهور محمد والفتوحات الدينية من الحوادث التأريخية التى لا يفهم معناها العقل الانسانى بل يرى فيها حكم القدرة الالهية ؛ ويرى فى قبض بنى امية عنان الدولة وفى الآلام التى قاساها آل على بن ابى طالب قضاء الهياً . وتمسك ؛ «تشيع حسن» كما وجد هذا التشيع فى مصادره التأريخية غير القديمة العهد: اى انه اعتبر علياً الخليفة الحقيقى للرسول وقد منعه احيال الشورى ودسائسه من حقه الموروث لمدة ٢٤ سنة ، ويرى فيه احسن ملك ظهر فى العالم الاسلامى ، ملكا شجاعا ، عادلا امحاه القضاء والقدر ، واباده بغض عائشة الطموحة . ويرى رايسكه فى مجادلة على ومعاوية مثالا امثل لظفر الحيلة على القوة ، لفوز الرداءة على الامانة ، حتى انه لا يكتفى بذلك المديح بل يقارن بين على بن ابى طالب ومارك أورل ، الامبراطور الرومانى الذى يسمى «الفيلسوف على السرير» . وتدعوه احياناً هذه الرغبة فى التشبيه الى ان يكشف كثيرا من المشابهات بين التطور التاريخى فى ممالك الاسلام وفى اوروبا لكى يثبت لقرائه انه قد وقع على مسرح الشرق من المشاهد السامية المهذبة مثلما جرى فى الغرب .

وفى ابان هذه السنوات كتب رايسكه كتابا اخر عنوانه :

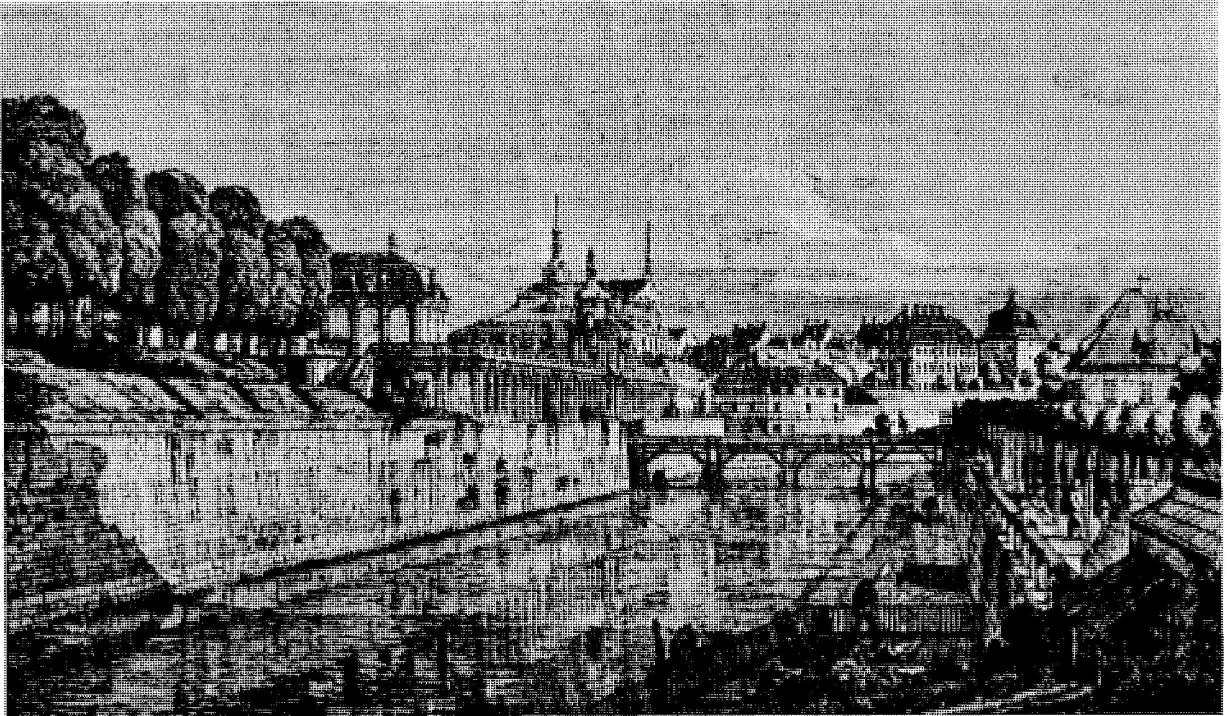
de Principibus Muhammedanis literarum laude claris

فانعم عليه ملك ساكسونيا فى مدينة دريسدن لقب «الاستاذ» وخصص له معاشا سنويا مقداره ١٠٠ تالر ، بيد ان الحكومة



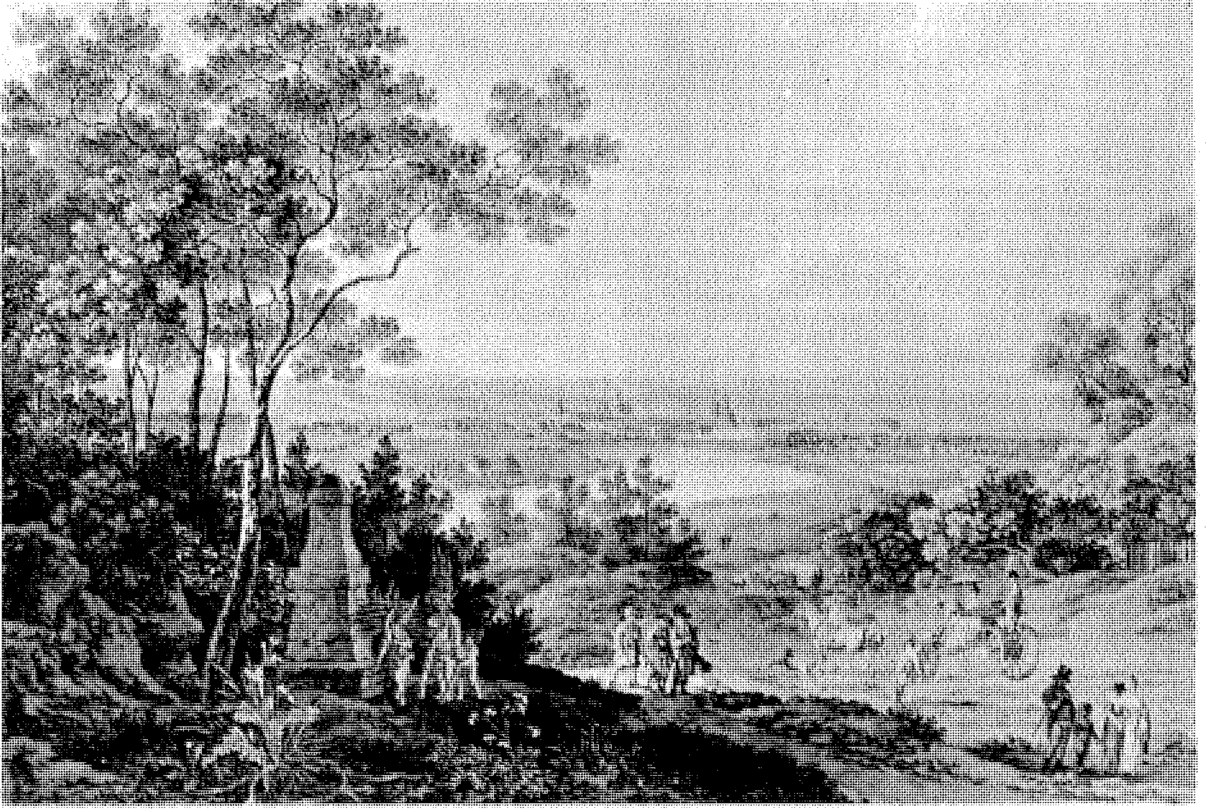
برناردو بلوتو المسمى بـ «كانالتو» Canaletto: السوق العتيق فى مدينة دريسدن وشارع القصر. نحت على النحاس، سنة ١٧٥٢.
تصوير: الفوتوتك الالمانى بمدينة دريسدن Deutsche Fotothek, Dresden

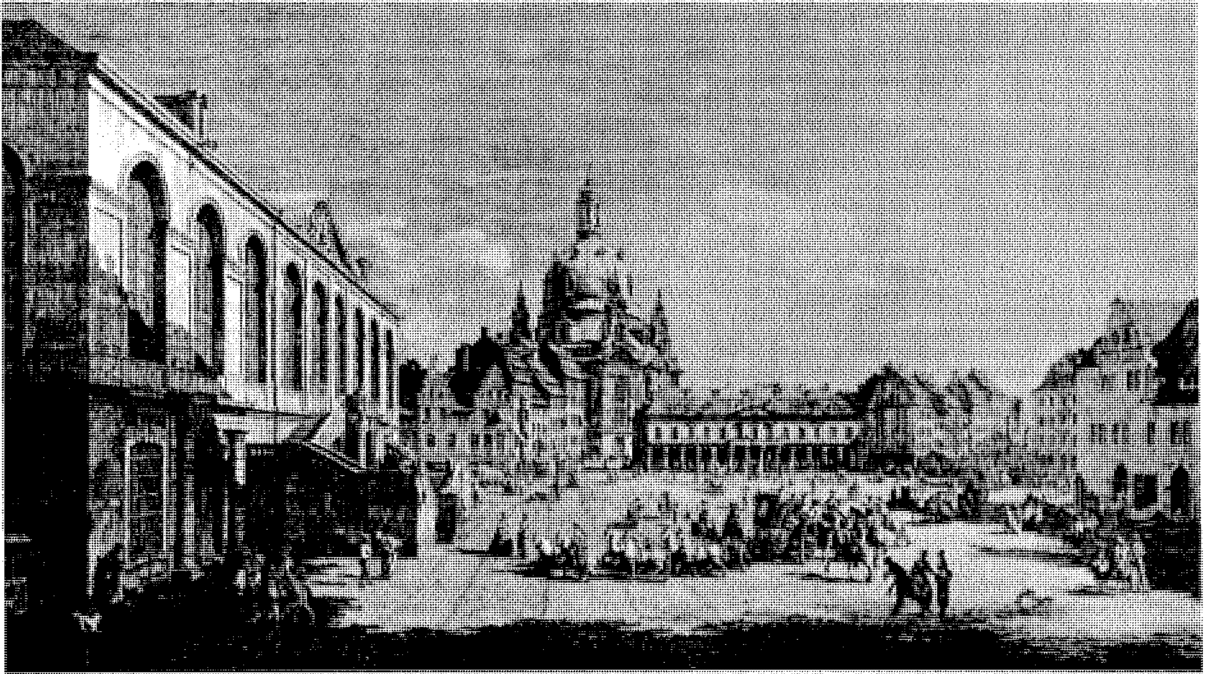
برناردو بلوتو المسمى بـ «كانالتو» Canaletto: ايوان القصر المعروف باسم «تسوينجر» Zwinger مع «باب التاج» والجسر على نهر ايلبه.
نحت على النحاس، سنة ١٧٥٨.
تصوير: الفوتوتك الالمانى بمدينة دريسدن .Deutsche Fotothek, Dresden



ادريان تسوينك A. Zwingg (١٧٣٤–١٨١٦): منظر مدينة دريسدن سنة ١٨١٥.
محفوظ فى متحف دريسدن المخصوص التصويرات المنحوتة على النحاس Kupferstichkabinett
تصوير: الفوتوتك الالمانى بمدينة دريسدن .Deutsche Fotothek, Dresden

برناردو بلوتو المسمى بـ «كانالتو» Canaletto: السوق الجديد فى مدينة دريسدن، نحت على النحاس، سنة ١٧٤٩.
تصوير: الفوتوتك الالمانى بمدينة دريسدن Deutsche Fotothek, Dresden





اننا نهدف بايراد هذه الرسوم ان القارئ يصوّر منظر مدينة المانية مشهورة فى القرن الثامن عشر، و كانت هذه المدينة مركز المملكة الساكسونية التى كانت وطن العلامة رايسكه، و سافر اليها مرارا.

لم توف هذا المعاش الا بين الحين والآخر حتى انقطع تماماً بعد سنة ١٧٥٥ . وسرعان ما تدهورت وضعيته الاقتصادية ويقرض للفاقة والحرمان كما كانت حالته من قبل ، ولم يرقه احد اذ اتهمه اللاهوتيون بالزندقة لانه لم يتراجع عن اصراره الّا يسمى محمدا «نبياً كاذباً» و«خداعا» والا يصف دينه خرافة مضحكة ولانه لم يقسم تاريخ العالم الى قسمين ، احدهما التأريخ المقدس ، والاخر التأريخ الدنيوى ، بل كان يحصل لتأريخ الاسلام منصبا فى وسط التأريخ العام .

زد على هذا ان رايسكه لم يتردد باظهار رأيه بكل صراحة غير مبال بالنتيجة ، واحدث ذلك خصومات شديدة ؛ فمثلا قام الاستاذ شولتنس الفلمنكى فى سنة ١٧٤٨ بنشر طبعة جديدة لكتاب النحو الذى الفه اربنيوس (سنة ١٦١٣) وما كان ذلك الا تكرار طبع المؤلف الاصلى كما كان اعتنى به جوليوس ، خليفة اربنيوس ، دون ان يغير فيه شولتنس كلمة واحدة بل ابقى على ما فيه من اساطير لقمان ومن الامثال الا انه اضاف الى هذه المادة الموروثة اشعاراً منتخبة من الحماسة ولم يخل هذا المقتطف من الغلطات ؛ ثم الف شولتنس مقدمة طويلة لهذا الكتاب رد فيها نظريات بعض شارحى التوراة من اليهود ومن يقول قولهم من النصارى فى مسألة قدسية اللغة العبرانية . واعترض رايسكه على المقدمة قائلا بانه لا يليق ذكر هذه المسائل المتعلقة بتفسير التوراة فى كتاب يبحث عن النحو العربى ، ولا جدال فى ان مطالعة اشعار الحماسة ليست بمناسبة للمبتدئين بدرس العربية .

وفى العام نفسه نشر شولتنس ترجمة لكتاب امثال سليمان مع شرح له مستعملا فيه منهاج البحث عن مشتقات الكلمات بلا حرج . وقام رايسكه بمراجعة هذين الكتابين فى Nova Acta Eruditorum وهى مجلة علمية من نشر السيد منكن. وألزمه ضميره فى هذا النقد الأدبى أن يصرح عن الحقيقة بشأن الكتابين . ومع أنه حافظ على الأحترام اللائق تجاه شولتنس فأنه أدرك من الوقع الذى سببه فقط انه كان من الأفضل لوكان قد قام احد غيره بهذه المهمة . ولكن شولتنس الذى كان معتادا على المشاجرات الأدبية والذى لم يجترئ احد حتى ذلك الوقت الشك فى كونه معلم عصره فى العربية قام بالدفاع عن نفسه ببعث تحريرين الى «منكن» طالبا منه أن ينشرهما ويوزعهما الى جميع الجهات . وفيها خرج بالنزاع الى المضمار الشخصى وافترى على رايسكه غاية الأفتراء بحيث لم يبق ذلك دون نتيجة . وكان لهذين المكتوبين تأثير كبير فى المانيا — وكان شولتنس قد ارسلهما الى جميع اساتذة الكلية بلايبزج — فلم يستطيعوا تقدير ما عرضه رايسكه من الاسباب الواقعية ولم يتمكن احدهم من المقارنة بين الرأيين مقارنة علمية كما لوكانوا اختصاصيين فى الموضوع . ولم يمد احد يد المساعدة لرايسكه ومضت عليه سنة بعد سنة دون ان يعينه معهد ما فى المانيا او فى خارجها استاذا ولم يفده اثباته فى نشرياته انه كان متبحرا فى اللغة اليونانية ايضا لأن خصيمه فى هذا المضمار كان الاستاذ ارنستى Ernesti ، استاذ اللغات القديمة واللاهوت معاً . — فى سنة ١٧٥٣ حاول الاستاذ بوبوويتش Popowitsch فى جامعة ڤينا ان يجد منصباً لرايسكه لدى السفير النمساوى فون شواختهايم الذى سافر الى استانبول سفيرا عند الباب العالى ، وفشل هذا الترتيب لان رايسكه ابى ان يتكشلك . واستمرت احواله المالية تملى عليه الضيق والحرمان ، وخاصة عندما توقف الملك الساكسونى عن اداء معاشه فى عام ١٧٥٥ .

ولما يئس رايسكه من حاله توجه فى اواخر سنة ١٧٥٦ الى الاستاذ ى . د . ميخائليس Michaelis (١٧١٧ الى ١٧٩١) فى مدينة جوتنكن الذى كان زميله فى المدرسة . ولم يشعر العالم الساذج الذى لم يكن له دراية لا بالناس واخلاقهم ولا بالدنيا ودناياها انه وضع حياته فى يدى انانى مدبر للمكائد . روى له رايسكه ما جرى له من تصرفات الدهر ومن الضيق وافهمه انه لو عينه استاذا فى معهد جوتنكن لأجبرت الحكومة الساكسونية على معونته حتى ولوكان هذا التعيين المفروض ظاهرا وغير حقيقى ؛ واضاف الى هذه الكلمات — وكان مخلصا غاية الاخلاص مستقيما — ان ضيقه وفقره قد منعاه من ان يخدم ركاب الادب العربى اكثر مما خدمه حتى الآن ، ولو تحسنت احواله فانه سيأخذ فى طبع كتبا عربية ويعتنى خاصة بطبع قاموس صغير للعربية ؛ وان لم يساعده الله بالقريب العاجل فيصبح لا فائدة منه للادب العربى . ورغم انه كان لميخائليس تأثير واسع ونفوذ كبير بين اهل العلم فى المانيا فانه لم يرغب فى التوسط لأجل عالم فاقه بكثير فى اتقان اللغة العربية ... وكان وقوفه هو على العربية ناقصا لا يعتد به ، وظن مثلا ان الاعراب كان من مخترعات النحويين العرب ولعلهم ادخلوه متبعين المثال الاوروبى ؛ وكان يعترف نفسه بانه يجهل تطبيق العروض ومع ذلك تجرأ ان يترجم ويشرح المقتطف من الحماسة الذى نشره شولتنس ، وكان عظيم الافتخار بطريق تعليمه للغة العربية ومنهاج تدريسه .

ولما كان عليه من الاعتداد بالنفس وحب الظهور والاستبداد لم يرد ان يشتغل احد سواه فى هذا المضمار . ولذلك تظاهر

بالغيظ لما جاءه طلب رايسكه ، حتى انه حول مكتوبه الذى لايشك فى ماهيته الخاصة الشخصية الى وزير المعارف فى مملكته مشيراً اليه بالرد ؛ ثم قدم لرايسكه الرد الوزارى ضمن خطاب رسمى صارم .

واطاح ذلك المكتوب بآمال رايسكه كلها . فادرك انه لن يتعين استاذا فى معهد ما بعد ذلك ، فاخذ فى السعى الى وظيفة فى مدرسة ، فاصبح عميد مدرسة نيكولاى فى لايبزج بيد ان «صديقا مرائيا» اراد منع هذا التعيين بدسائسه وكاد ان يوفق بذلك ، ولكن رايسكه كان قد وجه اهتمام الوزير كونت واكر بارت الساكسونى الى شخصه عندما عرّف السكك العربية فى مخزن متحف مدينة دريسدن سنة ١٧٥٦ ، وكفت شفاعة هذا الوزير لتبديد كل ما اظهر اهل الكنيسة من الشكوك عندما اختير رايسكه عميدا للمدرسة .

وبهذا وجد رايسكه بعد سنوات الضيق والفاقة الطويلة ملجأ امينآ ، فاستمر بالعمل فى ميدان الادبين العربى واليونانى فى اوقات فراغه من المدرسة . ولكنه لم يجد ناشرا لهذه المؤلفات فكان عليه ان يقوم بمصاريف الطبع بنفسه . وكان قد نشر فى عام ١٧٥٤ المجلد الاول من ترجمته اللاتينية لتأريخ ابى الفداء ولكنه لم يتمكن من بيع اكثر من ٣٠ نسخة منها ، ولذلك أجبر على الكف عن الطبع . ومن ذلك الحين اقتصر على النشريات الصغيرة ؛ وفى عام ١٧٥٥ اعتنى بنشر رسالة ذات اهمية كبرى لما تحتوى عليه من تلميحات واشارات تأريخية ارسلها ابن زيدون الى ابن عبدوس . وهناك رسالة صغيرة الفها ردا على تهنئة صديق له قدمها له بمناسبة تعيينه فى وظيفته الجديدة ، وكان صديقه قد ذكر فى شعر لاتينى عصا يعقوب والصوبجان المذكور فى الادب اليونانى ، فشكره رايسكه برسالة صغيرة بحث فيها عن سبعة امثال عربية تعالج العصاة وقد اخذها عن كتاب الامثال للميدانى الذى كان مغرما به جدا . اما فى السنة التالية فقد عالج فى برنامج المدرسة اكثم بن صيفى احد «حكماء» الجاهلية استنادا الى كتاب الميدانى المذكور ولم يفهم احد من الناس مقصد هذا المقال واقتصروا عن ادراك اهميته العلمية حتى ان رايسكه كف عن تدوين برنامج اخر فى المستقبل .

وكان المتن العربى الاخير الذى قدمه للعالم منتخبات من ديوان المتنبى كمثال للشعر العربى ، ونشر نحو اثنتى عشر ابيات عشقية ومرثيتين فى سنة ١٧٦٥ ، واهدى هذه الباقة الشعرية الغرامية لزوجته التى اهلها بعد انتظار طويل فى سنة ١٨٦٤ ، وحباً لها اجتنب فى شرح هذه الغزليات الايضاحات العلمية واكتفى بتعريف كلمات الشاعر وايضاح عالم شعوره للقارىء الغربى الذى كثيرا ما وقف مكتوف اليدين تجاه بعض التعابير الشرقية ، وحاول تقدير قيمة اشعار المتنبى من وجهة نظر علم الجمال .

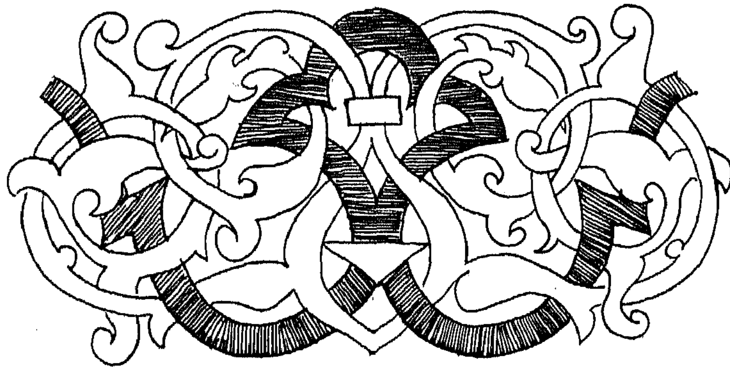
وتحقق مرامه الذى عبر عنه فى اهداء هذا الكتاب وهو : ليت شعرى ان يبقى اسم زوجى مقرونا باسمى . معروفا عند الناس ! لان مادام اسم رايسكه يذكر سيذكر ايضا اسم رفيقته التى رافقته بوفاء تام وشجاعة مثيلة . لما توفى رايسكه فى ١٤ آب ١٧٧٤ على اثر مرضه بالسل — ولم يكن قد اتم العام الثامن والخمسين من عمره — اهتمت هى بتركته القيمة حتى لا تقع فى يدى خصمه ارنستى ، واستودعتها لسينك Lessing المؤلف الالمانى الشهير الذى كان من القليلين الذين قدروا قيمة رايسكه اثناء حياته ؛ وحفظ لسينك هذه التركة الى ان اشتراها حاجب الملك الدانماركى السيد فون سوم ، ووصلت المكتبة فى كوبنهاجن بعد وفاة هذا الرجل الشريف .

نشرت زوجة رايسكه تاريخ حياة زوجها الراحل كما دونه نفسه قبل وفاته ، وهذا كتاب يمزق القلوب . ولم تخف من مجادلة اولائك الذين ظهرت سفالتهم وحقارتهم فى هذا التأليف ونشرت ايضا سنة ١٧٧٩ «نظريات فى كتاب ايوب» و«امثال سليمان» التى دونها رايسكه سنة ١٧٤٩ ، مضيفة عليها متن خطابه الافتتاحى الذى القاه فى ٣١ آب ١٧٤٨ فى كلية لايبزج ، وسادها شعور بالرضى عندما رأت ان العالم المتوفى حصل على التقدير الذى نكروه عليه فى حياته . ونشر جرونر Gruner فى ١٧٧٦ للمرة الثانية اطروحة رايسكه ، واما ى . ج . ايشهورن Eichhorn ، وهو ايضا من المستشرقين ، فنشر سنة ١٧٨١ المكاتيب التى بعث بها رايسكه عام ١٧٥٧ بخصوص مسألة السكك العربية الى مدير الخزينة فى متحف مدينة دريسدن .

وقد رفع رايسكه من شأن علم اللغة العربية وادبها وجعله علماً مستقلا . لم ينتبه احد من معاصريه الى استقلال هذا العلم وعدم ارتباطه بغيره من العلوم اللغوية واللاهوتية مثلما ادرك ذلك رايسكه ، ولم يتوجه احد بهذه اليقظة ضد فقه اللغة المقدسة philologia sacra الذى كان مسيطرا على عقول العلماء فى ذلك العصر ، وكان مقصد هذا النوع من علم اللغة ان صاحبه لم يهتم بالعربية الا من حيث اسدائها له فوائد جمة فى تفسير العهد القديم ، وكان يكتفى بالبحث عن اصول كلمات عربية فى القاموس العربى لجوليوس ويقابلها بكلمات عبرانية مختارا له من المعانى المختلفة لكل كلمة المعنى الذى يوافق اغراضه . ورغم ان

احدى مميزات عصره كان نوع العلم المدعو بـ Polyhistorismus اى ان العالم تخيل انه بامكانه لا بل من واجبه تحصيل العلوم كلها والوقوف على التطور التأريخى باجمعه فقد عرف رايسكه ان للطبيعة الانسانية وللعقل الانسانى حدا ونهاية؛ لذلك كف مرة عن تحصيل آثار المؤرخ الرومانى سيسرو «لاجل لانهائية الاعمال ، للنقص فى الوسائط ولميل عظيم لليونانيين» كذا وقد كرس وقته باكمله للعربية فقط ورفض اضاعة وقته وقوته فى تحصيل اللغات المتجانسة . وكان غرض رايسكه اثبات الوحدة الباطنية الروحية لعلومه اللغوية والتأريخية والادبية ، ولم يهتم بالعلاقة الظاهرة بين اللغات السامية . مما لاشك فيه انه كفقيه فى اللغة رأى اصل العلم واساسه فى درس عميق للغة نفسها ، وكان معلوما عنده ان لا يهدى الى وقوف حقيقى على اللغة العربية الا طول الاناة والصبر فى مطالعة آثار المؤلفين العرب سنة بعد سنة بلا انقطاع ، وتحقق له بان مؤلفات العرب المسلمين افضل من كل ناحية من مؤلفات العرب النصارى بكثير . ولم يكن يخفى على فراسته ان طبعات التوراة والانجيل العربية ترجمها إما نصارى شرقيو ممن لم يكن لهم علم باليونانية او العبرانية اوالعربية ، اوانها كانت تراجم عجمية على ايدى اليسوعيين الذين لم يعرفوا الا الفلجاتا (اى الترجمة اللاتينية للتوراة والانجيل من القرن الخامس م) . ولذلك اجتهد رايسكه فى فتح طريق الى خزائن آداب العرب المسلمين وتوفق فى ذلك واصبح هاديا للاخرين . ولكن درس اللغة لديه ليس غرضا بنفسه بل رأى فيه اساساً للكشف عن التاريخ .

ونظرته هذه ادت به الى ادراك اهمية الدور الذى لعبه الاسلام فى تأريخ الشرق . فانه لم ينظر الى المتون العربية نظرة اللغوى الصرف الذى لا يكترث الا لفهم معانى الكلمات كما قصدها المؤلف نفسه بل نظر اليها نظرة المؤرخ الذى جعل لتأريخ الاسلام مقامه من تأريخ العالم العام ، وكان يشرح هذه المتون مثلما يشرح المشاهد فى دار التمثيل عند تأمله فى الوقائع الجارية على المسرح اذ يقوم بالفحص عن بواعث الاشخاص الممثلين وعن مراد الشاعر . ورغم ان رايسكه لم يتوفق بتأليف «تأريخ الاسلام» كما اراده فانه هذا العالم البعيد النظر وضع اساساً للعلوم الاسلامية العصرية التى تبنى كعلم تاريخى على اساس علم اللغة العربية . اما معاصروه فلم يستطيعوا فهم افكاره الجسورة ولا تأملاته الجليلة فصار «شهيد الادب العربى» كما سماى نفسه ، واصبح تاريخ حياته تأريخ الآلام والظلم كما تشهده مذكراته المؤثرة . وكما ان للجرأة التى سار بها دون اكتراث على الطريق الذى اعتبره مرة صحيحا أثرا ساميا فانه من المخجل انه لم يكتشف احد من اولى الامر فى جامعات اوروبا اهمية هذا الرجل العبقرى العظمى ؛ هذا الرجل الفذ الذى كان من اعظم علماء الاداب العربية ، ومن المخجل كذلك ان هذه الاداب التى اراد تشييد بيت لها لم تحصل فى المانيا القبول الذى استحقته . ولكنه من الطريف ان نذكر ان اسس فى القرن التالى فى لايبزج اى فى عين المدينة التى قاسى فيها ما قاسى معهد لدراسة اللغة العربية يفتخر بان يعتبر رايسكه من اجداده الروحانيين .





يوسف فون هامر - پورجستال

(١٧٧٤ - ١٨٥٦)

بقلم : الأستاذة أنا ماري شيمل

كان وضع الدراسات الشرقية فى المانيا وسائر بلاد اوروبا غير مرض الى اواخر القرن الثامن عشر ، اذ لم يكن العلماء يعتبرون دراسة العربية الا امتدادا لدراسة العبرانية واللاهوت لاغير. وقد حاولنا ان نرى فى وصف حياة الاستاذ يوهان يعقوب رايكسه Reiske الذى نشرناه فى النسخة الرابعة من هذه المجلة المشكلات التى اعترضت من اراد تحرير الاستشراق من قيود علم اللاهوت.

اما وضع الاستشراق فى النمسا فيختلف عنه فى سائر بلدان الغرب. كانت هذه المملكة الواسعة مجاورة الدولة العثمانية ، وقد حاصر الجنود الاتراك مدينة فينا مرتين ، سنة ١٥٢٩ وسنة ١٦٨٣. ولذلك وجب على النمساويين الاهتمام بعادات جيرانهم الأقوياء وبطرق حياتهم ، وكذلك بلغتهم. فحفرت حروف عربية فى خشب لاجل الطبع لاول مرة فى سنة ١٥٥٤ فى فينا ، وبعد قرن واحد أسس فى تلك المدينة كرسى للدراسات الشرقية ، والف الاستاذ منينسكى Meninski كتاب النحو التركى وقاموساً تركياً نشره سنة ١٦٨٠ ، وما يثير الاسف ان اكثر نسخ هذا القاموس المفيد قد ضاعت فى اثناء محاصرة فينا عام ١٦٨٣ ، كما ضاعت الحروف العربية التى ابتدعها منينسكى ؛ ثم عثر على هذه الحروف العربية المفقودة مرة اخرى فى سنة ١٧٥٠ ، وحسنت شكلا حتى صارت الآن اقرب الى قواعد الخط العربى. وقد طبع القاموس التركى المذكور للمرة الثانية سنة ١٧٧١ فى فينا.

وقد ادركت الامبراطورة ماريا تريزيا (١٧١٧—١٧٨٠) الكبيرة اهمية الدراسات الشرقية ، فأسست لذلك دارا للعلوم خصصت لطلبة اللغات الشرقية الذين عزموا على دخول السلك الديبلوماسى. وكان نظام هذه المؤسسة المسماة بالأكاديمية الشرقية Orientalische Akademie صارماً جدا ، فكانت الدراسة تبدأ فى الساعة السادسة صباحا وتستمر الى الساعة التاسعة فى الليل. وكان على الطلبة ان يدرسوا اللغات الشرقية كل يوم لثلاث ساعات ، وعلاوة على ذلك كانوا يتعلمون الفلسفة والتأريخ واللغة الفرنسية والفراسة والرقص وكل ما كان ينتظر من صفات فى شاب اصيل سيكون ممثلا لمملكته فى البلاد الاجنبية. وكانت مدة الدراسة خمس سنوات ، وكان الشبان يتعلمون فيها التركية بصورة جيدة دون ان يحصلوا على تعمق فى فقه اللغة او فى الطرق العلمية ، بل كان مقصد هذا المعهد التطبيق الفعلى للغات فى المناسبات السياسية بين النمسا والدولة العثمانية. وكان الطلاب يدرسون قليلا من الشعر ويترجمون شيئا من الادب الفارسى كما نرى اثار هذه الاعمال الادبية فى مجموعة اهداها اعضاء الاكاديمية الى الامبراطورة سنة ١٧٧٨.

وكان احد طلبة المعهد المذكور يوسف هامر Joseph Hammer الذى مدحه العالم الكبير الالمانى ى. ج. هردر J. G. Herder (١٧٤٤—١٨٠٣) وهو احد اصدقاء جويته وكان يحب الادب الشرقى وان لم يتعلم اللغات الشرقية ، وقال فيه : «ليت شعرى ان تزهر كل الآمال التى ننتظرها من المشرق فى اثار هذا الشاب ذى المواهب والالمام باللغات !»

توجد ذكريات يوسف هامر فى كتاب :
J. von Hammer-Purgstall, Erinnerungen aus meinem Leben, Bachofen-Echt, Wien 1940.

توجد عناوين تصانيف هامر كلها فى :
K. Goedeke, Grundriß der deutschen Literatur VII, 2, S. 747—770.



صورة يوسف فون هامر فى سنة ١٨١٧.

ولد هامر فى عين السنة التى توفى فيها الاستاذ الالمانى للغة العربية رايسكه المقدم ذكره، اى سنة ١٧٧٤، فى مدينة جراتس Graz فى النمسا الجنوبية (وما أطلق عليه لقب الاصالة «فون هامر» الا بعد سنة ١٨١١، ثم اضاف الى اسمه لقب «پورجستال» بانتسابه الى الكونتس پورجستال التى توفيت بدون اولاد وسمحت له بهذا الانتساب، فصار يوسف فون هامر-پورجستال Joseph von Hammer-Purgstall واشتهر بهذا الاسم). وكان والده مأمور الحكومة النمساوية، ولما وجد فى ابنه استعدادا لتحصيل اللغات الشرقية ارسله الى المعهد الشرقى فى فينا حيث تعلم اللغات واشتغل فى المكتبة لمدة عشر سنوات الى ان بعثت به الحكومة الى السفارة النمساوية فى استانبول عام ١٧٩٩. وكان يتكلم التركية دون صعوبة ويجيد من العربية ما يكفى للمكالمة، اما الفارسية فكان يجيدها اجادة حسنة حتى انه حادث سفراء الشاه الايرانى عند زيارتهم فينا سنة ١٨١٩. وكانت علاقته بالادب والتاريخ اكبر منها بقواعد النحو، ومن عاداته انه كان يطالع القاموس بلا انقطاع ليتعلم كثيرا من الكلمات فى اسرع وقت ممكن؛ وكان يظن ان هذه الطريقة لابد منها لكل من اراد معرفة كاملة للغة ما. وكان هامر مشغوفا بالادب الشرقى، ولم يزل طول حياته يسعى فى نشر حب الشرق فى اوروبا كما انه الف فى شبابه قصيدة فى اهمية الاشتغال بالادب الشرقى.

وفى اثناء اقامته فى استانبول اهتم هامر اولا بحكايات الف ليلة وليلة التى كان قدترجمها جالان Galland الى الفرنسية فى اوائل القرن الثامن عشر (ونشر هو ايضا فيما بعد ترجمة فرنسية لهذه الحكايات)؛ ثم اهتم بحكاية عنتر، وما جذب قلبه اكثر من ذلك هو اشعار الحافظ الشيرازى التى أنشدها له درويش ايرانى. ومن ذلك الوقت عزم على ترجمة كاملة لديوان الحافظ واخذ باعدادها.

نقل هامر من استانبول الى مصر سنة ١٨٠٠ واقام بها لمدة عامين، ثم سافر الى انكلترا ورجع الى استانبول كاتبا للسفارة واشتغل هناك بالتأريخ والجغرافية وقام بتصميم «تأريخ الدولة العثمانية» الذى اصبح، بعد ثلاثين سنة، مؤلفه الاشهر. ولكن الحكومة النمساوية ارسلته بعد مدة الى ولاية مولدافيا عقابا له على بعض الخلافات التى جرت بينه وبين امرائه، وعاد سريعا الى فينا حيث أسس بموافقة الكونت رزووسكى Rzewuski مجلة «معادن الشرق» Fundgruben des Orients؛ ثم عين مترجما رسميا للحكومة النمساوية سنة ١٨١١، وانعمت عليه الحكومة بمنصب مستشار البلاط سنة ١٨١٨. وما زال هامر يكتب كتابا بعد كتاب، ومقالة بعد مقالة، وترجمة بعد ترجمة، وكلما زاد اجتهادا زاد كذلك فى عدم الاعتناء.. سعى هامر فى تأسيس اكاديمية العلوم فى فينا ووفق فى ذلك سنة ١٨٤٧ بعد ابحاث دامت ١١ سنة، وصار الرئيس الاول لهذه المؤسسة العلمية، ولم يبقى فى هذا المنصب الا عامين. وتوفى فجأة فى سنة ١٨٥٦، وهو فى الثالثة و الثمانين من عمره، وكان يشتغل حينئذ بتأريخ الادب العربى، وقيل ان سبب وفاته سكتة القلب لشدة الحزن الذى اصابه عند سماعه خبر قطع تبادل المخطوطات العربية بين المكتبتين فى فينا و باريس...

فما الذى يمتاز به هذا العالم العامل الذى انقسم العلماء عند الحكم فيه قسمين؛ فمنهم من مدحه غاية المدح، كما فعل ذلك كثير من زملائه النمساويين مدعين انه كان «فخر الغرب؛ الفاتح الكبير الروحانى للشرق، مشعل العلم ومنارته، قطب الاجيال القادمة...». ومنهم من نقده أشد النقد، مدعيا ان علمه بالعربية قليل وتفاخره وطموحه اكبر بكثير من تعمقه فى العلوم. كان على رأس هذه الفئة الاخيرة الاستاذ فون ديتس von Diez، احد اصدقاء شاعرنا جويته، والف رسالة خاصة فى جهالة هامر وسوء اخلاقه، عيره فيها بانه «عديم المعرفة كليا بجميع اللغات وبانه يجهل التعابير والمواضيع جهلا لا سبيل الى التغلب عليه» واتهمه «بانه ذو اخلاق سفيهة لاتوصف ووقاحة لاحد لها ولا

Herrn Doctor von Gobbi
als Merkmal
seiner Hochachtung
vom Verfasser
den 10 März 1842

اهداء بخط يوسف هامر.

نهاية...» ولا فائدة لهذه الكلمات الا فى التعبير عن اخلاق الكاتب نفسه.

ولاشك ان هامر لم يكن عالما بحتا بمعنى الكلمة، وان كان قد الف اكثر من ٧٥ كتابا، بعضها ضخم جدا، ومئات من المقالات والتراجم. ويندر ان نرى فى تأريخ الاستشراق مثله: ذو افكار عالية وهمة جليلة، وفى الوقت نفسه ذو غيرة وطموح شديدين، الف من الآثار مالم يؤلف غيره قط، ومع ذلك فهو يفتقر الى الطريقة العلمية فى البحث؛ وقد جمع من الكتب واطلع من الاشعـار على ما لم يطلع عليه احد قبله وربما بعده، ومع ذلك فانه لم يبق من مؤلفاته ماهو معروف فى تأريخ الاستشراق الا القليل؛ وقد حصل على معلومات يصعب على العالم العصرى الحصول عليها، ولذلك لابد من مطالعة بعض مؤلفاته حتى الآن وانلم نجد فى مئات الصفحات الا خبرا اوخبرين مهمين. ومع ان تأثيره فى تأريخ الاستشراق العلمى قليل لايزيد على ما تثيره كتبه بين الفقهاء فى اللغة لرد غلطاته، إلا ان تأثيره فى تأريخ الادب الالمانى عظيم، فقد صار استاذ الشاعر الكبير جويته كما تعلم منآثاره الشاعر المستشرق ريوكرت Rückert (١٧٨٨–١٨٦٦) والشاعـر الظريف كونت بلاتن Graf Platen (١٧٩٦–١٨٣٥). وما اسعد من يسمى استاذا ومعلما روحانيا لشعراء وطنه وادبائه!

والآن، ماهى هذه المؤلفات التى اشتهر بها هامر، وماهو الطريق الذى سلكه فى اعماله العلمية والادبية؟

نشر هامر فى اواخر حياته رسالة «فى خواتم العرب والعجم والاتراك» ذكر فيها ثلاثة خواتم له، مكتوب على احدها «عبده السياح السامر يوسف هامر» وظن انه فى الحقيقة سامر، يحب المسامرة والحكايات الطويلة فى اجتماع الرجال والشيوخ، ويشبه اثره الادبى من جانب مسامرة كثيرة المواضيع مزهرة الاسلوب، مزينة بابيات واشعار، ذاكرة للحوادث والامور ووقائع الدهور فى دار الاسلام كلها، من التأريخ والفنون والتصوف والجغرافية وغيرها. وكان فى اسلوبه – وخاصة فى اواسط حياته – مقلدا للاسلوب الشرقى المزين بالسجع والتلاعب بالكلم، كثير التشبيهات والرموز لأن المؤلف قصد مواصلة بين التذكر الشرقى والتفكر الغربى، بين الروح الشرقية والعقل الغربى؛ وكانت جمل اثاره مطرزة بانواع الاسلوب الخطابى حتى انه ليصعب على القارىء الغربى ادراك معناها البسيط...

لما رجع هامر من استانبول الى فينا سنة ١٨٠٧ ناشد صديقا له، الكونت رزووسكى Rzewuski (١٧٦٥–١٨٣٢) تأسيس «مجلة استشراقية» مشتملة على مقالات حول العلوم الشرقية واخبار عن احوال بلدان الشرق. ووفق فى ذلك الاقتراح فسمى المجلة الجديدة «معادن الشرق»

Fundgruben des Orients مشيرا الى انها ستحتوى على ذهب المعلومات التأريخية القيمة وجواهر الادب، واختار شعارا لها الآية القرآنية:

«قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم».

نشرت هذه المجلة بين السنتين ١٨٠٩ و ١٨١٧، وكان هامر مديرها الفخرى وكان يؤلف مع ذلك نحو سدس المقالات بنفسه، ونفهم من المحاضرة التى القاها فى ١ شباط ١٨٥٥ عندما نصب هيكله فى الاكاديمية النمساوية انه افتخر بهذه المجلة وادارته لها اكثر من افتخاره بسائر تآليفه. وفى الواقع يجد القارىء فيها مقالات حول مسائل مختلفة ومواضيع ذات اهمية، مكتوبة باقلام المستشرقين المشهورين فى اوروبا كلها، ومنهم العالم الشهير الفرنسى سيلفستر ده ساسى Sylvestre de Sacy الذى يعتبر الى الآن مؤسس الاستشراق العلمى وفقه اللغة العربية فى الغرب وهو استاذ اجيال من البحاث فى القرن التاسع عشر؛ كتب فى «معادن الشرق» مقالة عن الكتاب الفارسى المعروف بپندنامه (كتاب النصيحة) لفريد الدين عطار الشاعر المتصوف (المتوفى عام ١٢٢٠ عند هجوم اجناد جنكز خان على مدينة نيشابور). نجد ايضا للعلامة الفرنسى ترجمة لقصيدة الأعشاء المشهورة «ودع هريرة». اما زملاء سيلفستر ده ساسى الفرنسيون فألف كاترمير Quatremère المؤرخ الواسع الصيت مقالات فى مسائل تأريخ الاسلام، ونشر جرانجره ده لاجرانج Grangeret de Lagrange متونا وتراجم لاشعار الصفدى والمتنبى وايضا لمقامة من مقامات الحريرى. وهناك مقالة عالم اسبانى اسمه ى.ا. كونده Conde عن ابن خلدون وفلسفته، ومن الطبيعى ان عدد المستشرقين النمساويين فى هذه المجلة فاق عدد غيرهم، ونشر هناك شاب ذو موهبة شاعرية وهو روزنتسوايج - شوانـاو -Rosenzweig Schwannau (١٧٩١-١٨٦٥) لاول مرة ترجمة منظومة لبعض ابواب الاقصوصة المشهورة «يوسف وزليخا» للشاعر الفارسى مولانا عبدالرحمن جامى (المتو فى سنة ١٤٩٥) وصار هذا المستشرق فيما بعد من اشهر مترجمى الادب الفارسى فى اوروبا. وقد ود هذا النسل الرومانتيكى من المستشرقين الترجمة الشعرية للآداب الشرقية حتى وان لم يفهموا معنى الشعر العربى والفارسى بتمامه اوقصروا عن تحليله على قواعد النحو.

وعدا التراجم والمقالات عن مسائل الادب جمع هامر فى «معادن الشرق» معلومات تاريخية، مثلا عن حياة البخارى كما وصفها ابن خلكان فى وفيات الاعيان، او عن اسماء النجوم عند العرب للمتخصص فى هذا المضمار، الاستاذ ايدلر Ideler الذى كان قد الف فى مجلة هامر مقالة اخرى فى طرق تأريخ العرب والعجم وتقاويمهم فأصبحت المجلة ميدان مشترك للمستشرقين من المانيا وروسيا، من فرنسا واسكندينافيا؛ ولم يكتف هامر بنشر مقالات علمية فحسب بل زاد عليها ما سماه «مكاتبة من الشرق» وهى مشتملة على رسائل من علماء وبحاثين اوروبيين يسافرون فى الشرق منهم اولرش ياسپر سيتسن U.J. Seetzen الذى عاش فى مصر وقام بالحج فى زى عربى ثم سافر الى اليمن للحصول على معلومات علمية عن تأريخ اليمن القديم وقتل هناك؛ وارسل بعض اعضاء السفارات الاوروبية فى سوريا والعراق باخبار مهمة سواء عن حركة الوهابية ام عن بعض الحفريات فى بابل، عن تربية الخيول العربية ام عن مخطوطات عثروا عليها. وكان هامر يترجم ايضا مقالات واشعار وتوقيعات صادرة من ملوك العرب والعجم فى ايامه، وجلب دقة المستشرقين الى محصولات اقلام الادباءالمعاصرين فى الشرق الادنى، كما قال الاستاذ فيوك فى كتابه عن تاريخ الاستشراق فى اوروبا:

«علق هامر على هذه المراسلة اهمية كبرى خاصة لأنه لم يكن قد تعرف من قبل على وجهة النظر فى علم التاريخ التى لا ترى الا فى ما مضى موضوعا يليق بالبحث الجدى. وكانت نظرته هو الى حياة الشرق الغزيرة نظرة شاملة تأخذ بعين الاعتبار جميع الحوادث من العصور الغابرة حتى حاضر زمانه، ولم يكن يتردد فى الاستماع الى آراء معاصريه الشرقيين.»

ولم يدخل هامر فى هذه المجلة علم اللاهوت ولا الابحاث اللاهوتية واقتصر على اللغات الثلاث المهمة فى بلاد الاسلام وهى العربية والفارسية والتركية الا انه ذكر شيئاً من الادب الهندوستانى، ولكنه لم يحب الفلسفة الهندية التى كانت رائجة فى ذلك الوقت عند الفلاسفة الالمان الذين كانوا يعتبرونها اشرف فلسفة واعلى افادة لاشتياق الروح الانسانية، ويعتبرون الهندوستان وطنا لكل ماهو جميل وجليل، فهجا هامر هذه الطائفة احيانا فى رسائله.

وكان شاعرنا الكبير جويته يستفيد كثيرا من «معادن الشرق» وذكرها فى حواشى ديوانه الغربى - الشرقى شاكرا مديرها وهو يقول:

«إن كتيبى فى جميع فصوله يبرهن الى اى حد انا مدين لهذا الرجل المبجل ... كان قد وصل الى علمى منذ بضع سنوات نشاط حركة العمل المتزايد فى «معادن الشرق.» ولكن الوقت قد حان الآن فقط الذى اهلنى للحصول على

فوائد منها. إن هذه المجلة اشارت الى عدة جهات فقد اظهرت للعصر احتياجاته فأصر بتسديد هذه الاحتياجات وجعلني اومن بصدق اختباراتي من اننا نحصل في كل موضوع على مساعدة قيمة من معاصرينا إذا استطعنا ان نستفيد من فضائلهم ونظهر لهم شكرنا وامتناننا. هناك رجال ذوو معرفة واسعة يلقنوننا دروسا عن الماضي ويوضحون لنا الموقف الذي وصلنا اليه في حاضرنا والذي يكون مسرح اعمالنا ويومئون الى الأمام مشيرين الى الطريق الاقرب الذي يجب علينا ان نسلكه. انه لمن حسن الحظ ان التصنيف البارع المذكور يجد تتمته بالمجهود ذاته ومع اننا نجري بحثنا في هذا المضمار ناظرين الى الخلف فأننا نرجع دائما وبكل سرور وعطف الى كل ما يقدم لنا هنا من جميع الجهات بشكل منعش يانع ومفيد.»

وبعد ذلك اشترك هامر ايضا بمنتهى النشاط في تحرير مجلة اخرى اسمها Wiener Jahrbücher für Literatur نشر في كل من مجلداتها المائة والخمس والعشرين مقالة أو نقدا او اكثر من ذلك، وكتب «مقالات في كل ما كان يثير الاهتمام في مضمار الادب العربي والفارسي والتركي والصيني والسنسكريتي والف تقييمات ومراجعات بجميع كتب السياحة التي كانت تحتوي على اخبار مغلستان وآسيا ومصر وسوريا مما ألف في هذا القرن وماكتب بوجه عام عن الهندوستان وكشمير وافغانستان» وفضلا عن هذه الرسائل في الكتب الجديدة التي يطول بعضها الى الغاية نشر هامر في هذه المجلة ملاحظات واسعة في كتب شرقية، او في مقارنة كلمات فارسية والمانية، او ترجمة مديح بعثت به الحكومة العثمانية اليه، ومايشبه ذلك.

وان كان جويته قد مدح «معادن الشرق» فهوقد استحسن ايضا اقصوصة لهامر نشرت سنة ١٨٠٩ استنادا الى مصادر فارسية وتركية وهي حكاية «فرهاد وشيرين» التي نظم فيها شعراء العجم اشعار غير معدودة.

اما الكتاب الذي خلد اسم هامر وتوج اعماله في حيز الادب الشرقي فهو ترجمته الالمانية لديوان الحافظ الشيرازي، وقد مضى ذكر اطلاعه الاول على اشعار هذا الشاعر العظيم في اثناء اقامته في القسطنطينية. وترجم هذا الكتاب مستفيدا من حواشي السودي التركي الذي يعتبر احسن شارح لاشعار الحافظ وكمل الطبع بعد اجتهاد اربع عشرة سنة (وقال في مقدمة الكتاب انه اتمه في «مرتي سبع سنوات» لانه احب رقم السبعة واللعب بالارقام حتى انه الف مقالة في المجلة الادبية المذكورة في اهمية السبعة عند اهل الغرب والشرق ولاشك ان موضوع «الرقم المقدس» مهم جدا في تأريخ الاديان)

ولم تكن ترجمة هامر للحافظ اول ترجمة لهذا الشاعر في لسان غربي وان كانت الترجمة الاولى التامة. فقد نشر مينسكي النمساوي سنة ١٦٨٠ غزلا للحافظ مع ترجمته اللاتينية، وكذلك هايد Hyde الانكليزي سنة ١٧٦٨، وترجم العالم النمساوي رويتسكي ١٦ غزلا له الى اللاتينية عام ١٧٧١، ولفت المستشرق الكبير الانكليزي و. جونس W. Jones اهتمام اهل الغرب الى هذه الاشعار في كتابه المسمى Poeseos asiaticae commentarium libri sex الذي نشر في ١٧٧٨، واستنادا الى اشغال جونس الذي كان حاكما في كالكوتا طبع ديوان الحافظ في هذه المدينة سنة ١٧٩١ وهو من اول الكتب التي اهتم الانكليز بطبعها في الهند.

اما المستشرقون النمساويون فاستندوا الى التقاليد العثمانية في شرح الحافظ وسائر الشعراء الايرانيين ولم يظن هامر الحافظ «متصوفا كاملا» لا يغني الا عن العشق الالهي مستعملا رموز العشق المجازي. وقال مشيرا الى القاب الشاعر «شمس الدين» و «لسان الغيب»:

«إنه لم يكن هاديا مضيئا للدين، ولم يترجم لسانه الا كلمات الشهوة، لا اسرار العشق الالهي». واصر على رأيه هذا بيدان رئيس المستشرقين سيلفستر ده ساسي الفرنسي كان قد قبل الحافظ متصوفا بحتا كل كلامه اشارات ورموز. اما جويته فألف بين الرأيين المتضادين لانه كان يعرف ان لكل كلمة معنى رمزيا يشير الى حقيقة اعلى منها ولا يمكن التفريق بين العشق المجازي والعشق الحقيقي، او بين الشراب المادي والخمر المعنوية في اشعار هذا الشاعر كما قيل «المجاز قنطرة الحقيقة» وفهم جويته هذه الوحدة الروحانية بين المعنيين وان كان يميل الى ايضاحات هامر دون تفسير ده ساسي و المتصوفين.

وكانت ترجمة هامر في شكل منظوم غير مصقول ومع انها لا تعكس الظرافة واللطافة اللتين امتازت بها غزليات الحافظ إلا اننا نعتقد انها احسن من بعض التراجم الشعرية التي نشرت فيما بعد تحت اسم الشاعر الفارسي بأقلام شعراء المان لاعلم لهم باللغة الفارسية ولا معرفة بطرز الادب الشرقي على الاطلاق اتخذوا منه افادات العشق والشهوة واللهو ومدح الخمر فقط. ولما حصل جويته على ترجمة هامر قرأها مراراً ووجد في الحافظ «اخا روحانيا» له والهمه هذا الكتاب بتأليف ديوانه الغربي — الشرقي الذي يشتمل على كثير من الافكار الشرقية. وافاد ريوكرت Rückert

١٨

١ اعوذ برب الناس ملك الناس اله الناس
من شرّ الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور
الناس من الجنة و الناس
٢ اللهم انّي اعوذ بك من شرّ مايلج في الليل و
من شرّ مايلج في النهار و من شرّ ماتهب به الرياح
٣ اعوذ بوجهك الكريم و كلماتك التامّة من
شرّ ما انت آخذ بناصيته
٤ اعوذ بكلمات الله التامات التي لايجاوزهنّ
برّ و لا فاجر من شرّ ما نزل من السما و الارض
من شرّ فتن الليل والنهار
٥ انّي اعوذ بك من شرّ الاعدا و [illegible]
الغنا و عضال الداء و خيبة الرجا و زوال النعمة و فجاة
النقمة
٦ اعوذ بك من شرّ كل جبار عنيد و شيطان
مريد و شرّ كل ضعيف من خلقك و شديد و من
شرّ الشامّة و الهامّة و اللامّة و الخاصّة و العامّة و من

عن كتاب: ميقات الصلاة، سنة ١٨٤٢.

الشاعر المستشرق الكبير عن استفادة جويته من ترجمة هامر لديوان الحافظ قائلا للعالم النمساوى:
«إن اكثاركم من التآليف يجعلكم لا تتمكنون من تذكر كل ما كتبتم. فلعلكم لم تدركوا عند مطالعة كتاب جويته كم من السطور والمصاريع قد اقتبسهاهذا الشيخ عن كتابكم «الحافظ» كلمة بكلمة ...»
اما هامر فلم يعجبه طريقة جويته فى تغريبه للحافظ وطعن على الشاعر لاجل اشعاره الجديدة فى الطرز الغربى — الشرقى، وفضل على ديوان جويته الاشعار التى غناها شاعران المانيان اخران، احدهما ريوكرت المذكور واخرهما الكونت بلاتن، لان ريوكرت العبقرى حفظ الاسلوب الشرقى بتمامه حتى انه كان يطبق لاول مرة فى تأريخ الادب الالمانى شكل الغزل فقلده صديقه بلاتن فى هذا الاسلوب البديع وعرفا بذلك عامة القراء فى المانيا على اسم الحافظ الشيرازى والاسلوب الشعرى الشرقى.
وعندما رأى هامر ثمار ترجمته هذه للشاعر الفارسى فى الادب الالمانى اخذ فى ترجمة ديوان المتنبى الذى اعتبره الشاعر الاكبر للعرب، ونشر هذا الكتاب بعد ديوان الحافظ بسنوات عشر راجيا منه عين النتيجة الحسنة وقال:
«نعم المترجم إذا اصاب نجاحا وتمكن بواسطة عمله (كما توفق هو بواسطة ترجمته لأشعار الحافظ الفارسى) أن يؤثر على الشعراء الالمان مثل جويته وريوكرت وبلاتن ان يتابعوا توطين الشعر العربى الذى ارتدى حلة المانية...»
ولكنه لم يوفق فى هذة الترجمة، ولم يقبلها العلماء حسن القبول لكثرة اخطائها، ولم يشتغل الشعراء بها لخلوها من الجمال الشعرى وحشوها بعبارات صعبة الفهم على غير المتخصصين، بيد ان بعض اصدقاء المؤلف مدح الكتاب غاية المدح رغم انه لم يبق له اى اثر فى العلم او فى الادب الالمانى.
ومع ذلك لم يزل هامر يقوم بتراجم جديدة، فنشر (بعد ان ترجم اقصوصة «كل وبلبل، لفصلى التركى) سنة ١٨٢٥ ترجمة ديوان باقى الشاعر المشهور التركى (المتوفى عام ١٦٠٠ فى استانبول) ولاشك ان هامر اجاد فى معرفته للغة التركية وكان اكثر أنساً بها منه بالعربية، ولكن اسلوب الشعراء الاتراك فى القرنين السادس عشر والسابع عشر يمتاز بمشكلاته حتى انه يصعب فهمه وحل رموزه على الاتراك انفسهم. وقال هامر فى مقدمته لهذه الترجمة انه بعد ان طوى منطقة البروج فى سماء الادب التركى وجد هذا الشاعر القطب الاعلى والكوكب الازهى، مع انه لا ينكر ان القارىء الغربى قد يستغرب المبالغات الموجودة فى اشعار «باقى» والتلاعب بالالفاظ المتشابكة فى هذه الصنعة.

بعد ان تناول معاصرو هامر «ازهار الجنة وثمارها هذه من المشرق» (كذا وصف بعضهم هذا الكتاب) اشتغل المستشرق الذى لم تأخذه كيلولة ولا كسالة بترجمة الشعر المتصوف الفارسى «كلشن راز» للشبسترى (المتوفى سنة ١٤١٧) احد ممثلى افكار ابن عربى فى ايران. ولم يكن بالوسع فى ذلك الزمن تحقيق ترجمة صحيحة لآثار المتصوفة لان المنابع المهمة لتأريخ هذه الحركة الروحانية والرسائل القديمة الموثوقة كانت لاتزال مجهولة الى حد بعيد. ولذلك حكم ايضا بالفشل على ترجمة اخرى نشرها هامر فى حيز التصوف وهى ترجمة منظومة (!) للتائية الكبرى لابن الفارض التى طبعت مع متنها العربى فى ابهى شكل سنة ١٨٥٤ بمناسبة العيد المئوى للمعهد الشرقى فى فينا. فقال هـ. ل. فلايشر H. L. Fleischer وهو اشهر المستشرقين فى اوروبا بعد وفاة استاذه ده ساسى فى هذا التأليف واصفا اياه بكل احتياط:

«اننا لانرى فى هذه الترجمة الملحقة الا طلائع فجر لايكفى لأكثر من ايضاح المعالم العامة والمقاييس الكبرى للقبة الصوفية المحيرة، بينما لايزال قسم كبير من التفاصيل غارقا فى حجب الغسق او فى غياهب الظلام الدامس: ومع ذلك فان من تمنحه السماء فى العقد التاسع من حياته المتوجة بالشهرة القوة على اختراق عالم الظلمات بحثا وراء منابع الحياة كالاسكندر الشاب، فانه يستحق ان ينال على جراءته الطليعية، دون ان تمس حقوق العلم، الاعتبار والتقدير حتى وإن لم يأخذ الخضر بيده ويوصله الى هدفه...»

اما العالم الانكليزى ر. ا. نيكولسون R. A. Nicholson الاخصائى الكبير فى الابحاث عن التصوف فعبر سنة ١٩٢٣ عن هذه الترجمة قائلا بايجاز: «لقد كان من سوء حظ تائية ابن الفارض أن يكون هامر مترجما لها»

وقال هذا المؤلف نفسه فى طريقة هامر فى الترجمة الشعرية للقصائد العربية انها ما كانت الا عبارة عن اقتباس كلمتين او ثلاثة من كل بيت وحشو الباقى بالمعانى التى تخطر فى باله فى تلك اللحظة... وتشبه افادة نيكولسون هذه النقد الذى كان قد نشره العلامة فلايشر السابق ذكره عندما نشر المستشرق النمساوى ترجمته لاطواق الذهب للزمخشرى فى مستهل سنة ١٨٣٥ فنشر فلايشر فى عين السنة تصحيحا لهذا الكتاب مع ترجمة جديدة ناقدا فيها بلا تردد اخطاء هامر وهفواته، وظن هامر ان هذا النقد الشديد من نتائج ظلم فلايشر وقسوته وان مقصده «الاساءة الى المترجم» فقط: ولذلك لم يزل يقاتل العالم المتبحر الالمانى بالقلم وهجاه فى ترجمة رباعى للشاعر التركى «نجمى» فى القصاب لان معنى اسم «فلايشر» هو «قصاب» ويصفه فى هذا الشعر فى لباس قصاب ظالم قاتل يقوم بجرح كل من دناه وبسفك دمائه...

لم يكتف هامر بترجمة دواوين الشعراء المشهورين فحسب بل كان هدفه الاعلى ان يعرض الادب الشرقى بكماله لاهل اوروبا. ولذلك جمع ماجمع من المعلومات واستخلص منها الاخبار المهمة عن تاريخ الادب الاسلامى فألف فيه كتبا ورسائل؛ واحسن ما صنف فى هذا المضمار هو تاريخ الادب الفارسى Geschichte der schönen Redekünste Persiens الذى نشر سنة ١٨١٨، واهداه للاستاذ الكبير فى حيز الاستشراق، سيلفستر ده ساسى. واستفاد جويته من هذا المؤلف واعترف بقيمته قائلا:

«... هذا التصنيف الذى ليس له مثيل، الذى ينقل الينا

Die vierte Tageszeit.

Der Mittag.

Die Zuflucht.

Ich flüchte zu Gott!

Weihrauchopfer.

1. Ich flüchte mich zu dem Herrn der Menschen, zu dem König der Menschen, zu dem Gott der Menschen vor dem Bösen des Einflüsterers, des Seelenverdüsterers, der verwirrt die Brust der Menschen, ich flüchte mich vor dem Bösen der Genien und der Menschen.

2. O mein Gott! ich flüchte mich zu Dir vor dem Bösen, womit die Nächte schwanger gehen, vor dem Bösen der Tageswehen, vor dem Bösen, das die Winde herwehen.

3. Ich flüchte mich zu Deinem Angesichte, dem gnädigen, zu Deinen Worten, den vollkommenen, vor dem Bösen, das Du bei den Stirnenhaaren fassest.

4. Ich flüchte mich zu den Worten Gottes den vollkommenen, wider die der Gerechte und der Lasterhafte Nichts vermag, vor dem Bösen, das niedersteigt von Himmel und Erden, vor dem Bösen der Unruhen bei Nacht und Tag.

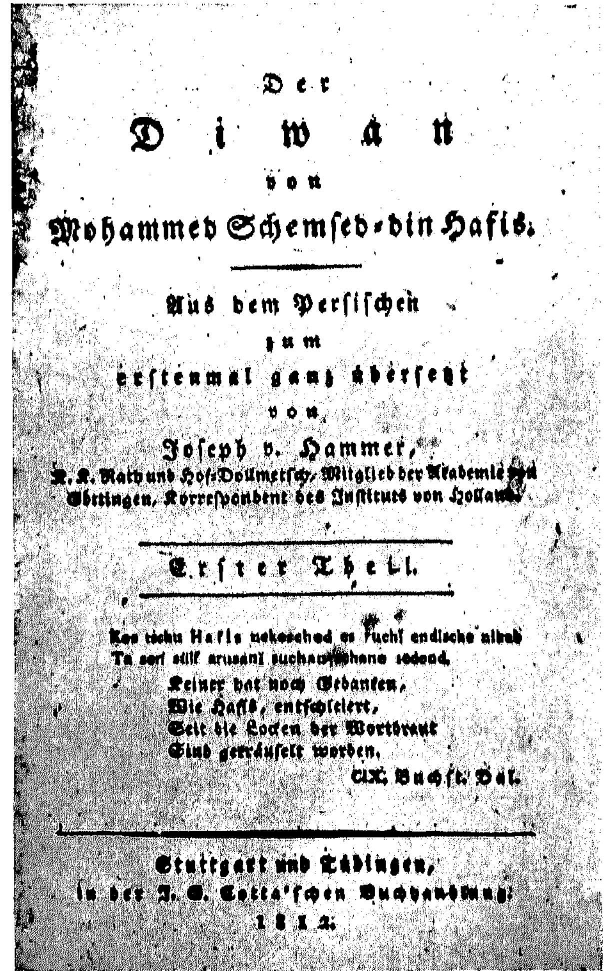
5. Ich flüchte mich zu Dir vor dem Bösen der

3

عن كتاب: ميقات الصلاة، سنة ١٨٤٣.

نحن تاريخ الشعر الفارسى ... حقا ان لدينا الآن اساسا يستطاع ان تبنى عليه الآداب الفارسية بصورة بارعة واضحة وشاملة ...»

كان كتاب هامر هذا اجابة لرغبة العلماء الادباء الالمان فى ادراك مقاصد الفنون الجميلة والآداب فى العالم باسره يجعلوها أساساً للثقافة الاوروبية الجديدة، فكانت الحركة الرومانتيكية (فى حوالى سنة ١٨٠٠) فى المانيا وسائر بلدان الغرب قد ايقظت الميل الى حضارة الشرق والرغبة فى التعمق فى درس هذه الحضارات القديمة الفنية، اى حضارة «المشرق الاكبر» المعتبر اذ ذاك موطن الثقافة ومنبت الاديان ومنبع كل ما هو كبير وجليل فى تاريخ بنى البشر. واذا بهامر يقدم لمواطنيه منتخبات من ادب هذا «الشرق الاسطورى» ورسم لهم ما يشبه رسما تخطيطياً لتطور الادب الفارسى من ابتدائه الى القرن السابع عشر. وكان حب الالمان للايرانيين حديثا فى ذلك الوقت لان علماء اللغة قد اطلعوا على تجانس اللغتين الالمانية والفارسية ولاشك ان


Der
Diwan
von
Mohammed Schemsed-din Hafis.

Aus dem Persischen
zum
erstenmal ganz übersetzt
von
Joseph v. Hammer,
K. K. Rath und Hof-Dollmetsch, Mitglied der Akademie von
Göttingen, Korrespondent des Instituts von Holland.

Erster Theil.

Keiner hat noch Gedanken,
Wie Hafis, entschleiert,
Seit die Locken der Wortbraut
Sind gekräuselt worden.

Stuttgart und Tübingen,
in der J. G. Cotta'schen Buchhandlung.
1812.

عنوان لترجمة ديوان حافظ الشيرازى، ليوسف فون هامر. شتوتجارت سنة ١٨١٢.

هذه المناسبة ايقظت اهتمام الناطقين بالالمانية بتأريخ اقربائهم البعيدين.
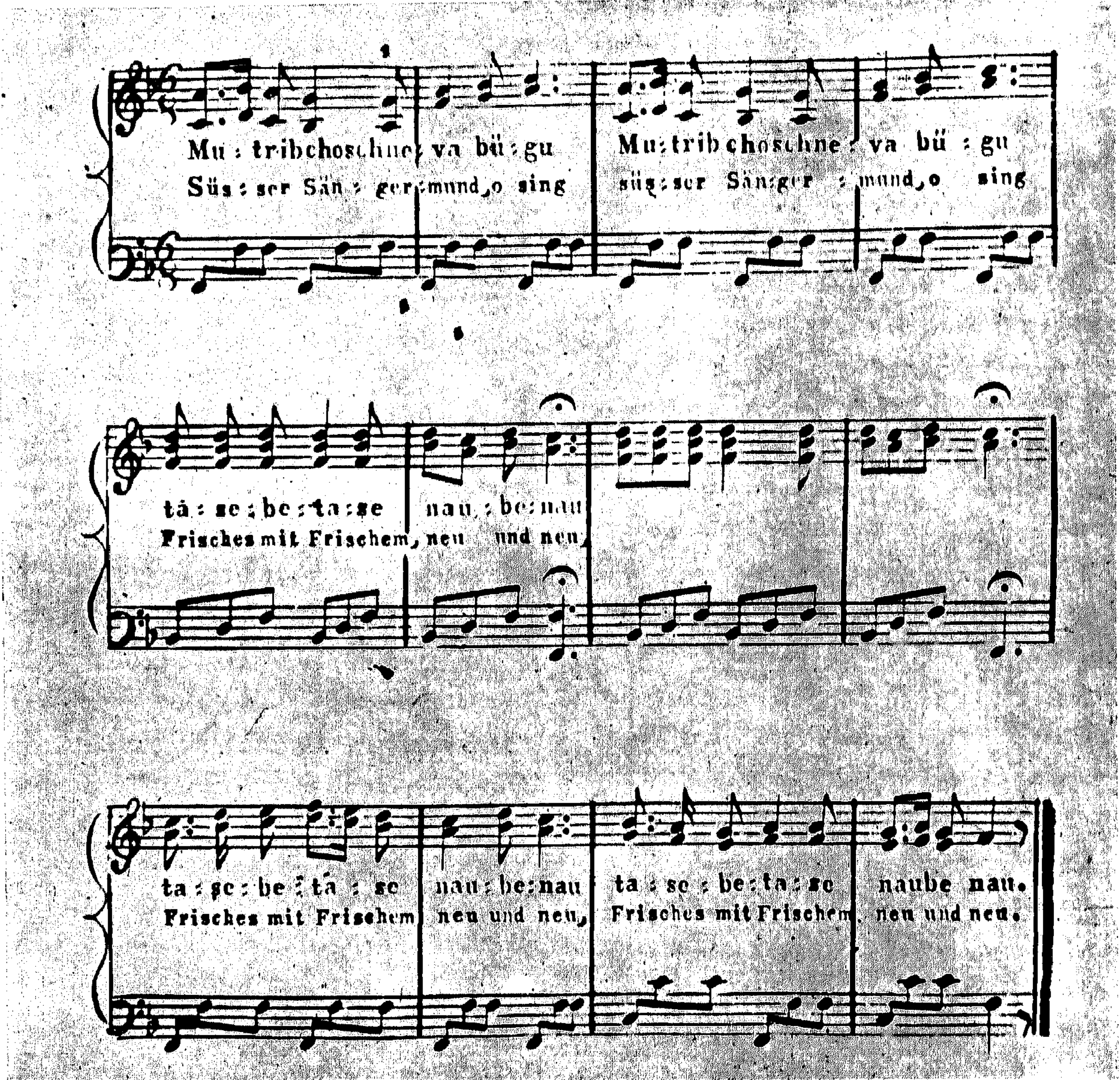
اما «تاريخ الادب الفارسى» لهامر فهو، كما قال المؤلف، «ثمرة مطالعة خمسين مثنويا وديوانا ذات اكثر من مليون بيت». قسم الكتاب سبعة فصول مبتدئا من زمان فردوسى الطوسى (المتوفى حوالى سنة ١٠٢٠) الاستاذ الاول للنظم الفارسى، وعدد هامر الشعراء السبعة الكبار الذين وجدهم فى هذه القرون، وهم فردوسى، ثم انورى (المتوفى سنة ١١٧٠) الذى اشتهر بالقصيدة المدحية، وعين الزمان نظامى (المتوفى عام ١٢٠٩) الذى بلغ نهاية الجمال فى اقاصيصه الشعرية الرومانتيكية التى قلدها فى العصور القادمة شعراء عديدون فى ايران وتركيا والهندوستان. وفى القرن الثالث عشر نجد سعدى الشيرازى (المتوفى سنة ١٢٩٢)، مؤلف اشعار وحكايات مليحة، منها «كلستان» المشهور، وكان معاصره المتصوف الاكبر مولانا جلال الدين الرومى (١٢٠٧—١٢٧٣). ثم فى القرن الرابع عشر نرى الحافظ الشيرازى (المتوفى تقريبا سنة ١٣٨٩) الذى لا كفؤله فى صنعة الغزل وفى ظرافة الافادة وحسن البلاغة. اما فى القرن الخامس عشر فقد جمع مولانا عبدالرحمن جامى (المتوفى عام ١٤٩٥) فى آثاره كل ماسبق من الفنون، اقصوصة كانت ام غزلا، حكاية كانت ام شعراً متصوفا. وترجم هامر منابعه الفارسية بلا نقد، كما عثر عليها، وترجم ايضا كثيرا من ابيات هؤلاء الشعراء، ورغم بعض اخطائه فان هذا الكتاب مازال يحتفظ بقيمته الى الآن لان هامر اوضح فى مقدمته اسلوب الشعر الفارسى واهم التعابير والرموز والايماءات التى يستعملها الشعراء والتى لا بد من درسها لمن اراد فهم الادب الشرقى.

وبعد ان نشر هامر هذا التأريخ بعشرين سنة، قام بتأريخ الشعر العثمانى باربعة مجلدات، تشتمل على اسماء ٢٢٠٠ شاعر! ولا عجبان العالم الذى أبى على نفسه التعب والعجز التى سنة ١٨٤٩ اثنى عشرة محاضرة بين فيها تطور الادب العربى ونشر متن هذه المحاضرات فى رسالة له، ونستدل من اسلوب بيانه انه الآن قدهجر الايرانيين واخذ يفضل عليهم العرب كل تفضيل. قال:

«ان الايرانى يخنق صوت الطبيعة لأنه يملأ فاه باللؤلؤ واوراق الورد بينما تتمكن الطبيعة من قلب الشاعر العربى مرسلة من اعماق صدره صدى يدوى فى افلال الصحراء».

ولما توفى هامر سنة ١٨٥٦ كان قد اكمل سبعة مجلدات ضخمة جدا لتاريخ الادب العربى الذى قصد منه جمع كل المعلومات التى كان العرب قد جمعوها عن آدابهم. ومما يبعث على الاسف انه لايستطيع احد الآن مطالعة هذه المؤلفات الهائلة لانها تفتقد الى الترتيب، ومما زاد فى صعوبة الفهم ان هامر على عادته ترجم الابيات باجمعها نظما، وان اعجبنا اجتهاد المؤلف الذى قد فاق الثمانين من عمره فلا يمكننا ان نعترف لهذا التأريخ الادبى بقيمة علمية او شعرية ...

وكان هامر طول حياته يرغب فى اعداد مجموعات شعرية من تآليف الشعراء الشرقيين، وكان قد ابتدأ بهذا الطرز فى رسالته المقدم ذكرها «شرين» التى يحكى فيها اسطورة الملكة شرين وعشق فرهاد البناء، استنادا الى اشعار شتى فارسية وتركية. ومثال اخر هو المجموعة المسماة بعطر الورد (Rosenöl) وهى مشتملة على حكايات واخبار من بلاد الاسلام، وزد على هذا منتخبات من القاموس الفارسى «فرهنگ شعورى» تحت عنوان «اطواق الجواهر لابى



عن كتاب هامر : تاريخ الاداب الايرانية، نشر فيه لاول مرة النوتة الموسيقية لمقطوعة غزل لحافظ الشيرازى.

المعالى» Juwelenschnüre Abu'l-Maâlis؛ ولكنه لم ينل من المديح لهذا الكتاب ما كان يرجوه. و نجد بعد ذلك خلاصة للاقصوصة الفارسية الشعرية «وامق وعذراء» القديمة (سنة ١٨٣٣) كما الف فى ذكرى زوجته المرحومة عام ١٨٤٤ مجموعة جميلة من الادعية العربية مع ترجمتها الالمانية اسمها «ميقات الصلاة».

ومع ان هذه الترجمات والمجموعات وتواريخ الادب الاسلامى شغلت هامر لسنوات فقد اغتنم الفرصة ايضا لتأليف كتب شعرية ملهمة عن روح الشرق. فألف سنة ١٨١٨ رسالة سماها «البرسيم الشرقى» تحتوى على «اناشيد فارسية وندبات عربية ومدائح تركية» وفى كل من الاقسام الثلاثة توجد سبع قصائد تعبر السبعة الاولى عن فضائل الدين الايرانى القديم، إذ كان هامر يظن ان افكار الدين الزردشتى وقوانينه الاخلاقية كانت قابلة التقليد فى الادب الالمانى بيد ان هذه الديانة والحضارة الايرانية القديمة كادت ان تكون مجهولة فى اوروبا فى ذلك العصر. وعبرت قصائد هامر «العربية» عن طبيعة مصر وفيها يجذب الشاعر نظر القارىء وينقله من ظواهر الطبيعة الى بواطن الروح الانسانية. اما فى القسم الثالث فانه يبتدئ باشعار منسوبة الى يوم الجمعة وفيه مجموعة من امثال تركية. — ومما يشبه هذا الكتاب رسالة اخرى اسمها «حباب العطر» Duft-körner، مقصدها «صهر حرارة الشرق بتألق الغرب،

حركة العقل براحة القلب» (سنة ١٨٣٦). يختم هامر هذه المجموعة بقصيدتى «الرجل الشيخ عند مولده الخمسين» و «الشيخ فى الثالثة والستين» جامعاً فيها اقوال الشعراء فى الشيخوخة ووصفهم للعجز وشكاياتهم منه.

ولم يتورع هامر عن ولوج حقل التمثيل المسرحى، وأول موضوع وجده لائقاً للمسرح الالمانى هو «جعفر او سقوط البرامكة» (كتب سنة ١٨٠٧، وطبع فى عام ١٨١٣) وكان لتأريخ البرامكة شهرة خاصة فى اوروبا منذ اوائل القرن الثامن عشر وقد كان الف بعض المؤلفين مآس فى قضاء جعفر وعباسة، اخت هارون الرشيد (منهم م. كلينجر M. Klinger سنة ١٧٨٢)؛ ولماتناهت اخبار المسرحية المذكورة الى مسامع جويته رغب فى تدقيق اثر هامر هذا وكان قد قال لصديق لهما قبل ذلك:

«انى اتلهف لمشاهدة «البرامكة»، وليست هذه هى المرة الاولى التى تتملك فيها شعور المرء حالة استثنائية فيرى نفسه مضطرا لان يعبر عن هذه الحالة المعقدة والغامضة بأسلوب التمثيلية او المسرحية. فاذا نظرنا الى هذا العمل بأكمله من هذه الوجهة الاخيرة ظهر لنا انه عمل بدون جدوى، ومع ذلك فان الرجل قد نقل الينا شيئاً لم يستطع التعبير عنه بالاسلوب القصصى او باسلوب الاحاديث وانى لابد مخطىء خطأً كبيرا اذا لم تكن لهذه المسرحية قيمة لا بأس بها من هذه الناحية..»

خيل لهامر تصنيف كثير من المآسى الشرقية ولكنه لم ينشر منها الا واحدة بعد نشر «جعفر» وهى «محمد او محاصرة مكة» (١٨٢٣). اراد المؤلف منها الرد على المأساة المشهورة للفيلسوف الفرنسى فولتر Voltaire (١٦٩٤—١٧٧٤) الذى كان قد صور محمدا الرسول فى شكل خائن منافق تابعا التقاليد الغربية القديمة وهادما من وراء تلك المسرحية الهجوم على الاديان باجمعها لا على الاسلام وحده. اما هامر فحاول فى هذه المسرحية الدفاع عن محمد ونواياه وان لم يوفق من اللحاظ الفنى الجمالى.

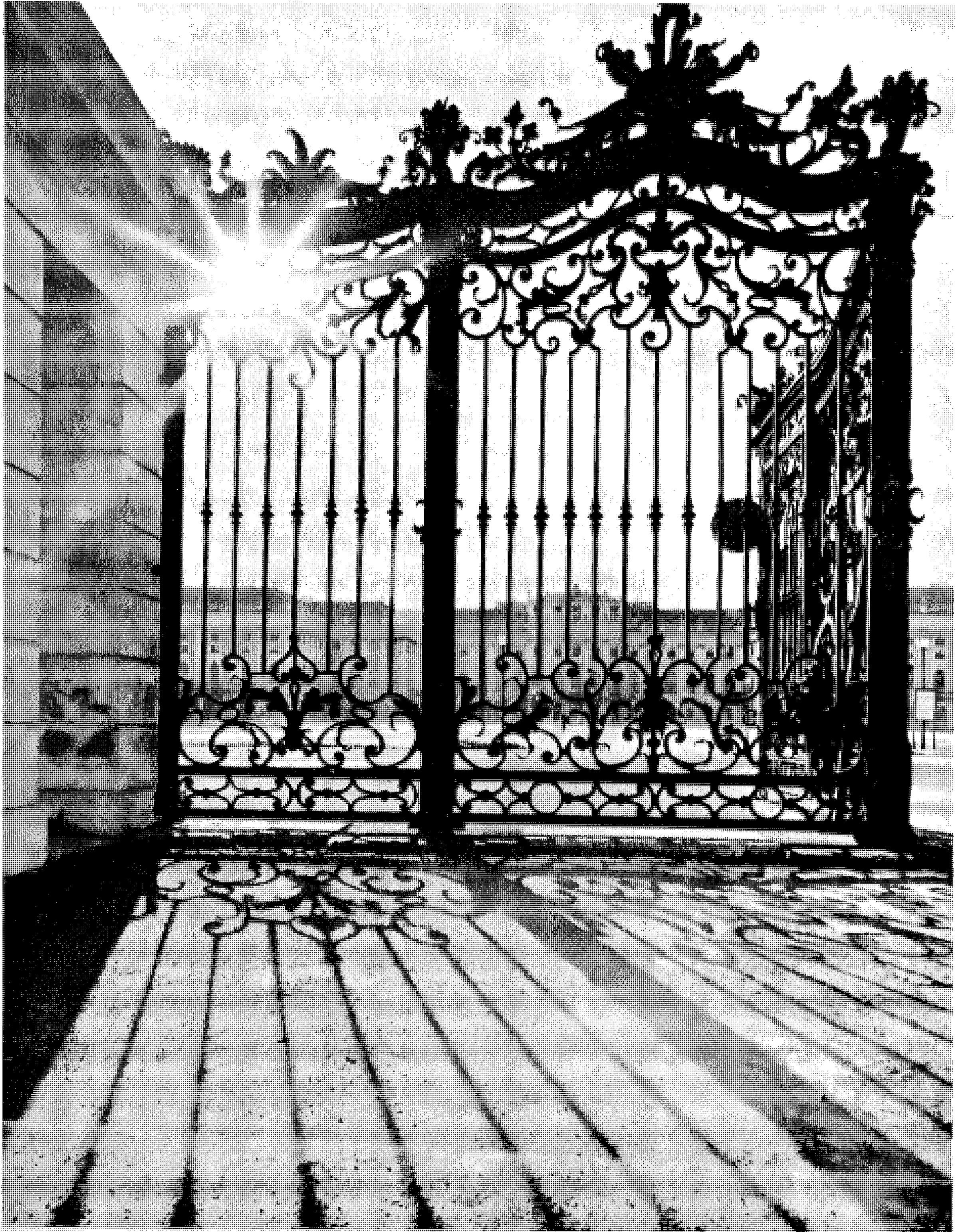
وفضلا عن هاتين المأساتين نجد هامر يكتب (وذلك ايضا فى عام ١٨٢٣) ثلاث مسرحيات خفيفة، مواضيعها ماخوذة من الادب الهندى والفارسى والتركى (Memnons Dreiklang).

ولكى يتحقق هدفه فى عقد الصلة بين الشرق والغرب لم يكتف هامر بترجمة اشعار شرقية الى الالمانية بل قام ايضا بترجمة افكار الامبراطور الرومانى ماركوس اوريليوس (المتوفى سنة ١٨٠) الى الفارسية ليستفيد اهل الشرق من نموذج من الحكمة الغربية (سنة ١٨٣١).

وان كان القارئ الصابر قد تابع تعداد آثار هامر الادبية الى الحد الذى وصلنا اليه فلا شك ان تأخذه الحيرة تجاه هذا الجلد وهذا الاجتهاد، ولعله يظن ان هذا الانتاج سيكفى لحياة رجل بل بضعة رجال. ولكنه سيزداد دهشة وتعجبا اذا داوم على متابعة فعالية هامر فى سائر ميادين العلم؛ لان العالم النمساوى كان مشغوفا لا بالاداب الشرقية فحسب بل بتأريخ الشرق على العموم، وقد نشر مؤلفاته الاولى فى هذا المضمار عند اقامته فى استانبول حيث حصل على كثير من الوثائق المفيدة لتأريخ الدولة العثمانية، والف نتيجة لذلك التحصيل كتابا عن دستور الدولة العثمانية وسياستها Des Osmanischen Reiches Staatsverfassung سنة ١٨١٦. وبعد ذلك بسنتين، فى ١٨١٨ نجده ينشر «تاريخ الحشحاشين» الذى اهداه للمؤرخ الشهيرى. فون ميولر J. von Müller الذى لفت انتباهه الى مسائل تأريخية عندما كان هامر فى عنفوان الشباب. وظن هامر ان تأريخ الحشحاشين «سيفتح بابا الى معادن التأريخ الاسلامى المجهولة». ولكن القارئ العصرى لايرى فيه الا تجربة ضعيفة لايضاح وقائع كثيرة التشاكل لم يمكن فى ذلك الزمن ايضاحها لنقصان المنابع وقحط البحاث وعدم توفر الوسائل العلمية. وهامر محق فى وصفه وضعية المؤرخ الباحث عن اى موضوع فى تأريخ الاسلام حيث يقول:

«إن المؤرخ ليشاهد امام ناظريه سطوة ممالك الدنيا العظيمة وقد انصبت اشعتها فى نقطة واحدة الى جانب قوة كل من الدول المتعددة وقد توزعت فى الف شعاع، وانه لىرى السر الاسطورية لأقدم الممالك الى جانب ادق التواريخ لاحدثها، كما يبدو امامه عهد الجاهلية قبل بعث الرسول، وايام المعرفة والهداية بعده، كل ذلك الى جانب معجزات الفرس، وبطولات العرب، وروح المغول المدمرة التى اجتاحت اطراف العالم، وحكمة العثمانيين فى اقامة دولتهم وتدعيمها ...»

ولما كان هامر طالبا فى المعهد الشرقى أخذ بمطالعة «كشف الظنون» لحاجى خليفة الاديب التركى (المتوفى ١٦٥٧) وكرر مطالعة هذا الكتاب مرارا ثم اضاف على المعلومات التى حصالها من الكاتب التركى المتبحر ماجمعه من الوثائق الرسمة والمخطوطات فكتب «تاريخ الدولة العثمانية» وهو عشرة مجلدات، ولكنه صنف ايضا خلاصة ذات اربعة مجلدات لهذا التأليف العظيم الذى مازال ذا قيمة واهمية الى الآن لانه يحتوى على اخبار لا توجد فى مؤلفات اخرى بيد ان اسلوبه صعب جدا، كثير التشبهات يشبه اسلوب المؤرخين العثمانيين. ومع ذلك فقد بدئ فى



فينا : الحوش الكبير لقصر شونبرون Schönbrunn (المبنى بين عامى ١٦٩٤ و ١٧٧٥). تصوير : هاينس برناتسيك، ووكارابروك، نمسا.

المانيا بطبع واصدار جديد لهذا التأريخ سنة ١٩٦٣.
وفى الفترة نفسها جمع هامر سير الخلفاء والامراء والملوك الكبار ونشر خمسين منها فى «ايوان الصور لحكماء المسلمين الكبار فى القرون السبعة الاولى للهجرة» Gemäldesaal يعالج فيه مفصلا سير الملوك المشهورين فى بلاد الاسلام، مبتدئاً بسيرة الرسول الى ان ختم كتابه (وهو ٢ مجلدات، نشر بين العامين ١٨٣٧ و ١٨٣٩) بسيرة قلاوون المصرى.
ولكنه كف عن معالجة تاريخ الاسلام باسره معترفا
«ان عروق الذهب والكنوز الخفية فى تاريخ العرب والفرس والاتراك العثمانية والتتر ليست معروفة معرفة كافية والذهب الخام الذى تحتويه هذه الكنوز لم تجر عليه لحد الآن عمليات الغربلة والتصفية بشكل يدعو الى الراحة ولم تفصل الجواهر الثمينة بعد من التربة الملتصقة بها ولم يصقل بعد جيدا بحيث يمكن ان يؤلف منها الآن عمل فنى تاريخى عظيم.»

ومع ذلك تجاسر هامر على تأليف تأريخ للاولاد مونكه سبط جنكز خان الذين اشتهروا باسم «السلالة الذهبية» فى القبجق فى جنوب روسيا؛ وسبب هذا المؤلف الذى صنفه هامر اجابة لمسابقة علمية اقامتها الاكاديمية الامبراطورية الروسية مناقشات طويلة ومعارضات قبيحة بين هامر وزملائه الروس الذين رفضوا الكتاب تماما ولم يعتبروه جديرا بالجائزة الموعودة. ولم تمنع تلك النتيجة الحزينة العالم النمساوى من ان يكتب رسائل اخرى فى تأريخ الاتراك والتتر، منها تاريخ الايلخانيين فى ايران (١٨٤٢) وتأريخ ملوك القريم (١٨٥٦). وترجم ايضا تأريخ وصاف المؤرخ الفارسى المشهور بصعوبة اسلوبه المزهر المسجع. هذا والكتب المذكورة كلها لا تستحق الذكر الا لانها شاهدة على اجتهاد هامر الذى لم يهتم بمشكلات المتون ولا بانتفاء وجود المصادر الكافية لاضاءة ظلمات هذه الادوار التأريخية غير المعروفة بل كتب ما كتب كأن القلم يحرق اصابعه وكان لا يضيع وقتا فى تنظيم مؤلفاته او فى تصحيحها ولم يقبل اى نقد لطريقته العلمية.
إن ماذكرناه من الكتب حتى الآن هى الكتب الكبيرة الحجم، ولكن هامر ألف علاوة عنها رسائل غير معدودة فى مسائل مختلفة، فى البيزرة وفى الموسيقى الشرقية، فى دين ميتراس الايرانى وفى الفرسان الرهبان، ولم يهمل تاريخ وطنه النمساوى ولا الادب الاوروبى فى منشوراته التى تكون فى الواقع مكتبة خاصة ذات مئات الرسائل ....
ادعى هامر انه لم يعرف الطموح ولا الغيرة الشخصية وانه لا سبب لفعاليته العظيمة الا الهمة العليا وحب العلم. وقال اخرون انه كان يحب المناقشات والتفاخر حتى ان هذه الاوصاف غير المحمودة افقدته كثيرا من اصدقائه. ومثال مشهور لهذه الغيرة هو مناقشته مع تلميذه ريوكرت السابق ذكره حول تلفظ بعض الكلمات الفارسية، وايضا لان ريوكرت قد وفق فى ترجمة باعثة الحيرة لمقامات الحريرى؛ وان كان هامر قبل هذه الترجمة الشعرية المسجعة لأول وهلة بيد السرور ونظم فيها رباعيا معبرا عن تمنيه الخالص بان هذا الكتاب سيطبع بالذهب على البردى، الا انه قام بعد مدة بانتقاد نفس الترجمة وبتوجيه اشد الوان الملامة للمترجم العبقرى مدعيا انه نفسه ابدع الاسلوب المسجع فى الأدب الالمانى وان ريوكرت غير معنى الكلمات والتعابير لاجل مقاصد جمالية ...
ولكن علينا ان نعترف ان هامر كان يمد مواطنيه وتلامذته كل عون اذا ارادوا درس الشرقيات والتحصيل على معلومات فى مواضيع شرقية. كما قال فى رباعى له، مشيرا الى معنى اسمه هامر وهو «مطرقة»:

Ich bin genennet Jussuf Hammer,
Doch heiss' ich nicht für alle gleich:
Den Freunden Jussuf in der Kammer;
Die Feinde trifft des Hammers Streich.

وسميت يوسف ذا المطرقة
ولكن اسمى ليس سواء:
فى الدار بين الاحبة يوسف
لكن على الخصم تهوى المطرقة.

واجاد احد المستشرقين الالمان وهو آلوارد Ahlwardt (١٨٢٨—١٩٠٩) فى مقالته عن خلف الاحمر حيث يصف ترجمة هامر لقصيدة هذا الشاعر كثمرة من اثمار خياله، لما اعترف بخصوصية هامر قائلا:
«كان هدفه أن يفهم الشرق من جميع نواحيه وأن يقود العالم الاوروبى لادراك الشرق كما انطبع فى عقله. هذا يفسر لنا سر نشاطه الفذ والدافع الداخلى لاقتباسه المعارف والسعى الى اطلاع الغير على المعلومات وهذا سبب انتاجه الخصب لكتب كبيرة وسبب كده وعمله المتواصل دون كلل طالما كان فى حيز النهار».
ومع كل اخطائه اللغوية و النحوية، ومع ان اكثر مؤلفاته العلمية لم تثر الا نقد المستشرقين الشديد، فانه يجب على القارئ الاعتراف انه لا يوجد مستشرق فى تأريخ الثقافة الالمانية أثر فى ادب عصره تأثير هامر الذى وفق الى الهام شاعرنا الاكبر بغناء اشعاره الخالدة فى ديوانه الغربى- الشرقى.

وقد ضربت حكومة النمسا وساما تذكاريا لهامر، منحوتا عليه
إنه وصل بين آسيا واوروبا

أبحاث هاينريش بارت

(١٨٢١ - ١٨٦٥)

بقلم : الأستاذ فيلكس فرانكه

ولد هاينريش بارت البحاثة والرحالة الألمانى عام ١٨٢١، وتوفى عام ١٨٦٥، وقد نشرت دار نشر فرانس شتاينر بفيسبادن فى عام ١٩٦٧ كتابا تذكاريا لمناسبة مرور مائة سنة على وفاته. ومع أن بارت كان يكثر من التجول والترحال فى الأناضول وأوربا الشرقية والجنوبية وقد ألف عن رحلاته ما ألف من الكتب والمقالات، فسياحته الاكثر شهرة هى الرحلة التى قام بها فى افريقيا بين عامى ١٨٤٩ و١٨٥٥، والتى جمع فى اثناءها معلومات كثيرة حول تاريخ أهل افريقيا الشمالية والمركزية وعاداتهم وتقاليدهم كما أنه جمع الأخبار الجغرافية والمتعلقة بالعلوم الطبيعية على العموم وهذا أول كتاب ألف فى أوربا حول هذه المنطقة غير المعروفة.

ونظن ان اكتشافات بارت فى افريقيا وملاحظاته فى حضارة السكان المسلمين فى منطقة تشاد والنيجر مهمة جدا فى يومنا هذا حينما نشاهد الاسلام فى افريقيا ينتشر ويزداد قوة. لذلك نود أن نقدم لقرائنا ورقة من تاريخ الاكتشافات الألمانية فى أفريقيا الغربية والشرقية.

وعلى القارئ ألا ينسى أن كلمة «السودان» كانت تستعمل فى زمان بارت لتشير الى المنطقة المركزية فى افريقيا، اى ما يلى تشاد حتى مملكة نيجيريا غربا ومالى شمالا، ولم تطلق أبداً على السودان الذى نعرفه اليوم!

عن كتاب : *Heinrich Barth. Ein Forscher in Afrika. Leben · Werk · Leistung*. Herausgegeben von Heinrich Schiffers. Franz Steiner Verlag, Wiesbaden 1967.

عندما جاب هاينرش بارت Heinrich Barth فى منتصف القرن الماضى ربوع السودان وراح يستكشف بقاعه، لم تكن هذه البلاد الواسعة معروفة جيداً فى اوروبا ولاتاريخها القديم والحديث ولاأوضاعها الاجتماعية والثقافية المعقدة. وكان علم اللغات الشرقية لا يزال حقلا علمياً فتياً، كما استطاع بارت أن يعتمد فى حالات قليلة جداً على أبحاث ودراسات تمهيدية سابقة. فقبل بارت كان الرحالون قد اخترقوا افريقيا حتى أواسطها. ولكن بارت يتفوق عليهم جميعاً كعالم حق. فقد جمع ما بين البحث النظرى والعملى على أحسن وجه.

١ — سيرته

ولا نعرف الشئ الكثير عن دراسات بارت الشرقية. فكما كتب ستانلى لين–بول Stanley Lane-Poole عن حياة حميه، المستشرق المعروف والمعاصر لبارت، إدوارد ويليام لين Edward William Lane، فقد قام صهر بارت، شوبرت Schubert، بكتابة سيرة حياة حميه بارت. وفيما عدا خبراً مختصراً مفاده أن بارت كان قد درس مدة اربعة أشهر على يدى استاذ للاستشراق فى لندن، فاننا لا نعرف شيئاً اكثر من ذلك عن دراسته الشرقية. وكان بارت على صلة بعدد من المستشرقين : كجون نيكولسون John Nicholson فى بنريث Penrith، وبلاو Blau ورالفس Ralfs. ولا نعرف كان قد تعرف أيضاً على لين Lane فى انكلترا. وكان بارت قد قرأ كتابه «عادات وتقاليد المصريين الحديثين» "Manners and Customs of the Modern Egyptians" الذى كتبه بعد أن أقام عامين فى مصر، كما أشار إليه واقتطف منه فى كتابه «رحلات فى افريقيا» "Reisen in



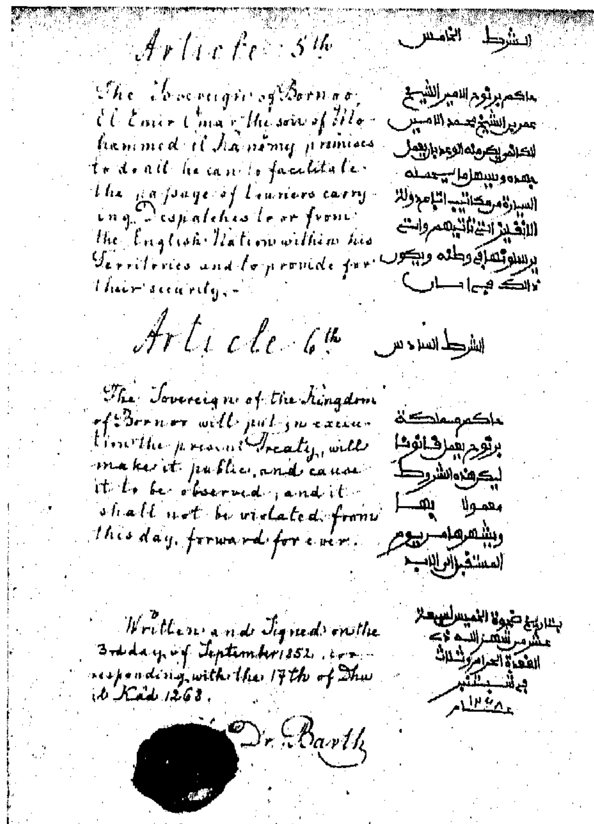
تصوير هاينريش بارت Heinrich Barth

عن كتاب:
Frühe Wege zum Herzen Afrikas
Turris-Verlag, Darmstadt, 1969

Afrika" ويتشابه الباحثان كثيراً فى موقفهما الذى ينطوى على احترام الحضارات الغربية عليهما. وفى مقدمة كتاب لين المذكور، يقول المؤلف (ص. XI): «لقد عاشرت المسلمين من جميع طبقات المجتمع بوجه خاص: فكنت اعيش كما يعيشون وأتكيف لعاداتهم العامة؛ ولكى أجعلهم يألفوننى ويتخلون عن أى تحفظ تجاهى فى كل موضوع، فقد كنت اظهر موافقتى لهم فى الرأى كلما سمح ضميرى بذلك، وكنت، فى أغلب الحالات الاخرى، أتحاشى التعبير عن مخالفتى فى الرأى، كما أتحاشى القيام بأى عمل من شأنه أن يثير اشمئزازهم؛ فكنت امتنع عن تناول الطعام الذى يحرمه دينهم، وعن احتساء الخمر، وما شابه ذلك؛ كما كنت اتجنب العادات التى لا تروق لهم كاستعمال السكاكين والشوكات اثناء تناول الطعام.»

وبطريقة مشابهة لذلك يتحدث بارت فى مقدمته (ص XXIX وما تلاها)، فيقول إنه يرى أن من «الفطنة أن اتكيف فى الملابس والأمور الأخرى لعادات أهل البلاد، وذلك بارتدائى زياً نصفه عربى ونصفه سودانى، يكون اكثر ملاءمة لمناخ البلاد، كما يبدو فى نظر أهل البلاد اكثر حشمة من ملابس الأوروبيين. وبل تبدو بعض التصرفات فى حياة الاوروبيين اليومية عملا مشينا فى نظر المسلمين، بحيث أن الرحالة المنفرد الذى لا حول له ولا قوة والذى يسعى إلى النجاح فى مشروع لا يخلو من النبل، سيكون بعيداً عن الحكمة إذا رفض التكيف بهذا الخصوص لمشاعر أهل البلاد وأعرافهم ... ومن الجهة الاخرى فان بعض عادات المسلمين مليئة بالورع الحقيقى، بحيث اننى اعتقد أن الرحالة المسيحى يستطيع أن يتكيف بازائها دون أن يؤثر بذلك على خلقه المسيحى بأى شكل من الأشكال.»

أما ما يتعلق بدراسات بارت الشرقية، فقد كان، بوجه عام، وعلى ما يبدو، عصامياً. وكانت اللغة العربية بالنسبة له وسيلة للتعرف على البلاد وأهلها. ولو استخدم اللغة العربية الفصيحة فى السودان لما استطاع التفاهم مع أهل البلاد، حيث أن السكان المسلمين لم يكونوا يتمتعون بوجه عام بمستوى ثقافى رفيع. ولذا فقد كان عليه أن يتعلم اللهجة العامية للوصول إلى غايته. وكان بوسع



الشرط الخامس

Article 5th

The Sovereign of Bornoo, El Emir Omar the son of Mohammed el Kanemy promises to do all he can to facilitate the passage of couriers carrying despatches to or from the English Nation within his Territories and to provide for their security.

الشرط السادس

Article 6th

The Sovereign of the Kingdom of Bornoo will put in execution the present Treaty, will make it public, and cause it to be observed, and it shall not be violated from this day forward for ever.

Written and Signed on the 3rd day of September 1852, corresponding with the 17th of Dhu el Kada 1268.

Dr. Barth

عقد وقع عليه هاينريش بارت مع ملك «بورنو» Borno فى ٣ سبتمبر ١٨٥٢.

عن كتاب:
Frühe Wege zum Herzen Afrikas
Turris-Verlag, Darmstadt, 1969

بارت التفاهم بدون جهد بالعربية. وبمناسبة مثوله بين يدى السلطان عبد القادر فى ميسينيا، يكتب بارت[1]: «ألقيت كلمتى بالعربية، بينما راح صديقى الأعمى سمبو يترجم حديثى إلى لغة البغرمى كلمة كلمة، كما كان يعطينى إيماءة بين حين وآخر، كلما بدا له أننى استخدمت تعابير قوية جداً.» أما هذه «التعابير القوية جداً» فهى على ما يبدو اصطلاحات لغوية من العربية الفصحى، ممزوجة باللغة العامية، كانت تبدو مثيرة جداً لمترجمه.

وبالإضافة إلى العربية كان بارت يتحدث كذلك لغات الفولبه والهاوسا[2] والكانورى[3]. ورغم موهبته الكبيرة لتعلم اللغات فانه لم يقم بنشر النصوص العربية التى جمعها وإنما كلف المستشرقين المذكورين أعلاه بذلك. وبطبيعة الحال فان تصحيحات بارت لهذه الترجمات التى كلف بها غيره لم تكن صحيحة دائماً؛ كما أن الوثائق والإيصالات التى كتبها بارت بالعربية لا تخلو أحياناً من اخطاء تتنافى وقواعد اللغة العربية. ولكن بارت كان على أى حال قادراً على قراءة كتابات ومؤلفات الجغرافيين والمؤرخين العرب وكذلك المخطوطات التى ذكرها، كتزيين الورقات[4]، وتاريخ السودان[5]، والانفاق الميسور[6] مثلا، قراءة فاحصة نقادة ومتمكناً من تقييمها لأغراض أبحاثه الخاصة — وهذا مجهود لا يجوز الاستهانة به. وهناك عدد قليل من الرحالين العلماء الذين يستطيعون أن يتباهوا بميزة اتقان اللغات واللهجات المختلفة للبلاد التى يجوبونها لأغراض الاستكشاف ونذكر فى هذا المجال بوجه خاص المستشرق ماكس فرايهر فون أوبنهايم Max Freiherr von Oppenheim الذى عين عام ١٨٩٤ رئيساً لبعثة استكشافية إلى بحيرة تشاد، والذى أشاد فى كتابه «رابح ومنطقة تشاد»

١) Reisen in Afrika (R. i. A.)، المجلد ٣، ص ٣٧٠.
٢) R. i. A.، ١، ٤٤١.
٣) R. i. A.، ٣، ٢٥٨.
٤) R. i. A.، ٤، ١٨٨.
٥) R. i. A.، ٤، ٢٠٢.
٦) R. i. A.، ٤، ١٨٨.

(Berlin 1902) "Rabeh und das Tschadgebiet" بأعمال بارت واكتشافاته(٧).

لقد قام بارت بتصحيح كثير من التصورات الخاطئة عن السودان. ولم يستفد من أبحاثه واكتشافاته حقلا الجغرافيا والاثنولوجيا فحسب، وانما أفاد الاستشراق من ذلك بنفس القدر. فلم يبحث أحد من قبله تاريخ الإسلام فى السودان كما فعل هو. ولكن كتابه «رحلات فى افريقيا» لا يعتبر مصدراً لا ينضب بالنسبة للمؤرخ فحسب، بل وكذلك بالنسبة لعالم اللغة بين المستشرقين. ولو اعتبرنا الأمر من وجهة نظر البحث العلمى الحديث فان لدينا اليوم، وخاصة فى علم اللغة، معرفة تفصيلية اكثر دقة. وقد زادت المصادر الجديدة المكتشفة فى عشرات السنين التالية من معرفتنا هذه. ومن الجهة الاخرى، لا بد أن نأخذ بنظر الاعتبار أن بارت أراد نتيجة الالحاح الشديد من جميع الجهات أن ينشر كتابه «رحلات فى افريقيا» فى أسرع وقت ممكن — فقد طبع عمله المكون من خمسة مجلدات بعد عودته بعامين، بل إن النسخة الانجليزية من مؤلفه ظهرت قبل ذلك. ولذا فان بعض الأمور التى تستحق اهتماماً اكبر لا تظهر إلا فى الهوامش.

ليس الغرض من هذه الدراسة سد الثغرات الموجودة فى تفاصيل بارت بطريقة منظمة، ولا تصحيح هذه التفاصيل حيثما يبدو ذلك ضرورياً. إذ يجب أن ينظر إلى عمل بارت أولا من زاوية عصره، وإنه لمن غير المجدى قياس هذا المؤلف بمقياس غير المقياس التاريخى. وسأقتصر فيما يلى على معالجة الحقلين الذين يعتبر استكشافهما على يدى بارت ذا أهمية قصوى بالنسبة للاستشراق، واعنى بهما: تاريخ الإسلام، وانتشار اللغة العربية فى السودان.

٢ — الدراسات الخاصة بالاسلام والمسلمين فى السودان

عند ذكر كلمة الاسلام، يجب أن نميز هنا أمرين مختلفين: الإسلام كدافع تاريخى سياسى، والإسلام كنظام دينى. ومنذ بدايته الأولى انطبع الإسلام بصلة قوية بالحياة الدنيا. فلم يكن الدين الجديد مجرد «صراط مستقيم» يسير عليه المؤمن بثقة وأمان إلى سعادة الآخرة وجنة الخلد فحسب، وانما تعهد بالاهتمام بحياة المؤمنين الدنيوية ونظم علاقاتهم ومعيشتهم الاجتماعية بنظم وقوانين دقيقة. وكانت المجتمعات الاسلامية الفتية منظمة تنظيما شديداً، كما أنها شكلت، بالنسبة للخارج على الأقل، جبهة موحدة — وصارت بذلك سلاحاً قوياً تجاه شعوب كانت وهى فى ذروة تطورها متماسكة تماسكاً ضعيفاً بفعل تقاليد قديمة، مما أدى الى انهيارها أمام موجة الفتح الاسلامى.

وتمت الفتوحات الاسلامية بصورة عاصفة فى شمالى أفريقيا التى اعتنقت دين الفاتحين بسرعة. وبلغ سلطان الفاطميين فى القرن العاشر من فلسطين حتى المغرب الاقصى. أما فى اتجاه الجنوب، نحو قلب افريقيا، فقد كان تقدم الاسلام ابطأ بكثير. وظلت ممالك سونغاى وغانا وكانم القديمة — كما ظلت غيرها أيضاً — فى مأمن من التغيرات السياسية الجارية فى شمالى افريقيا، تحميها صحار يصعب اختراقها. غير أن التجار والرحالين خلقوا شيئاً من الاتصال منذ القرن التاسع بين العرب فى الشمال والسكان السود فى داخل القارة الأفريقية. ولكن الغزوات الحربية لم تبدأ إلا بظهور المرابطين. وكان هؤلاء من البربر القاطنين فى الصحراء الكبرى من قبائل اللمتونه، التى أخذت تزيد من عنف غزواتها الحربية باسم الجهاد فى سبيل الله وتحت راية الدين الجديد. وأقام هؤلاء على امتداد الحدود الجنوبية للبقاع التى فتحوها لدين الإسلام حصوناً وروابط(٨) عسكرية، كانوا يتدربون فيها تدريباً دينياً وعسكرياً، وكانت تخدمهم كقواعد ينطلقون منها فى غزواتهم للبلاد المجاورة.

وحتى أيام حياة بارت كان بعض العرب فى هذه البقاع يتفاخرون بكونهم من نسل المرابطين، ويذكر بارت نفسه كيف أنه قابل عربياً زعم أنه سليل بربر اللمتونه المذكورين(٩): «... وبعد ذلك قابلتنا فئة اخرى من المسافرين، كان بينهم رجل لمتونى، وهو مغربى، مزيج من دم عربى وبربرى من قبيلة اللمتونه القديمة، التى، بعد أن كانت فى الماضى تشكل العنصر الرئيسى للمرابطين الأقوياء، استوطنت الآن فى مجموعات صغيرة على شاطئ المحيط الأطلسى.»

ويخبرنا بارت كذلك أن سلالة هذه القبيلة البربرية تعيش منفصلة عن بقية السكان، فى أماكن سكنية خاصة. وبلغ بارت أثناء ركوبه فى الصحراء أحد مرابع «المرابطين» ويقول حول ذلك(١٠): «وكنا قد قطعنا ميلين فى هذا

٧) لقد الغيت البعثة الاستكشافية لأسباب تكنيكية وسياسية؛ غير أن الكتاب يعتمد على أخبار الرحالين إلى افريقيا الوسطى الموجودين فى مصر.

٨) جمع (رباط) وهذا هو أصل تسميتهم.
٩) R. i. A.، ٤، ٢٣٦.
١٠) R. i. A.، ١، ٣٥٢–٣٥٣.

الوادى عندما نزلنا فى مكان فسيح مكشوف محاط بأشجار الأبيسكا الخضراء. وكان يقع فى الجانب الآخر من تين طرح عوده، وهى قرية المرابطين أو الأينسلمين، وهى تمتد فى صف طويل على إمتداد الهضاب المنخفضة عند بداية السلسلة الجبلية. وتتألف القرية من حوالى المائة منزل، وهى فى الغالب اكواخ بنيت من الأعشاب وسعف النخيل، بينما لم يبن إلا القليل منها من الحجر. ورغم صغرها، إلا أن القرية هامة بالنسبة للمواصلات بين شمالى أفريقيا ووسطها، تلك المواصلات التى لا تتم إلا بحماية اعتبار أولئك الرجال العلماء المتدينين وذلك بأمان يثير الدهشة إذا ما اعتبرنا الطبيعة الوحشية اللصوصية التى يمتاز بها سكان هذه البقاع ... ورغم أن الأينسلمين يسمون أنفسهم «أتقياء ورعين»، إلا أنهم لم يحرموا أنفسهم من حاجات هذا العالم؛ بل على العكس من ذلك، فهم يحافظون على حياتهم ووجودهم بطموحهم، ومكائدهم وتصرفاتهم العامة بحيث يمارسون تأثيراً هاماً على أوضاع البلاد.»

وفى مكان آخر يصف بارت خلف المرابطين المزعومين اولئك على الشكل التالى[11]: «وكانت ثياب اغلب الرجال بيضاء كذلك، ولكن اكثر صفة مميزة لهم كانت أن كثيراً منهم كانوا يرخون شعورهم فى جدائل طويلة. وهذه علامة على أنهم من الأينسلمين، أو المرابطين (أى الأولياء)، وهى صفة يدعونها لأنفسهم رغم عاداتهم البعيدة عن الصرامة والتزمت. ورغم أنه لا مدرسة لهم، إلا أنهم فخورون بتنصيبهم معلماً فى مسجدهم الذى لا حاجة به أن يكون فخماً عظيماً.»

ولكن لنعد من النسل إلى المرابطين الاصليين فى القرن العاشر الذين خضعت لغزواتهم وما تلاها من غزوات ممالك سونغاى وغانا وكانم القديمة. واعتنق رعايا هذه الممالك الوثنية العقيدة الجديدة — رسمياً على أى حال — سواء أتم ذلك بالاختيار أم بالقسر أم بالانتهازية. ونحصل على خبر حول ذلك فى تاريخ البربر[12] لابن خلدون[13].

وبحث بارت باهتمام وعناية كبيرين التاريخ المتحرك للممالك القديمة فى السودان واثبت جداول إجمالية ادرجت فيها الاحداث التاريخية فى السودان الغربى من أول أخبار المصادر التاريخية حتى العصر الحاضر بشكل واضح شامل.

المصادر: واستخدم بارت كمصادر لتاريخ السودان القديم أعمال المؤرخين والجغرافيين العرب بالقدر الذى كانت منشورة فيه فى عصره. وهى مؤلفات ابن حوقل[14]، والبكرى[15]، والإدريسى[16]، وابن بطوطة[17]، وابن سعيد[18] والوزان الزياتى[19].

وإلى جانب هذه الأعمال النموذجية فقد استخدم بارت كمصادر له مؤلفات «رحالى القرن الرابع عشر»[20] إلا أنه لا يذكر المؤلفين ولا عناوين الكتب مع الأسف.

إن ابحاث بارت فى تاريخ السودان ذات قيمة لا تقدر لأنها تعتمد إلى حد بعيد على مصادر مخطوطة لم تنشر بعد وكانت مجهولة فى اوربا تقريباً. وقد قام بارت بفحص النصوص ومقارنتها وبالتدقيق فى صحة معلومات الجغرافيين العرب وبتقديم افتراضات وتعليلات وتصويبات حيثما اعتقد بوجود تناقض أو اختلاف فى المعلومات. أما هذه المخطوطات فهى ما سبق وذكرناه: «تاريخ السودان»، و«تزيين الورقات بجمع بعض مالى من الأبيات»، و«الانفاق الميسور فى تاريخ بلاد تكرور».[21]

ولم تتح لبارت أثناء رحلته فى افريقيا امكانية دراسة المخطوطات فى جميع تفاصيلها. ولو أخذنا بنظر الاعتبار الظروف الصعبة التى احاطت به للتمكن من القاء النظر على هذه المخطوطات لدهشنا لاقتطافه منها وتقييمها بهذا التفصيل والتوسع. وهذا ما يفسر أيضاً الاخطاء التى وقع فيها بارت بسبب اسراعه فى الاطلاع على المخطوطات، وهى الاخطاء التى سنتعرض لها فيما بعد.

«تاريخ السودان»: — يكتب بارت فيما يكتب حول هذا المؤلف[22]: «قبل سفرى فى مناطق النيجر لم تكن تعرف أية معلومات تتعلق بتاريخ هذه البقاع المتسعة الهامة، باستثناء بعض الاوضاع المتفرقة القليلة التى جمعها الجغرافى الانجليزى الرفيع العلم والحاد النقد ويليام ديسبوروكولى William Desborough Cooley بكثير من النبوغ مما

---

١١) R. i. A.، ١، ٥٩٩.

١٢) النص مقتطف من الترجمة الفرنسية: Histoire des Berbères, Paris 1927, II, 110.

١٣) المتوفى فى ١٤٠٦/٨٠٨ — تاريخ الأدب العربى GAL، ٢، ٢٤٢.

١٤) المتوفى حوالى ٩٩٧.

١٥) المتوفى ١٠٩٤/٤٨٧، GAL، S I، ٨٧٥.

١٦) ١١٥٤/٥٤٨ — GAL، I، ٤٧٨.

١٧) المتوفى ١٣٧٩/٧٧٩ — GAL، II، ٢٥٦.

١٨) كما ورد فى أعمال ابى الفداء المتوفى ١٣٣١/٧٣٢ — GAL، II، ٤٤؛ وعند ابن خلدون؛ وعند المقريزى المتوفى ١٤٤٢/٨٤٥ — GAL، II، ٣٨.

١٩) المعروف بـ«ليو أفريكانوس»؛ المتوفى حوالى ١٥٥٠ — GAL، S II، ٧١٠؛ ويرجع بارت كثيراً إلى كتابه: „Descrittione del l' Africa".

٢٠) R. i. A، I، ١٥.

٢١) قام بنشره C. E. J. Whitting فى لندن عام ١٩٥١.

٢٢) R. i. A.، IV، ٤١٤ وما تلاها.

أوجزه واستقاه استاذى ومعلمى الممتاز كارل ريستر Karl Ritter من البكرى، وتاريخ ابن خلدون، ورواية ليو الغامضة المشوشة عن الإيشيا الكبير ومن تلميح موجز جداً عن احتلال مولاى أحمد الذهبى لتمبوكتو وجارو مما أورده بعض الكتاب الاسبان[٢٣]. ولكننى كنت محظوظاً جداً إذ سنحت لى فرصة الاطلاع على تاريخ مملكة سونرهاى الكامل ابتداء من اول آثار الوثائق التاريخية المسجلة حتى عام ١٦٤٠ من تاريخنا الميلادى. ولكن الظروف حالت لسوء الحظ دون حصولى على نسخة كاملة من هذه المخطوطة التى تشكل مجلداً من حجم رباعى ضخم، وكان بوسعى فقط خلال الايام القليلة التى اتيحت لى للاطلاع على هذا المؤلف اثناء اقامتى فى غاندو أن اقتطف نصوصاً قصيرة من فصول الكتاب التى بدت لى الاكثر أهمية من الناحيتين التاريخية والجغرافية.

وكما تذكر المعلومات الاجماعية التى يدلى بها علماء بلاد النيجر فان سجلات سونرهاى السنوية هذه قد ألفها رجل كبير المنصب اسمه أحمد بابا تحت عنوان: «تاريخ السودان»، كما يذكر اسم هذا الرجل فى الكتاب بصيغة الغائب فقط. ويبدو وكأن يداً اخرى سجلت معلومات إضافية فى الكتاب، ولكننى لا أستطيع الإدلاء برأى اكيد حول هذا، حيث لم يتسع الوقت لى لقراءة القسم الأخير من المؤلف بما يستحق من انتباه وعناية.»

وفى مكان آخر يكتب بارت حول «تاريخ السودان»[٢٤]: «لقد وجه انتباهى إلى هذا المؤلف التاريخى فى بادئ الأمر صديقى عبد القادر فى سوكوتو ولكن دون أن يتمكن من اشباع فضولى. والآن امضيت ثلاثة أو أربعة أيام وأنا استمتع باقتطاف المعلومات والمقاطع التاريخية الهامة من هذا المؤلف، بحيث حصلت على فكرة جديدة تماماً حول التطور التاريخى للمناطق الممتدة على النيجر الأوسط، التى اتجه إليها تجوالى وكشفت أسفارى النقاب عنها وأثارت فى أكبر اهتمام حى. فقد أيقظ الكتاب أمام عينى وبخطوط واضحة جليلة سطوة مملكة سونرهاى السابقة التى لم أكن أفقه شيئاً عنها فى السابق، ولم آسف لشئ أسفى لعدم توفر الوقت الكافى لدى لنسخ المخطوط بكامله، بحيث اكتفيت باقتطاف المقاطع التى بدت لى الأهم من الناحية الجغرافية والتاريخية دون أن اتمكن من اعارة الاهتمام الكافى للترابط الخارجى بين هذه المقاطع.»[٢٥]

٢٣) Cooley, Negroland of the Arabs, 1841.

٢٤) R. i. A.، IV، ٢٠٢.

٢٥) المكان نفسه.

أما مؤلف هذا الكتاب فليس أحمد بابا[٢٦]، كما اعتقد بارت خطأ[٢٧]، وانما تلميذه السعدى من تمبوكتو[٢٨]. ويحتوى الكتاب اخباراً هامة عن شعوب السودان، السونغاى، والميللى والطوارق[٢٩].

تزيين الورقات: — إن مؤلف هذا العمل هو عبد الله[٣٠]، أخ غير شقيق للمصلح الكبير عثمان بن فوديو. وبعد وفاة هذا عام ١٨١٧ ورث عبد الله المناطق الغربية لمملكة فولبه. وتزيين الورقات هو موجز لتاريخ مناطق فولبه هذه. وعندما مكث بارت فى ربيع عام ١٨٥٣ فى سوكوتو وقعت بين يديه مخطوطة لهذا المؤلف. ويكتب حول ذلك[٣١]: «وخلال هذه الفترة كلها كنت اقضى اوقات فراغى بقراءة نصوص مخطوط اتاح لى أول اطلاع على تاريخ الجزء الغربى من مناطق فلانى هذه. أما المؤلف فهو عبد الله، اخو عثمان، المصلح، الذى حصل على الجزء الغربى من المنطقة المفتوحة كنصيب له. ومع أن الكتاب[٣٢]، الذى عنوانه «تزيين الورقات»، يحتوى بالإضافة إلى مادة دينية كثيرة، على بعض المعلومات التاريخية الهامة، إلا أنه لم يكف مطلقاً لارواء ظمئى الشديد إلى المعرفة.» وخلافا لهذا القول، فان المؤلف موجز تاريخى يعالج تاريخ مملكة الفول سوكرتو منذ عام ١٧٨٤، بينما لا تلعب المادة الدينية فيه، كما يقول A. Brass[٣٣]، إلا دوراً ثانوياً مع الأسف.

الانفاق الميسور: — إن هذا المؤلف التاريخى الذى كتبه محمد بيللو، أحد أبناء عثمان بن فوديو، كان قد نشر بصورة مقتطفات على يد A. V. Salame مع ترجمة انجليزية فى كتاب Denham-Clapperton: «قصص الرحلات والاكتشافات فى شمالى ووسط أفريقيا، لندن، ١٨٢٦، كملحق على الصفحة ١٦٦.

٢٦) المتوفى بعد ١٦٥٦/١٠٦٦ – GAL، II، ٤٦٧ وما بعدها.

٢٧) راجع، بيكر: Becker, Zur Geschichte des östlichen Sudan, Der Islam I, 166.

٢٨) ذيل الديباج.

٢٩) بعد أن نشر المخطوط على شكل مقتطفات، كما سبق وذكرنا، قام O. Houdas بالتعاون مع E. Benoist بنشر العمل بكامله عام ١٨٩٨ مع ترجمته الفرنسية: (Paris, Publ. de l'Ecole des langues or. viv. XII, Documents arab. rel. à l'histoire du Soudan I). راجع كذلك GAL، II، ٤٦٨.

٣٠) المتوفى عام ١٨٢٩ – GAL، SII، ٨٩٤.

٣١) R. i. A.، IV، ١٨٨.

٣٢) قارن A. Brass المخطوطين الموجودين فى مكتبة خاصة ثم نشر وترجم اجزاء مقتطفة منهما فى مجلة Der Islam المجلد ١٠، الصفحات ١–٧٣ (١٩٢٠).

٣٣) المصدر نفسه، ص ١٠.

"Narrative of travels and discoveries in Northern and Central-Africa".

وقد اتيحت لبارت الفرصة فى سوكوتو أيضا لدراسة المؤلف بكامله. وهو يكتب حوله[٣٤]: «بكثير من الجد سعيت إلى الحصول على كتاب بيللو وعنوانه: «الإنفاق الميسور فى فتح بلاد التكرور»، وهو الكتاب الذى أوصانى به بكثير من التوكيد صديقى الفقيه عبد القادر فى كتسنا؛ ولكنه لم يصل إلى إلا قبل مغادرتى المدينة ببضعة أيام. وعندها وجدت أن القسم الاكبر من محتوياته الذى يحمل أهمية تاريخية أو جغرافية ينطبق على الوثائق التى أحضرها الكابتن كلابرتون من رحلته الأولى والتى قام السيد سالام بترجمة جزء منها كملحق لقصة تلك الرحلة الهامة على الدوام.»

ومن المخطوطات العربية فان «تاريخ السودان» يعتبر أهمها جميعاً كمصدر لتاريخ شعوب السودان كما أن بارت قد اهتم بمعالجتها بتفصيل خاص.

واعتماداً على مؤلفات الجغرافيين والمؤرخين العرب تمكن بارت بوجه عام من تحديد موعد ومكان انتشار الإسلام فى السودان على وجه الدقة. فمنذ القرن التاسع ثبت أن الإسلام قد تغلغل فى بعض مناطق السودان. ولم يتوقف تغلغل الإسلام فى السودان حتى بعد ألف عام من هذا التاريخ. وتاريخ السودان زاخر بالحروب العقائديـــــة والاضطرابات التى كانت تشتعل بشرارة التعصب الدينى. وبوجه عام يمكن القول بأن الاسلام اصطحب معه تغيرات واضطرابات سياسية. ويصور بارت آخر ثورة دينية كبيرة أصبح شاهداً لتأثيراتها الثورية: وهى حركة عثمان بن فوديو الإصلاحية[٣٥].

لقد أدى مطلب الجهاد فى الاسلام إلى عيش سكان السودان الوثنيين فى اضطراب دائم. وتؤيد انطباعات بارت، الذى عاش بين القسمين من السكان، هذا الرأى. وقد أيد الإسلام إقامة دول على اسس سياسية واجتماعية موحدة. إلا أن سكان السودان الوثنيين كانوا مقسمين إلى قبائل وعشائر صغيرة، كانت متخاصمة فيما بينها فى الغالب بحيث لم تكن قادرة على مقاومة المسلمين. وكان هذا هو الموقف عندما ثارت الفولبه فى بداية القرن الماضى. ولكن قبل أن نتناول تاريخ السودان فى القرن التاسع عشر، نود أن نذكر شيئاً حول التاريخ القديم كما سجل فى تواريخ المؤلفين العرب.

٣٤) R. i. A.، IV، ١٨٨.
٣٥) R. i. A.، IV، ١٥٢ وما بعدها.

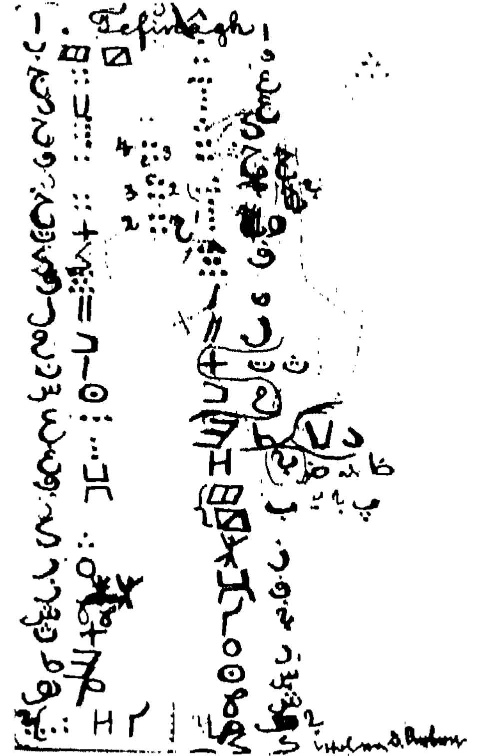
ومن أقدم الممالك الإسلامية فى السودان مملكة البورنو. ومن سجل بورنو التاريخى عرف بارت[٣٦]، أن أول ملك لهذه المملكة اعتنق الإسلام كان هوميه (أو أوميه)، ابن عبد الجليل. وقد حكم فى الاعوام ما بين ١٠٨٦/٤٧٩ و١٠٩٧/٤٩٠. وباعتناقه الإسلام فقد اسس اسرة مالكة جديدة. وقد وجد بارت هذه الملاحظة عند الجغرافى العربى المقريزى[٣٧]: «وكان اول ملوكهم الذى اعتنق الاسلام محمد بن جبل[٣٨] بن عبد الله بن عثمان بن محمود بن ابى ...، وهم يزعمون أنهم من سلالة سيف بن ذى يزن.» ولذا فقد افترض بارت ـــ على خطأ طبعاً، كما يقول بيكر[٣٩] ـــ أنه حدث اختلاط هنا بين أول سيف فى الإسلام وملك بلالا الأول.[٤٠] والأغلب أن يكون محمد بن جيل هو هوميه (أو أوميه) بن عبد الجليل. وفوق ذلك فمن التناقض أن يكون اسم والد اول ملك اعتنق الاسلام اسما اسلامياً هو عبد الجليل.

«إن مملكة كانم، وهى فى الأصل جزء من مملكة بورنو، كان لها كذلك منذ القدم سكان كثيرون كانوا مسلمين فى الغالب».[٤١]

ومن أقدم الممالك القديمة أيضاً مملكة سونغهاى حيث أن البكرى يتحدث عن تقاليدها الإسلامية[٤٢]. وحسب تاريخ السودان للسعدى فان تاريخ الإسلام فى مملكة سونغهاى يعود إلى بداية القرن الرابع الهجرى/الحادى عشر الميلادى.

وقد تسرب الإسلام إلى السودان من اتجاهات مختلفة: فبالنسبة لغانا نقله المرابطون من قبيلة اللمتونه وغيرها من قبائل البربر[٤٣] من الشمال. وفى الممالك القديمة حول بحيرة تشاد يحتمل كثيراً أن يكون الاسلام قد جاء من الشرق من نفس الطريق التى جاء منها البدو القادمين من جنوبى شبه الجزيرة العربية، كما جاء فيما بعد عبر مصر أيضاً من خلال طرق التجارة. وكانت الطريق إلى مكة تمر بمصر. وكما يذكر ابن خلدون[٤٤] فان مفتى غانا اتخذ عام ١٣٩٣/٧٩٦ طريق الحج التى مرت بمصر

٣٦) نفس المصدر، II، ٣٠٩.
٣٧) Hamaker, specim. catalog. p. 206؛ راجع Der Islam، ١، ١٧١.
٣٨) قل جيل ... كذلك بارت II، ٢٨٩.
٣٩) Der Islam، I، ١٧١.
٤٠) راجع بارت II، ٣٠٩.
٤١) ١٥٩، Ibn Khaldoun, Histoire des Berbères II, 109.
٤٢) بارت، ١٧، ٤١٧.
٤٣) Ibn Khaldoun, Histoire des Berbères II, 64.
٤٤) نفس المرجع ص (١١٠).



خريطة لمدينة «ماسينيا» Mäseña، مركز الحكومة فى مملكة باغرمى، عام ١٨٥٢؛ على اليسار صورة تخطيطية كما رسمها بارت فى يومياته ١٨٥٢؛ على اليمين نسخة مصححة مطبوعة منها كما نشرت فى كتاب بارت حول سياحته.

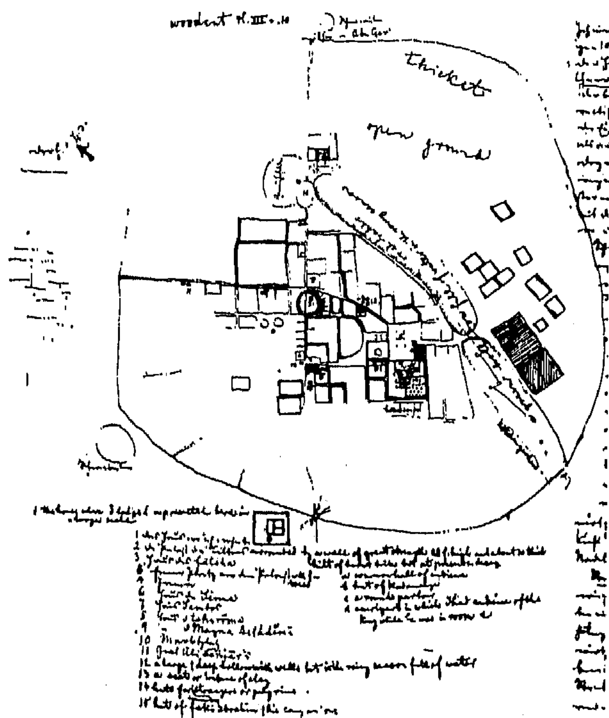
حروف Tĕfinagh للطوارق فى الصحراء الوسطى كما رسمها هاينرش بارت فى يومياته وقايسها بالحروف العربية. وهذه اليوميات محفوظة الآن فى باريس.

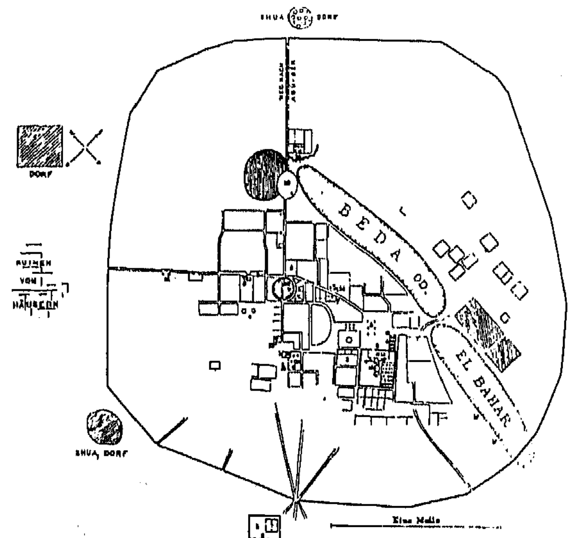
قبل بلوغ مكة. وكانت هذه الطريق نفسها طريق الحج المألوفة على زمن بارت أيضاً كما يؤكد لنا فى كتابه. وهكذا فبفضل فريضة الحج الدينية قامت بين السودان ومصر صلة وتبادل دائمين لم يساعد على تطوير التجارة بين البلدين فحسب، بل وأثر تأثيراً كبيراً على المستوى الفكرى والثقافى لشعوب السودان الإسلامية. وندرك هذه الصلة القديمة بمصر، كما يذكر بارت[٤٥]، من وضع مدينة كوكو Gögö، عاصمة سونغهاى، التى «كانت فى العهود الماضية تتألف من حيين منفصلين، أحدهما لعبدة الأوثان (على الشاطئ الغربى أو شاطئ كورما) والحى الملكى أو الإسلامى (على الشاطئ الشرقى، باتجاه مصر، المكان الذى جاء منه الاسلام وما صاحبه من مدنية)».[٤٦]
ولم ينتشر الاسلام فى السودان بالنار والسيف.. بل كثيراً ما كان من الانفع لأهل البلاد أن يعتنقوا الاسلام؛ إذ أن من دخل فى الدين الاسلامى لا يمكن أن يتخذ أو يصبح عبداً. وقد جلب الاسلام معه مستوى معيشياً رفيعاً بحيث كان من هذه الناحية أيضاً جديراً باعتناقه. وهناك امثلة على أن سيرة بعض الرجال الشبيهين بالقديسين اكسبت الدين الجديد كثيراً من الأنصار. وكانت باغرمى قبل القرن الحادى عشر الهجرى/السابع عشر الميلادى منطقة وثنية تماماً. وكما يقول بارت[٤٧] فان انتشار الإسلام هنا تم بوجه خاص بفضل «شيخ من شيوخ الفيلاتا وقديس من بيد ديرى (قرية على مسافة ٩ أميال شرقى ماسينيا) كان له، رغم انفراده وعزلته، تأثير كبير جداً فى إدخال الإسلام إلى هذه البقاع».

ويعود الفضل فى نشر الإسلام فى مناطق واسعه إلى محمد بن عبد الكريم بن مرحيلى[٤٨]. ويسميه بارت رسول بلاد

٤٥) R. i. A.، V، ٢١٨.
٤٦) نفس المصدر، ص (٤٣٤).

٤٧) R. i. A.، III، ٣٨٧.
٤٨) المتوفى ١٥٣٣/٩٤٠.





الزنج الوسطى(٤٩). وكان صديقاً للسيوطى، من اعظم عباقرة الكتاب العرب واكثرهم تنوعاً فى حقول الثقافة(٥٠). ويكتب بارت(٥١) أنه اطلع فى تمبوكتو على رسالة طويلة من ابن مرحيلى يعالج فيها مسائل دينية. ومن المؤسف ان بارت لا يفيدنا بالمزيد عن محتويات هذه الرسالة التى يقول إن لها أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ الاسلام فى السودان. وكان ابن مرحيلى هو الذى أثر على ابرهيم ماكى، ملك كاتسينا، لاعتناق الاسلام(٥٢). وبعد ذلك بقليل دخل ملك وادای الاسلام أيضا.(٥٢)

وتنتهى مصادر بارت الأدبية مع «تاريخ السودان» عام ١٦٥٥. ولم يكن يعرف المصادر التالية التى يذكرها

٤٩) .R. i. A، IV، ٦٣٦.
٥٠) ٨٤٩/١٤٤٥ – ٩١١/١٥٠٥؛ GAL، II، ١٤٣ وما بعدها.
٥١) .R. i. A، II، ٨٣ (ملاحظة ٢).
٥٢) نفس المصدر، II، ٨٣.[?]
٥٢) نفس المصدر، III، ٤٨٥ وما بعدها.

A. Brass(٥٤). وكان على بارت أن يعتمد بخصوص تاريخ السودان الحديث على الروايات الشفهية والانطباعات الشخصية.

وتشهد فى نهاية القرن الثامن عشر حركات وثورات دينية خطيرة النتائج. فبينما لاقى الاسلام فى دولة لوكونه استقبالا فاتراً وسطحياً(٥٥)، أشعل الدين الجديد بين الفولبه فى كوبر(٥٦) وأداماوا(٥٧) تعصباً شديداً ملتهباً. وبعد مرور فترة قصيرة على بدء الحركة الوهابية الرشيدة فى جنوبى الجزيرة العربية، هبت الفولبه، وعلّهم متأثرون بالاحداث الجارية فى جنوبى الجزيرة العربية(٥٨). ولم يكن قد مضى على دخولهم الاسلام زمناً طويلا حتى بدأوا

٥٤) Der Islam X.
٥٥) .R. i. A، III، ٢٧٠.
٥٦) نفس المرجع، IV، ٢٥٨.
٥٧) نفس المرجع، V، ٦٢٤.
٥٨) Hitti, History of the Arabs p. 741.

بنشره باذلين فى سبيل ذلك أقصى الجهود، حتى شنوا فيما بعد، عندما قويت شكيمتهم، حروباً دينية دموية، فى سبيل ذلك. وكان الرجل الذى تزعم الفولبه، والذى فتح عهد مملكة للفولبه، والذى اعتبره انصاره نبياً وخصومه مستبداً مخيفاً، هو المصلح عثمان بن فوديو[٥٩]. وقد أيد أخوه عبد الله[٦٠] سياسته بخضوع وتفان زائدين، واستمر ابنه محمد بيللو على تلك السياسة وثبت دعائمها بتطرف أشد واعنف. وبعد أن نقل محمد ليبو الإسلام المجدد المصلح إلى قبائل الفولبه التى تقطن على ضفاف النيجر الأعلى[٦١]، أصبح الفولبه بوجه عام طلائع المجاهدين فى سبيل الاسلام[٦٢].

وقد شهد بارت هذه الأحداث ونتائجها بصورة مباشرة، ولذا فان كتابه (رحلات فى أفريقيا) "Reisen in Afrika" يعتبر مصدراً لا يقدر بثمن بالنسبة لتاريخ الاسلام الحديث فى السودان أيضاً. وكما تثبت روايات البكرى والوزان الزياتى (ليو أفريكانوس)[٦٣] فإن للإسلام فى السودان جذوراً عميقة جداً فى بعض اجزائه ولكنها ليست عميقة. وكما ورد فى كتاب بارت أيضاً[٦٤]، فقد كان الاسلام فى عهده أيضاً تقليداً ظاهرياً فى بعض الوجوه، ظلت العادات والتصورات الوثنية كامنة خلفه. وهناك حاجة إلى مثل كتاب ڤيلهاوزن Wellhausen «بقايا الوثنية العربية» Reste Arabischen Heidentums يعالج الموقف فى السودان. ويقدم بارت هنا عدداً كبيراً من الملاحظات تقع مهمة تنسيقها وايضاحها وتفسيرها على عاتق المستشرقين. ونذكر فى هذا المجال مثلا يشير إلى ضرورة إعزاء بعض ملاحظات بارت إلى اسبابها الدينية الثيولوجية الحقيقية: يوضح بارت بمثل[٦٥] «غرابة مبالغة سكان الصحراء المتمدنين هؤلاء فى اعتبار الحشمة الإسلامية. فعند التبول يبتعدون على مسافة كبيرة من الطريق ويجلسون القرفصاء إلى الجانب ويحفرون جحراً صغيراً فى الأرض.» والحقيقة أن ليس فى الأمر حشمة ولا مبالغة وإنما التقيد باتباع مطلب إسلامى قديم يقول بأن يجلس المرء «لقضاء حاجاته فلا يقضيها قائماً»[٦٦].

وعند وصف فتاتين يقول بارت: «لقد ظهرتا بزى محتشم وذلك بارتداء مريلة من القماش القطنى المخطط حول أردافهما. ولا شك أن ذلك جرى بتأثير الإسلام»[٦٧]. وتعود هذه العادة فعلا إلى تعليم إسلامى يوجب «على المكلف ستر عورته»[٦٨].

٣ — دراسات حول اللغة العربية فى السودان

لقد كان الإسلام واللغة العربية دوماً متصلين اتصالا لا يمكن فصم عراه. وبما أن القرآن لا يجوز ترجمته إلى أية لغة أخرى — خوفاً من الله وكذلك حفاظاً لطهارة الضمير تجاه كلام الله المنزل — فقد أصبح لزاماً على كل مسلم مؤمن أن يتعلم العربية إلى درجة تمكنه من فهم القرآن أو تلاوته على الأقل. ويكتب بارت عن الفولبه[٦٩]: «من المؤسف أن إقامتى القصيرة لم تمكنى من مراقبة مستوى الثقافة بين هؤلاء المسلمين النائين، ومع ذلك فقد وجدت أثناء سفرى أن قراءة القرآن وبعض الكتب الرئيسية للاسلام[٧٠] ومعرفة جيدة للغة العربية المكتوبة منتشرة بين علية القوم بينهم. وبطبيعة الحال فلا توجد مدارس هنا، ولكنه يوجد فى القرى الاكبر رجل فقيه يتجه الشباب الذين يسعون للحصول على مزيد من المعرفة اكثر من مجرد ترداد بعض الصلوات، يتجهون إليه للقراءة والدرس على يديه، وكلما كان الافتقار إلى كتب اخرى اكبر كلما ازدادت حيوية استيعاب الكتاب المتيسر بين ايديهم بطبيعة الحال، ذلك الكتاب الذى يأخذ عليهم ألبابهم بلغته الشعرية العظيمة».

وفى تمبوكتو اتيحت لبارت الفرصة لحضور تدريس اللغة العربية وتعاليم الاسلام[٧١]: «وخلال جزء من النهار قرأ الشيخ على تلاميذه مقاطع من حديث البخارى[٧٢]، بينما راح ابنه الصغير سيدى محمد يكرر درسه من القرآن بصوت جهورى، وخلال المساء راح التلاميذ يجودون عدة سور من القرآن الكريم بصوت موسيقى حتى ساعات الليل المتأخرة.»

وتحتوى ملاحظات بارت على اشارات هامة حول انتشار اللغة العربية آنذاك والتحديد المحلى للهجات المختلفة. وفى بعض مناطق السودان التى تكون غالبية سكانها

---

٥٩) ١٧٩٤—١٨١٧؛ R. i. A.، IV، ١٥٢ وما تلاها؛ GAL، S II، ٨٩٤.
٦٠) المتوفى عام ١٨٢٩.
٦١) R. i. A.، IV، ٢٥٨.
٦٢) نفس المرجع، II، ٢٠٨—٢٠٩.
٦٣) نفس المرجع، IV، ٤٣٤.
٦٤) نفس المرجع، II، ٥١٥؛ III، ٣٣٥؛ III، ٣٦٥.
٦٥) R. i. A.، I، ٢٩١، ملاحظة.
٦٦) كتاب الفقه على المذاهب الاربعة، القاهرة، ١٣٥٥/١٩٣٦، قسم العبادات، ص (٣٥).

٦٧) R. i. A.، II، ٣٧٥/٣٧٦.
٦٨) كتاب الفقه على المذاهب الاربعة، قسم العبادات، ص (١٤١).
٦٩) R. i. A.، II، ٦١١/٦١٢.
٧٠) المقصود بذلك كتب الحديث.
٧١) R. i. A.، IV، ٥٢٣.
٧٢) ١٩٤/٨١٠—٢٥٦/٨٧٠؛ GAL، I، ١٥٧ وما تلاها.

من المسلمين استحالت اللغة العربية إلى لغة عامية باستثناء استخدام اللغة الفصيحة للأغراض الدينية. وفيما يتعلق بلهجة سكان أكادس يكتب بارت(٧٣) : «ان التعامل مع البربر قد مارس تأثيراً كبيراً، بحيث انتقلت من لغتهم كلمات كثيرة واندمجت فى التعابير المحلية هنا، بينما يبدو أن العربية لم يكن لها تأثير كبير، فيما عدا اسماء العدد المحلية التى اختفت ابتداء من «أربعة» فما فوق. ويظهر استخدام اسماء العدد العربية فى بعض اللهجات المحلية مدى تأثير التجار العرب والدور الذى لعبوه فى انتشار اللغة العربية. ويكتب بارت(٧٤) حول الكانورى، «لقد تخلوا عن كلمتهم المحلية التى تعنى «مائة» وهى «ييرو» واخذوا يستخدمون الكلمة العربية ميه.(٧٥)»

ومن الكلمات العربية التى نقلها التجار العرب المسافرون «ذراع»(٧٦) و«خلق»(٧٧) و«ودع»(٧٨) وغيرهما من التعابير التى تمثل وسائل الدفع والمقايضة.

وباعتناق الاسلام فقد ازداد اهتمام الفولبه باللغة العربية. ويقول بارت(٧٩) إن بعضهم كان يفهم اللغة العربية المكتوبة جيداً. ولكنهم لم يكونوا قادرين على التحدث بها.

ويكتب بارت الكلمات العربية فى الغالب بالحروف الألمانية مما يساعدنا على الحصول على فكرة تقريبية عن الخصائص الصوتية للهجات العربية فى السودان على عهد بارت. وحسب ذلك فقد كانت القاف العربية (ق) تلفظ كحرف (g) او جيم غير المعطشة بالألمانية(٨٠)، بما يشبه لفظ بدو الجزيرة العربية. ومن المؤسف أن بارت لم يكن دقيقاً عند كتابة الكلمات بالحروف الألمانية فى بعض الحالات.

ومن الأمثلة الموجودة فى كتاب بارت ندرك خاصة مميزة من خصائص اللهجات العربية فى السودان، وهى دمج (أل) التعريف مع الاسم المعرف بطريقة تسقط فيها الألف (ا) وتصبح اللام (ل) الحرف الأول للكلمة المعرفة. وهذا ما يحدث بالنسبة لقبيلة «الانصار» مثلا التى تدعى لنصار Lanssār.(٨١) ويحدث الشئ نفسه كذلك بالنسبة لكلمة "Loel" لول(٨٢). وهو اسم شخص عند مسلمى السودان، وتتحول كلمة «العقل» إلى "Lakal" و«الأخبار» تصبح فى لغة الهاوسا "labari"، وفى لغة سونغهاى "laabar"(٨٣).

وهناك فئة متكاملة من الوجهة اللغوية بين عرب السودان وهى الشوا Schūa، سكان بورنو العرب. ويكتب بارت(٨٤) : «إن لهجتهم العربية متميزة جداً، فبينما تتخذ لنفسها صفة الصفاء الاكثر بالقياس إلى اللهجة الشعبية الفاسدة فى المغرب وذلك بالمحافظة على صيغ الأفعال الكثيرة، الا أن لها طابعاً يلفت الانتباه فى بادئ الأمر بالتشكيل الحاد للكلمات واستخدام عبارة «كوتش، كوتش» بمعنى «على الاطلاق» بصورة دائمة — وكذلك كلمة «بركتك» — بحيث يحشرون هذه العبارات خلف كل ثلاث كلمات بصورة تثير الضحك».

وتزداد معرفتنا لسكان السودان العرب فى ذلك الزمن بوجه خاص بما نشره بارت من الشعر بالنص العربى مع الترجمة الألمانية فى المجلد الرابع من كتابه «رحلات فى افريقيا»(٨٥). أما هذا الشعر فقصيدتان لصديقه الشيخ البكاى. والقصيدة الأولى من بحر الخفيف، والثانية من بحر الطويل وكلاهما من بحور الشعر العربى القديم. ولا تعتمد القصيدتان الرائعتان على فن الشعر العربى القديم من الناحية الشكلية فحسب، بل ومن ناحية الموضوع والأسلوب أيضاً — وهذا دليل على مدى تمسك هؤلاء العرب الموزعين فى الخارج بتقاليدهم الثقافية وتراثهم الأدبى. وكانت درجة الثقافة بين العرب هنا متباينة بطبيعة الحال؛ ويذكر بارت(٨٦) كيف أن إحدى القصيدتين القيت بين يدى شيخ تمكلا وأتباعه ومدى التجاوب والصدى الذى حققته القصيدة لديهم «رغم أنه لا يمكن أن يحكم عليها إلا من كان متمكناً من اللغة العربية، بينما لم يفهم القسم الاكبر من القوم كلمة واحدة منها».

لقد كان بارت خبيراً عارفاً بالشعر العربى. وينم اسلوبه الخاص عن ذلك. فعند زيارته إلى أغاديس يصف صورة هذه المدينة بما يلى(٨٧): «كانت العقبان تنظر بألم وشراهة من نتوءات الأسوار المتهاوية المحيطة بالمكان؛ وكما كان يبدو فانها كانت تعانى من الافتقار إلى الطعام، لأنه، بعد أن خرج عدد كبير من سكان المدينة مع

٧٣) R. i. A.، I، ٤٥٨.
٧٤) R. i. A.، IV، ٦٣، الملاحظة.
٧٥) مائة.
٧٦) ذراع؛ نفس المرجع، II، ٥٣٦.
٧٧) خلق، ج (خلكان)؛ نفس المرجع، III، ٣٣٨.
٧٨) نفس المرجع، IV، ٢٩٢.
٧٩) نفس المرجع، II، ٥١٧.
٨٠) نفس المرجع، IV، ٥٥٤.
٨١) الأنصار.
٨٢) الأول
٨٣) راجع Vincent Monteil, L'Islam Noir ص، ٢٢٧.
٨٤) R. i. A.، III، ١٢٥.
٨٥) ص (٥٨٨) وما تلاها.
٨٦) R. i. A.، V، ٣٠٦.
٨٧) نفس المرجع، I، ٤٩١.

الجيش، أصبح نصيبها من نفايات الطعام اليومى لهؤلاء السكان قليلا يسيراً. ومن المحتمل كذلك أن بعض العقبان تبعت سكان المدينة؛ إذ أن هذه الحيوانات تدرك، عندما ترى جيشاً من الرجال المسلحين يخرجون إلى القتال، أنه سيكون لها من فتات الطعام هناك ما ستقتات به.»
وهذه صورة معروفة من الشعر الجاهلى، وحين يقرؤها المرء لا يسعه إلا أن يذكر بيتاً من قصيدة مشهورة للشاعر الجاهلى النابغة الذبيانى(٨٨):

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم
عصائب طير تهتدى بعصائب

لقد كان أدب سكان السودان من العرب أوسع وأغنى مما تيسر لبارت الاطلاع عليه. ولم نحصل فى اوربا على معرفة دقيقة حول هذا الأدب إلا عندما وقعت مخطوطات ثمينة عام ١٨٩٤ بأيدى قوات الكولونيل وفيما بعد الجنرال آرشينار Archinard. وقد أصبحت هذه المجموعة الكبيرة اليوم ملكاً للمكتبة الوطنية فى باريس. ويوجد بين هذه المخطوطات عدد من مؤلفات المصلح عثمان بن فوديو، وابنه محمد بيللو، وأخيه غير الشقيق عبد الله بن محمد والأمير الحاج عمر. وفى مقال نشره Georges Vajda بعنوان: «مساهمة فى معرفة الادب العربى فى افريقيا الغربية(٨٩)» "Contribution à la connaissance de la littérature arabe en Afrique Occidentale". أورد قائمة وشروحا موجزة لمخطوطات المؤلفين المذكورين العربية الموجودة ضمن المجموعة.

وأخيراً فاننا نود أن نشير إلى التعابير الاختصاصية العربية الكثيرة من دنيا النبات فى السودان والمنتشرة فى جميع فصول كتاب بارت. ومن يهتم بالذات بعلم النباتات والعقاقير عند العرب سيجد معلومات قيمة فى كتاب بارت. واود أن اذكر هنا بعض هذه الأسماء فقط: «الدوم» "Dum" (Cucifera Thebaica—Thebanpalm; I, 419); "Chaskanît" (Pennisetum distichum — «الحسكنيت» I, 427)
«الهد» (I, 591) «حب العزيز» (Erdnuss — II, 463)؛
«الجاوى» (Benzoe-Gummi — II, 595)؛
«بوركبه» (Panicum colonum — III, 52)
«شجرة الجمل» (Avena Forskalii — II, 52)
«أم البركة» (III, 52) «أبو ديجه» (شجرة ذات ثمر يشبه المشمش — III, 313)
«اللبان» (Benzoin, III, 329)
«العرديب» (Tamarinde — III, 400)
«حب الملوك» (III, 400) «المست» (Zea Mays).

لقد عرضنا حتى الآن مساهمة بارت فى الدراسات الشرقية بايجاز. ومن هذه الأمثلة يدرك المرء مدى معرفته الواسعة فى مختلف حقول علم الاستشراق الذى كان لا يزال ناشئاً فى ذلك الزمن. وبغض النظر عن بعض الاستثناءات فإن الاستشراق لم يول ما يستحقه من اهتمام حتى الآن. ولعله كان سينفى عن نفسه بتواضع صفة «المستشرق» كما كان يعتقد بأنه لا يصح أن يعتبر عالماً طبيعياً أو عالم فلك(٩٠). وفى الحقيقة فانه يستحق هذه الصفة، وإن كان من الصعب تصنيفه داخل نظام علمى معين دون غيره. فقد كان بارت يمثل ذلك النوع من العلماء الذين لا يقسمون العلم إلى حقول خاصة وانما يضعون العلم كله دوماً أمام أعينهم ويقيمون الصلات بالأنظمة العلمية الاخرى — لقد كان عالماً كلياً متعدد المعارف (Polyhistor)، كما كان يعرفه عهد الرومانتيكية.

وكما هو الحال بالنسبة لكل علم، فان الاستشراق مهدد كذلك بخطر الاعتكاف والانعزال عن بقية الأنظمة والحقول العلمية. فالسودان، مثلا، ظل، بغض النظر عن التاريخ العربى، فترة طويلة على هامش الدراسات والأبحاث الاستشراقية. وحاول بارت منذ ذلك الحين مواجهة هذه العزلة، وذلك بنقله للأبحاث الاستشراقية من حدود الشرق إلى قارة جديدة، إلى عالم جديد، يحتاج إلى مزيد من التقصى والاستكشاف. ويجب أن تنطلق الأبحاث المقبلة فى هذا المجال من عمل بارت العظيم(٩١).

٤ — ملاحظات حول ما اقتطفه هاينرش بارت من مخطوطات المؤرخين العرب ودونه فى كتاب يومياته

فى أحد كتب يوميات الباحث هاينرش بارت الموجود حالياً فى المكتبة الوطنية فى باريس توجد بعض الصفحات المكتوبة باللغة العربية.

وتحتوى مقتطفات من كتابى «تاريخ السودان» لعبد الرحمن

---

٨٨) عاش فى النصف الثانى من القرن السادس — GAL، I، ٢٢.
٨٩) Journal de la Société des Africanistes, Paris, Tome XX, Fascicule I, 229—237.
٩٠) XVIII, I, R. i. A.
٩١) راجع بيكر Becker, Der Islam, I, 177.

بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدى[٩٢] وكتاب «تزيين الورقات» لعبد الله اخى عثمان بن فوديو. وبالمقارنة بكتابات عربية أخرى من خط بارت (كفواتيره وايصالاته) فاننا لا نرى مجالا للشك بأن المقتطفات من الكتابين المذكورين كتبت بخط بارت نفسه.

وتبلغ مساحة الصفحات المكتوبة ١٥ سم × ٨,٨ سم. أما الخط فهو مغربى. وتحتوى الصفحة الواحدة من النسخة المنقولة عن تاريخ السودان معدل ٣٦ سطراً، ومن النسخة المنقولة عن تزيين الورقات معدل ٢٨ سطراً.

وكان بارت يهدف إلى نشر هذه المقاطع من المخطوطين العربيين بأسرع وقت ممكن فى اوربا، دون الانتظار حتى انهاء رحلته الاستكشافية التى استغرقت عدة اعوام فى افريقيا الوسطى. وكان يرجو نشر المخطوطين بكاملهما بعد عودته. ولكنه لم يتمكن من ذلك لسوء الحظ، ومن المقطعين اللذين نسخهما على عجل فى كتاب يومياته، لم ينشر، على حد علمى، إلا تاريخ السودان للسعدى. وقد اعطى بارت المقطع العربى المنسوخ إلى المستشرق C. Ralfs، الذى نقله إلى الألمانية ونشره فى المجلد التاسع من مجلة جمعية المستشرقين الألمانية Zeitschrift der Morgenländischen Gesellschaft[٩٣].

وقد نشر الكتابان العربيان بكاملهما فيما بعد: تاريخ السودان، نشر O. Houdas بمعاونة E. Benoist[٩٤]، وتزيين الورقات، نشر A. Brass[٩٥].

لقد نالت الأبحاث الأفريقية بمقدار متساو بالنسبة للجغرافى والمؤرخ والمستشرق، نالت دافعاً جديداً بفضل أبحاث ونشاط بارت. وبينما ظلت صورة أفريقيا التاريخية حتى الآن على الشكل الذى بدت فيه فى الأعمال التاريخية الكبيرة لابن خلدون وابن بطوطة وليو أفريكانوس، على سبيل المثال، فقد أدى «تاريخ السودان» إلى التعريف بفترات اخرى من تاريخ أفريقيا. ورغم أن بارت جاء بمقتطفات فقط؛ ولكنها كانت كافية لإعطاء دفعات جديدة للأبحاث الافريقية ما زالت تتغذى عليها حتى اليوم.

---

٩٢) بروكلمان GAL، II، ٤٦٧.

٩٣) „Beiträge zur Geschichte und Geographie des Sudan. Eingesandt von Dr. Barth," p. 518—594.

٩٤) Paris 1898, Publications de l'Ecole des Langues Orientales Vivantes, Documents Arabes Relatifs à l'Histoire du Soudan, 326.

٩٥) Der Islam, 1920, X, 1—73: Eine neue Quelle zur Geschichte des Fulreiches Sokoto.

ليس لمخطوطى بارت الذين وجدا من جديد قيمة تاريخية فحسب: وإنما يقدمان سلسلة من المعلومات المغايرة والإضافات إزاء المخطوطين الذين اعتمد عليهما Houdas و Brass فيما نشراه. فالمخطوطان اللذان استخدمهما بارت من جهة والآخران اللذان اعتمد عليهما Houdas و Brass من جهة أخرى جاءا من مصدرين مختلفين. ومما يؤسف له أنه لا بارت ولا هوداز يعطيان مزيداً من التفاصيل عن أصل المخطوطات. أما المخطوطان اللذان اعتمد عليهما Brass لكتابه المنشور فيعود اصلهما إلى حملة Frobenius الاستكشافية (F) ومجموعة المستشار السرى Meier من لايبزغ (M). وتتفق بعض الافتراضات التى قدمها Brass مع طريقة القراءة التى قدمها بارت فيما نسخه، بحيث تبدو هذه معتمدة على أصل أفضل. وبعض الاختلافات فى نص بارت هى اخطاء وقع فيها بارت بسبب العجلة الشديدة التى كان ينسخ بها، وبسبب الظرف الصعب الذى كان خاضعاً له أثناء ذلك.

يضم ما اقتطفه بارت من تاريخ السودان ٢٢ صفحة من كتاب يومياته، ثم يتوقف فى منتصف الكتاب تماماً[٩٦]. ويكتب بارت فى نهاية مخطوطه فى يومياته: «إنه خليق بكثير من المعرفة الاختصاصية»، إلا أنه يضيف عند اتصاله برالفس[٩٧]: «لقد كانت رواية انهيار مملكة سونراى هذه محزنة بالنسبة لى إلى درجة توقفت عندها عن مواصلة النسخ».

ومما يؤخذ على ما نسخه بارت أنه كان يقتطف فى بعض المواضع دون ترابط كاف. فكان يتوقف فى وسط الجملة ثم يواصل النسخ من جديد، حيث كان الأمر يبدو له اكثر نفعاً وجدوى، دون أن يترك ما يشير إلى انتقاله من موضع إلى آخر. وبسبب جهله بالنص الكامل فقد كان رالفس مضطراً إلى تقديم ترجمة ناقصة جداً، كان يرصف الجمل فى بعض المواضع دون أى ترابط أو تسلسل.

أما مقطع بارت من كتاب تزيين الورقات فيضم ما يزيد على السبع صفحات من كتاب يومياته. ويبدو هنا مزيد من الدقة فى الاقتطاف، كما أن الخط أوضح منه فى تاريخ السودان. وقد وضع هنا، كما وضع هناك أيضاً، خطاً تحت الأسماء العلم.

وتختلف المخطوطات التى اعتمد عليها بارت وبراس فى بعض الأسماء بسبب كتابة الأسماء غير العربية بالحروف

---

٩٦) طبعة Houdas، ص ١٥٨، سطر ١٢.

٩٧) ZDMG، IX، 594، ملاحظة 147.

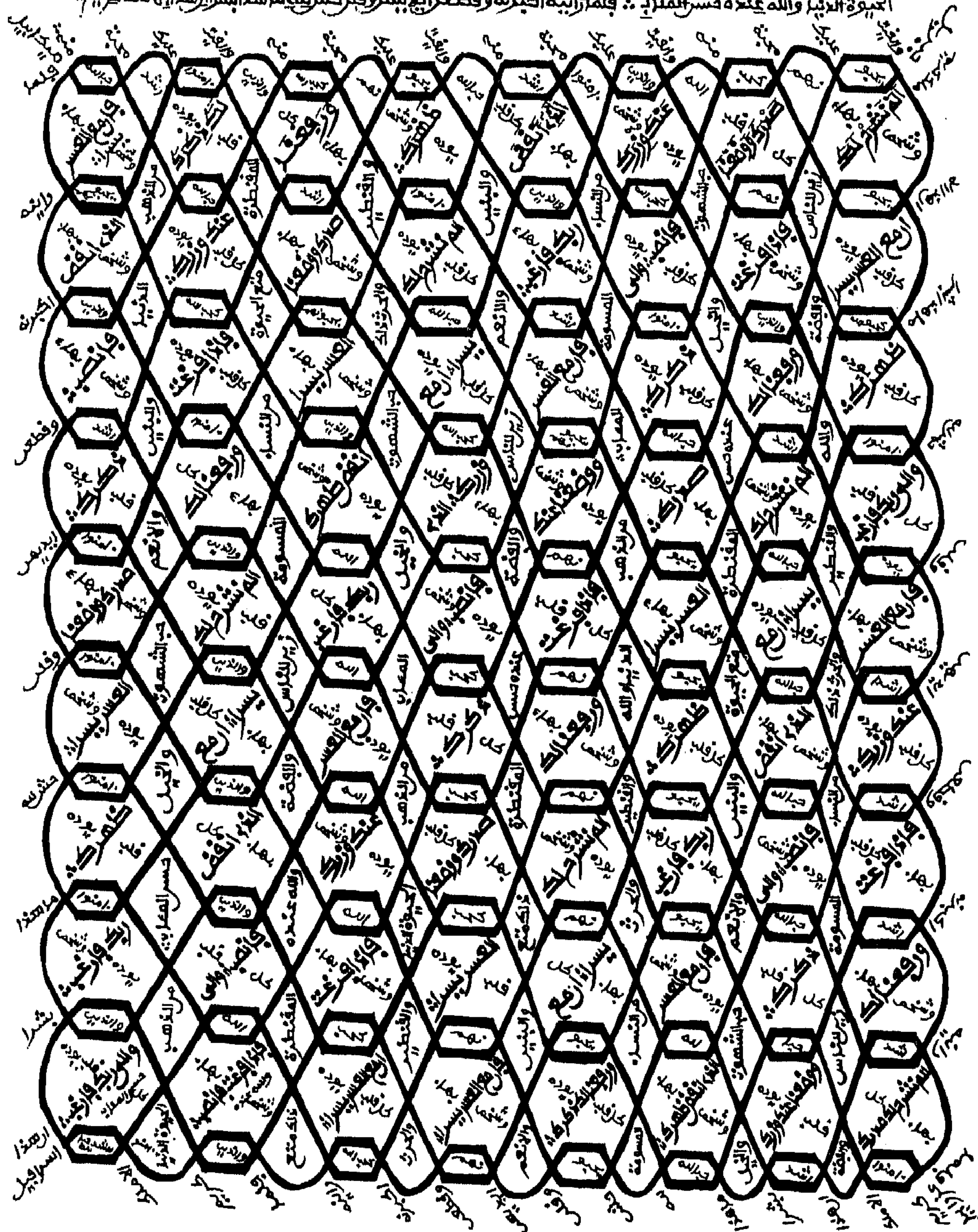


تعويذة من «كانو» Kano (نيجريا)



◄ تعويذة من «كانو» Kano (نيجريا)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على النبي الكريم، فائدة المحبة الناس كلهم اجمعين رجالا ونساء صغيرا وكبيرا ومن كتبه وشربه او علقه نصره الله وفتح له ابواب الخيرات في الدنيا والاخرة ومن كتبه وشربه شفاه الله من كل مرض ومن شربه مع العسل الابيض ثلاثا فيرزقه الله الهيبة في عين الخلائق ويرفعه الله في الدنيا ويرزقه رزقا حسنا ومن اراد ان يجتمع الناس عنده في بيع وشراء او غيره فليكتب هذا الخاتم وشربه او علقه يرى عجبا ان شاء الله مع هذه الايات وهي زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متع الحيوة الدنيا والله عنده حسن المئاب . فلما رأينه اكبرنه وقطعن ايديهن وقلن حش لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم .



اللاتينية. فصوت ج (g) يعطى فى مخطوط بارت بحرف (ق) العربى، وفى مخطوطة F و M اللتين استخدمهما براس بحرف (غ) العربى (قوبر — غوبر).

وفى كل من مخطوطة بارت وبراس فان النص يخلو من أبيات الشعر العربية المكتوبة بين فصول الكتاب، وكذلك من الشروح الخاصة بها. وفى مكان واحد فقط ينقل بارت شرحاً لأبيات لم ينسخها، ربما بسبب بعض الأسماء الجغرافية.

ويظهر النصان العربيان لدى براس من صفحة ٢٤ إلى ٢٦ بينما يظهران لدى بارت فى نهاية المقطع. ويخلو نص بارت ، باستثناء بعض المواضع، من المقاطع العربية التى نشرها براس على الصفحات ١٧، ١٨، ٢٠، ٢١، و٢٣. وهى تشتمل فى الغالب على معلومات حول تاريخ الإسلام فى هذه الأجزاء من السودان وكانت بالنسبة لبارت، كما لاحظ هو، قليلة الأهمية.

وتبدأ مخطوطة بارت **بتاريخ نسب للفولبه غير معروف حتى الان** يجعل من روم، ابن إيساو، جد الفولبه الأصلى. ثم تتلو ذلك ملاحظات طريفة عن لغة الفولبه. واقدم فيما يلى النص الذى لا تحويه مخطوطة (F) ولا (M)، اقدمه بصورة مطابقة للأصل:

«هم توردب الذين جاؤا من فوت وهم فيما نسمع هم اخوان جميع الفلانيين ولغة الفلانيين لغتهم لأن عقبة بن عامر المجاهد الذى فتح بلاد الغرب زمان عمرو بن العاصى جد(؟) مصر وصل اليهم وهم قبيلة من قبائل الروم فأسلم ملكهم من غير قتال وتزوج عقبة ابنة ملكهم اسمها يج مغ فود الفلانيين جميعا هذا ما تواتر عندنا واخذنا عن الثقاة الذين يخرجون من بلاد فوت اعنى العلماء فتكلموا بلغة أمهم ولم يعلموا لغة أبيهم لقلة من يتكلمه هناك فى ذلك الوقت .... والأقرب أنهم تعلموا بلغة أمهم وليست لتوردب لغة أصلية غير تلك اللغة والله اعلم وتعلمت(؟) ان الروم هو بن عيص بن اسحق بن ابرهيم عليهما السلام وامه نسمة بنت اسماعيل عليه السلام قال ذو النسبين فى كتابه التنوير: ولد اسماعيل عليه السلام اثنى عشر رجالا وامرأة واحدة عمن اولاده نشر الله العرب كلها فلما حضرته الوفاة اوصى الى اخيه اسحق ان يزوج ابنته نسمة من العيص فزوجها منه فولدت له الروم وكان الروم اصفر فسميت بنوه بنا الاصفر...»

لقد جعل المؤرخون العرب منذ القدم البطارقة اى ابراهيم واسمعيل على رأس تاريخ النسب العربى. ويظهر المثل أن الفولبه أيضاً اتخذت مع الإسلام عادة اشتقاق نسبهم من نظام النسب العربى التقليدى وذلك بخلق سلسلة نسب وهمية.

ابراهيم

اسحق — اسماعيل

يعقوب — إيساو (عيسو) —— بسمة — ١٢ ابناً

ريكويل (= روم)

سلسلة نسب اليهود — سلسلة نسب الفولبه — سلسلة نسب العرب

وكما تظهر شجرة النسب، فان تاريخ النسب العربى يماثل فى القسم الاساسى منه التقاليد اليهودية التى استقى منها. واسم نسمة العربى(؟) الوارد عند بارت قد يكون مماثلا لاسم بسمة اليهودى، حيث أن نقطة الباء قد تكون جعلت للنون خطأ. وقد يكون اسم عيص Iṣ‘(؟) لدى بارت كتابة خطأ لعيسو (=Esau).

وبالنسبة للمكان الذى جاء فيه «وكان الروم أصفر» فهناك ما يشبه ذلك لدى هشام بن محمد الكلبى (المتوفى عام ٨١٩ أو ٨٢١ ميلادية) وهو من ثقاة التاريخ والأنساب العربية القديمة. وقد أشار لها كتاب الأغانى لابى فرج الاصبهانى (المتوفى ٩٦٧ ميلادية)، فى المجلد ١٢، ص ١٥٠. فهناك يجرى الحديث عن رجلين، قيس بن عاصم، وعمرو بن الاهتم، كان الواحد منهما يتهم الآخر أمام النبى محمد بأنه ليس من أصل عربى. و«زعم عمرو بن الأهتم أنه (أى قيس) انحدر من صلب الروم؛ فقد كان أحمر». وفى هذا المثل يتضح التقليد اليهودى كأصل استندت عليه الحادثة: ففى كتاب التوراة باب ٢٥، جاء أن عيسو كان محمراً منذ الولادة. وبما أن أسماء الألوان السامية تتغير كثيراً فمن الممكن اعتبار «الأحمر» و«الاصفر» كقيم لونية متماثلة.

ترجمة: محمد على حشيشو

فريدريش روكرت

(١٧٨٨ - ١٨٦٦)

بقلم : الأستاذة أنا مارى شِمّل

توفى الشاعر المستشرق فريدريش روكرت Friedrich Rückert منذ قرن واحد، او على وجه التحديد فى ٣١ يناير (كانون الثانى) سنة ١٨٦٦.

والحق انا لسنا ندرى أكانت عبقريته أكبر فى مجال الشعر ام فى مضمار اللغات الشرقية، ولعله مما يبعث على الأسف ان هذا العالم الفذ لم يحظ بتقدير مواطنيه فما زال الشعب الألمانى يجهل حتى الآن الكثير من أعماله فى حقل الاستشراق، خاصة وأنه كان ذا باع طويل فى ترجمة الآداب الشرقية الى الألمانية حتى أنه ليس من اليسير حصر كل ما ألف من أشعار وما ترجم من أعمال. ولقد أقبل الشعب الألمانى فى القرن التاسع عشر على قراءة وترديد أشعار روكرت التى مجد فيها الأسرة؛ ومن اشهرها بعض الأبيات العذبة التى كان يترنم بها الأطفال فى المانيا الى يومنا هذا؛ كما ان لروكرت انتاج غزير من الأشعار الغرامية التى ألهم بعضها الموسيقار الموهوب «شوبرت» مما دفعه الى تصنيف ألحان لها. وعلى الرغم من ذلك لم يدرك الجمهور أن شاعره المحبوب كان فى الوقت نفسه مترجما عبقرى الإهاب، يندر أن يوجد مثله على مر العصور. ورغم كل هذا فأحيانا ما كان روكرت يشكو حاله بقوله :

لا يثير النفوس ما أوحتنى به آلهة الشعر...

ولا يلتفت العلماء الى ما ألفت فى مضمار اللغات ...

ولد فريدريش روكرت سنة ١٧٨٨ عن عائلة حاكم فى مدينة «شفاينفورت» فى شمالى بافاريا، وكثيراً ما وصف فى اشعاره النهر والحقول والبساتين والغابات التى كان يلهو ويعدو فيها وهو طفل. وعندما شب درس اليونانية واللاتينية فى جامعتى هايدلبرج وبينا ودافع عن أطروحته فى اللغات القديمة وفلسفة اللغة التى تقدم بها سنة ١٨١١؛ وقد انتهى فى هذا البحث العلمى الى ان اللغة الألمانية تشتمل على إمكانيات سائر اللغات بأجمعها فتشكل بذلك اللغة المثلى التى فى إمكانها أن تبنى خصائص كافة الألسن.

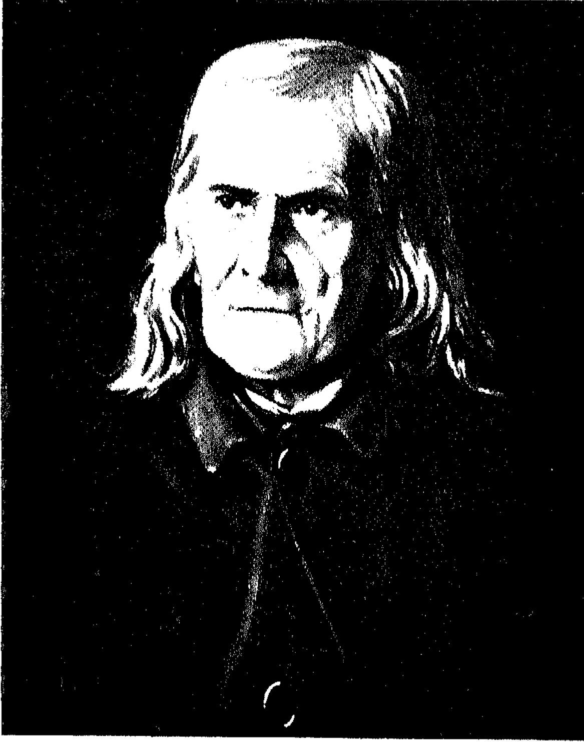
وكان هذا الرأى جديدا مثيرا لمناقشات عنيفة بين اساتذة اللغة، ولكن العالم الشاب لم يبرح مداوماً على اعتقاده هذا حتى انه بعد ذلك بسنوات طويلة أفاد برأيه فى ان الروح الألمانية وحدها هى التى تتمكن من استيعاب خزائن الآداب الأجنبية طرا، دون ان تضيع مع ذلك خصائصها الذاتية، مثلها فى ذلك مثل تقبل المرآة البلورية للالوان والأشكال بلا تفريق، ثم إذ بها تعكسها عكسا تاما بينما لا تزال بلوراً صافيا ...

لم يحب روكرت الحياة الجامعية ولا التدريس ولذلك ترك جامعة يينا وعاش كشاعر حر، وكان ذلك فى زمان حروب الاستقلال فى ألمانيا، فنظم قصائد دعى فيها قومه لمقاومة نابليون وما زالت بعض هذه الاشعار مشهورة حتى يومنا هذا نظرا لما تذخر به من حب الشاعر لوطنه ونفوره من المعتدى الأجنبى ... وفى تلك الفترة قام روكرت بتأليف المسرحيات، مستمدا بعض مواضيعها من الأساطير الشرقية او حكايات ألف ليلة وليلة، ومع أنه كان لا يجيد على الاطلاق تأليف الروايات التمثيلية، لاسيما وأنها كانت تخرج من بين يديه خالية من الحياة فقيرة إلى القيم الجمالية، فانه لم يبرح التأليف فى هذا اللون الأدبى طوال حياته حيث دون فيه ما دون، فمن مسرحية دعاها «نابليون» الى موضوعات مأخوذة عن التوراة والتاريخ الألمانى. وكانت آخر تجربة له فى مجال التمثيلية ملهمة عن التاريخ الأرمنى القديم ...

سافر روكرت الشاب على عادة معاصريه الى ايطاليا حيث اقام هناك لمدة من الزمان ولكنه لم يكن شغوفا بهذه المملكة كما أننا لا نعثر فى كتبه على آثار لهذه السياحة الا فى أشعار معدودة. ولكنه عند عودته الى الشمال زار مدينة فينا التى عاش فيها «يوسف فون هامر — بورجستال» أستاذ اللغات الشرقية؛ وكان روكرت قد عزم على الالتحاق بالأكاديمية الاستشراقية فى فينا، عندما أشرف على التاسعة عشرة من



الشاعر فريدريش روكرت فى شبابه
نقدم شكرنا لبنت حفيد روكرت، السيدة بارباره شوكس Barbara Schöx
فى كرافنارو التى قدمت لنا هذه الصورة التى لم يسبق نشرها.



فريدريش روكرت فى خريف عمره.

عمره، ورد طلبه آنذاك لتجاوزه السن القانونى للقبول. وهنا يتعلم روكرت أصول العربية والفارسية فى أسابيع قليلة على يدى الأستاذ هامر — بورجستال الذى أهداه قبل مفارقته خاتما وبضعة كتب. من هنا تبدأ حياة روكرت الفعلية التى تجمع بين فنون الشعر وعلوم اللغة .. وهكذا أقام العالم عدة سنوات فى مدينة صغيرة مكبا على نسخ ما جاءه من الكتب والمخطوطات الشرقية والاقتباس عنها؛ فقد كان فقيرا لا يستطيع ابتياع هذه الكتب الاستشراقية كلها، ومع أنه كان يشكو كونه «معزولا عن اسواق العلوم الشرقية» فقد وضع فى تلك الفترة أساساً متينا لآثاره المستقبلة، ولم يكتف بنسخ الكتب بغاية الاجتهاد فحسب بل أضاف الى المتون ملاحظاته الشخصية وصحح أخطاءها كما ترجم ما استحسنه من كل المتون التى قرأها. وصاغ بقلمه أشعارا على نمط اسلوب الشاعر المتصوف مولانا جلال الدين الرومى ، وأخرى تعكس روح الحافظ الشيرازى، وأخذ يترجم القسم الأكبر من القرآن الكريم؛ وعندما نشر «سيلفستر ده ساسى» مقامات الحريرى سنة ١٨٢٢ ترجمها روكرت ترجمة رائعة قريبة من الاعجاز...

ولما كان دخله كشاعر حر وعالم مستقل لم يكف لسد نفقات عائلته فقد اضطر لأن يبحث عن وظيفة معلم فى مدرسة او مدرس جامعى على الرغم من أنه كان يكره تلقين الدروس. وبعد مدة عينته جامعة «إرلانجن» فى بافاريا الشمالية أستاذا للغات الشرقية مع أن بعض أعضاء ذلك المعهد العلمى كانوا قد رفضوا تعيين رجل اشتهر كشاعر ولم ينشر مؤلفا ما فى فقه اللغة ولا فى تاريخ الشرق ... ظل روكرت فى هذا المنصب الى أن دعاه الملك البروسى الى جامعة برلين سنة ١٨٤١؛ وكان جد سعيدا باقامته فى مدينة ارلانجن وسط كتبه وبين عائلته، وقد ترجم فى هذه السنوات قسماً كبيرا من الأشعار العربية المشهورة، ومنها اشعار الحماسة لأبى تمام بكاملها فضلا عن ترجماته عن الآداب الهندية والفارسية، وقد نظم آلاف الأشعار التى تدور حول تجاربه الذاتية وبستانه الذى كان مغرما به وكل ما حدث فى عائلته التى كان متفانيا فى حبها (وتوجد له أكثر من مائة قصيدة قرضها فى رثاء طفلين من أبنائه) كما نشر قصائد وحكايات منظومة استمد مواضيعها من كتب التاريخ الإسلامى. وقد جمع روكرت

نشيد كلماته من تأليف الشاعر فريدرش روكرت (من ديوانه «ورود الشرق») وتلحين الموسيقار فرانس شوبرت (المتوفى عام ١٨٢٨)

منها مجموعتين تحتويان على حكايات وأشعار حول الأحداث الهامة فى تاريخ الاسلام، وعلى أجزاء من بعض رسائل الفلسفة والتصوف مصاغة كلها فى لباس أشعار ألمانية رقيقة. ومن اطلع على هاتين المجموعتين الشعريتين وعنوانهما:

Sieben Bücher morgenländischer Sagen und Geschichten;

Erbauliches und Beschauliches aus dem Morgenlande

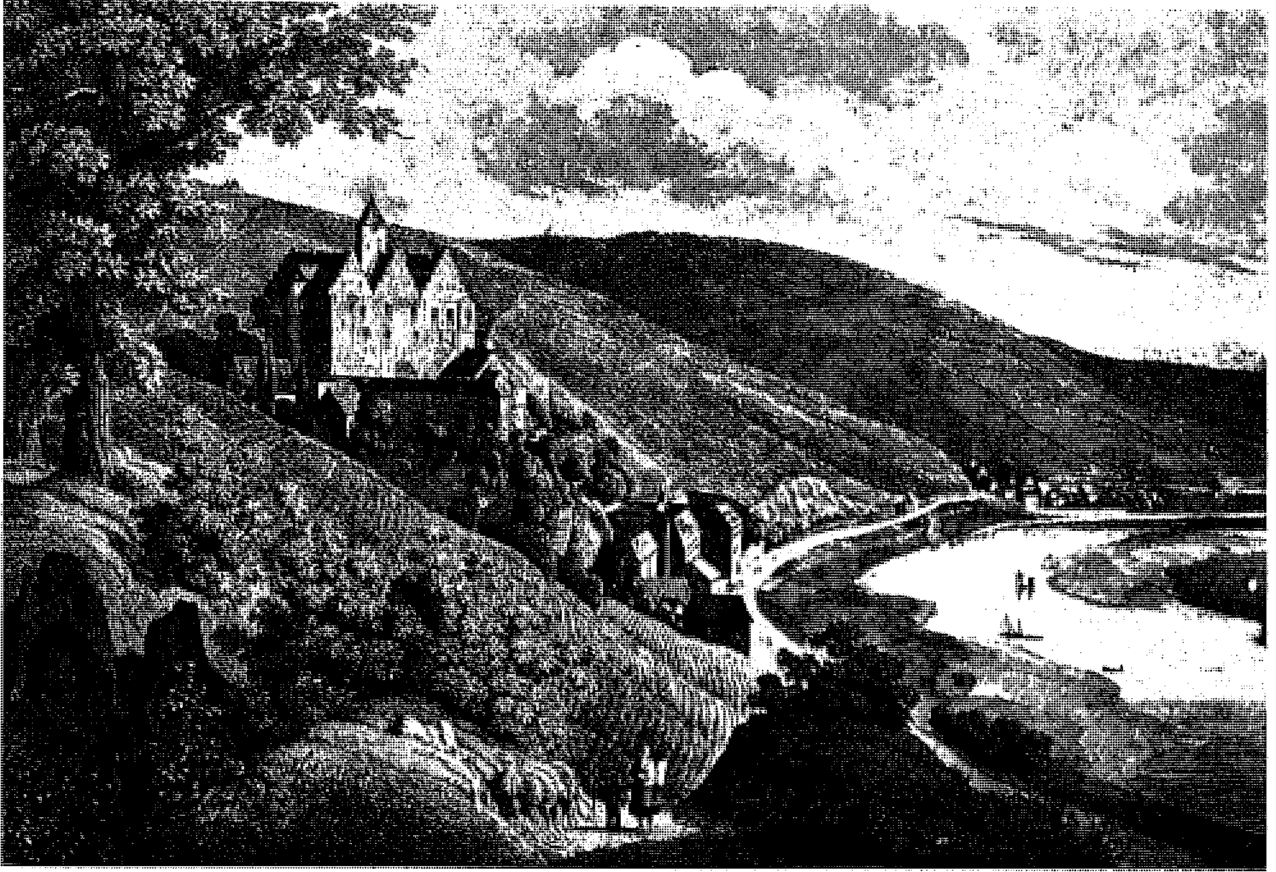
وجد فيهما مضمونا قيما فى أبهى شكل وأبدع تصوير.

كانت مكتبة روكرت شاملة على كتب فى لغات بلا عدد، وقد وصفها الشاعر نفسه قائلا إنها تحوى مؤلفات باللغات التالية:-

اليونانية والألمانية واللاتينية والصقلبية والرومانية والفارسية والسانسكريتية والتركية والعربية ...

وزد على ذلك مراجع أخرى بالعبرية والكردية والأرمنية والبشتو والفارسية القديمة، ولغات جنوبى الهندستان مثل التامل والملايالام، والبربرية، والأرناوتية، والفنلندية، والسورية، والأرامائية والحبشية، والقبطية ...

وقد حكى احد ابناء روكرت أن أباه قد تعلم نحو الخمسين لغة. كما نتبين من مذكرات أولاده ومن أشعاره هو أن هذا العملاق كان إذا اراد درس لغة ما كرس لها نفسه لمدة لا تزيد على الستة او الثمانية أسابيع بحيث لا يلتفت فى تلك الفترة الى اى لغة أخرى ويظل هكذا حتى يفهمها ويدرسها ويترجم عنها. وقد حدث ولده ان قسا سأله فى شهر تموز (يوليو) ان يدرسه اللغة التاملية — وهى من اللغات الهندية الجنوبية الصعبة — وكان الأستاذ يجهلها، ولكنه وعد الرجل أنه سوف يعلمه اللغة المذكورة فى تشرين الثانى..!! ولم يوجد عند روكرت سوى انجيلا مكتوبا بالتاملية وبضع ملاحظات قديمة لسائح اوروبى .. ووصف هو فى شعر له كيف ابتدأ بدراسة هذه اللغة «بسم الله» باحثا عن اسم «الله» الذى لاشك انه موجود فى الانجيل، وبعد أن عثر على الاسم العلى سهل عليه فهم كل ما حوله فى المتن من «السموات والأرض» ... وهكذا



اودفيج ريشتر : قصر ماينبرج Ludwig Richter: Schloß Mainberg.
وكثيرا ما كان روكرت يزور اهل هذا القصر القريب من موطنه.
نشكر السادة المشرفين على أرشيف فريدريش روكرت، بمدينة شفاينفورت ومطبعة فيرت بها لتصريحها لنا بنشر هذه الصورة.

تعلم التاملية واستطاع ان يعلمها فى تشرين الثانى ...! وكان روكرت كلما درس لغة جديدة عاش فيها حتى أنه كان يتكلم بها فى أحلامه على ما وصف هذا الحال فى ابياته.

ولكنه من الغريب انه لم يكن معلما موهوبا فقد قصر عن فهم ما اعترض تلامذته من المشكلات، وحكى أحدهم وهو «باول ده لاجارد» أن روكرت لم يكن يدرس على الطريقة المعروفة التى تنهج الى توضيح المسائل من الوجهة اللغوية والنحوية كما كان لا يهتم بفقه اللغة كعلم مستقل، ولم يلقن تلامذته قواعد الصرف والنحو بل كان يشرح المتن لطلبته كما يبينه للأطفال عند بدء تعلمهم اللسان .. وبذلك كان يأخذ بيد التلميذ الى قلب اللغة ليتعرف على أسرارها وتوافق العبارات فيها وتشابك الكلمات. وأحيانا كان يترجم الشعر العربى او الفارسى الذى قرأه على طلبته ارتجالا فى شكل منظوم .. وسعى روكرت إلى الحد من عدد ساعات محاضراته على قدر الامكان، حتى أنه أحيانا ما عين ميقات بدء دروسه الجامعية فى السادسة صباحا (!!) راجيا ان يمتنع الطلاب عن الاشتراك فى الدرس بعد أن جعل موعده قبل طلوع الشمس.

وكان لدى روكرت خاصية أخرى ألا وهى أنه لم يعن بأشكال الكلمات على ما ينبغى بل كان يقرأ بعضها ملحنا فى التلفظ بها، وكان فى شيخوخته قد نسى النطق الصحيح لعدد من الكلمات مع أنه كان يحفظها عن ظهر قلب ويجيد كتابتها. ذلك أنه لم يسافر قط الى بلاد الشرق ولم يشاهد رجلا من العرب او الفرس او الهنود طوال عمره، وكان تعلمه قاصرا على الكتب وحدها ... واهتم روكرت بالدراسات اللغوية المقارنة كما هم بتأليف كتاب عن النحو المقارن للغات السامية حتى أنه قد تجاسر على المقارنة بين اللغات السامية والإندوجرمانية إلا أنه لم ينشر محصول بحوثه ولم نر نحن معشر المستشرقين فى هذه الابحاث فائدة علمية، بل نعتبرها ثمارا لشطحات الخيال الرومانتيكى. اما روكرت فكان هدفه الأعلى من هذه البحوث غير علمى وهو البرهنة على أن اللغات كلها فروع من أصل واحد وأنه من عرف الكثير منها وجد مفتاحا الى قلوب الناس

Ermutigung zur Uebersetzung der Hamâsa.

(1828.)

Die Poesie in allen ihren Zungen
ist dem Geweihten Eine Sprache nur,
Die Sprache, die im Paradies erklungen,
eh sie verwildert auf der wilden Flur.
Doch wo sie nun auch sei hervorgedrungen,
von ihrem Ursprung trägt sie noch die Spur:
Und ob sie dumpf im Wüstenglutwind stöne,
es sind auch hier des Paradieses Töne.

Die Poesie hat hier ein dürftges Leben,
bei durstgen Herden im entbrannten Sand,
Mit Blütenschmuck und Schattenduft umgeben,
mit Abendthau gelöscht den Mittagsbrand,
Verschönt, versöhnt ein leidenschaftlich Streben
durchs Hochgefühl von Sprach- und Stammverband,
Und in das Schlachtgraun Liebe selbst gewoben,
die hier auch ist, wie überall, von Oben.

صحيفة انشد فيها روكرت قصيدة موحية صدّر بها ترجمته الألمانية لكتاب الحماسة.

واستطاع ادراك الوحدة الأصلية للبشرية، تلك الوحدة الكامنة تحت ستار اللهجات المختلفة؛ وكان مقتنعا بأن اللغات لا تعدو فى مختلف اشكالها ان تكون إفصاحا عن الروح الالهية المطلقة (الواحدة) التى تنعكس فيها على وجه ثلاثى : فى الفرع السامى للغات وفى الفرع الاندوجرمانى وأما الفرع الثالث فيشتمل على كل ما تبقى من الألسنة، من الصينية الى لهجات القوقازيين. ولا شك إن هذه الأفكار لا أساس لها من الواقع ولكنها بنت التخيلات التى كانت سائدة فى ذلك العصر فى ألمانيا، ومع ذلك فهى تدل على مقصد روكرت الأسمى وهدفه الأعلى وهو أن يثبت بواسطة بحوثه العلمية وتراجمه الشعرية عن اللغات الأجنبية وحدة الاحساس عند كافة الأقوام، وأن يبرهن بذلك على أن العشق هو هو فى الأقاليم السبعة وفى قديم الزمان وحديثه ولذلك كتب عند ترجمته لأشعار «الحماسة» أبياته العجيبة القائلة :

إن الشعر فى اللغات جميعها
لغة واحدة لدى العارفين ...

كل ذلك وهو أستاذ فى جامعة إرلانجن. اما فى برلين فأقام روكرت لمدة سبع سنوات، ثم عاد متقاعدا الى موطنه البافارى عام ١٨٤٨، وعاش هناك وسط كتبه فى داره المحاطة بالبساتين الى أن فاضت روحه فى ٣١ يناير ١٨٦٦.

قال روكرت واصفا موهبته الخاصة أنه احب اللغات فى حد ذاتها وأنه يعجب ويسر باللغة كلغة؛ ولا نجد فى الغرب شاعرا أقرب منه الى روح الشرق. كما كان له استعداد فائق التعبير عن المفاهيم والمعانى، ومع تبحره فى اللغات الشرقية كان ولوعا باللغة الألمانية التى تعمق فيها حتى ألم باشتقاقاتها الغائية؛ كماوضع ألفاظا لكل من الكلمات العربية او الهندية التى لم يوجد مقابلا لها بالألمانية. وقال فيه أحد فقهاء اللغة «لو أن اللغة لم تكن موجودة فى عصره لصارت لروكرت اليد الطولى فى ايجادها وتشكيلها».

ومن الغريب أن روكرت لم يأت بالترجمة المنثورة، ولكنه كلما قرأ بيتا او قطعة مسجعة ترجمها فى الحال نظما او سجعا، ونعثر لذلك على تراجمه المنظومة فى وسط المتون النحوية. وهو يعلق على ذلك بقوله :

«إن صنعة الترجمة هى ان ترى كيف تتبدل أرواح المعانى فى أثواب الكلمات».

وهولم يعبر عن فكرة واحدة له بشكل منثور بل اعترف قائلا
«إن الدنيا ليست عندى إلا مادة للشعر ...»

وكان فكره وشعره شيئاً واحدا، فلم يفكر الا وهو ينظم حتى وصف أبسط أحداث حياته فى شكل رشيق، ومن ذلك أنه ألف ٣٨ قصيدة فى حدث غير هام ألا وهو سقوط الثلج فى أحد أيام نيسان وهو أمر نادر الحدوث فى ألمانيا ...

ومن أقواله : «أن الدنيا تنعكس فى بلور الشعر وتبتهج به»، ولذلك لم يبرح يترنم بأبياته الى أن انتقل إلى رحمة الله.

ومن الطبيعى أن هذه الفعالية غير المحدودة انتجت أبياتا عديدة لا قيمة لها، وكثيرا ما ترجم هذا المستشرق الفحل بيتا واحدا مرتين اوأكثر وهوفى ذلك يسخرمن نفسه بقوله :

«.. وإن والد أشعارى
هوعدم الحافظة
وأمها هى النسيان ...»

وكانت موهبته الشعرية مشابهة لموهبة شعراء الشرق إذ كان يحب اللعب اللفظى كما كان يرى

«أن اللغة فى بدايتها كانت لعبا بالكلمات والمعانى
فدعنا نلعب نحن أيضا بها ...»

قال ابو عطـاء السنـدى

ذكرتُكِ والخطىُّ يخطِر بيننا
وقد نَهِلت منّا المثقّفةُ السُّمرُ

فوالله ما ادرى وإنّى لصادقٌ
اداءٌ عرانى من حبابك أم سِحْرُ

فإن كان سِحْراً فاعذُريني على الهوى
وإن كان داءً غيرَه فلكِ العُذْرُ

قال بلعاءُ بن قيس الكنانى

وفارسٍ فى غِمار الموتِ مُنغمِسٍ
إذا تألّى على مكروهةٍ صدَقـــا
غشّيتُه وهو فى جأواء باسلـةٍ
عَضْباً اصاب سواءَ الرّأس فانفلقا
بضربةٍ لم تكن منّى مخالســةً
ولا تعجّلتها جُبْناً ولا فرَقــا

Heldenlieder. 9

6.

Abu Atâ der Sindische.

Liebeslied des Kriegers.

Mein dacht' ich, als die Lanze
war zwischen uns im Schwung,
Und jeder Schaft im Blute
verlangte Sättigung.

Ich lüge nicht, beim Himmel,
ich weiß nicht, was von dir
Mir zufließ, ist es Krankheit,
ist es Bezauberung?

Und wenn es ist ein Zauber,
so halt entschuldigt mich;
Und ist es sonst ein Uebel,
hast du Entschuldigung.

Anmerkung.

Der Dichter gehört der Zeit der Omeijaden an. Es wird von ihm bemerkt, daß er eine ausländische Aussprache hatte, und das sch in ein weiches s, das sch in ein bloßes s verwandelte.

7.

Bal'a Ben Kais der Kenânische,

rühmt sich besonnenen Kriegsmuthes.

Arabisches Maß [illegible]

Und mehr als Ein Reiter, der in Todeswirbel sich taucht,
und wo auf Kampfungemach er sich verlobt hat, es hält,

Ihn deckte zu, wo er ritt im waffenrostigen Heer,
mein Säbel, der, wo er trifft, das Haupt in Mitten zerspellt,

Mit einem Hieb, der von mir erging nicht wie auf den Raub,
von Feigheit nicht übereilt, und nicht von Furcht überschnellt.

صحيفة من ترجمة روكرت لكتاب الحماسة، تحتوى على قصيدتين عربيتين حيث يرى القارئ ان المترجم قد وفق كل التوفيق فى محافظته على روح النص حتّى انه ابدع فى محاكاة بحر البسيط فى ترجمته.

لم يكن روكرت شاعرا رومانتيكيا يذوب فى غرام لانهائى او يريد الحصول على الكواكب الدرية لينثرها تحت قدمى معشوقته بل كانت فنون الشعر فى اعتقاده لعبا روحانيا ظريفا بديعا حتّى انه يقول فى بعض أبياته :

«الشاعر مثله كالبهلوان يمشى علىّ حبال الكلام ...»

وان هذا الاستعداد الاكروباتى هو الذى مكنه من تراجمه الفائقة التى لا شبيه لها فى الدنيا بأسرها .

والآن فلنجمع أطراف فعالية روكرت فى حوزة الآداب الفارسية والعربية ولندع تراجمه من اللغات الهندية وإن كان عددها أكبر من تراجمه كلها عن اللغات الاسلامية، فهى تعد بالآف. ولا نذكر كذلك أبياته المأخوذة من ترجمة لاتينية للاشعار الصينية القديمة ..

وصف روكرت الشعر العربى والفارسى بأنهما معشوقتاه الجميلتان وفى الحقيقة أنه كان لهما عاشقا صادقا من أول حياته الى آخرها ! كان اول ما نشره روكرت فى حوزة الاستشراق مجموعة صغيرة سماها «من ديوان مولانا جلال الدين الرومى» (١٨١٩) وأدخل فى هذه الأشعار النفيسة طرز الغزل فى الآداب الألمانية، ولم يكن الشعراء الاوروبيون على العموم والألمان على الخصوص يعرفون الشعر ذا القافية الواحدة فان الشعر الألمانى أقرب الى الموشح او المربع او المسدس الخ. وجدير بالذكر أن القافية فى اللغة الألمانية لا تشكل بحرف واحد بل هى مركبة من تكرار مقاطع معينة من الكلمة او من كلمات كاملة ذات وقع واحد. اما المستشرقون فعندما عثروا على هذا الطرز فى الآداب الاسلامية ظنوا أنه غير قابل للتطبيق فى اللغة الألمانية لأنها «فقيرة فى القوافى» وأن استعمال كلمات مقفاة بقافية واحدة سيكون مطرد النغم، قبيح الصوت، صعب الفهم ...

ولكن روكرت بين ان تطبيق هذا اللون الشعرى فى اللغة الألمانية ممكن كل الامكان، فأعتبرت غزلياته هذه مثالا فى الجمال والرشاقة، وهى خفيفة القافية، حلوة الصوت والايقاع، عميقة الأفكار ... ولم يلبث روكرت وصديقه «بلاتن» يستعملان طرز «الغزل» الوحيد القافية فى أشعارهم حتى أخذه عنهما شعراء آخرون وصار بذلك أسلوبا معروفا فى الغرب أثناء اواسط القرن التاسع عشر.

أما قصائد روكرت التى نشرها تحت اسم المتصوف الاسلامى فلم تكن بمثابة التراجم الحرفية بل هى ملهمة من تراجم الأستاذ هامر — بورجستال التى نشرها فى كتابه

«تاريخ الآداب الفارسية» وكان قد اعطاه لتلميذه هذا اثناء إقامته فى فينا. ومع ذلك تعكس أشعار روكرت روح مولانا الرومى بكمال الصداقة ولم تزل تعتبر أجمل مرآة فى الغرب لأفكار هذا الصوفى العظيم وإن كان الكثير من المستشرقين وغيرهم من أهل العلم قد قاموا بترجمة بعض آثاره. وكان روكرت على حق إذ أشار فى أول هذه الغزليات الى معشوق مولانا جلال الدين وهو شمس الدين التبريزى المذكور اسمه فى كل من أشعار الرومى :

«النور فى المشرق، وانا فى المغرب
مثل جبل ينعكس على ذروته الضياء
إننى القمر الأشهب لشمس الجمال
فاصرف عنى النظر، وانظر الى وجه الشمس ...»

وقد عنى روكرت فى الوقت نفسه بأشعار حافظ الشيرازى وكان إذ ذاك تأثير حافظ على شاعرنا جوته قد أتى بثمرة بديعة تمثلت فى ديوانه «الغربى — الشرقى». وقصد المستشرق الشاعر كذلك الى تأليف رسالة شعرية فى هذا الطرز إلا أنه علق أهمية كبرى على الخصائص الجمالية فى الأسلوب الفارسى حتى أنه قام بتقليد الجناس واللعب اللفظى وكتب الى ناشر كتبه قائلا :

«إنه من استوعب الروح الموجودة فى أشعار جوته والشكل الظاهرى فى مؤلفى هذا وأضاف الى هذين الجوهرين الكتلة الجسمانية كما توجد فى آثار هامر عسى أن يستطيع ادراك ماهية الشعر الفارسى دون أن يعرف الفارسية.»

وكان كتيب روكرت المدعو «ورود شرقية» (صدر سنة ١٨٢١، Östliche Rosen) يحتوى على أشعار رائعة البهاء بيد أن الشاعر كان يستعمل فيها ألعاب لفظية وقواف غير مألوفة، ورغم ذلك فان القارئ الألمانى لا يستغرب هذا الطرز بل أنه يبهج لحسن الإيقاع وسهولة النغمات، وليس من العجيب أن جوته الذى — مع كل ميله الى حافظ الشيرازى — لم يستحسن تقليد الغربيين للأشكال الشرقية كان قد نصح أهل الموسيقى أن يضعوا ألحانا لهذه الأبيات التى تبعث على الغناء ... بعد نشر كتابه هذا بأربع سنوات طبع روكرت بعض تراجمه لرباعيات حافظ، واستنسخ متن ديوانه كله، ونفهم من عدة أبيات فى الدفتر المسمى «يوميات شاعرية» أن الشاعر الفريد الإيرانى لم يزل صديقه الروحانى حتى فى شيخوخته، ولكن لم يكن أحد من زملائه على علم أن روكرت كان قد ترجم قسماً غير صغير من ديوان حافظ الى ان نشر تلميذ له وهو «لاجارد» الآنف ذكره سنة ١٨٧٧ (اى إحدى عشر سنة بعد وفاة أستاذه) ٤٢ من الغزليات رويها من الراء الى الياء و ٢٨ رباعيا كان روكرت قد اهداها اياه سنة ١٨٤٧، وقد عثر الدكتور «كراينبورج» Kreyenborg على بواقى هذه الترجمة وهى ٨٥ شعرا رويها من الألف الى الدال، ونشرها سنة ١٩٢٦، وتعتبر هذه الترجمة قمة فى الصدق والروعة والجمال وليتها جمعت فى ديوان واحد بدلا من كونها الآن متناثرة يصعب العثور عليها فى المكتبات ...

كانت عادة روكرت أنه اذا اشتغل بآثار شاعر قام أولا بنظم شعر مستقل ملهم من أفكار الأديب الشرقى ثم تعهد بترجمة حقيقية صادقة لكلمات الأصل وكذا لروحه. نشاهد هذه العادة ايضا فى معاملته للفردوسى الشاعر الجليل الايرانى. كان «لومسدن» احد المستشرقين الانكليز قد نشر متن الأسطورة المنظومة «شاه نامه» اى كتاب الملوك سنة ١٨١١، ورأى فيها الأديب الألمانى «جورس» Görres افادة كاملة عن إحساسه الرومانتيكى فحكى قصص «شاه نامه» فى شكل منثور ونشر كتابه الذى لا قيمة له من الوجهة العلمية سنة ١٨٢٠. اما روكرت فحقق متن هذا المؤلف الضخم ذى الستين الف بيت من الشعر ورغب فى نشره، ولكنه قد سبقه فى هذا المضمار المستشرق الفرنسى «مول» Mohl الا ان روكرت قد انتقد هذه الطبعة المليئة بالأخطاء انتقادا شديدا، الأمر الذى نستدل منه على تعمقه فى هذه المادة، ومن بين تراثه العلمى آلاف الأوراق الحاوية على حواش وملاحظات خاصة بأسلوب «شاه نامه» ولغته.

ألف روكرت عند أول اطلاعه على هذا الكتاب أقصوصة منظومة تعالج قتال رستم وسهراب وهى المقطوعة الشهيرة فى «شاه نامه» حيث يروى فيها الشاعر كيف قاتل الوالد ولده دون أن يعرف أحدهما الآخر. واعتبر روكرت نظمه هذا أحسن شعر ألفه كما رأى أنه جدير بأن يهدى الى روح جوته ... لكن القراء الألمان لم يهتموا بهذا المؤلف الحزين، ولم يشعر احد بأن روكرت فى الوقت نفسه قد قام بترجمة كاملة لشاه نامه بأسره ... وظلت هذه الترجمة العظيمة المنظومة التى لا تخلو من فائدة نحوية ولغوية كما انها ذات روعة جمالية بتقليدها للأسلوب الشعرى الألمانى القديم مختفية وراء أوراق الشاعر حتى أنها لم تطبع الا بعد ٣٠ سنة من وفاته ...

ولا غرو أن يلتفت روكرت الى الشاعر الإيرانى الذى كان واسع الشهرة حتى فى الغرب منذ ثلاثة قرون وهو الشيخ

سعدى الشيرازى الذى ترجم كتابه المشهور بعنوان «كلستان» (روضة الورد) السائح الألمانى آدم «اوليياريوس» سنة ١٦٥٣، والذى قدر شعراء الغرب وادباؤه أشعاره الأخلاقية غاية التقدير. وكثيرا ما نصادف فى أشعار روكرت بعض الاشارات لأفكار الشيخ سعدى لأنه كان يحب النصيحة فى لباس شعرى ... ولكن اشتغاله العلمى بآثار هذا الأديب لم يبتدئ الا بعد رجوعه من جامعة برلين متقاعدا، اى سنة ١٨٤٨ او ١٨٤٩. ولكنه فاتته الفرصة لنشر تراجمه وشكى ان مؤلفه الكامل يستره الغبار ... وكان من سوء حظه انه كان قد طبع فى هذه السنوات عدد من تراجم جديدة جميلة ولو كانت غير علمية لأشعار سعدى ورسائله، اما مترجمات روكرت فظلت مجهولة لم تمثل للطبع الا بعد عام ١٨٩٠، وهى مقطوعات من كلستان، وترجمة منظومة جميلة لشعر «بوستان» وعدد جدير بالذكر من «صاحبنامه» والمدائح والمراثى وديوانه الحافل بالحواشى التاريخية المفيدة؛ لأن المترجم قد عرف أن القارئ الغربى لا يستطيع فهم الايماءآت والتلميحات دون معرفة الوضع السياسى فى القرن الثالث عشر.

وكان روكرت قد عثر على ديوان مولانا جامى (المتوفى عام ١٤٩٥) سنة ١٨٣١ واستنسخ منه عددا لا يستهان به من الأبيات بعد أن نقل بعض الأساطير الصغيرة للشاعر الهروى فيما قبل. ووجد فى أبيات هذا الشاعر ظرافة بديعة ورشاقة طريفة تتوافق واستعداده هو، ولذلك نشر ترجمة لها فى مجلة جمعية المستشرقين الألمان، ويحس القارئ أنه قد بذل جهده فى تقليد أعجب تشاكلات الأسلوب وفى ايجاد رموز غير معروفة وتلميحات غير مألوفة، كما عبر عن مقصده فى الشعر الذى أضافه الى ترجمته هذه :

«إننى قد اصطدت غزال المسك الذى علفته الرائحة فى مروج ايران، فأحضرته فى زناجير الايقاع الوطنى وسلاسل الألحان المستأنسة لأعرضه هنا».

توجد فى تراجم روكرت أسماء شعراء فارسيين أخرى، مثل نظامى الذى نشر مستشرقنا بعض الابواب من «إسكندرنامه» فى شكل منظوم، ثم مقطوعات من آثار فريد الدين عطار، وقصيدة لأنورى، وبضع رباعيات لعمر خيام، وهو لم يهمل الشعر الشعبى الفارسى. وكل ما ترجمه قريب من الأصل فى الايقاع وفى الكلمات الا أن الترجمة أحيانا ما كانت تفوق الأصل جمالا وعذوبة.

والكتاب الوحيد الذى نقله شاعرنا العبقرى منثوراً هو كتاب فى علم المعانى، اى الدفتر السابع لـ «هفت قلزم» (البحور السبعة) الذى كان قد طبع فى لكهنو فى الهند سنة ١٨٢١، ودعا هامر – بورجستال تلميذه السابق للاشتغال بهذا المصنف المحتوى على كل الفنون من البديع والمعميات وما يختص به الشعر الفارسى وبالخاصة السبك الهندى من المشكلات اللغوية. وكان هذا العمل متفقا واستعداد روكرت «الأكروباتى» للعب بالألفاظ وصارت ترجمته هذه مع حواشيها والإيضاحات الطويلة مرجعا قيما لكل من أراد فهم البلاغة الفارسية على ما ينبغى. ونشاهد فى هذا المصنف أن لروكرت موهبة خاصة لإيضاح مسائل معقدة فى أسلوب خفيف مزين بعبارات باسمة وتلميحات فكهة، وان اطلعنا عليها زادنا أسفا أن روكرت لم يجمع معلوماته الفائقة فى مضمار الآداب الشرقية فى تصنيف يشتمل على تاريخ الآداب من الوجهة الجمالية.

هذا ما ورثناه فى مضمار الآداب الفارسية من فريدريش روكرت الذى لا مثيل له فى فن الترجمة المنظومة لا فى عصره ولا فى ايامنا هذه ... أما تراجمه عن اللغة العربية، وإن كان قسم مهم منها يكاد أن يكون مجهولا حتى لدى المتخصصين، فهى أكمل من عمله المذكور وأعجب، فان الترجمة عن الفارسية سهلة على الألمان نسبيا من الترجمة عن العربية.

كان روكرت اثناء دراساته خاصة فى أوائل أمره يشتغل بدراسة القرآن الكريم، وقد نشر بعض آياته فى ترجمة جميلة فى إحدى المجموعات الأدبية الألمانية سنة ١٨٢٤. وكان يسعى عام ١٨٤٢ الى طبع الترجمة بأسرها ولم يوفق فى ذلك وهكذا بقيت على حالها حتى نشرها المستشرق «اوجوست مولر» بعد وفاة المترجم باثنى وعشرين سنة؛ وقد ذكر فى مقدمته أنه لا يوجد فى الدنيا من استطاع القيام بترجمة مساوية لتصنيف روكرت هذا، مع أن شاعرنا لم ينقل متن كتاب الله بتمامه بل اكتفى بترجمة نحو ثلاثة أرباعه، وحافظ فى الصياغة الألمانية على الأسلوب الخاص للقرآن الى حد ما وإن لم يتتبع النص الأصلى كلمة بكلمة، ويقال بلا مبالغة أن هذه الترجمة أقرب الى الجمال الإعجازى لألفاظ القرآن من كل التراجم التى صدرت فى اوروبا. وبجانب ذلك انتخب الشاعر بضع آيات وصنف منها أشعارا وأمثالا وأبياتا ألمانية.

صحيفة من مخطوطة لترجمة روكرت للقرآن (سورة البقرة).
وهى محفوظة فى سجلات مدينة شفاينفورت، مسقط رأس الشاعر المترجم. ◀

7. [illegible]

8. [illegible]

9. [illegible]

10. [illegible]

11. [illegible]

12. [illegible]

13. [illegible]

14. [illegible]

15. [illegible]

16. [illegible]

17. [illegible]

18. [illegible]

19. [illegible]

وفى الفترة نفسها لفت روكرت اهتمامه الى مقامات الحريرى التى نشرها «سيلفستر ده ساسى» فى باريس عام ١٨٢٢. وكل ناطق بالضاد يعلم أن هذا المصنف من نوادر الآداب العربية التى لم يسبكها يراع شاعر مثله، وأنه شبيه بفوارة مشعشعة من الألفاظ، إذ «لم ينسج على منواله، ولا سمحت قريحة بمثاله». وكان المستشرق الفلمنكى «جوليوس» (المتوفى ١٦٦٧) قد اشتغل لأول مرة بهذه المقامات، وكذلك نشر «ألبرت شولتنس» فى جامعة ليدن مقامة أخرى، وترجم يوهان يعقوب رايسكه المقامة السادسة والعشرين عام ١٧٣٧. ثم نجد ترجمة للمقامة الثامنة بقلم «الكونت رزووسكى» وللمقامة الثانية عشر بقلم الدكتور «بيسانى» وكلاهما نشر فى مجلة «معادن الشرق» فى فينا. ولكن لم يكن لهذه التجارب قيمة علمية لأن مؤلفوها لم يستندوا الى متن عربى يوثق به. لذلك اهتم الأستاذ «سيلفستر ده ساسى» الفرنسى بنشر النص الصحيح مستفيداً من مخطوطات شتى ومن المتن المطبوع فى كالكوتا بين عامى ١٨٠٩ و١٨١٤. وصدر متنه سنة ١٨٢٢ بعد أن أخذ مواطن الأستاذ الكبير «كوسين ده برسه فال» على عاتقه إصدار المقامات فى طبعة جديدة عام ١٨١٨. ويعد هذا التحقيق العلمى الذى يحتوى على ٦٦٦ صحيفة وهو مزود بحواش عديدة مرجعا معترف به.

أما روكرت فكان إذ ذاك يعيش منزويا فى قريته البافارية حيث اشترى هذا الكتاب الثمين على رغم ثمنه الهائل وفقره هو المدقع ... وبعد عامين تجرأ على نشر ثمانى مقامات فى ترجمة ألمانية تعد فى مرتبة الاعجاز: قلد فيها أجناس الجناس والتجنيس من جناس لاحق وجناس زائد وتجنيس الإشارة وحافظ على ألعاب الألفاظ وعلى العبارات الشاذة، وإن أصاب فى متن الحريرى عبارات لا يمكن نقلها الى الألمانية كلمة بكلمة فقد ابدع هو فى لغتنا الألمانية ما يشبه المعنى الاصلى ويظهر من الفنون ما يحير العقول، ويسلم كل من أجاد اللسانين العربى والألمانى أن المقامات الألمانية أكثر صنعة وابدع من أصلها العربى ... فلنعطى مثالا لطريقة روكرت فى ترجمته: فى المقامة الطيبية حيث يعالج الحريرى مسائل فقهية كل منها مبهم مزدوج المعنى اخترع روكرت مثلها فى الألمانية، مثل:

Ist ein Gelddieb, wer eine Katze stahl? — Ja, eine gespickte zumal.

ومقابل ذلك بالعربية: «هل يعتبر سارق هرة سارق مال؟ — أجل، وبالخاصة إن كانت الهرة محشوة بالسمن».

ولكن المراد من «هرة» هنا «صرة» وهذا معلوم فى اللهجات الألمانية القديمة، و gespickt محشو بالسمن هو الحيوان النحيف الذى يحشى قبل ان يشوى ومعناه ايضا «الصرة المملوءة بالدراهم ...»

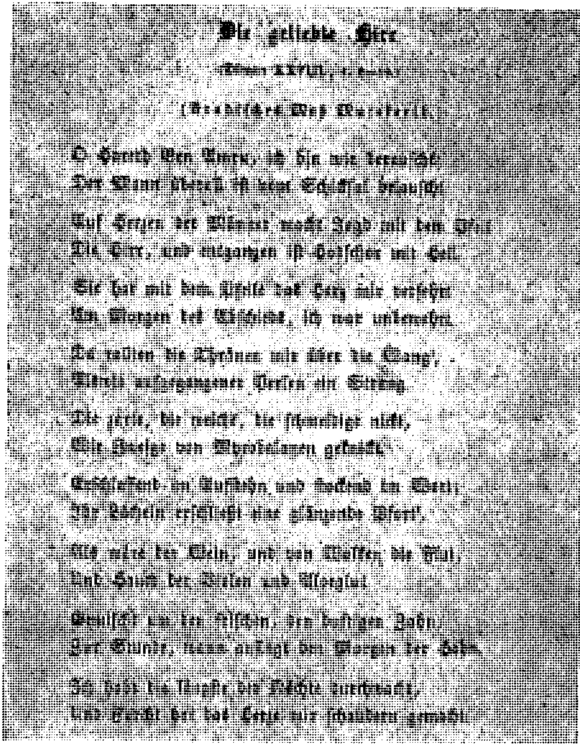
وعلى هذا الطرز ترجم شاعرنا المستشرق المقامات كلها الا أربعا او خمسا، وزاد فيها ملاحظات وحواشيا مأخوذة من المراجع العربية، فنتعلم من ترجمته هذه كثيرا من عادات العرب ومن أمثالهم المأثورة، وهى فى الوقت نفسه مفيدة لمن قصد التعمق فى الكلمات الألمانية النادرة والعبارات الصائبة والمعميات الغريبة، وإن قرأتها وداومت على الاطلاع عليها انشرح صدرك وانبسط قلبك وسبحان من أنعم على شاعر ألمانى بهذه الموهبة الفريدة!

وعندما اطلع «سيلفستر ده ساسى» على ترجمة روكرت لمصنفه المذكور اثنى عليه عاطر الثناء قائلا:

«بفضلكم صار لا ينبغى على من عرف اللغة الألمانية أن يتعلم العربية كى يتمكن من الإدراك الصحيح لكل ما يوجد من الآثار الشرقية من هذا اللون الأدبى!»

ومما يجدر بالذكر أن روكرت فى تراجمه كلها افتقر الى قواميس جيدة للغات الشرقية، لأنه لم يوجد فى ذلك العصر معجم كاف للغة الفارسية ولا للعربية، وكان المستشرق مجبورا على استنساخ بعض القواميس الموجودة (كما فعل نفس الشيء بالمجلدين الضخمين السانسكرتيين ...) مضيفا اليها ما وجده من العبارات والمعانى فى اثناء درسه دواوين الشعراء وتواريخ المؤرخين، فيصعب علينا ان نعلم كيف أمكن روكرت على الرغم من كل هذا القسط العلمى إكمال تراجمه الرائعة التى لم يتجرأ على مثلها أحد منا نحن معشر المستشرقين المعاصرين مع وفرة القواميس وكثرة الكتب النحوية فى الغرب!

وأضاف روكرت بعد مدة قصيرة جوهرا جديدا الى ذخيرة العلوم وهو ترجمته لحماسة أبى تمام. طلب الى ناشر كتبه إصدار هذا المؤلف سنة ١٨٣١؛ ثم أراد قبل نشره تحقيق المتن المنشور على يد المستشرق «فرايتاج» Freytag أستاذ الدراسات الشرقية فى جامعة بون، ولذلك تأخر نشر هذا التصنيف الى أن لاحت له الفرصة للطبع عام ١٨٤٦. وصف هامر — بورجستال هذه الترجمة فى تقريظه «كولد عملاق مولود من الاجتهاد الإستشراق وآلهة الشعر الألمانية» ونعترف أنه لا يسهل على قارئ غير واقف على أصول العربية تقدير هذه الأشعار الألمانية مع أنها كانت (او قل بالاحرى: لأنها كانت) امينة النقل للأصل العربى أمانة كاملة، لم يهمل المترجم فيها تشبيها غريبا ولا يحل



وهرٌ تصيد قلوب الرجال
وأفلتَ منها ابن عمرو حُجرْ

رمتني بسهمٍ اصاب الفؤادَ
غداة الرحيلِ فلم انتصِرْ

فأسبلَ دمعي كفضّ الجُمان
أو الدرّ رقراقِهِ المنحدِرِ

برهرهةٌ رخصةٌ رُودةٌ
كخرعُوبة البانةِ المنفطِرْ

فتور القيام قطيعُ الكلا
مِ تفترُ عن ذى غروبٍ خصِرْ

كأنّ المدامَ وصوبَ الغمام
وريح الخُزامى ونشرَ القُطُرْ

يُعلُّ به بردُ أنيابها
اذا طربَ الطائر المستحِرْ

فبِتُّ أكابدُ ليلَ التما
م والقلبُ من خشيةٍ مقشعِرْ

صحيفة من ترجمة لإحدى قصائد امرىء القيس مرفق بها الأصل العربى لهذه القصيدة، وكان المترجم قد ابدع فى محاكاة بحر المتقارب فى ترجمته الألمانية.

عقود الجمل المتشابكة، وأحيانا ما كان يسعى فى المحافظة على الوزن العربى فترجم ما ترجم فى بحر البسيط او الطويل او الوافر، او، إن لم يكن ذلك مستطاعا لأسباب جمالية، تبنى وزنا قريبا من البحر الأصلى. وزاد ذلك فى صعوبة فهم الأشعار، اما القارئ الألمانى غير المتخصص فربما يأخذه العجاب بإزاء تلك الأسماء الغريبة وصفات الخيول وأنساب الإبل ... أما المستشرق فيصاب بالحيرة والعجب لهذه الترجمة الفريدة التى علق عليها روكرت من الحواشى ما يمكن جعله موسوعة خاصة لتاريخ العرب وآدابهم فى القرون الأولى للهجرة. وما كان مقصد المترجم من هذا المصنف الشامل على مجلدين ضخمين الا القيام بالبرهان القاطع على أن سكان العالم بأسرهم متشابهون فى الفضائل والهمم العالية، وقصد الشاعر أن يعرض أمام شعبه الألمانى صورة من الأفكار والأحاسيس التى كان الشعب العربى يميز بها قبل ألف سنة أو أكثر، وهى العشق والحماسة والحلم وإكرام الضيف ... وعبر عن هدفه هذا فى شعر تمهيدى لترجمته يعبر فيه عن عقيدته فى أن الشعر فى كافة اللغات لسان واحد منشأه الحقيقى الجنة قبل ان تفترق الأقوام وتختلط الألسنة ...

لم يحصل روكرت لترجمته هذه التى تشتمل على نحو ألف قصيدة وقطعة ما كان يتوقعه من مدح زملائه ولا من ثناء الجم الغفير من القراء لأن الموضوع كان خشنا غير مألوف لم يتذوقه الا من جد فى قراءته وصبر على مطالعته. ولسنا ندرى متى قام روكرت بترجمة الأمثال العربية الألف والستمائة التى ظلت غير مطبوعة حتى الآن، وليس من المعلوم كذلك متى اشتغل بترجمة بضع المعلقات التى نشرت سنة ١٨٧٧ فى مذكرات تلميذه «لاجارد»، ومن الممكن ان تكون قد دونت قبل عام ١٨٤٧ حين زاره تلميذه المذكور. فمن بينها معلقة طرفة ومعلقة عمرو، وهناك ايضا ترجمة عبقرية لمعلقة زهير. ولو سأل القارئ الصابر هل من مزيد؟ قدمنا اليه قصيدة «بانت سعاد» المشهورة لكعب بن زهير فى ترجمة الأستاذ الكبير، ترجمة تليق بهذه القصيدة المؤثرة. وبين أوراق الشاعر المستشرق قصيدة أخرى اشتهرت فى الشرق والغرب معا وسعى فى ترجمتها الكثير من المستشرقين الألمان فى القرن الماضى منهم كوسەجارتن Kosegarten وڤايل Weil وهامر ورويس Reuss وغيرهم؛ وهى لامية العرب لشنفرى. اما ترجمة روكرت لهذا الشعر العظيم فهى عندنا

أحسن ما كتبه فى حوزة الشعر العربى القديم، ولا أظن أن أحدا فاقه فى وصفه للذئاب الجائعة، وإن كانت ترجمته للمعلقات كلها جميلة رشيقة وأحيانا ما كانت أحسن من الأصل، وكأنها كانت فى الأصل شعرا ألمانيا لأحد فحول الكتاب. ولكن لم تنشر هذه القصائد الا بعد وفاته هذا المستشرق بكثير، ولم ير هو منها فى شكل مطبوع الا واحدة ألا وهى ترجمته لديوان امرىء القيس التى نشرت سنة ١٨٤٣ عندما كان روكرت استاذا فى برلين واستفاد فى إحضاره من المتن المطبوع ومن مخطوطة محفوظة فى مكتبة مدينة جوتا، وألحق بترجمته هذه الحواشى المأخوذة من كتاب الأغانى وتاريخ أبى الفداء، ونعجب مرة أخرى لسهولة ترجمته وعذوبة أسلوبه فى نقل هذه الأشعار، وكل هذه التراجم من الشعر العربى القديم وهى التى لا يشق لها غبار. زد على هذا كله أن مستشرقنا الشاعر ترجم ماترجم من الأشعار الموجودة فى كتب المؤرخين العرب مثلا الأبيات المروية فى وفيات الأعيان لابن خلكان (وهى لم تنشر كذلك بل ما زالت محفوظة بخطه الصغير المطموس ضمن تركته العلمية وهى فى انتظار من يرفع عنها ستار النسيان) والأشعار فى المجموعة المدونة بقلم العالم الألمانى «كوسه جارتن»؛ ومن الطبيعى أنه لفت اهتمامه الى آثار عمر بن أبى ربيعة وأحضر ترجمة لأبياته الغرامية، (مازالت بدورها غير كاملة ولا مطبوعة) ولم يهمل قصة عنتره بن شداد ...

وعسى ان يفهم القارئ سعة عبقرية روكرت من هذه الأسطر القليلة التى لم يذكر فيها ما فعل فى حوزة اللغات الهندية وهى آلاف من الصحف من السانسكرتية واللغات الشعبية الهندية او الصينية او ترجمته لأجزاء من التوراة.

توفى روكرت وهو يقارب الثمانين من عمره، وكان بلغ منه التعب والارهاق حدا بليغا بعد حياة حافلة أطفأ فيها جذوة يومه وأحرق فحمة ليله فى العمل، على ما قاله زهير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولا لا ابا لك يسأم

Ich bin der Lebensmühsal geworden satt, und wer
Gelebt hat achtzig Jahre, o glaub mir, satt wird der!

اشتاق الى الراحة الأبدية والى الرجوع الى بلاد الحب الأزلى الذى لم يشك أبدا فى وجوده، وهكذا عاد شاعرنا الى منشأ اللغات السماوى والى منبع الشعر السرمدى ...

Sagt meinen Brüdern, die mich Toten sehen:
Ich bin nicht dieser Tote, den ihr seht.
Ich bin der Vogel, und der Käfig das,
Dem ich entflog und der nun öde steht.
Ich bin der Schatz, und mein Verschluß ist hin
In Staub, da auf nun die Verklärung geht.
Ich danke Gott, daß er mich frei gemacht
Und meine Wohnung hat zu sich erhöht!

ترجمة روكرت لشعر عربى، محفوظة فى سجلات مدينة شفاينفورت التى صرحت لنا بنشر هذا الشعر الذى لم يسبق نشرها.

عن ترجمة فريدريش روكرت لمقامات الحريري

المقامة الدينارية

رَوى الحارث بن همّام قال نَظَمَنى وأخداناً لى نادٍ * لم يَخبْ فيه مُنادٍ * ولا كبا قَدْحُ زِنادٍ * ولا ذَكَتْ نارُ عِنادٍ * فبينْنَا نحن نَتجاذبُ أطرافَ ٱلأناشيدِ * ونَتَواردُ طُرَفَ ٱلأسانيدِ * إذ وَقَفَ بنا شَخْصٌ عليه سَمَل * وفى مِشْيَتِه قَزَل * فقال يا أخايِرَ ٱلذخائر * وبشائِرَ العَشائر * عِموا صَباحاً * وأنْعِمُوا ٱصطباحاً * وٱنظُروا الى مَنْ كان ذا نَدِىٍ ونَدًى * وجِدَةٍ وجدًا * وعقارٍ وقُرًى * ومقارٍ وقِرًى * فما زال به قُطوبُ الخُطوب * وحروبُ الكروبِ * وشَرَرُ شَرِّ الحَسود * وانتيابُ النُّوَب السُّود * حتى صَفِرَت الرَّاحة * وقَرِعَت الساحة * وغار المَنْبَعُ * ونبا المربعُ * وأقوَى ٱلمْجمِعُ * وأقَضَّ ٱلمضْجَعُ * وٱستحالَت الحالُ * وأعْوَلَ العِيالُ * وخلَت المرابطُ * ورَحِمَ الغابِطُ * وأوْدَى الناطِقُ والصامِتُ * ورَثَى لنا الحاسِدُ والشَّامتُ * وآل بنا الدَّهرُ المُوقعُ * وٱلفَقْرُ المُدْقِعُ * الى أن ٱحتَذَيْنا الوَجَى * وٱغْتَذَيْنا ٱلشَّجا * وٱستبطَنَّا الجوى * وطَوَيْنا ٱلأحْشاءَ على الطَّوَى * واكتحلْنا ٱلسُّهاد * وٱستوطَنَّا الوِهاد * وٱستَوْطأنا القَتاد * وتناسَيْنا ٱلأقتاد * وٱستَطَبْنا ٱلحَيْنَ المُجتاحَ * وٱستبطأنا ٱليومَ ٱلمُتاحَ * فهلْ من حُرٍّ آسٍ * أوسَمْحٍ مُوَاسٍ * فوٱلذى ٱستخرَجنى من قَيلة * لقَد أمْسَيْتُ أخاً

DIE BEIDEN GULDEN

Mich hielt mit frohen Genossen — ein trauter Kreis umschlossen, — von welchem eingeschlossen war Geselligkeit — und Gefälligkeit — und ausgeschlossen Mißhelligkeit. — Und während wir nun die Fäden der Reden hin und wider spielten — und im Schwanken der Gedanken uns unterhielten — mit Gedichten — und Berichten — und Geschichten; — trat herein ein Mann mit gebrechlichem Mantel — und schwächlichem Wandel, — der den einen Fuß schleifte — und auf einen Stab sich steifte; — der sprach: O ihr köstlichen Steine der Schreine! — o ihr tröstlichen Scheine der Reine! — Froh gehen euch auf die Tage — und unter ohne Klage! — Freundlich weck' euch der Frühschein, — und lieblich schmeck' euch der Frühwein! — Seht einen Mann, der einst besessen — Haus und Hof, Esser und Essen, — Weiden und Weidende, — Kleider und zu Kleidende; — Gabe, zu schenken, — Labe, zu tränken, — Äcker und Äste, — Feste und Gäste. — Doch es stob der Sturm des Leides, — und es grub der Wurm des Neides, — und der Einfall der Unfälle, — brach über des Glückes Schwelle; — bis mein Hof leer ward — und dünne mein Heer ward, — mein Brunnen erschöpft, — mein Wipfel geköpft, — mein Lager staubig, — mein Barthaar straubig, — mein Gesinde murrend, — meine Hunde knurrend; — im Stalle kein Rossegestampf, — in der Halle kein Feuerdampf; — daß mir der Neider — ward zum Mitleider, — und der Schadenfroh — vor meinem Schaden floh. — In des Unglücks Klammer, — in der Armut Jammer — ward unser Schuh die Schwiel' am Fuß — und unsre Speise der Verdruß. — Wir schnürten knapp den Leib zusammen, — um zu ersticken des Hungers Flammen. — Ausging uns des Stolzes Befiederung, — und wir wohnten in der Niederung. — Statt Rosse blutig zu spornen, — gingen wir uns wund auf Dornen. — Der Tod bleibt unsre Zuflucht vor Bedrängnis; — wir klagen an das säumende Ver-

hängnis. — Oder ist hier ein Beirätiger, — Menschenfreundlicher, Guttätiger — der einen Kraftlosen, Haftlosen stütze, — ein Tröpflein der Milde auf einen Saftlosen sprütze? — Bei dem, der mich hat entsprossen lassen von Kaile! — der den Mangel gab mir zu teile! — ich habe nicht, wo ich die Nacht verweile. —
Hareth ben Hemmam spricht: Um seine Notdurft zu letzen — und zugleich seinen Witz auf eine Probe zu setzen, — nahm ich ein Goldstück und wies es — und sagte: Dein ist dieses, — wenn du uns in Versen sein Lob lässest hören. — Und auf der Stelle ließ er sprudeln seine Brunnenröhren:

Gesegnet sei der Gelbe mit dem lichten Rand,
Der wie die Sonne wandelt über Meer und Land,
In jeder Stadt daheim, zu Haus an jedem Strand,
Gegrüßt mit Ehrfurcht, wo sein Name wird genannt.
Er geht als wie ein edler Gast von Hand zu Hand
Empfangen überall mit Lust, mit Leid entsandt.
Er schlichtet jedes menschliche Geschäft gewandt,
In jeder Schwierigkeit ist ihm ein Rat bekannt.
Er pocht umsonst nicht an die taube Felsenwand,
Und etwas fühlt für ihn ein Herz, das nichts empfand.
Er ist der Zaubrer, dem sich keine Schlang' entwand,
Der Schöne, welchem keine Schönheit widerstand,
Der Held, der ohne Schwertstreich Helden überwand;
Der Schwachen Kräfte gibt und Törichten Verstand,
Und Selbstvertraun einflößet, das mit Stolz ermannt.
Wer ihn zum Freund hat, ist dem Fürsten anverwandt,
Wenngleich sein Stammbaum auf gemeinem Boden stand.
Der trifft des Wunsches Ziel, dem er den Bogen spannt.
Er ist des Königs Kron' und seiner Herrschaft Pfand,
Er ist der Erde Kern, und alles sonst ist Tand.

Und wie er war am Ende, — streckt er seine Hand nach der Spende — und rief: Wer verspricht, muß segnen; — die Wolke, die donnert, muß regnen. — Da gab ich ihm das Goldstück hin und sprach:

عَيْلَة * لا أملِكُ بَيْتَ لَيْلَة * قال الحارث بن همّام فأوَيْتُ لمَفاقِرِه * ولَوَيْتُ الى اسْتِنباطِ فَقَرِه * فأبرَزْتُ ديناراً * وقلْتُ له آختباراً * إنْ مَدَحْتَه نَظْماً * فهو لك حَتْماً * فانبَرَى يُنْشِد فى الحال * من غيرِ آنتحال :

أكْرِم به أصفرَ راقتْ صُفرَتُهْ
جوّابَ آفاقٍ ترامَتْ سَفْرَتُهْ
مأثورةٌ سُمْعَتُه وشُهْرَتُهْ
قد أودِعَتْ سِرَ آلغِنَى أسِرَّتُهْ
وقارَنَتْ نُجْحَ آلمساعِي خَطْرَتُهْ
وحُبِّبَتْ الى آلأنامِ غُرَّتُهْ
كأنّما من آلقلوبِ نُقْرَتُهْ
به يَصولُ مَن حَوَتْهُ صُرَّتُهْ
وإنْ تفانَتْ أو توانَتْ عِتْرَتُهْ
يا حَبَّذا نُضارُهُ ونَضْرَتُهْ
وحَبَّذا مَغْناتُهُ ونُصْرَتُهْ
كم آمِرٍ به آستَتَبَّتْ إمْرَتُهْ
ومُتْرَفٍ لولاه دامتْ حَسْرَتُهْ
وجَيْشٍ هَمٍّ هَزَمَتْهُ كَرَّتُهْ
وبَدْرِ تِمٍّ أنْزَلَتْهُ بَدْرَتُهْ
ومُسْتَشِيطٍ تَتَلَظّى جَمْرَتُهْ
أسَرَّ نَجْواهُ فَلانَتْ شِرَّتُهْ
وكم اسيرٍ أسْلَمَتْهُ أسْرَتُهْ
أنْقَذَهُ حتّى صَفَتْ مَسَرَّتُهْ
وحَقِّ مَوْلًى أبْدَعَتْهُ فِطْرَتُهْ
لولا آلتُّقَى لَقُلْتُ جَلَّتْ قُدْرَتُهْ

ثم بَسَطَ يَدَهُ * بَعْدَ ما أنْشَدَهُ * وقال أنْجَزَ حُرٌّ ما وَعَدَ * وسَحَّ خالٌ إذ رَعَدَ * فَنَبَذْتُ آلدينارَ إليه * وقلتُ خُذْه غيرَ مأسوفٍ عَليه *

Sei es dir zum Gewinn! — Er schob es in seinen Mund — und sprach: Gott erhalte mir's gesund! — Dann macht' er sich auf, von dannen zu wanken, — mit Grüßen und Danken. — Doch der Duft des Geistes, den er verstreute — berauschte mich so, daß ich nicht Aufwand scheute. — Ein zweites Goldstück nahm ich aus der Tasche — und sprach: Da hasche! — Dieses ist dein, wenn du nach seinem Adel — uns nun auch hören lässest seinen Tadel. — Da ließ er auf der Stelle — noch einmal rauschen die Welle:

Verflucht der Heuchler mit dem doppelten Gesicht,
Dem kalten Herzen und dem Lächeln, das besticht.
Er ziert sich wie ein Liebchen, und wer liebt es nicht?
Und wie Verliebte schmachtet er, der Bösewicht.
Er stammt vom Abgrund, aus den Finsternissen dicht,
Doch überstrahlt sein falscher Schein der Sonne Licht;
Die Wahrheit dringt nicht durch das Trugnetz, das er flicht.
Er gibt der Welt in allem Bösen Unterricht,
Lehrt, wie man falsche Eide schwört und Treue bricht.
Er ists, um den man streitet, tobt und kämpft und ficht,
Er ists, der aus des Richters Mund dein Urteil spricht,
Um den der Dieb die Hand verliert am Hochgericht.
Für ihn verkauft man seinen Glauben, seine Pflicht,
Für ihn erkauft der Schlechte sich ein Lobgedicht.
Er ists, um den das Herz aus Furcht dem Geiz'gen bricht;
Er ists, um den des Neides Blick den Reichen sticht.
Das schlimmste ist: Wer ihn bewahrt, dem nutzt er nicht;
Und wer ihn nutzt, der tut dadurch auf ihn Verzicht.
Darum verachtet ihn ein edler Mann und spricht:
Du Taugenichts, hinweg von meinem Angesicht!

Ich rief: Gott müsse deinen edlen Mund vergulden! — Doch er rief: Versprechen macht Schulden; — und ich gab ihm den zweiten Gulden — und sprach: Verwend' ihn zum Erwerb von Gottes Hulden! — Er schob ihn mit Dankgeflister — in

فوَضَعَهُ فى فيه * وقال بارك آللهمّ فيه * ثم شَمَّرَ لِلأنثناء * بعد تَوْفيَةِ آلثَناء * فنَشَأتْ لى من فُكَاهَته نَشْوةُ غَرامٍ * سَهّلَتْ علىّ آئتنافَ آغتِرام * فَجرَّدْتُ ديناراً آخرَ وقُلْتُ له هل لَكَ فى أن تَذُمَّه * ثم تَضُمَّه * فأنشد مُرْتَجِلاً * وشَدا عَجِلاً:

تَبّاً له من خادعٍ مُماذِقِ
أصْفَرَ ذى وجْهَيْنِ كالمُنافِقِ
يَبْدُو بوَصْفَيْنِ لِعَيْنِ آلرامِقِ
زِينَةِ مَعْشوقٍ ولَوْنِ عاشِقِ
وحُبُّهُ عند ذَوِى الحَقائقِ
يَدْعُو الىَ آرتِكابِ سُخْطِ الخالِقِ
لولاه لم تُقْطَعْ يَمينُ سارِقِ
ولا بَدَتْ مَظْلِمَةٌ من فاسِقِ
ولا آشْمَأزَّ باخلٌ من طارِقِ
ولا شكا المَمْطولُ مَطْلَ العائقِ
ولا آستُعيذَ من حسودٍ راشِقِ
وشَرُّ ما فيه من الخلائقِ
أن لَيْسَ يُغْنِى عنْكَ فى المَضايقِ
إلا إذا فَرَّ فِرارَ الآبِقِ
واهاً لِمَنْ يَقْذِفُهُ من حالِقِ
ومَن إذا ناجاهُ نجوى الوامِقِ
قال له قَوْلَ المُحِقِّ الصادِقِ
لا رأىَ فى وَصْلِكَ لى ففارِقِ

فقُلْتُ له ما أغْزَرَ وَبْلَكَ * فقال وآلشَّرطُ أمْلَك * فَنَفَحْتُهُ بالدينارِ الثّانى * وقُلْتُ له عَوِّذْهما بالمثانى * فألقاه فى فَمِهِ * وقَرَنَه بِتَوْأمِه * وانكفأ يَحْمَدُ مغداه * ويَمْدَحُ النادِىَ ونداه *

den Mund zu seinem Geschwister — und hinkte ab am Stabe, preisend Geber und Gabe. — Hareth ben Hammam spricht: Mir sagte das Herz, es sei Abu Seid — und seine Lahmheit ein angelegtes Kleid. — Ich hielt ihn an und rief: Bei Gottes Gnade! — dein Witz verriet dich; warum gehst du nicht grade? — Er sprach: Und bist du der Hareth? — so bleibe mir ewig schwarz gehaaret, — der Lust gepaaret, — den Frohen und Edlen gescharet! — Ich sprach: Ich bin der Hareth ben Hemmam; — wie geht es mit dir und deinem Kram? — Er sprach: Bald frisch, bald lahm; — ich segle mit zweierlei Winden, — gelinden und ungelinden. — Ich sprach: Du solltest dich schämen, — Zuflucht zu einem Gebrechen zu nehmen. — Da verfinsterten sich seine Mienen — und er sprach: Laß dir dienen!

Ich hinke, doch nicht aus Vergnügen am Hinken
Ich hink', um zu essen, ich hink', um zu trinken.
Ich hinke, wo Sterne der Hoffnung mir winken,
Ich hinke, wo Gulden entgegen mir blinken.
Was man nicht erfliegen kann, muß man erhinken,
Viel besser ist hinken, als völlig versinken.
Die Schrift sagt: Es ist keine Sünde, zu hinken.

قال الحارث بن همَّامٍ فناجانى قَلْبى بأنَّه أبو زَيْد * وأنَّ تعارُجَهُ لَكَيْد * فَٱستَعَدْتُهُ وقُلتُ له قد عُرِفْتَ بوَشْيك * فَٱستَقِمْ فى مَشْيك * فقال إن كُنْتَ آبنَ همّام * فحُيّيتَ بإكرام * وحَيِيتَ بين كِرام * فقُلتُ أنا آلحارِث * فكيفَ حالُكَ والحوادث * فقال أتقلَّبُ فى آلحالَيْنِ بُؤسٍ ورخاء * وأنْقَلِبُ مع آلرِيحَيْنِ زَعْزَعٍ ورُخاء * فقُلْتُ كيفَ آدَّعَيْتَ آلقَزَل * وما مِثْلُكَ مَن هَزَل * فَٱستَسَرَّ بِشْرُهُ آلذى كان تَجَلَّى * ثم أنشد حِينَ ولَّى:

تعارْجتُ لا رَغْبَةً فى العَرَج
ولكنْ لأِقْرَعَ بابَ الفَرَج
وألقِىَ حَبْلى على غاربى
وأسْلُكُ مَسْلَكَ مَن قد مَرَج
فإن لامَنى آلقومْ قُلْتُ آعذِروا
فَلَيْسَ على أعْرَجٍ من حَرَج

*

AUS DEM DIWAN DES IMRULQAIS

Eine Wolke mit gedehntem Schoß,
Erdumfangend, stand sie still und goß,
Ließ den Zeltpflock sichtbar, wenn sie nachließ,
Und bedeckt' ihn, wann sie reichlich floß.
Und Eidechsen sahst du, kund'ge, leichte,
Mit den Tatzen rudern bodenlos.
Büsche ragten aus der Flut wie Köpfe,
Abgehau'ne, die ein Schlei'r umfloß.
Doch dem Regen folgt ein Guß, ein voller
Platzender, der rauschend niederschoß;
Den ein Ost ausmelkte, bis mit neuem
Schwall dazu kam eines Westes Stoß.
Und ein Meer ward, das kein weites Strombett
Chaims, Chofafs und Josors mehr umschloß.
Morgens vor des Sturmes Nasen ritt ich
Her auf schlankem, derbem, sehn'gen Roß.

من ديوان امرؤ القيس

ديمةٌ هطلاءُ فيها وَطَفٌ
طبقُ الارضِ تحرَّى وتدُرْ
فترَى الودَّ إذا ما اشجذتْ
وتُواريه إذا ما تَعتكِرْ
وتَرى الضبَّ خفيفاً ماهرًا
ثانيا بُرثنَه ما ينعفِرْ
وتَرى الشجراءَ فى رَيِّقها
كرُؤوسٍ قُطعتْ فيها خُمُرْ
ساعةً ثم انتحاها وَابلٌ
ساقطُ الاكنافِ واهٍ مُنْهَمِرْ
راح تمريه الصَّبا ثم آنتَحَى
فيه شؤبوبُ جنوبٍ منفجِرْ
لجَّ حتى ضاق آذيه
عرضُ خيمٍ فخفافٌ فيُسُر
قد غدا يحملنى فى أنفه
لاحقُ الإطلين محبوكٌ ممرّ

أرنست ترامب

(١٨٢٨ - ١٨٨٥)

بقلم: الأستاذة أنا ماري شمل

تحفل الحركة الألمانية للدراسات الشرقية بأعلام كبار يعتبر أرنست ترمب أحد أقطابهم. لقد برع هذا العلامة فى العديد من اللغات، وخلف آثاراً لم تقتصر فى مضمونها على العربية وغيرها من اللغات السامية، بل شملت إلى جانب ذلك العديد من اللغات الأخرى. فترك لنا، فيما ترك، دراسات وافرة فى لغات الهند الحية، أو هى، وبتعبير أكثر دقة، لغات ذلك الجزء من شبه القارة الهندية الذى يعرف اليوم بباكستان الغربية. ولعل فى اعادة نشر كتابين، من مجموعة مؤلفاته مؤخراً، أحدهما فى نحو لغة الباشتو Paschto والآخر فى نحو اللغة السندية، ما يدل على قيمة هذين المرجعين لدارس تينك اللغتين بالغتى الصعوبة. بل وعسى أن يكون فى ذلك إشارة إلى عدم ظهور ما يجاريهما جودة واصالة على الرغم من مرور قرن من الزمان ونيف على نشرها لأول مرة.

ويجد المرء، فى حياة المترجم له، تفاصيل وطرائف هى غاية فى الغرابة. ولد أرنست فى اليوم الثالث عشر من شهر آذار لسنة ثمان وعشرين وثمانمائة وألف للميلاد، فى قرية ايلسفلد Ilsfeld فى مقاطعة Württemberg الشمالية، لأب مزارع امتهن النجارة. واتسم الوسط الذى نشأ فيه على وجه العموم بالعوز والفاقة. لم يكن ذلك حال قريته فحسب، بل حال القرى والمدن المجاورة أيضا، مما حدا بقطاع كبير من السكان الى الهجرة سعياً وراء الرزق. هذا وما زالت جماعات منهم تقطن جنوب روسيا، بلاد القوقاز على وجه التعيين، وما برحت فئة تعيش فى ولاية تكساس الأمريكية حتى يومنا هذا. وانعكست فى شخصية أرنست سجيتان، امتاز بهما سكان جنوب غرب ألمانيا عموماً منذ عدة قرون، ألا وهما سجية الجلد وصفة التقوى. ولعل السجية الأخيرة قد نشأت وتطورت عن اعتناقهم للمذهب اللوثرى والتى كانت تبلغ بهم حد التزمت أحيانا.

بدأ أرنست حياته الدراسية فى الرابعة من عمره. وظهرت بوادر ولعه الشديد باللغات واهتمامه بها، أول ما ظهرت، حين انبرى يحلل لغة بعض غجر كان قد صادفهم. بعد أن أنهى مرحلة الدراسة الثانوية، فى سن السابعة عشر، أرسل الى جامعة توبينغن Tübingen. ولما اتفقت رغبته وميوله، حينذاك، مع رغبة والديه وميولهما فى أن يصبح الإبن قسيساً، التحق أرنست بكلية اللاهوت المعروفة بـ«شتيفت» Stift. ولقد كانت تلك الكلية تتمتع بشهرة واسعة، إذ كانت مركز الاشعاع الثقافى، والمعقل الروحى للمذهب البروتستنى فى ذلك الجزء من البلاد. ومن نافلة القول أن نذكر هنا، أنه ولعدة عقود سبقت التحاق صاحبنا بتلك الكلية، فقط، كان كل من الفيلسوف الكبير هيجل Hegel والشاعر الملهم هولدرلين Hölderlin ينتظمان فيها. ونظراً لتعلق العبرية باللاهوت، شرع أرنست بدراستها، علماً بأنه كان قد أتقن اللاتينية واليونانية قبل مجيئه الى هذه الكلية. راح بعد ذلك يدرس السنسكريتية واللغات السامية على يد كل من البروفسور روت Roth والبروفسور إيفالد Ewald.

بيد أن عملية القمع والارهاب، التى مارستها حكومات الولايات الألمانية المختلفة ضد «دعاة الحرية» عام ١٨٤٨، أدت الى زج الكثيرين من المثقفين، اساتذة وطلابا، فى السجون. فقد انخرطت الطليعة المثقفة فى هذه الحركة منذ عام ١٨٣٠ محاولة العمل على تغيير الأوضاع الألمانية، هادفة توحيد البلاد التى راحت تنقسم حينها إلى ممالك، وايالات، ومقاطعات صغيرة. وهكذا فما ان حلت سنة ١٨٤٨ حتى تكللت الجهود بأول اجتماع لمجلس الأمة الألمانى. إلا انه سرعان ما انقلبت الحكومة وراحت تقوم بحركة قمع واسعة ضد «دعاة الحرية»، وانطلقت تزج بأتباعها فى السجون. لم يستثنى أرنست، بطبيعة الحال، من بين هؤلاء فألقى به فى السجن لفترة من الزمن، انقطع خلالها عن الدراسة، لم يلبث حتى استأنفها وعمل على انهائها بعد الافراج عنه.

توجه العلامة الشاب، بعد أن أقام فترة وجيزة فى بازل Basel الى لندن. ولما كان قد حصل هناك على وظيفة مساعد أمين مكتبة فى «مركز الهند الشرقية» East India House، فقد تسنت له من خلال عمله هذا فرصة إثراء ثقافته بقضايا اللغات الهندية الحية وآدابها. ولم يفكر أرنست

E. Trumpp

Tübingen den 24 Jan.
1870.

Hochgeehrter Herr Professor!

Ich erlaube mir Ihnen hiemit das Concept meiner Eingabe zuzusenden u. werde Ihnen sehr verbunden sein, wenn Sie die Güte haben wollen, dieselbe gefälligst durchzusehen u. etwa nöthige Bemerkungen oder Winke dazu auf den Rand zu bemerken. Als Beilagen will ich hinzufügen 1) ein Verzeichniß meiner bis jetzt gedruckten Schriften. 2.) Meine Sindhi Grammatik u. 3) meine Afghanische Grammatik. Da ich weiß, daß alles gelesen werden wird, nur nicht, pro consuetudine, als nöthig(?) etc. hinzustellen(?), so will ich meinerseits nicht versäumen, das, was ich bis jetzt gedruckt vorlegen kann, anzulegen, obschon ich es nicht gern thue, weil mir so etwas in der Natur zuwider ist. Ihnen schon im voraus für Ihre Hilfe u. Gefälligkeit herzlichst dankend



verbleibe ich mit meiner ausgezeichneten Hochachtung

Ihr ergebenster
E. Trumpp.

P.S. Ich werde sehr verbunden sein, wenn Sie es mir morgen wieder zurücksenden könnten, da ich es dann copiren u. am Montag dem Rektorat eingeben will.

رسالة بخط إرنست ترمب، مؤرخة ٢٤ يناير ١٨٧٠، وهى محفوظة فى مكتبة الجامعة فى توبنغن Md 760, 1079.
نشكر مكتبة الجامعة لوضع هذه الصورة تحت تصرفنا.

بالرجوع الى المانيا فى تلك الأثناء، وذلك نظراً لما كانت تبعث عليه الحالة السياسية فيها من الشعور بالقرف واليأس. وما أن عرضت عليه «الجمعية الكنسية للتبشير» Church Mission Society أمر الذهاب إلى الهند للقيام بتأليف معاجم وكتب نحو فى لغاتها الحية، حتى استجاب غير متردد. وقد شجعه على ذلك الوعد الذى قطعته الحكومة البريطانية على نفسها بنشر كل ما يقوم بتأليفه. ولا ريب بأن مثل هذا العرض ومثل ذلك الوعد ليدل على المكانة التى بلغها أرنست فى ذلك العهد المبكر من حياته.

تختلف الروايات حول تاريخ ارتحاله لأول مرة الى الهند. بيد أن سنة ١٨٥٤ هى أكثر السنوات قبولا لدينا. نزل بادئ الأمر مدينة بومباى Bombay. توجه بعدها الى كراتشى Karachi حيث مكث فيها عدة شهور. وفى مدة تدعو فى قصرها الى العجب، أتقن أرنست اللغة السندية، تلك اللغة التى تتميز بالصعوبة المتناهية. كما أتقن فى الوقت عينه اللغة الفارسية. وسرعان ما طبقت شهرته آفاق الأوساط السندية والبريطانية. فمنحه الفنستون Elphinston حاكم بومباى بلقب مواطن شرف، كما رسم قسيساً للكنيسة الانجليكانية وذلك اعترافاً بفضله، إذ انه قام وقتذاك بترجمة «كتاب المراسم الدينية العامة» Common Prayer Book من الانجليزية الى الفارسية. الا أن الحال لم يلبث على ما هو عليه طويلا، إذ راح أرنست يعانى من صعوبات الطقس هناك، ودبت فيه علة خطيرة، علها الملاريا، فنقل على أثرها الى بيت المقدس، بفلسطين، للمعالجة. أقام اثناء وجوده فى هذه المدينة بصحبة علم رائد من أعلام الإستشراق فى القرن الماضى الا وهو القنصل الألمانى فى ذلك الحين هناك جيورج روزن Georg Rosen (الذى قام بترجمة مجلدين من عمل جلال الدين الرومى «المثنوى المعنوى» الى الألمانية لأول مرة). كما انكب يعمل على تعميق درايته باللغة العربية. هذا وقد أتيح له هناك التعرف على شابة ظريفة هى باولين لندر Pauline Linder والتى راحت تشاركه حياته الزوجية منذ شهر تشرين الأول لسنة ١٨٥٦.

عاد أرنست، بعد قضاء فترة النقاهة وشهر العسل، قافلا الى كراتشى تصحبه عروسه. وهناك وفى شهر أيلول من العام التالى للزواج (١٨٥٧)، من البارى عليهما بمولود ذكر، بيد أن الأم الشابة لم تلبث سوى ثلاثة أيام عقبت الميلاد حتى فارقت الحياة. وربما كان طقس كراتشى الردىء وراء هذا الحادث الأليم، أو عساه أن يكون أيضاً، الفزع والتوتر العصبى اللذان ألما بها مغبة وصول أنباء الثورة والاضطرابات العسكرية فى الهند الشمالية، وعلى اثر ذلك لم يجد صاحبنا مخرجاً لمحنته سوى السفر الى أوربا يسعى لتوفير ظروف ملائمة للوليد. لم يمض عليه فى سبيل ذلك طويلا، إذ واتته فرصة التعرف على آنسة تنحدر من أسرة كريمة، من مدينة شتوتجرت Stuttgart فتزوج منها، وكان قد بلغ من العمر ثلاثين عاما.

قفل أرنست وعروسه الجديدة عائدين إلى كراتشى. ثم قصدا من هنالك هدفهما المرسوم ألا وهو بيشاور Peshawar بالقرب من الحدود الأفغانية. كانت رحلتهما هذه عبارة عن مغامرة شاقة كادت أن تودى بحياتهما. فلقد كان عليهما ان يبحرا خلال ذلك، لمدة ثلاثة وعشرين يوما، فى نهر «اندوس» (او نهر السند) Indus. وان يركبا، ولثلاثة ايام، عربة تجرها الجاموس، الى لاهور Lahore ثم أنهما قد نقلا على محفة تناوب حملها اثنان وعشرون من الخدم إلى ان وصلا بيشاور قاطعين بذلك خمسمائة كيلومتراً.

استقبل البريطانيون، والسكان المحليون، الباتان Pathan، صاحبنا وزوجته استقبالا حارا. وانبرى أرنست، فى الحال يدرس لغة الباشتو Pashto، والتى لا تقل صعوبة عن اللغة السندية بشئ، فأتقنها بسرعة مدهشة بل إنه راح يمارس الوعظ والإرشاد بها بأقرب فرصة ممكنة. وعلى الرغم من معاودة اصابته بين الفترة والاخرى بحمى الغب، لم يأل جهداً فى محاولته البحث عن لغة حية جديدة. فما ان أتيحت له فرصة لقاء ثلاثة أشخاص من أهالى «كافرستان» حتى تعلق بهم واعتبرهم «عينات ممثلة لدراسة لغة اهالى تلك المنطقة». (لقد تغير اسم منطقتهم من كافرستان الى نورستان فيما بعد). انبرى صاحبنا يهيئ لهم الظروف الملائمة ويعمل على اغرائهم بالبقاء عنده مدة كافية تتسنى له خلالها دراسة لغتهم. ويصف لنا أرنست الموقف فيقول: «لقد كنت أحتفظ بهم ثلاث أو أربع ساعات كل يوم، مقدما لهم بين الفترة والاخرى وجبات من الحلوى عاملا على تسليتهم كى لا ينفذ صبرهم.» ويضيف قائلا: «إن ظنه قد خاب» فيما يتعلق بمظهرهم. فقد توسم فيهم امتشاق القوام وبياض الوجه وملاحته، فوجدهم داكنى البشرة، «رغم الحمرة التى راحت تكسو وجوههم والتى إن عادت الى أمر فإنما عادت إلى الخمر المعتق الذى راحوا يحتسونه». وحرى بنا أن نشير هنا، إلى ان توسم أرنست ما توسمه ارتكز على ما كان يشيع

بين الناس من أن أهل «نورستان» ينحدرون من اليونانيين الذين صاحبوا الإسكندر الأكبر حين قدم هذه البلاد. ثم انطلق بعد ذلك يدرس لغة البراهوى Brahui، تلك اللغة التي تتكلمها أقلية تعيش في «بلوتشتان» ولقد نشر بحثاً قيماً في هذه اللغة عام ١٨٨٠. (ليس لهذه اللغة صلة بالإيرانية او بلغات شمال الهند، كما هو الحال بالنسبة للباشتو والسندى، ولكنها تتصل بلغات جنوب الهند الغير آرية). كما أنه درس لغة ونحو كل من «الكشميرى» و«النيبالى». هذا ولا زال كتابه في نحو اللغة الأخيرة مخطوطاً.

أضطر أرنست، على أثر معاودة المرض له، الى مغادرة بيشاور، مما خلف اللوعة والأسى في النفوس. ولما عادت له صحته، عكف في شتوتجارت Stuttgart يدرس المواد التي كان قد جمعها خلال وجوده في الباكستان. كان ذلك ما بين سنتى ١٨٦٠—١٨٦٣. ثم أخذ يعمل قسيساً في قرية فولينغن Pfullingen، التي تقع على مقربة من القرية التي شهدت مسقط رأسه، ما بين عامى ١٨٦٤—١٨٧٠. هذا ولم يتوقف خلال ذلك عن متابعة بحثه العلمي بل راح ينشر الكتب والمقالات العديدة، باللغتين الألمانية والإنجليزية. لم يكن أمر تعيين صاحبنا كأستاذ للغات الشرقية في جامعة توبينغن Tübingen التي نال منها درجة الدكتوراه، بمستهجن؛ بيد أنه ولما كان شريط الذكريات في أذهان زملائه في تلك الجامعة، ما انفك يسجل نشاط أرنست السياسى خلال ثورة ١٨٤٨، لهذا السبب بل ولأسباب أخرى نجهلها، فقد حيل دون بلوغه ذلك الهدف. فبقى هذا العلامة الأوربى، علامة اللغات السامية واللغات الهندية الحية، يعمل قسيسا في تلك الأبرشية المتواضعة. ومع ذلك فيمكن القول بأن أرنست، ورغم كل الصعوبات، قد نعم خلال تلك الفترة، بحياة عائلية هنيئة.

وفي عام ١٨٧٠ عادت الحكومة البريطانية تعرب عن اهتمامها بخبرته، فطلبت منه العودة الى الهند ليقوم بترجمة كتاب السيك المقدس «آدى گرانت» Adi Granth نظراً لما تتمتع به تلك الديانة من اهمية سياسية في حياة الهند. وما أن شرع في مهمته الجديدة حتى ادرك استحالة الاضطلاع بها دونما مساعدة من متكلمى تلك اللغة، فهى لغة معقده عويصة. التفت الى جهابذة السيك ينشد امدادهم له، بمعرفتهم ولكن ظنه سرعان ما خاب بهم. فهم، على حد قوله «لم يستطيعوا أن يزودونى الا بتفسيرات تقليدية أثبتت مقارنتها بالنصوص المختلفة تناقضها وفسادها، بل انهم قد عجزوا، في كثير من المناسبات، عن تقديم أى شرح أو تفسير». فلم يجد بداً حينها من التعويل على نفسه. فراح يعد بطاقات مفهرسة للكلمات وللقواعد النحوية القديمة ويقوم بدراستها وتمحيصها. كل ذلك بطبيعة الحال يهدف التمكن من دراسة واستيعاب ذلك الكتاب المقدس، والذى يزيد حجمه على حجم القرآن الكريم بعدة أضعاف. هذا ولعله من الطريف أن نذكر، في هذه العجالة، بأن السيك لم يأبهوا لعمل أرنست لا ولم يقدروه حق قدره، بل وعلى النقيض من ذلك فانهم ما انفكوا يذكرون «سوء التصرف والإثم الكبير الذى كان يرتكبه بالتدخين بحضرة الكتاب المقدس»! غير أن السلطات في لاهور، ولا عجب، قد قدرت تلك الجهود حق قدرها. وعمل البريطانيون قسارى جهدهم لإقناعه بالبقاء.

لقد تكبد أرنست في تحليل خطوط كتاب السيك المقدس جهداً أعياه وأضعف عينيه، فلم يقو على البقاء في تلك البلاد. فلهذه الأسباب الصحية وبسبب حنينه الى الوطن، الذى راح يتأجج، قفل أرنست عائداً الى ألمانيا في سنة ١٨٧٢. وهناك عمل على إنجاز ترجمة الكتاب، آنف الذكر، فنشر في مجلد ضخم عام ١٨٧٧. كما ألحقه بعدة دراسات عن ديانة السيك.

لم يبارح أمل الحصول على كرسى الأستاذية في جامعة توبينغن مخيلة صاحبنا. ولعل ما جاء في رسالة له مؤرخة في ١٨٧٣/١/٢٤ ما يعكس المرارة التى كان يعانيها وهو ما زال في سن الخامسة والأربعين، فهو يقول: «ولما كنت أعلم بأن الجهود كلها تبذل في سبيل إظهارى امام الملأ بالعجز، فسأرفق بطلب استخدامى قائمة بالمؤلفات التى تمت طباعتها؛ كمثل كتاب قواعد السندية وكتاب قواعد الأفغانية ... الخ؛ رغم مخالفة ذلك لطبيعتى».

بعد أن عمل أرنست كمحاضر Privatdozent في قسم اللغات السامية في جامعة توبينغن، ولفترة قصيرة، في أواخر العام المذكور سالفاً، انتقل الى جامعة ميونخ ليشغل كرسى الأستاذية في قسم اللغات السامية فيها. وأمل وقتذاك أن يتمكن من القيام بأعمال نافعة في كل من اللغة العربية والأثيوبية وسواهما. وهكذا فقد نشر، اثناء وجوده في ميونخ، «مقدمة لدراسة قواعد اللغة العربية». كما حقق وترجم «أجرومية» محمد بن داوود إلى الألمانية، وكان ذلك

wichtig für die richtige Auffassung der passiven Construction, wie wir gleich sehen werden.

Wie das فَاعِلٌ so ist auch das نَائِبُ الفاعِلِ doppelter Art, entweder مُظْهَرٌ (ein offenbares Nomen), oder مُضْمَرٌ (ein Pronomen); das leztere kann wieder مُنْفَصِلٌ (absolutes Pronomen), oder مُتَّصِلٌ (angehängt) sein, und als solches wieder بَارِزٌ (offenbar, wie in ضُرِبْتَ), oder مُسْتَتِرٌ (verborgen, wie in ضُرِبَ).

Aus dem Bemerkten ergeben sich im einzelnen folgende Regeln:

I. Die passive Construction ist im Arabischen nur da anwendbar, wo der Thäter nicht genannt wird, z. B. ضُرِبَ زَيْدٌ, „Zaid wurde geschlagen".

Dadurch unterscheidet sich das Arabische speciell von seiner Schwestersprache, dem Aethiopischen, welches sich die Möglichkeit bewahrt hat, bei der passiven Construction auch das active Subject durch Hilfe von Praepositionen (wie በ, እምነ፡ etc.) einzufügen, z. B.: እሜሃ፡ ተፈጸመ፡ ዘተብህለ፡ በኤርምያስ፡ ነቢይ፡, „da wurde erfüllt, was gesagt worden war durch Jeremias, den Propheten" (Matth. 2, 17). Auch das Hebräische ist in dieser Hinsicht noch freier und kann das handelnde Subject, wo es nöthig ist, vermittelst einer Praeposition (לְ, stärker noch durch מִן) dem passiven Saze unterordnen, z. B.: מֵיְהוָה מִצְעֲדֵי גֶבֶר כּוֹנָנוּ, „von Jehovah werden die Schritte eines Mannes richtig gestellt" (Ps. 37, 23), während im Syrischen diese Construction (mit Hilfe

صحيفة عن مقالة إرنست ترمب عن النحو العربي:
Beiträge zur arabischen Syntax, Sitzungsberichte der Kgl. Bayerischen Akademie der Wissenschaften, Philos.-philol. Classe, 5. Mai 1877.

عام ١٨٧٦. ويعد عمله هذا محاولة ممتازة حقيقة بالتقدير، رغم النقد الذي وجهه له، في حينه، الأستاذ فلايشر H. L. Fleischer، علامة اللغة العربية. (وقد ندر أن يفلت بحث في هذا الحقل من نقد الأستاذ المذكور، وذلك لبراعته وتفوقه فيه.) كما قام أرنست بدراسة «كتاب المفصل» للزمخشري دراسة وافية، ظهرت في مقالتين طويلتين

مفعمتين بالتعليقات والشروح، حري بدارس نحو العربية عدم اغفال الإطلاع عليها. كما راح ولعه بالأثيوبية يتبدى، وقد استمرأ لهجتها على وجه الخصوص. ففي خلال أقصر وقت بات يتقنها ويميز أدق دقائق اللحن فيها. ومن الطريف أن نذكر هنا، بأن تجربته انحصرت في هذا المجال، بدراسة رجل أثيوبي، كانت قد أحضرته إحدى

البعثات الدينية، الى اوربا. هذا وقد تمخضت تلك التجربة عن عدة مقالات تعالج الأبعاد المختلفة لتلك اللغة كتبها ما بين عامى ١٨٧٨—١٨٨١.

بيد أنه، ولما كان لكل أجل كتاب، ولكل طاقة حدود، لم يعد بمقدور أرنست أن يتحمل المزيد. فدراسة لغات شبه القارة الهندية العويصة، وقضاء ردح من الزمان يصارع صعوبات المناخ أثناء اقاماته المتقطعة فيها، ودأبه الحثيث على دراسة لغات أخرى كالعربية التى تتصف بتعقيدها وصعوبتها ... كل ذلك عمل على إرهاق قوى صاحبنا وإعياء صحته. فلم تلبث عيناه، التى قرأت وتفحصت الآلاف العديدة من الصفحات المختلفة، بما كنته بين ثناياها من غامض الخطوط ومعقدها، لم تلبث هاتان العينان حتى تردت فى حمأة جحيم الظلمة، فحرم المسكين من نعمة البصر وحرم من القدرة على القراءة والكتابة، عدته وعتاده فى الحياة. هذا ولم تفتأ الطامة الكبرى أن حلت حين راحت تلك الظلمة الدامسة تزحف الى عقله الجبار فتشله. وينتقل، على أثر ذلك، الى أحد المستشفيات يمضيها أياما حزينة حتى يوافيه الأجل المحتوم. وهكذا يعود أرنست، بعد تطوافه الكبير فى عالم اللغات، وبعد حياة لم يكن للإستقرار فيها مكان، يعود الى دار الخلود، الى منزل السلام الدائم يوم عيد الفصح المجيد الذى وافق فى الخامس من شهر نيسان لعام خمس وثمانين وثمانماية وألف للميلاد، بالغاً من العمر سبع وخمسين سنة.

إننا اليوم لنقف عاجزين عن الإحاطة بكل ما خلفه هذا المستشرق الكبير من آثار، وذلك لغزارته وتعدد جوانبه. لقد اهتم باللغات كلغات، وليس كآداب، وراح يسبر غور قطاع هام فى عالم هذه اللغات، ألا وهو عالم شبه القارة الهندية، فعبد طريقه ومهد سبيله أمام اللاحقين من العلماء والذين راحوا يقتفون اثاره ويتبعون خطاه.

ونحن إن حاولنا استعراض جزء من أعمال هذا اللغوى العظيم، فانه يمكن القول بادئ ذى بدئ، إن عشقه للسندية وتعلقه بها قد فاق تعلقه وولعه بسواها من اللغات الحية. لقد انطلق، كما تشير كتاباته، يتتبع اثارها فى طول البلاد وعرضها. فهو يذكر، مثلا، هضبة مكلى Makli Hill التى تقع بالقرب من العاصمة القديمة للسند، والتى تبعد مسافة ستين ميلا عن كراتشى قائلا: «لعل المعابد والأضرحة فى هضبة مكلى أروع ما يمكن مشاهدته من الآثار فى بلاد السند والهند. (ونحن هنا لا يسعنا إلا أن نوافقه على ذلك، إذ ان هذه المقبرة، والتى تبلغ مساحتها عدة أميال مربعة، عبارة عن آية فى جمال الهندسة المعمارية الاسلامية وكنز رائع من كنوزها، بنيت أضرحتها ما بين عامى ١٥٠٠—١٧٥٠).

يعتبر «كتاب القراءة السندية» باكورة انتاج أرنست فى هذه اللغة. وقد استعمل الحروف العربية والسنسكريتية فى كتابته. ولا نعتقد أن هذا الكتاب قد نال تقدير أهل السند، وذلك لما يتضمنه من نصوص فى اللاهوت المسيحى. فهو قد كتبه اصلا ليستعمله المبشرون الذين يرغبون فى الذهاب الى تلك الديار.

نشر بعد ذلك مقالات عديدة فى «قواعد اللغة السندية». راح يقارن فى هذه المقالات اللغة السندية باللغات الحية الأخرى التى تطورت عن البراكريت.

وفى أواخر عام ١٨٧٢ نشر كتابه الهام «قواعد اللغة السندية» والذى ألحت الحاجة اليه، فأعيد طبعه مؤخراً. ولما كان أرنست قد عاش البيئة السندية بأبعادها المختلفة، وعايش الناس على اختلاف مستوياتهم، فقد تسنى له التعرف على آدابهم الشعبية، وبالذات أغانيهم واساطيرهم. وتمخضت معرفته وجهوده فى هذا المضمار عن اثنى عشر مجلد، ما برحت مخطوطة، لتلك الآداب. ويعتقد أرنست، كما يعتقد الرحالة البريطانى الشهير السير ريتشارد برتن Richard Burton، بأن السندية تملك أكبر مجموعة شعرية شعبية آصيلة بين لغات الهند، «إن حادى العيس فى فيافى الصحراء، والزوج المكلوم الذى راح يقف وراء محراثه، ذلك المحراث الذى إن هو الا غصن شجرة انحنى طرفه، ليحفظا عن ظهر قلب ابياتا وابياتا من ذلك الشعر، ينشداها بين الفينة والأخرى عملا على قطع ساعات النهار. إن استمرار وشيوع هذا النوع من الادب الشعبى بين هؤلاء الناس، حتى يومنا هذا، ومنذ عهود هى غاية فى القدم، أمر ساعد عليه تجوال أولئك المنشدين والشعراء القبليين عبر البلاد.» إلا ان أرنست نفسه، لم يستسغ قصائد ذلك التراث الهائل. فهو يقول، «إن الناس لا يحسنون سوى ترداد القوافى والتلاعب بالكلمات حتى ولو كان ذلك على حساب الإتساق المنطقى للأبيات»! هذا ولم يمقت فى حياته أمراً كما مقت ذلك النثر «الجاف الممض» الذى جاء فى أعمال المفكرين الدينيين من أمثال مخدوم محمد هاشم، الذى ما عنمت شهرة ترجمته لأجزاء من القرآن الكريم الى اللغة السندية ولأول مرة، فى مطلع القرن الثامن عشر، تعم

الأوساط السندية. إنه كلغوى رفض تكرار استعمال الألفاظ العربية والفارسية فى هذه النصوص. الا أن سعادته كانت تبلغ الذروة حين كان يصدف قصائد سندية خالصة.

ويعتبر تحقيق «الأعمال الشعرية» لشاه عبد اللطيف، الإنجاز الرئيسى لأرنست فى حقل الدراسات السندية. (إن اعمال هذا المتصوف الكبير وشاعر القرن الثامن عشر مازالت تستهوى أفئدة الناس فى مختلف بقاع تلك الديار) ولقد اختار صاحبنا بادئ ذى بدئ إحدى حكايات هذا العمل الضخم، الا وهى حكاية «سورات»، وراح يقدم للقارئ الألمانى تحليلا لها، نشرته إحدى المجلات العلمية الألمانية. هذا ويبقى أمر اختياره لهذه الحكاية بالذات، والتى هى أقل أجزاء مجموعة «الرسالو» Risalo بهجة، كما ان نصها قد تشوه وتقطعت اوصاله مما يصعب علينا فهمه. ثم انه وكتوطئة لتحقيق هذا العمل، والذى اكتملت طباعته فى ليبزيك عام ١٨٦٦، فقد ترجم «سر سورات» الى الالمانية. وكان ذلك فى سنة ١٨٦٢. ولقد استعمل ارنست، فى اخراج هذا الكتاب الى حيز الطباعة، الحروف الهجائية العربية بعد أن أجرى تعديلات طفيفة عليها. غير إن استعمال هذه الحروف بما اجراه عليها أرنست من تعديلات، اتفقت وفهمه اللغوى، ليجعل أمر قراءة السندية أكثر صعوبة على الفرد السندى المعاصر، علماً بأن حروف الهجاء العربية كان قد شاع إستعمالها رسميا منذ عام ١٨٥٢ فى البلاد. ومع هذا فاننا لنتفق مع ارنست «بأن المرء الذى يجهد فى قراءة أعمال شاه عبد اللطيف (فى أى صورة كانت) سيجد جزاءه متعة يحظى بها بقراءه النصوص الجميلة المنتشرة فى كل مكان». إنه لمن الطريف ان نجد أرنست هنا، وقد أعرب عن استمرائه لشعر شاه عبد اللطيف. فهو فى مناسبات أخرى راح يعمم ويصدر الاحكام بأن التناقض والتتابع المخطوء هى من صفات شعر السند. كما انه اعتقد جازماً بأن ظاهرة التصوف ان هى إلا تشويه لحقيقة الإسلام الحنيف متأثراً بعوامل هندية!

واذا ما كان لأرنست الحق كل الحق بأن يقول كل ما يريد، فان ذلك لا يعنى بحال ان نوافقه على كل ما يقول. فمما لا ريب فيه لدينا، هو أنه فى احكامه لم يخرج عن منطق ونظرة أولئك المبشرين البروتستنتيين الضيقة، والذين كانوا يرغبون عن أى شكل من اشكال التصوف. فكيف يكون الحال إذن حين راحوا يصدفونه وقد تطور الى أشكال وأنماط شعرية محملة بالرمزية، فى ذلك الجزء الشرقى من ديار الاسلام؟ يضاف الى هذا حقيقة ان الالمام بتاريخ ظاهرة التصوف امر لم يكن شائعاً فى عهد صاحبنا. لا ولم يكن استخراج ودراسة المصادر الأولية قد جرى بعد. وما كان قد حقق حتى عهده لم يكن يمت إلى المصادر المتقدمة من تاريخ التصوف بصلة، مما حال دون الدراية بآراء الكثيرين من أعلام التصوف الأولين؛ أمثال الجنيد وتابعيه، كما حال دون التمكن من سبر غور التجربة الصوفية. وثمة حقيقة يجب ألا تغيب عن بالنا الا وهى عدم تبحر أرنست نفسه فى دراسة القرآن الكريم أو تمكنه من إدراك معانيه. فهذه الأسباب مجتمعة كفيلة بأن تبرر لصاحبنا عجزه وترديه فى مرارة الحيرة كلما كان يصدف أية قرآنية او نصاً شعرياً تكتنفه الاستعارات والتشبيهات القرآنية. ولم يقف عجزه عند فهم القرآن الكريم فحسب بل امتد فى أحيان كثيرة الى الأحاديث النبوية الشريفة الشائعة، هذا إن لم نذكر عجزه عن فهم كتاب «مثنوى» لجلال الدين الرومى.

وكتاب «نحو اللغة السندية»، والذى سبق ذكره، يعتبر خاتمة ثمرات أرنست فى مجال اللغة السندية. ويضاهى هذا العمل كتابه «نحو الباشتو» الذى تم نشره فى سنة ١٨٧٣، والذى يشكل أنموذجاً حياً لعقلية أرنست الثاقبة، وقدرته على فهم أدق دقائق نحو اللغة. هذا على الرغم من ربطه للباشتو باللغات الهندية لا بالإيرانية، وهى فكرة مردودة، عفى عنها الزمان.

وثمة حقيقة تدعو للأسف الشديد ألا وهى أن عدداً من دراساته فى لغات بعض قبائل جبال الهملايا ما زال مخطوطا ولما يخرج إلى حيز الطبع بعد. ينسحب هذا القول أيضاً على بحثه فى نحو اللغة النيبالية. كما انى لعلى ثقة من أنه لو تحققت له، فرصة اخراج ذلك البحث، الذى أعرب، فى إحدى رسائله، عن رغبته الأكيدة بالكتابة فيه، فى اللهجة الإيرانية، لحظينا بأثر هو من الطرافة والقيمة بمكان كبير، ولشكل مدخلا طيباً لدراسة لفظ اللغة الفارسية، كيف لا وهو الذى كان قد أتقنها فى لهجتيها الإيرانية والهندية عن طريق الممارسة. كما قام بتدريسها، فى صيف عام ١٨٧٣، فى جامعة توبينغن. كما لم تكن الملاحظات التى أبداها وقتذاك علامة اللغة الفارسية خودسكو Chodzko حول لفظ هذه اللغة لتلقى قبولا أو قناعة لديه. وكان أرنست قد أعرب، فى نفس الرسالة، ايضاً عن رغبته فى متابعة دراسة نحو لغة البراكريت

الوسيطة، أو الهندى القديم، تلك الدراسة التى كانت ستغطى منطقة شمال الهند فى العصور الوسطى. وهو عمل لم يضطلع به أحد بعد، رغم مرور مئة عام على محاولة أرنست.

ولا يفوتنا، قبل أن نختتم هذه الترجمة العاجلة لحياة ارنست ترمب الاكاديمية، من أن نذكر أن الجهود التى بذلها، فى السنوات الأخيرة من حياته، فى دراسة اللغة الأثيوبية، لم تثمر عن نتائج فيها من ابداع واصالة البحث ما تعودناه منه وما كان من شأن لغات الهند الحية، فى منطقة باكستان الغربية على وجه التحديد.

لا ريب بأن مجال الترجمة الكاملة لحياة هذا المستشرق الكبير، والعرض النقدى الشامل لأعماله، هو غير هذا. فلقد انحصر هدفنا هنا فى تقديم عرض سريع يتسنى من خلاله للقارئ المهتم التعرف وتكوين فكرة عاجلة عن أبعاد هذا العلامة المبدع، والانسان المسئول. لقد تفوق أرنست ترمب كعلامة لغة، ولقد زهد وتواضع فى حياته كانسان. كان يفضل عزلة العلم عن مخالطة الناس. هذا ولعل فيما كتبه يوم كان فى ميونخ، وفى سنة ١٨٧٥ على وجه التحديد، ما يوضح لنا موقفه هذا، فهو يقول: «وحتى هنا، فى ميونخ لا أخرج إلى الناس ولا أختلط بأحد، وأنا لى الوقت أو القدرة العقلية لمثل ذلك ...». إن من عرف عالمنا الكبير عن كثب ليؤكد لنا خصلة الخير فيه وشكيمة التواضع، فهو لم يغتر بعلمه لا ولم يتردد فى مساعدة المحتاج. لقد قام احساسه بالمسئولية أصلا على أساس من حياته الدينية وقوة ايمانه الروحى، ومن وحيها راح يتصرف. إن طبقات المثقفين فى السند لن تنسى، ما حيت، فضل هذا العلامة، تماما كما لن ينسى الهندوس فضل علامة الهندية الالمانى ماكس موللر Max Müller، فاليهما يعود فضل السبق فى تعريف الغرب على كنوز تراث تلك الديار.

ترجمة: احمد شركس

* *
*

قال زهير:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تُمِته، ومن تخطئ يعمر فيهرم
ومن لا يصانع فى أمور كثيرة
يضرس بأنياب، ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفره، ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه
ومن لا يكرم نفسه لا يكرم

ZUHAIR SPRACH:

Ich sah das blinde Schicksal umtasten nach dem Fang,
Wen's greift, der stirbt, und wen es verfehlt, der altert lang.
Wer sich nicht in die Leute vielfältig schicken kann,
Den wird ein Huf hier treten, und beißen dort ein Zahn.
Wer seine Ehr bewahret mit Huld, der mehret sie,
Und wer nicht Tadel scheuet, entgeht dem Tadel nie.
Wer in die Fremde wandert, verliert den Freund zu Haus,
Und wer sich nicht auszeichnet, den zeichnet niemand aus.

DEUTSCH VON FRIEDRICH RÜCKERT

الرحّالون الألمان
إلى البلاد العربيّة

بقلم : الأستاذ محمد علي حشيشو

إن للرحلات التى قام بها الأوروبيون فى بلاد الشرق، ولما قصوه عن مشاهداتهم فيها أثراً بالغاً فى تاريخ الإستشراق، ودوراً لايستهان به فى ايقاظ الرغبة فى مشاهدة تلك البلاد ودراسة كل ما يتعلق بتاريخها وحضاراتها. وللألمان من هذه الرحلات وما كتب عنها نصيب يستحق أن يذكر كورقة جديدة فى تاريخ الاستشراق الألمانى. وسنتعرض فى هذه المقالة إلى ذكر ثلاثة رحالين ألمان، أو ناطقين بالألمانية، زاروا البلاد العربية فى القرن الثامن عشر، وأوائل القرن التاسع عشر، وهى الفترة التى فتحت باب الاتصال بين أوروبا والشرق الأدنى، وبدأت بحملة نابليون إلى مصر وسوريا، تلك الحملة التى كشفت النقاب عن أسرار كثيرة كانت مجهولة عن مصر وبلاد العرب. أما اولئك الرحالون فهم : كارستن نيبور، وأولريش زيتسن، ويوهان لودفيج بوركهارت. ولا تقوم شهرتهم على غرابة التجارب والمجازفات التى مروا بها فحسب، بل وكذلك على ما قدموه من معلومات جديدة تماماً، واكتشافات جغرافية واثنولوجية بالغة الأهمية بالنسبة لاجزاء كبيرة من اليمن والحجاز وشرقى الاردن. وقبل الخوض فى موضوع اولئك الرحالين الثلاثة، رأينا من المجدى ذكر مقدمة موجزة عن حركة الرحلات الألمانية إلى الشرق الادنى مع استعراض نماذج منها حتى رحلة نيبور فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر.

كان الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط والبلاد الواقعة عليه، وما ندعوها اليوم بالشرق الأدنى، مناطق ذات جاذبية خاصة لدى قدماء الرحالين والجوالة من الإغريق والرومان. فكان من مفاخر الرحالة المقتدر الطموح أن يتمكن من زيارة مصر ومشاهدة آثارها الهائلة، ومن التعرف إلى النيل الخالد وسر فيضانه الصيفى المعجز. ولكن بانهيار العالم الرومانى أمام غزوات البرابرة من الشمال والشرق، وبانتشار نظام الاقطاع فى اوروبا،

ونشوء الإسلام وفتوحاته فى شمالى افريقيا وفى الشرق، بدأ عهد جديد فى حركة الرحلات من اوروبا إلى الشرق الأدنى. ومع أن الاقطاع خلق عراقيل كثيرة فى سبيل التنقل الحـر، إلا أن المسيحية ساعدت على تنشيط السفر وتوسيع حركة التجول. إذ أن الدوافع الدينية التى أدت بالأتقياء إلى زيارة الأماكن المقدسة المنتشرة فى الشرق الادنى والبلاد المقترنة بتاريخ الكتاب المقدس هى التى سادت حركة الأسفار الأوروبية إلى الشرق فى القرون الوسطى. فبينما كان الرحالة الوثنى سائحاً فضولياً، كان سائح القرون الوسطى فى الغالب حاجاً إلى بيت المقدس وبلاد الأناجيل. ولذا فإن مذكرات الحجاج إلى فلسطين هى اقدم ما خلفه لنا الرحالون الاوروبيون من آثار مخطوطة عن الشرق الأدنى فى اوائل العهد الإسلامى. وقد ظل سيل الاوروبيين يتدفق على سوريا وفلسطين من القرن التاسع الميلادى حتى نهاية القرن الحادى عشر، عندما انتقل الحكم إلى أيدى السلاجقة فأخذوا يضيقون الخناق على الحجاج المسيحيين، مما أدى فيما بعد بطريق غير مباشر إلى شن الحملات الصليبية المختلفة. ويضيق بنا المجال هنا لو قمنا بتعداد الحجاج الألمان الذين أموا الأراضى المقدسة قبل الحملات الصليبية وأثناءها. ولكن القارئ يستطيع الرجوع إلى المؤلفات المختصة التى تتناول هذا الأمر[1].

وتمشياً مع روح العهد الصليبى والقرون الوسطى فان روايات رحلات تلك الفترة لاتحمل شيئاً من الود للعرب والإسلام وتزخر بالغيرة على الأراضى المقدسة والخوف عليها من عبث الأيدى المعادية للمسيحية. ومع ذلك فبالرغم من التشابه فى لهجة تلك الروايات الأولى إلا أنها ذات قيمة خاصة حيث أنها تقدم معلومات أساسية قيمة عن التاريخ الحضارى للشرق الأدنى فى تلك العهود المبكرة، كما أنها تختلف باختلاف شخصيات الكتاب ووجهات النظر التى انطلقوا منها. فهناك مثلا الرحلة التى قام بها عام ١٢١١ أحد كبار رجال الدين واسمه ڤيلبراند فون أولدنبورغ على رأس بعثة ديبلوماسية من الامبراطور الألمانى أوتو الرابع إلى ملك القدس الأرمنى ليو بخصوص الوراثة على عرش القدس. فالى جانب وصف مدن سوريا وفلسطين وكل من الاماكن المقدسة بالتفصيل يبدى اولدنبورغ إلى جانب مهمته الديبلوماسية اهتماماً خاصاً بدراسة الشئون العسكرية فى الشرق، مما يتضح من وصفه الدقيق، الفريد من نوعه فى تلك الفترة، للتحصينات العسكرية فى سوريا. فتدهشه صور، أقوى قلعة للصليبيين آنذاك، بتحصيناتها سواء من البحر أم من البر، خلافاً لصيدا التى كان الألمان قد دمروها فى حملة عام ١١٩٧ وأبادوا حصونها شر إبادة. واشتد اعجاب أولدنبورغ ورفاقه عندما شاهدوا قصراً فى بيروت، أرضه مبلطة بالمرمر وجدرانه مغطاة بالرسوم الرائعة، وحدائقه غناء تتوسطها النوافير. وكانت القدس بأيدى المسلمين آنذاك؛ ورغم أنه كان يسمح للنصارى بزيارة كنيسة القيامة والاماكن المقدسة بصحبة رسول سلطانى كان يأخذ ضريبة عن كل شخص، إلا أن أولدنبورغ لم يستطع أن يخفى استياءه وشعوره بالمذلة والخضوع تجاه هذا الحال. وكانت خاتمة حجه زيارة إلى نهر الاردن عبر بيسان وأريحا حيث شوهدت كنيسة مدمرة فى المكان الذى قام يوحنا بتعميد السيد المسيح فيه. وعندما أراد الحجاج الاستحمام بماء الاردن، أثاروا بذلك سخرية البدو المحيطين بهم الذين راحوا يعكرون الماء ويقذفونه بالحجارة.

هذه رحلة يمكن أن تكون نموذجاً لعديد من الرحلات أثناء حكم الصليبيين فى سوريا وفلسطين. ولكن عندما عاد المسلمون فاستعادوا البلاد قلت بطبيعة الحال حركة الأسفار الأوروبية فى المنطقة طيلة قرن كامل. فلما أطل القرن الرابع عشر، وتغير موقف الحكام المسلمين وأصبحوا اكثر تسامحاً تجاه الحجاج المسيحيين عاد سبيل الرحالين يتدفق إلى البلاد المقدسة من جديد. ومن أطرف هذه الرحلات تلك التى قام بها ڤيلهلم فون بولدنزيله، من مدينة مندن بوستفاليا، تكفيراً عن نذر قطعه على نفسه وتقرباً من الرب، والتى صورها فى رواية ممتعة للغاية تفوق بما تمتاز به من دقة الوصف وقوة الملاحظة كثيراً من قصص الرحلات المعاصرة لها.

بدأ بولدنزيله مع مرافقيه رحلته عام ١٣٣٢ من إيطاليا إلى آسيا الصغرى حيث تعرف على ساحلها وعلى جزر الأرخبيل الهامة ثم وصل ليلة عيد الميلاد إلى صور التى وجد ميناءها فى حراسة المسلمين، وجميع تحصيناتها المسيحية مدمرة تدميراً تاماً. وكانت خطته أن يزور مصر أولا، ثم يعود إلى الأراضى المقدسة. ولذا فقد عبر الصحراء من غزة إلى القاهرة على ظهر الجمال فى سبعة أيام. وفى رواية الرحلة يسترسل رحالتنا فى وصف مصر وتاريخها القديم ونيلها الخالد، «نهر الفردوس»، الذى يخصب البلاد كل عام ويصب بالقرب من الاسكندرية. ولذا فالامطار نادرة فى مصر، الغنية بالحيوانات والنباتات

١) انظر إلى المراجع فى نهاية المقالة.

الغريبة. ويذكر أنه رأى فى القاهرة ثلاثة أفيال حية يصف شكلها وخراطيمها وأنيابها بدقة، كما أنه شاهد زرافة بلغ عنقها من الطول بحيث انها كانت تلتهم طعامها من سطح أحد البيوت المرتفعة. ولكن اكثر ما أدهشه فى القاهرة الاماكن التى يفقس فيها البيض بالطرق الاصطناعية. ويدهش صاحبنا لمنظر الاهرام التى شاهد عليها كتابات كثيرة بلغات مختلفة. وقال له بسطاء الناس إن الفراعنة كانوا يستخدمونها كخزانات للمؤونة، ولكنه اقتنع بعدم امكان صلاحيتها لذلك، إذ وجد باطنها عند انحداره إليه مليئاً بالحجارة. وتمكن بولدنزيله فى القاهرة من مقابلة السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذى أسبغ عليه حماية خاصة وسلمه إذناً (فرمان) يوصى جميع رعاياه به خيراً، ويسمح له بزيارة الاماكن المقدسة، ويعفيه مع مرافقيه من دفع أية رسوم عن ذلك. وهكذا استطاع رحالتنا أن يتنقل مع حاشيته فى ربوع بلاد المسلمين بأمان واطمئنان اكثر منهما فى بلاد النصرانية، على حد قوله. فكان فى كل مكان يصل إليه يبرز إذن السلطان، فيقف المسلمون ويقبلون التوقيع ويضعونه على جباههم احتراماً، ثم يأمرون باحضار الطعام والشراب وتقديم الحراس والمرافقين. وكانت هذه التسهيلات حقاً امراً نادراً لم يكن رحالة القرون الوسطى ليحلم به.

وفى مسيرة ثلاثة عشر يوماً وصل بولدنزيله سوريا. وفيها جذب البدو اهتمامه، فيصفهم بأنهم قوم رحل يقطنون الخيام ويحملون التروس والرماح ويمتطون الجمال ولا يعبأون كثيراً بالسلطان ولا بتوقيعه، وان بوسعهم لو اتحدوا أن يحتلوا مصر وسوريا معاً. وعند بلوغ القدس لوحظ الجفاف الذى يحيط بالمدينة، فكانت مشكلة الماء تحل بخزانات يجمع فيها ماء المطر وينقل بقناة من الحبرون إلى المدينة. ورأى بولدنزيله أن المسلمين كانوا ينزعون احذيتهم عند دخول قبة الصخرة، حيث كان يقوم معبد سليمان، وانهم كانوا يقبلون الأرض مرات عديدة (قاصداً الركوع)، وكان يتمنى الدخول إلى المسجد أيضاً لولا منع ذلك على النصارى. وعومل بولدنزيله فى القدس أيضاً بعناية خاصة، حتى ان امير المدينة ترك له مفاتيح كنيسة القيامة حيث أقام رجال الدين من حاشيته القداس، وتناول بعض اتباعه القربان المقدس. وبعد انتهاء القداس رفع اثنين من رفاقه إلى مرتبة الفروسية، وهذه اول إشارة إلى بدء التقليد فى منح لقب فروسية القبر المقدس. وراعى الأمير العربى هذه المراسيم حتى أنه لم يكن ليسمح لأحد بدخول الكنيسة دون موافقة بولدنزيله. إن ما كتبه رحالتنا هذا عن فلسطين ومدنها يفيض بالعاطفة الدينية بسبب ما كانت تثيره هذه الاماكن المقترنة بقصص العهد الجديد فى نفسه من أحاسيس، سواء فى بيسان أم أريحا أم غور الاردن أم الناصرة. وعندما وصل ورفاقه دمشق أدهشته المدينة بموقعها الجميل ونشاط حركتها وكثرة سكانها. ويصف الحركة التجارية المزدهرة فيها ويذكر القوافل القادمة من بغداد والهند والمحملة بالحجارة الكريمة وأصناف الحرير والتوابل والعطور، والمتجهة بهذه السلع غرباً إلى موانئ البحر الابيض السورية. وهو يشهد فى روايته على براعة الصناعات اليدوية الفنية فى دمشق، كما يشير بالثناء إلى مهارة أطبائها. واجتاز بولدنزيله جبال لبنان حتى بلغ الساحل بعد ركوب ثلاثة أيام. وقد أثارته مناظر لبنان الساحرة واصابه العجب لوفرة خيراته وتنوع ثرواته الزراعية، فأراضيه حسنة الفلاحة وجباله غنية بالينابيع، تكسوها أشجار الأرز والصنوبر، وأغلب سكانه من الموارنة الذين، على حد قوله، ينتظرون الحملة الصليبية التالية لمحاربة المسلمين إلى جانب الفرنجة. ومن بيروت ركب بولدنزيله وحاشيته متن البحر وعاد أدراجه إلى اوروبا.

لقد أثارت قصة بولدنزيله منذ صدورها اهتماماً شديداً. فقد كانت شخصية الرحالة مثيرة فى غرابتها وتنوع جوانبها. وفى روايته أيضاً تمتزج العاطفة الدينية الجياشة امتزاجاً عجيباً بفضول المؤلف وحبه للمغامرة وابتهاجه لمشاهدة عالم جديد غريب. وقد بلغ من قوة تأثير اسلوبه الوصفى أن السير جون مانديفيل، الرحالة الانجليزى الوسيطى الذى تثور التساؤلات حول حقيقة شخصيته، نقل اجزاء كبيرة من قصته نقلا حرفياً وأدمجها فى روايته المتنازع عليها حتى اليوم، التى ظلت اكثر من قرن كامل أحب قصة أسفار فى العالم الغربى اطلاقاً. وقد توفى الفارس الرحالة بولدنزيله عام ١٣٣٩ فى كولونيا، قبل أن يتمكن من تحقيق تصميمه على دخول نظام الرهبنة.

وممن تأثر برواية بولدنزيله واستند إلى ماورد فيها من معلومات عن الشرق الادنى حاج وستفالى آخر هو لودلف فون زودهايم، كان قد قضى خمسة اعوام متتالية فى الشرق وزار بيت المقدس عام ١٣٣٦. وقد كتب هذا روايته باللاتينية ثم ترجمت إلى الألمانية وطبعت عام ١٤٦٨. ولم تكن غايته أن يعطى وصفاً مفصلا لأسفاره وانما قصد أن يكون كتابه على نسق دليل سياحى يعطى الحجاج

تعليمات وارشادات مفيدة حول كيفية الاستعداد للرحلة، وافضل الطرق، ووصف البلاد الواقعة عليها. وقد اشتهر كتابه حتى اعتبر افضل مرجع سياحى للبلاد المقدسة فى القرن الرابع عشر.

وفى عام ١٤٨٣ قامت جماعة من الألمان يرأسها زعيم دينى من ماينتز يدعى برنارد فون برايدنباخ بالحج إلى الأراضى المقدسة تكفيراً عن الذنوب مع رحلة طويلة فى ربوع الشرق طبعت تفاصيلها عام ١٤٨٦ باللاتينية فى كتاب اجتاحت شهرته جميع اوروبا آنذاك[٢]. وكانت جماعته تتألف من نبيلين شابين هما الفارس فيليب فون بيكن والكونت يوهان فون زولمز، بالإضافة إلى اثنى عشر فارساً وباروناً آخرين، والرسام ايرهاردت رويڤتش، الفنان بالنقوش الخشبية، وخمسة قسس ورهبان، ورحالة خبير هو فيلكس فابرى، مع عدد من المترجمين والخدم والطهاة والاتباع. وبعد الاستعدادات الواسعة، كان من العسير على افراد هذه المجموعة الكبيرة أن يبدأوا الرحلة الشاقة سوية دفعة واحدة. لذا فقد انقسموا إلى فئات غادرت المانيا فى مواعيد مختلفة واتفقت على اللقاء فى البندقية. ثم اقلعت سفينتهم من البندقية، وبعد رحلة فى البحر المتوسط دامت عدة أسابيع وصلوا يافا فى أول تموز (يوليو)، ثم فرض أهل المدينة عليهم عزلا صحياً لمدة اسبوع، سمح لهم بعده بالسفر إلى القدس. وبعد الزيارات التقليدية إلى كنيسة القيامة وبيت لحم وبيسان ونهر الاردن، انقسمت الجماعة ثانية إلى عدة فئات عاد أغلبها إلى يافا، بينما اتجه برايدنباخ واثنان من رفاقه إلى دير القديسة كاترين فى جبل سيناء، ومنه انحدروا إلى البحر الأحمر حتى وصلوه فى الثالث من تشرين الأول (اكتوبر). وفى القاهرة حصل لهم حادث غريب، فقد ظنهم بعض تجار الرقيق عبيداً فارين، فقبض هؤلاء عليهم وأرادوا بيعهم لولا أنهم نجحوا فى مقابلة السلطان الاشرف قايتباى، سلطان مصر، الذى أمر بالافراج عنهم. وفى القاهرة كذلك أدهشتهم «معجزة» فقس البيض بوضعه فى روث الحيوانات الحار داخل افران خاصة. وهذا أمر ظل يذكره الرحالون الاوروبيون باستمرار حتى اواخر القرن الثامن عشر. ثم انتقلت جماعتنا هذه منحدرة نهر النيل عبر رشيد إلى الاسكندرية حيث مات الكونت فون زولمز الشاب من وعثاء السفر وعناء الترحال. وفى الثامن من كانون الثانى (يناير) عام ١٤٨٤ وصل برايدنباخ البندقية.

إن الكتاب الذى يضم قصة هذه الرحلة لا يحتوى على تسجيل وصفى دقيق لمراحلها مع صور من رسم رويڤتش فحسب، وانما يقدم وصفاً مفصلا للأراضى المقدسة وتعليقات وملاحظات طريفة عن عادات وتقاليد البلاد، مع ترجمة لحياة النبى محمد ومختصر للتشريع الاسلامى وقاموس موجز للكلمات والتعابير اليومية العربية بالاضافة إلى ارشادات متنوعة للحجاج، ونصائح عملية لاتقاء ومعالجة الامراض المحلية. وقد نالت الرسوم التى حفرها رويڤتش شهرة واهتماماً اكثر من النص المخطوط، فهناك خريطة مفصلة للاراضى المقدسة وصور للحيوانات المختلفة كوحيد القرن والزرافة والتمساح وقرد هائل لم يستطع الرحالون أن يعرفوا اسمه. وهناك رسوم اخرى توضح الأزياء التركية والعربية واليهودية واليونانية والسريانية والهندية. كما أن صورة رويڤتش المحفورة بالخشب التى تمثل كنيسة القيامة هى اول صورة مطبوعة لهذه الكنيسة اطلاقاً. وقد احرز الكتاب نجاحاً كبيراً عند صدوره حتى ترجم إلى الألمانية والانجليزية ولغات اخرى. واستخدمه واستند اليه عدد كبير من الرحالين الاوروبيين فيما بعد. واستقى عدد من الرسامين المعروفين مواضيعهم من رسومه. ويذكر لامبرت[٣] أنه عندما فتح قبر برايدنباخ فى كاتدرائية ماينتز عام ١٥٨٢ وجدت جثته محفوظة على أحسن حال بفضل مواد التحنيط التى كان قد احضرها معه من الاسكندرية إلى ألمانيا.

وقبل أن نختتم ذكر هذه المجموعة من رحالى القرون الوسطى نود أن نضيف إليها رحلة نبيل ألمانى ظلت قصته موضع تساؤل وشك حتى اليوم، رغم صدق ودقة مقاطع كثيرة منها. أما هذا الرحالة فهو آرنولد فون هارف، نبيل من يولش بالقرب من كولونيا، قام برحلة لمدة ثلاثة اعوام كتب قصتها بلهجة الراين الأسفل واكسبته شهرة كبيرة. غادر فون هارف كولونيا عام ١٤٩٦ بدافع زيارة الاماكن المقدسة، ولكن الحماس الدينى ليس وحده هو الذى حفزه إلى السفر والتجوال، بل إن حبه للاكتشاف والبحث والتنقيب كان له نصيب كبير فى ذلك أيضاً. وبعد أن وصل إلى البندقية أبحر إلى الاسكندرية ومضى إلى القاهرة، ومن ثم إلى جبل سيناء. وهو يودنا أن نصدق بأنه قطع شرقى شبه الجزيرة العربية كله إلى عدن، وأنه أبحر إلى سيلان حيث زار الهند ومدغشقر وجزيرة سقطرة،

٢) انظر الى المراجع فى نهاية المقالة.

٣) انظر الى المراجع.

وتسلق جبال القمر واكتشف منابع النيل، وأنه اتبع مجراه حتى عاد إلى القاهرة ثانية. ويزعم بعد ذلك أنه عاد إلى اوروبا عبر فلسطين وسوريا وتركيا. وفون هارف، ككثير من رحالى القرون الوسطى، يمكن أن يصدق فى أجزاء من اقواله ولكن ليس فى كل ما يرويه. فقصته تحتوى على الكثير من الخرافات ووحوش البحار العجيبة والجنيات المحاربات. وهناك أحد احتمالين : فاما أن نرفض مغامرة فون هارف عبر شرقى الجزيرة العربية، وأن نفترض انه مضى من مصر إلى فلسطين رأساً، ولكنه فضل ابتكار قصة رحلة خيالية تعيده إلى مكان يمكنه، ابتداء منه، أن يسرد حقائق جديرة بالتصديق. أما الاحتمال الثانى فهو أن نصدق زيارته للجزيرة العربية، وفى هذه الحالة لابد لنا من الافتراض بأنه عند بلوغه عدن عاد إلى مصر عن طريق لم يذكرها فى روايته، مفضلا أن يبتكر طريقاً أطول، بحيث أنه لم يضف إلى رحلته شيئاً جديداً فحسب، بل أخفى جزءاً منها فى الوقت نفسه أيضاً. ولأسباب فصلها بيكنجهام فى مقال له حول أوائل الرحلات إلى الجزيرة العربية،[٤] يميل المرء إلى تصديق الاحتمال الأول، والقول بأن فون هارف لم يزر الجزيرة العربية ولا الهند ولا أعالى النيل. فالى جانب اسماء مدن لا وجود لها فى الجزيرة العربية، فان وصفه لمكة غريب يبعث على الريبة الشديدة فى صدقه. فبالرغم من سفره علانية كنصرانى، يزعم فون هارف أنه رافق الحج مع عدد من النصارى واليهود حتى بلغوا مشارف المدينة. وإنه لمن المستبعد جداً أن يسمح لغير المسلم بمرافقة الحجاج بعد الاحرام، فكيف بمشاهدة مكة إطلاقاً. ويود فون هارف أن يقنعنا بأن مكة «مدينة خصبة تحيط بها الحدائق الغناء ذات الثمار الوفيرة النادرة» وأنه كان يجرى إلى جانبها «نهر كبير جميل» يصب فى البحر الأحمر. أما المسجد، على حد زعمه، فعلى ارتفاع يفوق أى مسجد آخر فى العالم. ويزعم رحالتنا أنه تقدم وجماعته إلى الكعبة «الواقعة فى نهاية الجهة الشرقية» من ساحة المسجد «حيث يقوم ضريح النبى». ويمكن الاعتقاد بأن فون هارف كان قد سمع أو قرأ وصفاً للمدينة المنورة وغيرها من مدن الجزيرة العربية، فاختلط الأمر عليه، وجعل ذلك وصفاً لمكة. ولكن رغم اجزاء روايته المشكوك فى صحتها، إلا أنه، حيث يصف أماكن زارها بالفعل، يثبت أنه عميق المعرفة دقيق الملاحظة خليق بالثقة. وباحتكاكه بأهل مصر وفلسطين من التجار وباجتماعه بالألمان الذين رآهم منتشرين فى كل مكان على اختلاف مهنهم، فقد جمع فون هارف معلومات لا يستهان بها عن الشرق الأدنى، بحيث ان وصفه لحياة القاهرة ومشاغلها وأوجه نشاطها وتفاصيل ما كتب عن مصر يفوق كل ما رواه معاصروه. وندرك من روايته بكل دقة أحوال الطرق والسفر فى اوروبا والشرق فى تلك الآونة. إذ يولى فون هارف اهتماماً خاصاً بظروف السياحة ويدرج فى كتابه كل ما يحتاج إليه المسافر من كلمات وعبارات شائعة وارقام بلغات البلاد التى يمر بها. كما أنه اولى عناية خاصة بالرسوم التى تبين الملابس والأزياء الوطنية المختلفة.

من كل ما تقدم ندرك أن الدافع الدينى الذى اشتد بانتشار الإسلام ظل حتى القرن الخامس عشر هو السائد فى حركة سياحة الاوروبيين، بما فيهم الألمان، إلى منطقة الشرق الأدنى. وحتى ذلك الحين ظلت معرفة الاوروبيين عن بلاد العرب مقتصرة على سواحل سوريا والأراضى المقدسة ومصر، كما أن طرق السفر البحرية والبرية ظلت إلى حد بعيد هى نفسها، تطرق دون تغيير اساسى عبر الأجيال. ولكن نتيجة لاكتشاف الطريق البحرى إلى الهند حول افريقيا فى القرن الخامس عشر، والاحتكاك بمراكز تجارة الهند والشرق الاقصى الغنية، فقد أخذت الدول البحرية الأوروبية فى التنافس على سيادة المنطقة، فقامت مستعمرات برتغالية، واعقبتها انجليزية وهولندية وفرنسية فى الهند وما حولها، ولعب الدافع التجارى دوره فى زيادة أهمية البحر الأحمر وبلاد الشرق الأدنى كجسور موصلة بين اوروبا والهند. وبرزت أهمية سواحل الجزيرة العربية جميعاً فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، وأصبحت موضع تنافس شديد بين القوى الاوروبية لأهميتها بالنسبة للتجارة وحماية السفن والطرق التجارية. وكان جميع الاوروبيين الذين ارتادوا سواحل الجزيرة العربية أو اخترقوها خلال هذين القرنين إما مسلمين ارتدوا عن المسيحية، أو غزاة أو رسلا متنكرين كانوا يحملون أنباء هامة إلى اوروبا، أو بحارين انتشلوا من سفن محطمة، أو أسرى معارك بحرية. ونظراً لعجز الألمان آنذاك عن الخوض فى ذلك المعترك التجارى، فانه لم يكن لهم نصيب يذكر مما كتبه اولئك الرحالون الاوروبيون المغامرون أمثال فارتيما وألفونسو دالبوكرك والانجليزى مدلتون والفرنسيين باربير ودى لاغريلوديير عن الجزيرة العربية من روايات ومذكرات كان لها اثر كبير، رغم ضحالة محتواها العلمى، فى اثارة الفضول لمعرفة المزيد عن هذه البلاد وكشف

٤) ذكر مقاله مع المراجع.

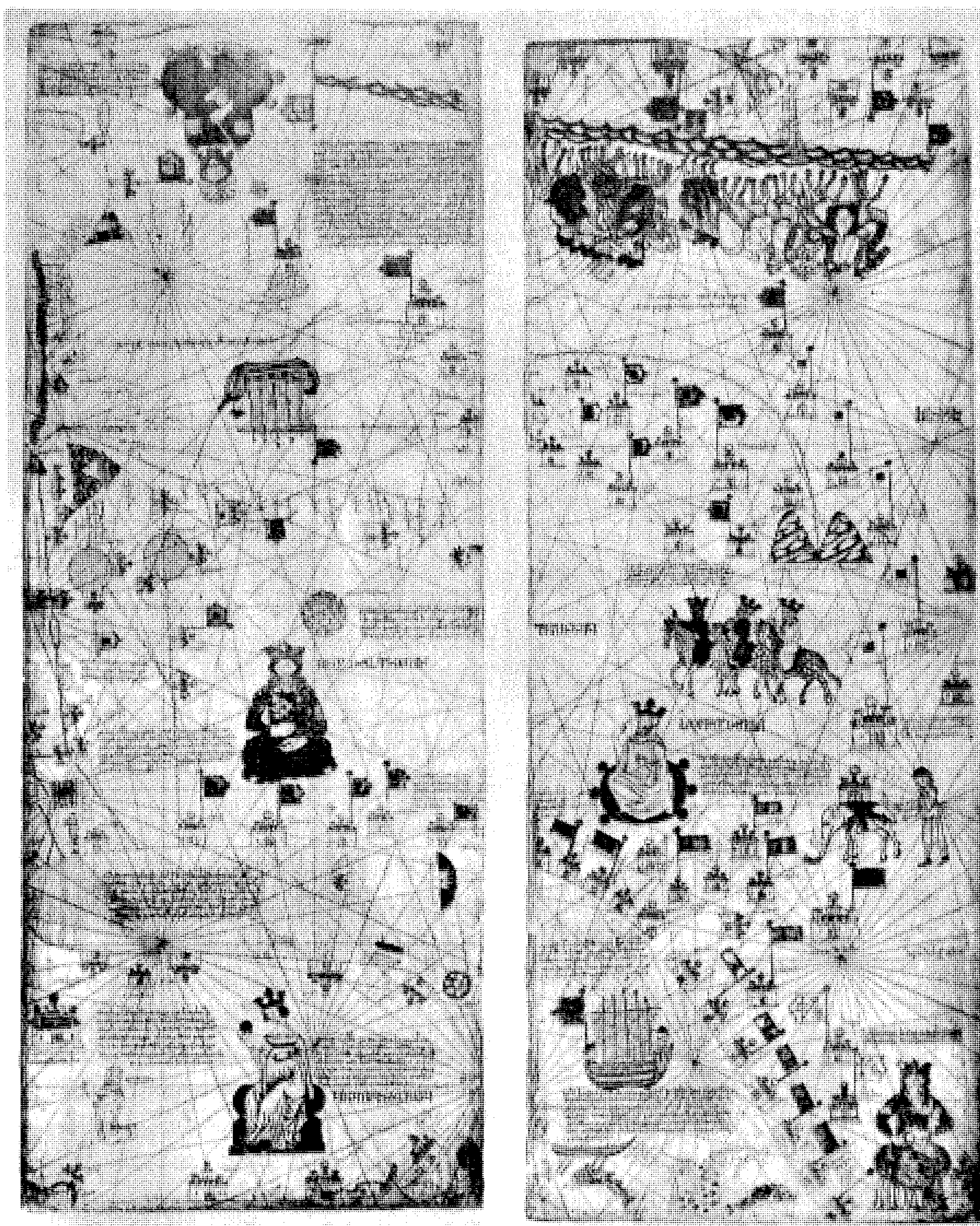
النقاب عن جغرافيتها ومدنها وسكانها وتاريخها الطبيعى. وإذا حرم الألمان من أى نصيب تجارى فى المحيط الهندى والبحر العربى، إلا أنه كتب لواحد منهم أن يكون الرائد فى تأليف أول كتاب علمى عن اليمن والساحل الغربى للجزيرة العربية فى اوروبا، وأن يكون العضو الوحيد الذى بقى على قيد الحياة من بعثة استكشافية علمية هى الأولى من نوعها إلى بلاد العرب، ليقوم بتسجيل هذه الرحلة. وليصبح كتابه حجر الأساس الذى بنى عليه كل من اعقبه من رحالين ومكتشفين اوروبيين فى ربوع شبه الجزيرة العربية.

فى منتصف القرن الثامن عشر اقترح استاذ اللغة العبرية فى جامعة جوتنجن الألمانية ومستشار البلاط الدانمركى آنذاك ميشائيلس على ملك الدانمارك فريدريك الخامس ايفاد بعثة علمية إلى شبه جزيرة العرب للقيام بأبحاث جغرافية واخرى تتعلق بالكتاب المقدس. واختير اعضاء البعثة كل حسب اختصاصه بحيث يتم التعاون فيما بينهم جميعاً دون رئاسة أحد منهم. أما أعضاء البعثة فكانوا: بيتر فورسكال، عالم نباتى، وكريستيان كرامر، جراح وعالم حيوان، وفريدريك فون هافن، عالم لغوى ومستشرق، وجيورج فيلهلم باورنفايند، رسام وفنان، وخادم سويدى يدعى برغ غرن، وأخيراً كارستن نيبور، مهندس المانى ولد عام ١٧٣٣ بالقرب من هانوفر، ودرس المساحة والرياضيات فى جامعة جوتنجن، وشاء القدر أن يكون الوحيد الذى بقى على قيد الحياة من أعضاء البعثة، وعاد بمفرده ليكتب التفاصيل نيابة عن رفاقه الراحلين.

غادرت البعثة كوبنهاجن عام ١٧٦١ واتجهت إلى القسطنطينية ومنها إلى الاسكندرية فالقاهرة. ثم ابحرت من السويس على البحر الأحمر عابرة ينبع حتى بلغت جدة. وكانت الرحلة لا تخلو من الخطر بسبب الصخور المرجانية والنتوءات الكثيرة وازدحام السفينة بالمسافرين. ويسجل نيبور أن التحصينات القديمة التى بنيت فى جدة لمقاومة البرتغاليين كانت مدمرة، وكانت بيوت جدة معظمها من الخشب وينقل الماء اليها على ظهور الجمال من خزانات على التلال المجاورة. ولم يكن ميناء البلدة اكثر من سوق تجارية بين الهند ومصر، يسيطر عليها الانجليز. وبعد انتظار شهرين فى جدة، حيث عومل الرحالون الاوروبيون بكثير من الود والتساهل، ظهر فى الميناء مركب متجه إلى الحديدة، فاستقلوه رغم صغر حجمه وغرابة شكله. وبعد ستة عشر يوماً بلغوا لهيا، وكان حاكمها رجلا مهيباً، مستقيما، حسن الطباع. وأخفى الرحالون عن حاكم لهيا غايتهم من استكشاف اليمن. واخبروه أن وجهتهم مخا حيث سيلتحقون بسفينة انجليزية إلى الهند. كانت لهيا بلدة فيها عدد قليل من البيوت الحجرية. أما أغلبها فقد بنى بالطين، بينما نمت الأعشاب الكثيفة على سقوفها. وكان اقرب مكان لماء الشرب يبعد ثلاثة أميال عن البلدة البائسة فى مينائها، والتى تعيش بالدرجة الأولى على تجارة القهوة. وكانت بلدة بيت الفقيه المركز الداخلى لتجارة القهوة فى طريقها من جبال اليمن إلى لهيا والحديدة ومخا. وكانت الحديدة ذات مرفأ صغير افضل بقليل من مرفأ لهيا. أما مخا فكانت الميناء الرئيسى لتجار القهوة القادمين من مصر وسوريا وايران وشمالى افريقيا.

وعندما زار أعضاء البعثة بيت الفقيه استقبلهم الحاكم المحلى بكرم وود، وسمح لهم بالتنقل فى كل مكان، فالتقوا هناك بعدد من المثقفين العرب الذين لم يكن منظر الاوروبيين امراً غريباً عنهم. ومن بيت الفقيه قاموا بجولات عديدة عبر اليمن، فزاروا تعز وصنعاء والقرى الجبلية، ووجدوا أن السياحة فى اليمن اقل خطراً منها فى أى بلد آخر. ولتجنب اللصوص واستبعاد الشكوك اتخذ نيبور زى رجل فقير بسيط وامتطى حماراً وراح يجول فى ربوع تهامة حتى تعرف إلى جميع بقاعها. وفى المرتفعات الداخلية اكتشف مزارع القهوة، حيث كانت الصخور البركانية تستخدم كجدران داعمة لمزارع القهوة التى جعلت شرفات مدرجة. ورغم ثروة البلاد بزراعة القهوة، إلا أن هذا المنتوج الزراعى كان عاجزاً عن كفاية كثير من القرى التى كانت تضمحل تحت وطأة الفقر وسوء الحال، والتى كانت الذرة تشكل الطعام الرئيسى لسكانهـــا.

وفى مخا اسيئت معاملة رحالينا فى بادئ الأمر، ثم أحسن اليهم بعد أن نجح كرامر فى معالجة حاكم المدينة. ويصف نيبور تجارة مخا التى يحتكرها الانجليز، كما يذكر الامتيازات التى كانت تمنحها لهم سلطات الجمارك والمكوس خلافا لغيرهم من التجار العرب والأتراك والهنود. وخلال فترة اقامتهم فى مخا فجعوا بموت فون هافن بعد مرض شديد ثم دفن فى مقبرة الاوروبيين هناك. ثم غادرت الجماعة مخا تلبية لطلب الإمام بالمثول بين يديه فى صنعاء، وفى منتصف الطريق مات فورسكال بعد مرض شديد أيضاً، بحيث خسرت البعثة بهاتين الضحيتين أفضل مستشرق وأبرع نباتى بينهم. ولما وصل الرحالون صنعاء استقبلهم الامام بالترحاب والود. ويصف نيبور القاعة الكبيرة ذات السقوف المقوسة حيث كان الامير يجلس



الخريطة الخامسة فى «الأطلس القتالانى» الذى رسمه «كريسكس» فى مدينة پالما على جزيرة مايوركا الإسپانية عام ١٣٧٥.
نشكر دار نشر سافارى Safari-Verlag, Berlin. لتصر يحها لنا بنشر هذه اللوحة.

متربعاً على الوسائد الوثيرة، وعليه ثياب خضراء فاخرة موشحة بالذهب. وبعد تقبيل يديه وأطراف ثوبه، اخبره الرحالون بأنهم فى طريقهم إلى الهند وانهم مروا ببلاده لينقلوا وصف ثروتها ورخائها وأمنها إلى ابناء بلادهم. وعندها سمح لهم الامام بالبقاء ما شاءوا. ولكنهم لم يمكثوا اكثر من عشرة أيام حاولوا أن يجمعوا فيها اكثر ما يمكن من معلومات عن المدينة وما جاورها. ويذكر نيبور أن صنعاء كانت محاطة بسور من الطابوق وأنه بنيت اقنية فى الجبل المجاور لنقل المياه الوفيرة إليها. وكان فى المدينة سبع بوابات، واثنا عشر حماماً وعدة قصور فخمة. وكان السكان أقل عدداً مما كان مظهر المدينة ينم عليه لأول وهلة، إذ كانت الحدائق تغطى معظم مساحتها المترامية الأطراف. وبنى بعض البيوت بالحجارة، بينما بنى معظمها بالطابوق المجفف بحرارة الشمس. ولم تكن الاخشاب المستخدمة فى النجارة وفيرة بل كانت تجلب من مكان يبعد بمقدار رحلة ثلاثة أيام من صنعاء. ولكن الفواكه كانت وفيرة، فمن الاعناب وحدها كان يوجد عشرون صنفاً بحيث كانت تصدر كميات كبيرة من الزبيب. ويصف نيبور كثيراً من مظاهر المدينة الاجتماعية بحيث قدم فى ذلك معلومات جديدة تماماً بالنسبة لابناء عصره، كوصفه لعادات اهل البلد وحياتهم اليومية واصحاب الحرف اليدوية الذين كانوا يعملون فى الطرق العامة، وخانات المسافرين والتجار، والحمامات العامة، ومازالت الصورة الزاهية التى رسمها نيبور لصنعاء تمتع القارئ حتى اليوم.

وعندما غادرت الجماعة صنعاء بعث الامام لكل من افرادها بمجموعة من الملابس الوطنية كهدية منه، كما جهزهم برسالة إلى حاكم مخا يمدهم ببعض المال. ويذكر نيبور ان الامام كان من السخاء والجود تجاه الغرباء بحيث كان الأتراك كثيراً ما يستغلون طيب معدنه فيمكثون الشهور الطويلة فى صنعاء يتسكعون وينفقون على حسابه. وتحت وطأة شمس آب مرض نيبور وكرامر وباورنفايند فى طريقهم إلى مخا. وحين غادروها واتجهوا إلى الهند مات باورنفايند وبرغ غرن أثناء الطريق، وفى بومباى مات كرامر بعد بضعة شهور. وهكذا فقد فرض مناخ اليمن الحار ضريبته على أرواح الجميع باستثناء نيبور الذى ظل أربعة عشر شهراً فى بومباى عاد بعدها إلى اوروبا عبر مسقط وخليج البصرة والعراق وسوريا. وكان من نصيب نيبور، الذى قاوم حتى النهاية، وأبدى نشاطاً وهمة وقوة احتمال لاحد لها خلال الرحلة كلها، أن يكتب قصة هذه الحملة الاستكشافية وحده. وقد حاول بنجاح كبير أن يسجل الاكتشافات التى قام بها جميع افراد البعثة، لا مغامراته وحدها فقط، لا بل إن قصته تكاد تخلو من أى طابع شخصى يتعلق بذاته هو، ويمكن اعتبار كتابه خلاصة نتائج هذه البعثة وتنصهر فيه اعمال جميع اعضائها، رغم أن البعثة انتهت قبل موعدها المرسوم ولم تحقق كل المهمات التى كان ملك الدانمارك قد حددها لها.

وكجميع كتب رحلات القرن الثامن عشر، فان رواية نيبور حافلة بكل ما يمكن تسجيله من ملاحظات ومعلومات كانت تعتبر ذات أهمية لإنسان ذلك القرن، الذى يدعى بحق عصر التفتح العقلى. فيحتوى كتابه على وصف كل ما يمكن أن تقع عليه عين اوروبى متعطش للمعرفة، كما أنه يحاول الجواب على كل ما يدور برأسه من اسئلة: فمن وصف عام لمصر ومدنها وسكانها وتجارتها، مع تفاصيل ممتعة عن آلات الرى والفلاحة والطواحين وعصارات الزيت وأفران تفقيس البيض، إلى وصف حياة أهل مصر وأزيائهم ومباذلهم ولهوهم فى ساعات الفراغ، إلى وصف عام لموانئ الجزيرة العربية وحركة تجارتها النشيطة، وبحث مناخها وجغرافيتها وسكانها، وتعليقات عن الدين الإسلامى ومذاهبه وتعريف بالعرب الحاضرة والبدو وعاداتهم وتقاليدهم. ولكن ما يميز كتاب نيبور عن أمثاله من كتب الرحلات فى عصره أن الصفة الغالبة فى اسلوبه هى روح البحث العلمى المجرد عن التحيز والحكم المسبق، فعقله المتزن، وتفكيره الهادئ الذى لا يعرف التغرض لم يؤديا به إلى التسرع فى اصدار احكام سطحية حول البلاد وسكانها. ولعل لأصله الريفى الألمانى، والغاية العلمية من رحلته الفضل فى خلو لهجته من «الروح الامبريالية» التى تميز الكتب الاوروبية الاخرى عند الحديث عن العرب وسكان بلاد الشرق الأدنى. فهو لم يعتبر نفسه قطعاً أسمى من اولئك الذين جاء ليدرس أحوالهم، بل كان ينظر حوله بعين الفيلسوف الذى يرى الكل من خلال الجزء، ويدرك الأمر الأساسى من الحدث العارض. وكانت الصفات الانسانية العامة هى التى تجذب اهتمامه، وروح الانصاف هى التى تملى عليه احكامه، كما أنه لم يكن متأثراً بوهم التفوق الاوروبى العنصرى بحيث يحرمه ذلك من الشعور بالود تجاه شعب شرقى. ولذا فقد تكيف لتقاليد اليمن فوراً، دون أن يخطر على باله أن فى ذلك أى مس لكرامته ولسمعة بلاده؛

وانحنى لامام اليمن وقبل يديه كعاهل لا يقل فى بلاده قدراً عن الملك فريدريك فى الدانمارك .

لقد ظل كتاب نيبور لاكثر من قرن ونصف قاعدة ونموذجاً أصيلا لكل من يريد أن يعرف شيئاً عن بلاد العرب، ومرجعاً لكل رحالة جاب الجزيرة العربية بعده. وإن ميزته العظيمة كمرجع علمى تعود بالدرجة الأولى إلى شدة نيبور فى ضبط نفسه وكبح جماحها. وان هذه الموضوعية التى تميز كتابه تملأ القارئ كذلك بالثقة فى صدق ودقة ملاحظات المؤلف وتعليقاته. وقد ثبت صدق هذه الملاحظات أمام امتحان الأجيال القادمة من الرحالين بحيث يحار القارئ فى ايهما يمتدح أكثر : الدقة والصدق فى وصف ما رآه نيبور بعينه، أم التمحيص والصحة فى ذكر ما جمعه سماعاً اثناء تحرياته الشخصية عن البقاع التى لم يتمكن من زيارتها بنفسه. فقد كانت مهمته ان يخبر ملكه ومواطنيه عن الجزيرة العربية كلها، وليس عن اليمن وحدها فقط. وإذ كان ملماً بأهم المؤلفات العربية والأوروبية عن جغرافية الجزيرة العربية، فقد كان حريصاً على سؤال كل من كان يصادفه من العارفين وجمع كل ما كان يسمعه من أقوال المتعلمين المثقفين فى الخانات والمقاهى والأسواق العامة من جدة حتى صنعاء. وكان يقارن ويمحص ويدرس حتى ينتهى إلى القول الاكثر صدقاً والأقرب من الحقيقة؛ وإن ذلك القسم من كتابه الذى يتناول فيه بقاع الجزيرة التى لم يزرها بنفسه هو الاكثر قيمة، حتى ليمكن القول بأنه قدم اوروبا من مرتبة التخمين إلى مرتبة المعرفة عن شبه الجزيرة العربية .

أما أهم ما سجله نيبور بعد تمحيص وتحقيق فهى الحركة الوهابية بعد أن أدرك ببعد نظره خطورتها وطاقتها النامية فى الجزيرة العربية. ولو اعتبرنا ملاحظاته عن الاسلام عموماً لوجدناها تميل إلى الايجابية اكثر من التجريح. فقد أدرك أن المبادئ الأساسية والأركان الأصلية للاسلام ليست عدائية بطبيعتها، وأن المسلمين عموماً لا يضطهدون اتباع الأديان السماوية الاخرى إلا إذا شعروا فى ذلك بتهديد مباشر لهم. وعرف أن النبى دعا إلى الايمان بدين اكثر بساطة فى الأصل مما أضاف إليه المفسرون والمؤولون فيما بعد من بدع وتعقيدات. وفى الكلام عن الحركة الوهابية يقول :

«منذ حين من الزمن نشأت حركة دينية جديدة ... أشعلت ثورة فى أرجاء شبه الجزيرة العربية، ومن المحتمل فيما بعد أن يزداد نفوذها فى البلاد ... فقد علم عبد الوهاب أن الله وحده هو الخليق بالعبادة والدعاء، كخالق الكون وسيد العالم ... واعتبر محمداً وعيسى المسيح وموسى وغيرهم من الأنبياء عند السنة مجرد عظماء يمكن قراءة سيرهم وتواريخهم مع التصحيح، وأنكر أن يكون أى كتاب قد كتب بالوحى الالهى، أو انزل من السماء على يد جبريل ... إن دين عبد الوهاب الجديد يستحق إذن ان يعتبر اصلاحاً للدين المحمدى، معيداً إياه إلى بساطته الأصلية. ولعله ذهب فى ذلك إلى ابعد مما فعله غيره من المصلحين ... »

ورغم أن نيبور لم يتعرض إلى ذكر آل سعود من الدرعية، الذين ناصروا المصلح الدينى وكتب لهم أن يلعبوا دوراً تاريخياً كبيراً، إلا أن ما ذكره عن الوهابية فى اوائل عهدها وعن سيرة المبشر بها محمد بن عبد الوهاب موضوعى وصائب إلى حد بعيد .

لقد صدر كتاب نيبور «رحلات خلال جزيرة العرب» بالألمانية عام ١٧٧٢ ثم ترجم إلى الفرنسية والانجليزية وظل المرجع الوحيد عن اليمن والجزيرة العربية لأكثر من نصف قرن. أما نيبور نفسه فقد عاد عام ١٧٦٦ وقوبل بما يستحقه من تكريم علمى واجتماعى وأصبح عضواً لعدد كبير من الجمعيات العلمية حتى مات عام ١٨١٥.

منذ صدور كتاب نيبور عام ١٧٧٢ حدثت امور كثيرة فى منطقة الشرق الأدنى مما زاد من فضول الاوروبيين لزيارة هذه البقاع ومعرفة المزيد عن قلب الجزيرة العربية. فقد تحققت نبوءة نيبور بشأن حركة الوهابيين التى أخذت تجتاح أرجاء الجزيرة العربية. ولا يتسع المقام هنا لسرد الوقائع التاريخية التى حدثت فى المنطقة حتى بداية القرن التاسع عشر بالتفصيل، ولكن يكفى القول بأن نهضة الوهابيين واستيلاءهم على مكة ثم تدخل الأتراك وحملة نابليون فى مصر وانتصار محمد على على مماليك مصر، كل ذلك ساعد على مضاعفة اهتمام اوروبا بالشرق الأدنى. وقد جاب عدد لا يستهان به من الأوروبيين بلاد العرب فى المنتصف الثانى من القرن الثامن عشر وكتبوا قصص رحلات لا تخلو من الأهمية، ولكن رحالة ألمانياً جريئاً جمع بين العلم والمغامرة يجذب اهتمامنا بوجه خاص، إذ يشكل حلقة الوصل بين نيبور المدقق الأمين، وبوركهارت الفقيه المتبحر فى علوم الدين الإسلامى واللغة العربية، وكاشف النقاب عن مكة والمدينة. أما هذا الرحالة فهو اولرش ياسبر زيتسن.

ولد زيتسن عام ١٧٦٧ فى قرية صوفينغرودن فى شمالى ألمانيا ودرس فى جامعة جوتنجن الطب والعلوم الطبيعية والهندسة وساهم منذ حداثة سنه بنشاط علمى كبير بحيث اشتهر اسمه فى اوروبا بفضل مقالاته العلمية فى حقول الحيوان والنبات والاقتصاد. وتوجت جهوده العلمية عام ١٧٩٥ بتعيينه عضواً فى جمعيتى الأبحاث الطبيعية فى برلين وڤيينا. ونظراً لصلاته الوثيقة بأهم علماء الفلك والطبيعة والجغرافيين والرحالين فقد صمم على القيام برحلة إلى الشرق وأفريقيا يقطع فيها الشرق الادنى حتى يصل افريقيا الغربية لاكتشاف منابع النيجر. وتعهد الدوق فون غوتا بحماس برعاية رحلته وتأمين كل ما يحتاج إليه من آلات فلكية وجغرافية. وفى ١٣ حزيران (يونيو) عام ١٨٠٢ غادر زيتسن منطقة ييفر إلى غوتا ثم ڤيينا. وعبر البلقان إلى القسطنطينية حيث مكث فيها ستة شهور. وبعد جولة فى جزر الأرخبيل اتجه فى تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٨٠٣ إلى حلب ومكث فيها عاماً ونصف العام ليتعلم العربية. ثم سافر إلى دمشق ومكث فيها وقتاً طويلا وعبر جبال لبنان، ومر بصور، ثم انحدر إلى القدس ووصلها فى ٧ نيسان (ابريل) عام ١٨٠٦. وتجول فى ارجاء فلسطين ثم انحدر بعد عام إلى منطقة البتراء وعبر صحراء سيناء واجتاز السويس إلى القاهرة. وهنا مكث من مايس عام ١٨٠٧ حتى آذار (مارس) ١٨٠٩. وبعد جولة إلى الفيوم عاد إلى السويس وأبحر منها إلى جدة، ومضى منها إلى مكة التى بلغها فى ١٠ تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٨٠٩ وبقى فيها مدة ليرسم خطة دقيقة للكعبة. وبعد الحج زار زيتسن صنعاء وعدن، ثم اتجه من الساحل إلى مرتفعات اليمن مع عدد من الجمال متنكراً كطبيب شرقى باسم الحج موسى. ولكنه قتل بالقرب من تعز ولم يعرف القاتل ولا سبب القتل حتى الآن، ولكن الغالب أنه لم يقتل طمعاً فى امواله وقافلته وانما بايعاز من إمام صنعاء الذى شك بحقيقة إسلامه والغرض من رحلته. وعلى اى حال فقد سبق لزيتسن أن مر بامتحان دقيق على أيدى الوهابيين فى مكة واثار الشكوك حوله هناك، وكان خطوءه أنه سافر عبر الطريق نفسها. وكان زيتسن اثناء رحلته قد بعث بعدة مخطوطات وقطع أثرية إلى غوتا وهى تشكل المحفوظات الأساسية للمتحف الشرقى هناك، كما أنه كان قد بعث برسائل وأبحاث نشرت فى عدة مجلات معاصرة. ولكن أغلب مذكراته وكتاباته وحاجاته فقدت، ولم ينقذ منها إلا ما كان قد أرسله إلى اوروبا. ومن هذه المذكرات يتضح مدى اهتمام زيتسن باستخدام رحلته لأغراض البحث العلمى، فهى زاخرة بالمعلومات القيمة فى حقول الحيوان والنبات والتعدين والزراعة والجغرافيا والتاريخ القديم. وقام عدد من العلماء باصدار مذكراته بعد موته بعدة أعوام[٥]. وهكذا فان المأساة التى حرمت اوروبا من اكتشافات عظيمة الأهمية ومن ثمرة ابحاث هذا العالم الجرئ المغامر فى الحجاز واليمن قد حرمته كذلك من بعض الشهرة التى كتب لها أن تكون من نصيب رحالة من أصل سويسرى عريق.

ولد يوهان لودفيج بوركهارت عام ١٧٨٤ فى لوزان ودرس منذ عام ١٨٠٠ فى لايبزغ، ومنذ ١٨٠٤ فى جوتنجن. ولما رفض الخدمة تحت راية نابليون فقد سافر عام ١٨٠٦ إلى انجلترا ودرس اللغة العربية والعلوم الطبيعية فى لندن وكامبردج بتعمق ومثابرة، استعداداً للقيام برحلة إلى الشرق واواسط افريقيا بتكليف من الجمعية الافريقية البريطانية. وفى ١٤ شباط (فبراير) عام ١٨٠٩ أبحر إلى مالطة ومنها إلى حلب متنكراً كتاجر مسلم هندى باسم الشيخ ابرهيم بن عبد الله. ليستطيع بذلك تبرير أية لكنة أجنبية قد تلاحظ فى نطقه العربى. واستغل اقامته فى سوريا (مابين حلب ودمشق) فى التبحر فى دراسة لغة وتاريخ وجغرافية بلاد العرب والإسلام. وكان يقنع سائليه من السوريين إذا طلبوا إليه أن يتكلم الهندستانية بالتحدث بالألمانية السويسرية التى تمتاز بالأصوات الحلقية. غير أنه تمكن اثناء اقامته فى سوريا من اتقان العربية والتحدث بها بطلاقة ونطقها على الوجه الصحيح، ومن التضلع فى اصولها، حتى أن بعض فقهاء حلب كانوا يستعينون بمعرفته احياناً على تفسير بعض النصوص والمسائل المعقدة. وسافر بوركهارت خلال الفترة ما بين ١٨١٠ و١٨١٢ إلى لبنان وحوران وشرقى الاردن، واهتم كثيراً بما شاهده من آثار وكتابات من عهد تراجان وماركوس اوريليوس. وأثناء طريقه إلى القاهرة فى منتصف عام ١٨١٢ اكتشف آثار البتراء القديمة مما أذاع شهرته بين علماء الآثار فى كل مكان فى العالم. وكانت خطة بوركهارت أن يبدأ رحلته الاستكشافية الافريقية من مصر فيلتحق بقافلة إلى فزان، وبعدها يواصل رحلته لاكتشاف منابع النيجر. وبينما كان ينتظر القافلة فى القاهرة، تمكن من مقابلة محمد على باشا، الذى أعجب بشخصيته وبعلمه، وأمده بتوصيات للقيام برحلة إلى النوبه. وإذ اعتبر هناك جاسوساً لباشا مصر فقد منع من مواصلة رحلته، فألتحق بقافلة كانت تسير كل عام

٥) ذكر الكتاب مع المراجع.

◀ عن كتاب «برايدنباخ» لسياحاته الى الشرق الأدنى، رسم صوره «ارهارد رويڤيك» وطبع لأول مرة عام ١٤٨٦.
E. Reuwick: Peregrinationes in Terram Sanctam. (1486).

vt in eis erudiret israhelem et vt consuetudinem haberent preliandi rc.
Sic fortassis idipsum non incongrue dici potest in proposito vt scili-
cet sarracenos dimittat dñs vel in flagellum vel exercicium populi xpia-
ni. Sed ego nichil temere diffiniens id doctoribus relinquo. Hoc vnũ
scio psalmista testante. quia iudicia dei abissus multa rc. Quis autem
nouit sensum dñi. aut quis consiliarius eius fuit. Apostolus etiã cla-
mat. O altitudo diuiciarũ sapientie et scientie dei. q̃ incõprehensibilia
sunt iudicia eius. et inuestigabiles vie eius. Et tantũ de Sarracenis.



Sarraceni lingua et littera vtitur Arabica hic inferius subimpressa.

Dal	Dal	Kch	haich	Gym	Tech	Te	Be	Aleph
ذ	د	خ	ح	ج	ث	ت	ب	ا
Ayn	Dach	Ta	Dadhud	Sad	Schin	Syn	Zayn	Re
ع	ظ	ط	ض	ص	ش	س	ز	ر
hehe	Nun	Mym	lam	kam	caph	kabh	ffea	Gayn
ه	ن	م	ل	ك	ق	ق	ف	غ
vel sicut lam. pex	ye	lamaleph	waw					
aliud	ي	لا	و					

من الصعيد عبر الصحراء النوبية إلى سجندى وسنار. وفى سجندى تحول مع قافلة اخرى عبر طريق لم يطرقها اوروبى بعد، تمر ببربر إلى سواكن، على البحر الأحمر، ومنها أبحر إلى جدة.

وهنا لابد من ذكر عرض موجز لما حدث فى الجزيرة العربية من تطورات على يد الوهابيين وبسببهم منذ غادر نيبور اليمن حتى دخول بوركهات الحجاز. فحين مات ابن سعود عام ١٧٦٥ الذى كان قد ناصر محمد بن عبد الوهاب، واستطاع بسيفه وعشيرته أن ينشر الفكرة الجديدة ويوطد اركانها، كان الوهابيون يسيطرون على جميع أرجاء نجد. وواصل ابنه عبد العزيز مهمة ابيه فهدد مكة، وبعث بابنه سعود إلى خليج البصرة فاكتسح الكويت، ثم اجتاح كربلاء وهدد حدود بغداد. وفى عام ١٨٠٣ دخل الوهابيون مكة ولكن أهلها قتلوا رجال حاميتهم فيها بعد حين. وباءت محاولة الوهابيين فى الاستيلاء على المدينة وجدة بالفشل. ولكن بعد مقتل عبد العزيز فى العام نفسه جدد ابنه سعود الهجوم على الحجاز فاستولى على المدينة المنورة عام ١٨٠٤ وعلى مكة عام ١٨٠٦ وعلى جدة بعد ذلك بقليل. وفى الاعوام التالية تخطى غزاة الوهابيين حدود الجزيرة العربية فهاجموا النجف ودمشق التى قاومتهم بنجاح. وفى عام ١٨١١ كانت امبراطورية الوهابيين تمتد من حلب شمالا حتى المحيط الهندى، ومن خليج البصرة والعراق شرقاً حتى البحر الأحمر. وبلغ ذعر الحكومة العثمانية حداً بعيداً، حتى حثت محمد على باشا والحت عليه مراراً فى القضاء على نفوذ الوهابيين. وأرسل محمد على ابنه طوسون على رأس جيش لم يستطع الصمود فى بادئ الأمر، ولكنه تمكن بعد تعزيزه من استرجاع المدينة عام ١٨١٢، ومكة عام ١٨١٣. ورغم قيام محمد على بنفسه بقيادة جيش مصرى فى اواخر عام ١٨١٣، إلا أنه أصيب بخسائر جسيمة؛ غير أن المقادير شاءت أن تضرب الوهابيين بموت قائدهم سعود فى اول مايس عام ١٨١٤، أى قبل دخول بوركهارت إلى جدة بشهرين. وبعد أربعة أعوام تم القضاء على الامبراطورية الوهابية الأولى عام ١٨١٨ عندما اعتقل ابن سعود وخليفته عبد الله على يد ابراهيم باشا وتم اعدامه فى القسطنطينية.

وهكذا فقد كان من حسن طالع بوركهارت، ومما ساعد على تحقيق زيارته إلى مكة والمدينة أن وافت المنية سعود قبل دخوله جدة بشهرين، وأن كان محمد على، المتحرر المتسامح، الذى سبق أن قابله فى القاهرة موجوداً فى الطائف آنذاك. ولم ير بوركهارت فى جدة اكثر من بلدة ذات بيوت حجرية مرتفعة، وجدران تخطف الابصار لشدة بياضها، وتحصينات مهدمة، ومدفع كبير وبضعة أشجار نخيل، وصحراء جرداء تحيط بها من كل جانب. وكانت جدة قد اضمحلت تحت حكم الوهابيين بسبب ضعف مواسم الحج، وخوف التجار من إرسال بضائعهم إلى بلاد يعوزها الاستقرار. أما سكان البلدة فكانوا خليطاً من العرب الحجازيين الاقحاح، واليمنيين والحضارمة والمصريين والسوريين والأتراك والهنود وأهل الملايو. وكان كثير من هؤلاء من يتزاوج من الجوارى الحبشيات. وكانت جدة ميناء الجزيرة العربية ومصر، وسوق البضائع الهندية وقهوة اليمن. وكان مدى رخاء البلدة يتوقف كليا على نشاط تجارتها. ولم تقم فيها صناعة بناء السفن لافتقارها إلى الاخشاب اللازمة. ولم تكن حرفها لتتجاوز الحاجات المحلية كالحياطة وصناعة النعال. ويختم بوركهارت وصفه المفصل لجدة بالتنبوء التالى:

«عندما ستضمحل سلطة الاتراك فى الحجاز، وهذا ما سيحدث عندما تنقطع موارد مصر عن التدفق على ذلك البلد بفضل حكم قدير مستقر كحكم محمد على لمصر، فسيأخذ العرب بثأرهم للخضوع الذى يتقبلونه مرغمين تجاه قاهريهم؛ ومن المحتمل أن ينتهى حكم العثمانيين فى الحجاز بعد مشاهد كثيرة من سفك الدماء.»

ثم واصل بوركهارت رحلته من جدة إلى الطائف، حيث كان محمد على قد أقام مقراً لقيادة جيشه، وعبر الطريق فوق سلسلة من التلال والصخور الجرداء تتخللها الوديان الخصبة. وكجدة، فقد كانت الطائف قد انهارت كذلك تحت حكم الوهابيين، فبدت خرائب تكاد تكون مهجورة، بينما كانت فى السابق سوق القهوة اليمنية عبر الطريق البرى. وكانت تمتد فوق سهل رملى تحيطه تلال منخفضة تنتشر على سفوحها البساتين وحقول الحنطة والشعير ترويها الجداول المنحدرة من المرتفعات.

وفى الطائف استطاع بوركهارت، بفضل تبحره فى اصول الدين والفقه الإسلامى وقواعد اللغة العربية وعلوم القرآن والتفسير أن يزيل كل شك حول حقيقة اسلامه بعد أن اجتاز امتحاناً عسيراً أمام قاضى مكة الذى كان موجوداً فى الطائف آنذاك. ولا تخلو مقابلاته مع محمد على فى الطائف، وما كان يدور بينهما من أحاديث، من أهمية تاريخية ومن طرافة فى القاء أضواء على جوانب من دهاء ذلك الحاكم الكبير وطريقة تفكيره السياسى.

وغادر بوركهارت الطائف فى بداية أيلول (سبتمبر) متجهاً إلى مكة حتى وصلها بعد رحلة يومين فى جو عاصف.

وفى مكة قام قبل كل شئ بفرائضه الدينية داخل بيت الحرام. وحضر مراسيم الحج على جبل عرفات، وامضى ليلته فى مسجد المزدلفة واشترك فى مراسيم الرجم والتضحية فى وادى منى. وأطلق موكبا الحج السورى والمصرى مدفعين إعلاناً بفجر يوم الحج وايذاناً بموعد الصلاة. ومن قمة عرفات أشرف بوركهارت على السهل الممتد دونه واستطاع أن يعد حوالى الثلاثة آلاف خيمة، الفان منها للموكبين السورى والمصرى ولمرافقى محمد على وجنوده وألف لعرب الحجاز. أما أغلب الجموع فقد كان بدون خيام. وعندما خيم الليل حملت آلاف المشاعل، ورفع اربعة وعشرون منها أمام باشا مصر، محمد على، ومثلها أمام باشا دمشق، سليمان. واطلقت المدافع والصواريخ فى السماء وراحت الفرق الموسيقية تعزف، وانتقلت جموع الحجاج فى هرج صاخب إلى المزدلفة. وبعد خطبة الامام أدى الحجاج فريضة صلاة العيد ثم انتقلوا إلى وادى منى. إن وصف بوركهارت لتفاصيل الطواف حول الكعبة والسعى بين الصفا والمروة وزيارة العمرة وعرفات ووادى منى وملاحظاته عن مكة عموماً واهلها ومظهرهم وعاداتهم ونفسياتهم وتجارتهم ادق واتم ما كتب إطلاقاً حتى أنه لم يترك شيئاً جديداً يوصف لمن جاء بعده من الأوروبيين إلى بيت الحرام. ومن ملاحظاته المهمة أيضاً وصف قوافل الحج المختلفة وطرق تحركاتها، واهمها الموكبان السورى والمصرى، وتليهما قوافل حجاج إيران التى تمر ببغداد ثم يتصل قسم منها بالموكب السورى وقسم يواصل السفر عن طريق البصرة، وقوافل شمالى أفريقيا التى تمر بتونس وطرابلس ثم تلتحق بالموكب المصرى.

بعد القيام بما تبقى من الفرائض فى وادى منى وفى مكة سافر بوركهارت فى كانون الثانى (يناير) عام ١٨١٥ إلى المدينة المنورة وزار ضريح الرسول. ولكنه أصيب فى المدينة بحمى اطرحته الفراش. ولما تحسنت صحته قليلا انحدر إلى ينبع ومنها إلى القاهرة حيث انشغل بمراجعة مذكراته واتمامها لنقلها إلى الجمعية الافريقية، وفى الوقت نفسه أخذ ينتظر قافلة فزان طويلا ليرافقها ويواصل رحلته إلى افريقيا. ولكن قواه التى انهكها المرض خانته، ففاضت روحه فى الوقت الذى كانت القافلة قد استعدت فيه للسفر فى تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٨١٧. ودفن فى المقبرة الإسلامية بعد أن اقيمت له جنازة خليقة بابرهيم بن عبد الله، الحاج التقى الورع، والعلامة الضليع.

وكالرحالة نيبور، فان بوركهارت عالج جزءاً محدوداً، ولكن هاماً فى الوقت نفسه، من شبه الجزيرة العربية. إذ أن المنطقة التى استكشفها نيبوركانت هامة بالنسبة للاوروبيين بسبب شهرتها العريقة بالتجارة والخصب. ولكن المناطق التى استكشفها بوركهارت فى الحجازكانت لاتزال سراً عميقاً مبهماً، ولم تكن علاقتها بالتجارة بمقدار ارتباطها بتعاليم ومراسيم دين غريب عن الاوروبيين. مثير لدهشتهم بقوته وثباته. وهكذا فقد غادر بوركهارت الحجاز وهو يحمل معه أدق تفاصيل سجلت قط عن الكعبة ومراسيم الحج وتجارة الحجاز وسكانها. وكان اهتمامه الرئيسى مركزاً على دراسة العرب، بدوهم وحضرهم. وتحليل مجتمعهم وطبائعهم وتعاليمهم الدينية. ورغم أنه لم يساهم كثيراً فى توسيع المعارف الجغرافية الدقيقة عن الحجاز إلا أنه قدم دراسة مفصلة واسعة عن المدن الرئيسية كمكة والطائف وجدة، ومن هذه المراكز راح يتحرى بدقة نيبور وتمحيصه عن كل ما يتعلق بالجانب الغربى من قلب الجزيرة العربية وتكوينه السكانى، بحيث قدم معلومات جديدة شيقة عن قبائل هذه البقاع وتعدادها وعاداتها وأسلحتها ونظم معيشتها ومناطق استيطانها وخيولها وجمالها.

ويعتبر بوركهارت البدو من أنبل الشعوب التى عرفها. وهم، رغم كل أخطائهم، أرفع من الاوروبيين فى كثير من الصفات، كما أنهم أرقى من الأتراك فى كل اعتبار. وقد يحبون السلب والنهب، غير أنهم يعوضون عن ذلك بفضائل اخرى، أما الأتراك، فى نظره، فيشتركون فى صفات البدوى السيئة ولا يتمتعون إلى جانبها بأية صفة حسنة. والبدوى يحب الحرية بطبعه، وقد جعله هذا الحب يفضل خيامه فى الصحراء على حياة الاستقرار الناعمة. والقبائل البدوية، رغم نزاعاتها القبلية، إلا أنها جميعاً تتمتع بكبرياء قومية تجمع بينها، كما اتضح من استيائها لانتصارات محمد على وألمها لأية خسارة تصيبها على أيدى قوات أجنبية. ويرى بوركهارت أن من أرقى صفات الخلق البدوى عطفه ومعروفه وإحسانه وسلوكه المسالم عندما لا تثار كبرياؤه وتجرح كرامته.

لقد ابدت الجمعية الأفريقية البريطانية اهتماماً كبيراً بما كتبه بوركهارت من مذكرات وملاحظات وتعليقات اثناء سفره فنشرت على التوالى جميع كتبه الموضحة فى نهاية هذه المقالة. وقد كتب بوركهات جميع مؤلفاته بلغة انجليزية سليمة تمتاز بالاسلوب الرفيع، رغم أنه لم يبدأ فى تعلمها إلا فى الخامسة والعشرين، ورغم أنه كان يسجل مذكراته سراً وعلى عجل تحت عباءته أو خلف جمله،

خوفاً من اكتشاف أمره واثارة شكوك مرافقيه فى حله وترحاله. وقد خلف بوركهارت فى وصيته كل ما جمعه من مخطوطات عربية تبلغ الثمانمائة مجلد لجامعة كامبردج، التى بدأ فيها دروسه العربية الأولى.

*

من كل ما سبق ندرك أهمية الدور الذى لعبه الرحالون الألمان، أو الناطقون بالألمانية، منذ العهود المبكرة حتى اوائل عصرنا الحاضر، فى تطوير الاستشراق فى اوروبا، وجعله موضوعاً دراسياً خاضعاً للبحث العلمى بدلا من التعصب والخرافة. ولقد رسم اوائل الرحالين صورة غامضة غريبة للشرق الأدنى، فراح من جاء بعدهم يصححونها ويضيفون إليها حجراً بعد حجر، حتى أصبحت أقرب إلى الحقيقة. وإذا ترك امر دراسة الشرق وحضارته وتاريخه وأديانه للعلماء المتخصصين فى فروع الاستشراق المختلفة، فيكفى الرحالين المنصفين عموماً، والألمان الذين كنا بصددهم خصوصاً، فخر المساهمة فى إزالة كثير من سوء الفهم والتغرض والتعصب، فالمعرفة الصحيحة تزيل الخوف والعداء، وتقيم اسساً جديدة للتفاهم والصداقة.

مراجع البحث

من اهم الكتب التى تبحث فى سير الحجاج الأولين إلى الأراضى المقدسة التالية:

H. von Wissmann, Arabien. Dokumente zur Entdeckungsgeschichte. Stuttgart 1965.

Lahrkamp, Helmut: Nordwestdeutsche Orientreisen und Jerusalemwallfahrten im Spiegel der Pilgerberichte. (Oriens Christianus, Bd. 40, 1956).

Riezler: Jerusalempilger und Kreuzfahrer aus Bayern. (Forschungen zur deutschen Geschichte, Bd. 18, Göttingen, 1878).

Röhricht, R.: Die Deutschen im Heiligen Lande, Innsbruck, 1894.

Tobler, Titus: Bibliographia geographica Palaestinae, zunächst kritische Übersicht gedruckter und ungedruckter Beschreibungen der Reisen ins Heilige Land. Leipzig, 1867.

وبالنسبة لرحلة برايدنباخ، انظر:

Lambert, R. S.: The Fortunate Traveller, London, 1950:

Breidenbach, B. von: Perigrinationes in Montem Syon, 1486. وكتابه باللاتينية:

وبخصوص فون هارف انظر:

Beckingham, C. F.: Some Early Travels in Arabia: (The Journal of the Royal Asiatic Society, 1949).

وكتابه ظهر بعنوان:

Die Pilgerfahrt des Ritters Arnold von Harff von Cöln durch Italien, Syrien, Ägypten, Arabien, Aethiopien, Nubien, Palästina, die Türkei, Frankreich und Spanien, wie er sie in den Jahren 1496 bis 1499 vollendet, beschrieben und durch Zeichnungen erläutert hat, herausgegeben v. Dr. E. v. Groote, Cöln, 1860.

أما بشأن نيبور وزيتسن وبوركهارت فانظر:

Hogarth, D. G.: The Penetration of Arabia, London, 1904.

Kiernan, R. H.: The Unveiling of Arabia, The Story of Arabian Travel and Discovery, London, 1937.

Pirenne, Jacqueline: À la découverte de l'Arabie. Paris, 1958.

وقد صدرت كتبهم التالية:

Niebuhr, K.: Beschreibung von Arabien, 1772.

— Reisebeschreibung von Arabien und andern umliegenden Ländern, 2 Bde., 1774—78.

— Reisen durch Syrien und Palästina, 1837.

انظر ايضا:

Thorkild Hansen: Reisen nach Arabien. Die Geschichte der königlich-dänischen Jemen-Expedition. Hamburg 1965.

Ulrich Jasper Seetzen's Reisen durch Syrien, Palästina, Phönizien, die Transjordan-Länder, Arabia Peträa und Unter-Ägypten, Herausgeber: F. Kruse, Berlin, 1854—59.

Burckhardt, J. L.: Travels in Nubia, 1819.

— Travels in Syria and the Holy Land, 1822.

— Travels in Arabia, 1829.

— Notes on the Bedouins and Wahabys, 1830.

— Arabian Proverbs, 1831.

الأبحاث العربيّة الجنوبيّة :

إدوارد غلازر

(١٨٥٥ - ١٩٠٥)

بقلم : الأستاذة ماريا هوفنر

تشير عبارة «الجنوب العربي» في الحقل العلمي إلى جزء صغير نسبياً من شبه الجزيرة العربية، وهو ما يدعى اليوم باليمن وحضرموت. وقد نشأت في هذه البقاع قبل ظهور النبي محمد بزمن طويل حضارة راقية مازالت شواهدها — إلى حد ما على الأقل — بادية للعيان حتى اليوم. فهناك خرائب اسوار عظيمة وحصون ومعابد وقنوات للري تشير جميعها إلى مقدرة تكنولوجية عالية وإحساس فني دقيق جداً كان يتمتع بهما سكان الجنوب العربي القدماء، كما تشير إلى المستوى الذي بلغوه من الثروة والرفاه. ويتحدث عن ذلك الكتاب المقدس والمؤرخون اليونانيون والرومانيون الذين كانوا يطلقون على تلك البقاع اسم «بلاد العرب السعيدة». أما مصدر تلك الثروة فكانت التجارة. إذ كانت السلع القادمة من الشرق، من الهند والصين، والمتجهة إلى مصر وبلاد حوض البحر الابيض المتوسط، تمر، خاصة في الأزمنة القديمة، «بطريق البخور» التي كانت تبدأ من مينائي عدن وقنا وتخترق شبه الجزيرة العربية كلها إلى الشمال. واشتهرت تلك الطرق التجارية بهذا الاسم بسبب السلع التي كانت تنتج في الجنوب العربي نفسه وتصدر بكميات كبيرة كالبخور وغيره من الأفاويه.

ويمكن الإطلاع على الأوضاع السياسية والثقافية للجنوب العربي القديم من النقوش الحجرية العديدة التي انتهت الينا. فهي الوثائق الكتابية الوحيدة المتبقية من عهود الحضارة الرفيعة القديمة والتي يعود أصلها إلى البلاد نفسها بحيث تكون بهذه الصفة أكبر قيمة وأعظم أهمية من جميع ما انتهى الينا من روايات المؤلفين اليونانيين والرومانيين والعرب المتأخرين. ورغم عدد هذه النقوش الكبير — إذ بلغ ما نعرفه منها عدة ألوف — غير أنها لا تعطى صورة خالية من الثغرات عن الدول القديمة في الجنوب العربي وأوجه حياتها الثقافية. وفيما يتعلق بأقدم العصور خاصة نعرف وثائق قليلة نسبياً، وهي في الغالب لا تحتوى على تفاصيل كثيرة. ولكنها تزداد عدداً في الأزمنة التالية وتصبح اكثر إفصاحاً وتقدم عدة تفصيلات في غاية الأهمية. ومع ذلك فاننا لا نتعرف دوماً إلا على مقاطع متفرقة لابد من جهد جهيد لإتمامها والربط فيما بينها؛ وكثيراً ما نكره على الاكتفاء والتوقف عند نقاط قلقة غير أكيدة.

وقامت في الجنوب العربي قبل الإسلام ممالك أربع : سبأ وقتبان ومعين وحضرموت. وكانت أقدم هذه الممالك وأطولها بقاء مملكة سبأ. وكان شكل الدولة في بادئ الأمر ثيوقراطياً، أي أن إله البلاد كان في الوقت نفسه ملكها؛ وكان نائبه الدنيوي يلقب بالمكرب. وفيما بعد، أي ابتداء من ٤٠٠ ق.م. فصاعداً، نجد في سبأ مملكة دنيوية؛ ومع ذلك فقد ظلت الصلة بالدين إلى عهود متأخرة وثيقة جداً. وكان على المملكة السبئية خلال عهد طويل أن تخوض معارك حامية وخاصة مع الدول الاخرى في الجنوب العربي، وكان الخطر يهدد وجودها اكثر من مرة. ولم تتحقق وحدة مجموع بقاع الجنوب العربي القديمة إلا حوالي ٣٠٠ ميلادية وذلك تحت سيادة ملك واحد هو شمّر يُهَرعِش الثالث. وفي عام ٥٢٥ ميلادي فقدت هذه المملكة استقلالها وخضعت أولا للسيادة الاثيوبية، وفيما بعد للسيادة الفارسية، إلى أن تم فتح هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية أيضاً تحت راية الإسلام في القرن السابع.

ومع أننا نستطيع أن نحدد نهاية استقلال الجنوب العربي زمنياً، إلا أن وجهات النظر تختلف اختلافاً كبيراً إلى حد ما فيما يتعلق بتحديد التسلسل التاريخي. ويعود هذا بالدرجة الأولى إلى طبيعة النقوش التي كانت — وخاصة في العهود

الأقدم — إما لا تحمل تواريخ إطلاقاً أو مؤرخة حسب أعوام حكم ملوك العصور البارزة دون أن تعرف تواريخها المطلقة على وجه التحديد.

لقد قدمنا للمقالة بهذه المعلومات القليلة لنعطى فكرة تقريبية عن البقاع والحضارة التى تتناولها دراسات الجنوب العربى بالبحث. وللنمسا نصيب حاسم فى استكشاف البلاد التى دعاها استاذ جامعة جوتنجن ميشائيلس فى القرن الثامن عشر بحق «إحدى أغرب البلاد»، كما لها نصيب قاطع فى حل رموز نقوشها التذكارية وبذلك كشف النقاب عن لغتها وتاريخها وحضارتها؛ لا بل يمكن أن نقول بأن الدراسات السبئية أنشئت هنا كعلم قائم بذاته.

وكان استكشاف الجنوب العربى دوماً ومازال مجازفة جريئة. إذ أن الظروف المناخية وطبيعة الأرض تفرض أقسى المطالب على المسافرين وذلك حتى اليوم رغم استخدام الطائرة والسيارة للتغلب على المسافات. ويضاف إلى ذلك تهيب السكان ورفضهم لكل دخيل أجنبى. كما أن الخلافات الدائمة بين القبائل المختلفة تجعل السفر فى غاية الخطورة وتحول دون المضى فى اتباع طريق معينة. وإن أهم المناطق التى يمكن أن تعطى أغلب وأطرف المعلومات عن الأوضاع القديمة هى بالذات الأصعب بلوغاً للمسافر. وإزاء كل ذلك يزداد إعجابنا بشجاعة وصمود وتضحية الرواد الأوائل فى استكشاف الجنوب العربى بوجه خاص. وأول نمسوى بين هؤلاء الرجال الذين لا يهابون المخاطر «زيجفريد لانجر» Siegfried Langer. ويعود منبته إلى تشيكوسلوفاكيا الحالية التى كانت آنذاك جزءاً من المملكة النمسوية — المجرية. ولد لانجر عام ١٨٥٧ فى ميرن Mähren ودرس فى ڤيينا من جملة ما درس اللغات الشرقية وعنى خاصة باللغة العربية. ومكنه وجود بعض العرب السوريين من التمرن على التحدث بالعربية أيضاً. ورغم أنه كان يعيش تحت ظروف خارجية صعبة إلا أنه تمسك باجتهاد ومثابرة شديدين بدراسته التى كانت آنذاك لا تبعث بكبير أمل فى النجاح المادى. وفى الثانى والعشرين من حزيران (يونيو) عام ١٨٨١ بدأ رحلته إلى الجنوب العربى. وكان قد حصل على إعانات مادية من عدة جهات بحيث كان حسن العدة من هذه الناحية. وبعد إقامة ستة شهور فى سوريا بدأت رحلته الحقيقية خلال شبه الجزيرة العربية. واضطر إلى التخلى عن خطته فى بلوغ الجنوب من خلال عسير بسبب ثورة كانت ناشبة فى تلك المنطقة. ومضى بالسفينة إلى الحديدة وانتقل من هناك عبر زران وصف إلى صنعاء، عاصمة اليمن، التى كانت تحت السيطرة التركية آنذاك. وإذ وصل هناك لم تسمح له السلطات التركية بمواصلة سفره داخل البلاد؛ بل أجبر على العودة إلى الحديدة. وهكذا واصل سفره إلى عدن؛ ومن هناك بعث إلى اوروبا بالرسوم التى أتمها حول رحلته حتى تلك المرحلة وبنسخ عن نقوش عربية جنوبية استطاع أن ينقلها هناك، بحيث أمكن بذلك إنقاذها والمحافظة عليها للباحثين فيما بعد. وعلى أثر ذلك بحين قصير لاقت رحلة لانجر الجريئة نهاية فظيعة مؤلمة. إذ بينما كان يحاول اختراق قلب حضرموت متنكراً بزى بدوى، قتله مرافقوه من أهل البلاد. وقيل انهم أطلقوا عليه الرصاص من سلاحه نفسه بينما كان يستحم فى أحد الأنهار.

بعد موت زيجفريد لانجر المفجع بحين قليل بدأ نمسوى آخر عمله الاستكشافى فى الجنوب العربى، ونعنى به إدوارد جلازر E. Glaser. وكان هو أيضاً من أهل تشيكوسلوفاكيا الحالية. وولد فى دويتش — رست Deutsch-Rust عام ١٨٥٥ وكان عليه أن يقضى اعوام دراسته، كلانجر، فى حرمان شديد وشظف من العيش. وبعد انهاء دراسته الثانوية التحق اولا بجامعة براغ، ثم انتسب فيما بعد إلى جامعة ڤيينا حيث حصل على وظيفة فى المرصد. وفى ڤيينا اهتم كذلك بكثير من الاجتهاد بدراسة اللغة العربية، إذ كان قد عزم منذ سنى المدرسة على أن يصبح رحالة استكشافياً، واختار فيما بعد شبه الجزيرة العربية خاصة هدفاً له. وكان استاذه فى العربية اول الأمر ڤارموند Wahrmund ثم تلاه داوود هاينرش مولر David Heinrich Müller. وأيقظ الأخير اهتمام جلازر بالجنوب العربى حيث نجح فيما بعد بأعماله الاستكشافية. ولإعداد خططه على أحسن وجه ممكن توجه إلى مصر وتونس. وعمل هناك معلما منزلياً ونال فى ذلك فرصة إتقان اللغة والعادات العربية تماماً. ومكنته هذه المعارف الدقيقة بالإضافة إلى شجاعته وبراعته الخارقة فى معاشرة الناس من بلوغ نجاحاته الفريدة فى رحلاته وهى نجاحات لم تفقها، لا بل لم تبلغها، أية رحلات استكشافية فى الجنوب العربى حتى يومنا هذا.

وتقع رحلات جلازر إلى الجنوب العربى فى الأعوام ما بين ١٨٨٢ و١٨٩٤. ومن رحلته الأولى التى مولتها ڤيينا وباريس احضر معه ما يقارب الـ ٢٨٠ نسخة من النقوش مع أربعة نقوش حجرية أصلية طالبت بها الاكاديمية فى باريس مقابل ما أسهمت به لتمويل الرحلة. وكان جلازر قد أصيب إصابة شديدة بالحمى بعد وصوله

الحديدة. وحين بلغ صنعاء كان عليه أن يظل هناك عاماً بطوله فى انتظار وصول جواز سفر من استانبول، لم يسمح له الحاكم التركى بدونه أن يواصل سفره. ومع مرور الوقت تمكن جلازر من كسب ثقة هذا الرجل بالذات الذى أصبح صديقاً وعوناً له فى مناسبات تالية. وقام جلازر من صنعاء بثلاث جولات استكشافية تفحص خلالها خرائب ونسخ ما شاهد فيها من نقوش. وعرض حياته اثناء ذلك عدة مرات للخطر ولكنه تمكن من النجاة فى كل مرة من دسائس مرافقيه.

وفى العام التالى بعد عودته، أى فى ١٨٨٥، بدأ رحلته الثانية إلى الجنوب العربى. ومول رحلته هذه كلها تقريباً من حسابه الخاص. وهنا أيضا توجه فى بادئ الأمر إلى صنعاء وراح ينقب باحثاً ومستكشفا المنطقة الممتدة بين صنعاء وعدن. واستطاع هذه المرة أن يجمع عدداً كبيراً جداً من النقوش الحجرية، انتقل جزء منها إلى المتحف البريطانى فى لندن وجزء إلى برلين حيث باع كذلك ٢٥٠ مخطوطاً عربياً. ومن الأرباح التى درتها عليه هذه المواد العلمية تمكن جلازر إلى اكبر حد من تمويل رحلته الثالثة والناجحة نجاحاً خاصاً.

وفى هذه المرة، فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٨٧، مضى من عدن فى رحلة دامت ٤٤ يوماً إلى صنعاء قام فيها بدراسة ورسم ونسخ كل ما بدا له هاماً وشيقاً اثناء الطريق. ولكن هدفه الحقيقى كان العاصمة السبئية القديمة مأرب، التى تقوم على انقاضها اليوم قرية صغيرة غير هامة، يصعب الوصول إليها كثيراً مع ذلك. ولم يتمكن من قبله إلا الفرنسيان آرنو Arnaud وآليفى Halévy من التغلغل إليها. واستطاع جلازر، متنكراً فى زى فقيه عربى وبصحبة أصدقاء له من أهل البلاد، أن يبلغ مأرب وأن يجمع هناك خلال ستة أسابيع مواد نفيسة كثيرة. ونسخ عدداً كبيراً من النقوش، منها ما هو مهم جداً، وزار السور البيضوى الكبير بالقرب من مأرب، وهو ما يدعى اليوم بمحرم بلقيس، والذى كان فى الماضى أهم معبد لإله القمر والمملكة السبئية، وزار كذلك بقايا السد الهائل الذى كان يتمتع فى الماضى بشهرة عالمية مع ما يتصل به من قنوات للرى أحالت فى الماضى السهل الممتد على جانبى وادى ذنه إلى أرض خصبة معطاء. ويعتبر وصف ومقاييس هذه المنشئات وكذلك بقية نتائج أبحاث جلازر فى مأرب ذات أهمية لا حد لها حتى اليوم، رغم أعمال الحملة الاستكشافية الضخمة التى قامت بها المؤسسة الامريكية لدراسة الإنسان عام ١٩٥٢. وكان بوسع جلازر فى رحلته الثالثة هذه بالذات أن يقوم بأبحاث وانجازات أعظم للحقل العلمى لو أنه لم يضطر إلى انهائها قبل الأوان بسبب افتقاره إلى المال؛ ومما لا يفهم حتى اليوم، رغم أنها حقيقة مرة، أن بلاده رفضت أن تقدم له أى عون مالى. أما قصة رحلته إلى مأرب فقد قام مولر ورودوكاناكيس N. Rhodokanakis بنشرها حسب مذكراته عام ١٩١٣ («مجموعة ادوارد جلازر ١ : رحلة ادوارد جلازر إلى مأرب»).

وفيما بين عام ١٨٩٢ و١٨٩٤ قام جلازر برحلته الرابعة والأخيرة إلى الجنوب العربى. ومضى هذه المرة أيضاً من عدن إلى صنعاء، ولكنه اتجه فى طريقه اكثر غرباً عابراً تعز. وكان وضعه فى صنعاء كالمعتقل عملياً، إذ انه لم يستطع مغادرة المدينة بسبب الثورات فى جميع أرجاء البلاد. وعند ذلك وجد لنفسه مخرجاً، وهو أنه علم بعض البدو فن طبع الألواح المنقوشة على نوع معين من الورق بطرقها عليه بحيث تنشأ صورة مطابقة تماماً للأصل. وهكذا انتشر البدو الذين دربهم على ذلك فى ضواحى المدينة القريبة والنائية بحثاً عن النقوش واحضروا من اماكن لم يصلها رحالة بعد مواد كثيرة غنية. وبذلك عرفت لأول مرة النقوش القتبانية بوجه خاص. واشترى متحف تاريخ الفن فى ڤيينا ما جمعه جلازر فى هذه الرحلة من نقوش حجرية وغير ذلك من النفائس الأثرية.

مات جلازر عام ١٩٠٨ فى ميونخ. ولا يمكن تقدير إنجازاته وخدماته فى سبيل العلم كما لم يتفوق عليه فى ذلك الحقل أحد بعد. وبفضل ما جمعه من كميات هائلة من النقوش والقطع الأثرية ومعلوماته الطوبوغرافية الدقيقة ووصفه المسهب التفصيلى للخرائب الأثرية أمكن لأول مرة إنشاء الدراسات السبئية كعلم قائم بذاته. ولم ينته العمل على ما جمعه حتى اليوم بعد، بل هناك كنوز من الآثار مازالت تنتظر البحث والدراسة والنشر. أما ما خلفه جلازر من تركة علمية واسعة فقد اشترته اكاديمية العلوم فى ڤيينا.

وكانت «بعثة الجنوب العربى الاستكشافية» التى اوفدتها اكاديمية العلوم فى ڤيينا العمل العلمى التالى الذى قامت به النمسا فى الجنوب العربى. وكان أعضاء البعثة د. هـ. مولر وأ. سيمونى O. Simony وف. كوسمات F. Kossmat وأ. يان A. Jahn وطبيب، بالاضافة إلى الكونت السويدى لاندبرغ Landberg، الذى سرعان ما انفصل عن الآخرين، وسكرتيره ج. ف. بورى G. W. Bury ومع أن البعثة لم تستطع أن تبلغ هدفها الاصلى، وهو



نيكولاوس رودوكاناكيس

استكشاف حضرموت، لامتناع السلطات عن إعطائهم ترخيصاً بالدخول، إلا أنها اتجهت نحو جزيرة سوقطره وفيما بعد انتقلت إلى المكلا، على الساحل الشرقى من حضرموت. واعطى هذا التغيير غير المقصود فى هدف الرحلة نتائج هامة: فبالإضافة إلى ملاحظات علمية طبيعية وجغرافية سجل ما يدعى بلغات مهرا (المهرية والشحرية والسوقطرية) وهو عمل بالغ الأهمية نظرا لبدء زوال هذه اللغات المنتشرة فى ساحل مهرا وفى الجزر المحيطة. وقام ج. ف. بورى بجمع النقوش العربية الجنوبية تحت رمز SE وهما الحرفان الاولان لعبارة «بعثة الجنوب العربى» باللغة الألمانية. وقد نشرت جميعها.

وقام ڤيلهلم هاين Wilhelm Hein كذلك برحلة عام ١٩٠١ جاب فيها كذلك المناطق الشرقية من حضرموت ومكث بضعة شهور فى فشن، أهم قرية فى بلاد مهرا، وجمع مراجع لغوية (المهرية والحضرمية) ومعلومات احصائية واسعة عن سكان قشن واقنع عند عودته رجلا من حضرموت وآخرين من سوقطرة أن يصطحباه إلى ڤيينا، حيث قدما أجل الخدمات كمراجع لغوية وسيطة.

وبعد فترة طويلة تلت ذلك رحلات هـ. فون ڤيسمان H. v. Wissmann إلى الجنوب العربى. ومع أن فون ڤيسمان ليس نمساوياً بالولادة إلا أنه قضى حياته منذ الطفولة فى النمسا، كما أن صلته وثيقة بڤيينا بفضل بداية عمله الاكاديمى كعالم جغرافى. وأدى به عمله الجامعى فيما بعد إلى الانتقال إلى الصين ومن ثم إلى توبنجن بألمانيا، حيث يعيش حتى اليوم كاستاذ متقاعد. وتمت رحلته الأولى بين عامى ١٩٢٧ و١٩٢٨ وذلك بصحبة ك. راتينز C. Rathjens، واتجها فيها من الحديدة إلى صنعاء، ومن هنا سعى كل منهما إلى استكشاف جهة مختلفة من المنطقة المجاورة. ومع أن الاهتمام الجغرافى احتل مكان الصدارة، إلا أن علمى الآثار والنقوش الحجرية فازا بمعارف ومكاسب غنية بفضل أبحاث العالمين المتعددة الجوانب، كما يحق لهما أن يشتهرا بالقيام بأول حفريات أثرية فى الجنوب العربى كان من نتائجها كشف النقاب فى حقه عن معبد الإله تألب.

وقام فون ڤيسمان بالرحلات الثلاث الباقية فى الاعوام ١٩٣١ و١٩٣٩ و١٩٥٨ جاعلاً حضرموت هدف أبحاثه. واخترق فى ذلك مناطق لم تستكشف بعد كما جاء كذلك بنتائج غنية متعددة الوجوه كما فى الرحلة الأولى. وكان بصحبة فون ڤيسمان فى هذه الرحلات بالاضافة الى الهولندى د. فان در مويلن D. van der Meulen زوجه الدكتورة بيتينا فون ڤيسمان وهى سيدة من ڤيينا، والدكتور فون ڤاسيلڤسكى v. Wasielewski وا. لايدلماير A. Leidlmair، وهو نمسوى أيضاً.

إن العالم الاثنولوجى ڤ. دوستال W. Dostal هو فى



إدوارد جلازر

الوقت الحاضر آخر نمسوى زار الجنوب العربى، وعلى وجه التحديد حضرموت. وقام بدراسات تتعلق بتاريخ القبائل وبحوث اثنوغرافية عامة لدى كثير من القبائل القاطنة هناك وعنى فى ذلك عناية خاصة بقضايا مراحل البداوة الأولى المبكرة.

وكما يتضح مما أوردناه حتى الآن فقد اسهمت النمسا بنصيب كبير فى بحث ودراسة مناطق حضارة الجنوب العربى. ولا يقل عن ذلك ضخامة، إن لم نقل اكثر أهمية وأبعد أثراً، ما قدمه العلماء النمسويون من خدمات وأعمال فى تقييم النقوش والمواد التى جمعها الرحالون المستكشفون تقييماً علمياً دقيقاً. ومن الرحالين انفسهم من عمل فى هذا الحقل كأعمال جلازر مثلا؛ وقد يكون الكثير مما توصل إليه من نتائج باطلا اليوم، أو مشحوناً بالخيال البعيد عن الحقيقة، إلا أنه أصاب فى بعض ما توصل إليه بنظرة عبقرية. ولن نقسو بالحكم على جلازر بسبب «شطحاته» وحواشيه التى غالباً ما تبدو على جانب من الغرابة ولا تمت للموضوع بصلة، إذا ما اعتبرنا كثرة تجارب خيبة الأمل المريرة التى مر بها هذا الرجل المثالى الذى كرس كل جهوده وقواه فى خدمة الواجب المقدس الضخم الذى اختاره لنفسه.

ومن رواد الدراسات السبئية د. هـ. موللر. إذ استطاع بعمله على حل ونشر عدد كبير من نقوش الجنوب العربى القديمة وكذلك بأعماله الخاصة بلغات بلاد المهرا أن يبلغ شهرة علمية رفيعة. وفيما يتعلق بالحقل الأخير نذكر كذلك منشورات ا. يان وف. هاين، وخاصة ما قدمه ماكسيميليان بيتنر Maximilian Bittner من دراسات نحوية ومعجمية خاصة بالمهرية والشخرية والسوقطرية وكانت مجموعات النصوص التى نشرها العلماء المذكورون القاعدة التى استندت عليها هذه الدراسات. وخلق بيتنر بذلك اساساً لابد لكل عمل قادم فى هذا الحقل أن يقوم عليه. كما أن دراساته ذات أهمية كبيرة للعلوم السبئية كمواد مقارنـــة.

أما أهم تلامذة موللر واكبر مساعد له فيما بعد فهو نيكولاوس رودوكاناكيس Nikolaus Rhodokanakis الذى يمكن أن يعتبر بحق كامل المؤسس الحقيقى للدراسات السبئية كعلم مستقل يجب أن يؤخذ بمأخذ الجد. ولد رودوكاناكيس فى الاسكندرية عام ١٨٧٦ وهو من أصل يونانى — وكان أجداده يعيشون فى جزيرة خيو، واضطروا إلى مغادرتها فراراً من الأتراك — ومنذ نعومة أظفاره ترعرع رودوكاناكيس فى النمسا وامضى بقية حياته فيها وشعر بانتمائه الكامل لهذه البلاد. ودرس فى بادئ الأمر الحقوق غير أنه سرعان ما انكب على دراسة الاستشراق فى جامعة ڤيينا ثم أصبح استاذاً نظامياً عاماً لمدة طويلة فى غراتز حيث توفى فى نهاية عام ١٩٤٥. وبعد بضعة

أبحاث لغوية عربية كرس نفسه بولاء كامل ومثابرة حديدية للدراسات السبئية. وكان يتمتع بموهبة خارقة لذلك. وتمتاز أعماله بنظرة عبقرية تدرك الشيء الجوهري وبطريقة علمية صارمة. ومن مجموعات نقوش، جلازر الوفيرة اختار أصعبها وقام بنشرها ضارباً مثلاً أعلى بأسلوبه العلمي الدقيق. وإذا استدعت إكتشافات جديدة في النقوش وغيرها من الآثار اليوم تصويباً في بعض وجهات النظر آنذاك، وخاصة فيما يتعلق بعدد من التفاصيل التاريخية التي لم تعد صحيحة — فإن ذلك لا يقلل شيئاً من خدمات رودوكاناكيس العلمية الجليلة. وقد قام في ميدان الدراسات المعجمية والنحوية كذلك بانجازات طليعية ناجحة كما فعل كذلك في ميدان دراسة واقع الجنوب العربي. وفي تفسير النصوص المتعلقة بالحقوق العقارية باصطلاحاتها الموجزة الغامضة استعان بدراسته الحقوقية السابقة ومعرفته الجيدة للأوضاع في مصر أثناء عهد البطالسة. وبترجمة وتفسير هذه النقوش العسيرة الفهم تمكن رودوكاناكيس من رسم صورة حية للاقتصاد العقاري والزراعي وما يتعلق به بأوثق الصلات من ظروف وأوضاع اجتماعية وسياسية عامة كانت سائدة في الجنوب العربي القديم، وهي صورة ما زالت يحتفظ بصحتها حتى يومنا هذا.

وكانسان يتمتع بطيبة قلب كبيرة وبمزاج رقيق شديد الحساسية، إلا أن رودوكاناكيس لم يكن ليترك في العلم مجالاً للمهاودة. فهنا كان تجاه نفسه وتجاه زملائه وتلاميذه أشد ما يكون حزماً وصرامة. وكان قبل أن يقدم مخطوطاً للطبع، يعيد كتابة بعض الصفحات مرتين وثلاثاً، لأنها لم تكن لتجتاز امتحانه العسير في اليوم التالي، رغم أنها لم تكن تكتب إلا بعد تمحيص وتدقيق طويلين. وليس من السهل قراءة أعمال رودوكوناكيس، إذ أن اصطلاحاته واسلوبه التعبيري تكاد تذكر في كثير من الحالات بنقوش الجنوب العربي. ولكن أعماله محكمة دقيقة كهذه أيضاً، وإذا بذل المرء جهده لدراستها باهتمام وانتباه حقيقيين، لأفاد من ذلك كثيراً.

وممن أغنى الأبحاث السبئية بعدة دراسات كبيرة وعدد كبير من المقالات في المراجع العلمية أيضاً أدولف غرومان Adolf Grohmann فدراسته حول رموز الآلهية والحيوانات الرمزية مازالت اساساً لبحث ديانة الجنوب العربي القديمة. ومنذ حين قريب نشر العالم الذي بلغ الثمانين من عمره في كتابه «شبه الجزيرة العربية» (المختصر في علم التاريخ القديم ٣ / ٣) معلوماته الوفيرة عن تاريخ وحضارة شبه الجزيرة العربية، بحيث أصبح في متناول يدنا مرجع مهم، كذلك بالنسبة لدراسات الجنوب العربي.

وقام أحد تلاميذ رودوكاناكيس وهو كارل ملاكر Karl Mlaker بنشر بحث أساسي حول ما يدعى بقوائم الرهائن الإلهية في معين توصل فيه الى نتائج هامة في ميدان علم التأريخ، ما زال جزء منها هاماً حتى اليوم رغم جميع التطورات في هذا القطاع بالذات من الابحاث السبئية. وهو مقنع فيما يقدمه من تفصيلات حول طبيعة ومكانة «الرهائن الآلهية» في الجنوب العربي، وهم، كما يفسرهم، أشخاص رهنوا لسداد نذور قطعت لإله أو لمعبد. ومما يؤسف له أن العمل المهني كان يستنزف كثيراً من وقت وجهد ملاكر بحيث لم يتمكن من وضع معلوماته التاريخية واللغوية الغنية في خدمة العلم كما كان يرغب. ثم انتزعه الموت قبل أوانه بكثير.

وكان من حسن حظي أيضاً، أن تتلمذت على رودوكاناكيس. وحتى اطروحتي التي تقدمت بها للدكتوراه اختصت بالنقوش الحجرية، ومازال هذا العلم حتى اليوم الميدان الرئيسي الذي أبحث وأعمل فيه. وبعد نشر ما لم ينشر بعد من نقوش بعثة الجنوب العربي المذكورة سابقاً، والعمل على نقوش حجرية اخرى، قمت بتأليف كتاب في قواعد العربية الجنوبية القديمة التي اعتبرتها لا غنى عنها للبحوث السبئية وكذلك للغات السامية المقارنة. وبعد الانتهاء من طبع الكتاب احترقت جميع نسخه تقريباً عام ١٩٤٣ اثناء غارة جوية على لايبزغ، ولكنه اعيد طبعه فيما بعد استناداً إلى احدى النسخ القليلة التي امكن انقاذها. وكجزء تكميلي للكتاب كان قد قرر منذ البداية وضع منتخبات للمطالعة مع مفردات مشروحة وكان على ملاكر أن يقوم بتأليفها. ولكنه لم يتمكن من تحقيق ذلك؛ فقررت أن يكون هذا العمل مع ملحق وتصحيح جزئي للقواعد على أساس النصوص الجديدة المكتشفة حديثاً جزءاً من برنامجي القادم.

وبدأت في العمل على القواعد في جراتز وبعد الحصول على إجازة التدريس الجامعي انهيته في ڤيينا. ودرست العربية الجنوبية القديمة والاثيوبية في جامعة ڤيينا لبضعة أعوام. وكنت اقطع التدريس عدة مرات أثناء هذه المدة واتجه إلى توبنجن لدراسة أهم لغات اثيوبيا السامية على يدي الاستاذ إينو ليتمان. وبما أنه لم تكن للمدرس الجامعي في النمسا أي امكانيات معيشية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، فقد بقيت في توبنجن، كضيفة في بادئ الأمر، ثم طلبت نقل الاذن بالتدريس إلى هنا ورحت أحاضر



حجر محفور عليه كتابة، من اليمن، مدون عليه اسم شخص ...

فى حقلى الاختصاصى فى إطار قسم الدراسات الشرقية فى الجامعة، إلى أن استدعيت عام ١٩٦٤ إلى جراتز لاحتلال مقعد الدراسات الشرقية الذى خلا هناك.

وفى توبنجن بدأت بتكليف من أكاديمية العلوم النمسوية بنشر ما لم ينشر بعد من مخلفات جلازر العلمية، وهو عمل مازال مستمراً وسيستغرق بعض الوقت أيضاً. وفوق ذلك فقد اوليت اهتماماً شديداً بأديان ما قبل الاسلام فى شبه الجزيرة العربية، حيث تركز اهتمامى بالدرجة الأولى على الجنوب العربى. وبين الالاف العديدة من النقوش العربية الجنوبية لا يوجد نص واحد يعالج اموراً دينية بالذات، كأن يحتوى مثلا على اساطير أو مراسم دينية أو تراتيل. ويبدو هذا اكثر غرابة عندما تكشف النصوص من الجهة الاخرى بوضوح عن مدى الاهمية المركزية التى كان يتمتع بها الدين فى الحياة العامة والخاصة. ومما تقدمه النقوش من مادة لدراسة الدين القديم إلى جانب بضع نقاط انطلاق قليلة نسبياً، أسماء الآلهة بالدرجة الأولى. وفى هذا العدد الغفير من الأسماء كانت المهمة الرئيسية التى تتطلب الحل: فرض نظام معين لهذه الأسماء، وادراك كل من الصور الإلهية الكبيرة على اختلاف اشكال ظهورها، والتى يحمل كل منها اسماً خاصاً، وأخيراً محاولة معرفة شىء عن طبيعة ووظيفة المسمى من الاسم نفسه. ومن البديهى طبعاً أن مثل هذه الطريقة غير المباشرة تفرض على المرء العمل بكثير من الحذر والنقد الصارم إذا ما أراد أن يتجنب ضلال السبيل والتيه فى بيداء الوهم الكاذب. ومن السهل أن ندرك أيضاً أن النتائج التى سنتوصل إليها فى ذلك غالباً ما تكون أقل من العمل المبذول. ولكن المهمة فى حد ذاتها على جانب كبير من السحر وهى تستحق كل جهد، وانى لأرجو أن أتقدم خطوة اخرى إلى الأمام فى طريق البحث فى دين الجنوب العربى القديم. وقد وجدت عوناً قيماً لهذا العمل بالذات فى نتائج ابحاث ڤيسمان التاريخية الجغرافية. فهى تعطى اولاً عرضاً لأماكن عدد كبير من المعابد، وبذلك تمكن من تحديد انتشار الآلهة المختلفة، كما أنها تعطى فكرة، وذلك بوجه عام على الأقل، عن التطور التاريخى للدين.

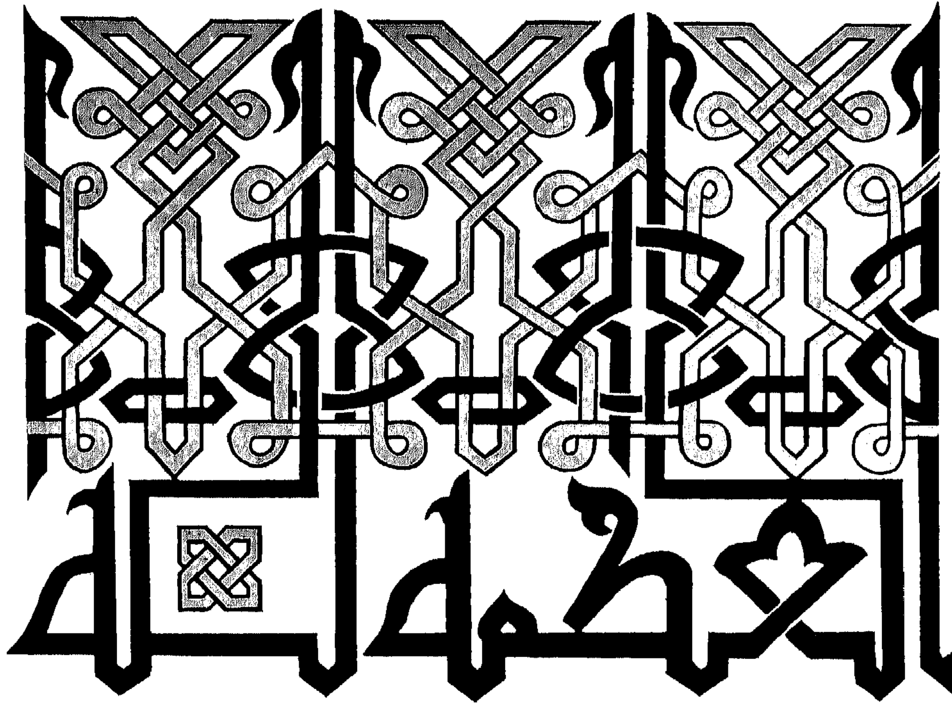
وإلى جانب الاهتمام الذى امتد عبر عدة اعوام بدراسة قضايا الدين العربى الجنوبى القديم، فإن القطاع اللغوى من الدراسات السبئية ظلت وما تزال شغلى الشاغل. إذ على هذا الاساس وحده يمكن القيام بعمل مثمر فى حقول البحث الأخرى. وهذا هو مبدئى كذلك بالنسبة للتدريس الجامعى؛ وإنى لأرجو بذلك أن أواصل التراث النمسوى الطيب الثابت فى الأبحاث السبئية وأن أسلمه كذلك إلى أيدى الجيل الصاعد.

فى أثناء اقامتى التى دامت عدة اعوام فى توبنجن،

اتيحت لى الفرصة عدة مرات للعمل فى تعاون مثمر مع فون ڤيسمان، كان من نتائجه أيضاً اشتراكنا فى تأليف ونشر كتاب : «أبحاث حول الجغرافية التاريخية للجنوب العربى قبل الإسلام». وإلى جانب ذلك قام فون ڤيسمان برسم خريطة الحقها بتصديرى لمجموعة من النقوش من مخلفات جلازر («مجموعة ادوارد جلازر– ٢»). ومن عمل كان مقرراً فى الأصل كتعليق على هذه الخريطة فقط نشأ أخيراً أهم كتاب فى الأبحاث السبئية لفون ڤيسمان وهو : «مجموعة ادوارد جلازر–٣ : حول تاريخ وجغرافية الجنوب العربى القديم». وفى هذا الكتاب المفصل الشامل لا يظهر فون ڤيسمان كجغرافى ومؤرخ متبحر فى العلم غنى فى الأفكار فحسب، بل إنه خاض بطريقة تثير الدهشة مسائل الدراسات السبئية نفسها على اختلاف انواعها. وإلى جانب هذا الكتاب الذى أصبح مرجعاً وعوناً لا غنى عنهما، والذى يعتبر تطويراً حاسما للبحوث السبئية، فقد كرس فون ڤيسمان نفسه كذلك لعدد من البحوث الهامة الاخرى فى هذا العلم، وإننا لنرجو أن يزيد الدراسات السبئية غنىً بأعمال كثيرة أخرى.

من هذا العرض يتضح بما لا يقبل الشك أن الزعم الذى تقدمنا به فى بداية المقال حين قلنا بأن النمسا أسهمت فى استكشاف ودراسة الجنوب العربى من كل ناحية بنصيب حاسم، إنما هو قول بررناه وأثبتنا صحته كاملا وبالتمام. وفى ذلك لا يجوز أن ننسى خدمات وأعمال العلماء الآخرين ولا أن نقلل من شأنها. أما السبب فى عدم ذكر اسمائهم وتقدير أعمالهم هنا فليس اكثر من أن موضوع هذا المقال اقتصر على الأبحاث النمسوية للجنوب العربى دون غيرهـا.

ترجمة : محمد على حشيشو



«العظمة لله» – عن مدرسة قراطاى بقونيا ، تركيا .

ڤيلهلم آلـوَرد

(١٨٢٨ - ١٩٠٩)

بقلم : الأستاذ مانفريد أولمان

كان حقل دراسة اللغة العربية وآدابها لا يزال يفتقر فى منتصف القرن الماضى إلى جميع الوسائل المساعدة تقريباً وإلى النصوص المطبوعة والمراجع العلمية. ولذا فقد كان لا بد لهذا الحقل أن يتخذ لنفسه فى بادئ الأمر مهمة تأمين الأسس الوضعية اللازمة للبحث اللغوى. وكان بين الذين كرسوا اهتمامهم الكامل لهذا الهدف وساعدوا على تحقيقه بأعمالهم الممتازة المستشرق ڤيلهلم آلڤارت Wilhelm Ahlwardt من غرايفسفالد Greifswald.

أما مدينة غرايفسفالد التى لا تبعد عن جزيرة روغن Rügen على الساحل الألمانى من بحر البلطيق فمعروفة كمسقط رأس كاسبار داڤيد فريدريش C. D. Friedrich[1] رسام الرومانطيقية الألمانية الكبير. والمدينة صغيرة إلا أن جامعتها عريقة فى القدم. فقد اسسها الدوق ڤراتيسلاف فون بومرن - ڤولغاست Herzog Wratislaw von Pommern-Wolgast عام ١٤٥٦. وعمل فيها كأستاذ للتاريخ إرنست موريتز آرندت[2] Ernst Moritz Arndt، الشاعر الوطنى لحروب التحرر. وقد ارتبطت اسرة آلڤارت كذلك بجامعة غرايفسفالد منذ عدة أجيال. فقد برز بيتر آلڤارت Peter Ahlwardt المتوفى عام ١٧٩١ كفيلسوف ولاهوتى، بينما قام ابنه كريستيان ڤيلهلم آلڤارت Christian Wilhelm Ahlwardt المتوفى عام ١٨٣٠ واستاذ الأدب الأغريقى بترجمة أعمال كاالليماخوس[3] Kallimachos وپندار[4] Pindar. وقبل وفاته بعامين، فى الرابع من يوليو (تموز) عام ١٨٢٨، رزق بابن سماه تيودور ڤيلهلم، سنسرد سيرة حياته بايجاز.

درس ڤيلهلم آلڤارت اللغات الشرقية فى مدينته من ١٨٤٦ حتى ١٨٥٠ على يوهان غوتفريد كوزغارتن[5] Johann Gottfried Kosegarten، ناشر ديوان بنى هذيل. وبعد أن درس من ١٨٤٨ حتى ١٨٤٩ فى غوتنغن على هاينرش ايڤالد[6] Heinrich Ewald نال عام ١٨٥١ فى غرايفسفالد درجة الدكتوراة فى الفلسفة. وعندما انكب بين ١٨٥٤ و١٨٥٦ على دراسة عدد كبير من المخطوطات العربية ونسخها فى مكتبات غوتا وباريس وطد معرفته الفذة بالأدب العربى. وإذ عاد من باريس تسلم فى مكتبة جامعة غرايفسفالد منصب أمين مكتبة وظل يمارس هذا العمل حتى عام ١٨٦٥. وقد مكنته وظيفته هذه من متابعة أبحاثه ودراساته فى حقل اللغة العربية وآدابها دون الحاجة إلى الاهتمام بشئون المعيشة اليومية. وبعد أن حصل عام ١٨٥٧ على درجة الكفاءة للتدريس الجامعى فى اللغات الشرقية استدعى عام ١٨٦١ كاستاذ نظامى خلفاً لكوزغارتن. وظل فى غرايفسفالد إلى أن وافته المنية فى الثانى من نوفمبر (تشرين الثانى) عام ١٩٠٩.

ونادراً ما كان لدى آلڤارت طلاب مستمعون بحكم وضع الجامعة الصغيرة فى غرايفسفالد التى لم يزد عدد طلابها المسجلين فى منتصف القرن الماضى عن ٢٢٥ طالباً. ولم يكن بدوره ليسعى طامحاً إلى العمل فى التعليم الأكاديمى. وقيل إنه لم يكن يشجع الطلاب الذين كانوا يسجلون أنفسهم للدراسة لديه. فقد كان يود أن يحتفظ بكل وقته، دون أى عائق، للأدب العربى وخاصة للشعراء العرب. وفى عام ١٨٦١ وضع مشروعه الكبير فى تأليف تأريخ للأدب العربى. ويقول فى ذلك: «إن الهدف الأسمى الذى كان محط أنظارى هو وضع تأريخ ذاتى للشعر العربى يقوم الشعر من وجهتى النظر الشعرية والتاريخية الحضارية. وفيه يجب أن تبرز الصورة الكلية للشخصية بسنائها وحيويتها، وبما تمارسه من تأثير، وما سبق

أن تلقته من قوى دافعة. ويجب أن يكشف أمام القارئ عن مجرى تطور فروع الأدب وسط الحركات السياسية والتقدم أو التخلف الاجتماعي، كتعبير عن الأفكار المحركة للزمن.» غير أن آلفارت لم يستطع بطبيعة الحال تحقيق هذا الهدف. فقد كان لا يزال يفتقر إلى جميع الشروط اللازمة آنذاك، وحتى اليوم يبدو أن الزمن لم يحن بعد لوضع مثل هذا التأريخ الأدبي. ولم يستطع آلفارت اكثر من جمع أحجار بنائية تؤدي إلى هذا الهدف الأسمى. إلا أنه ركز جهوده على نقاط أساسية، فأبدع مؤلفات اعطت حقل اللغة العربية وآدابها دوافع حاسمة.

وفى بادئ الأمر ظهر كتاب فى نظرية الأدب بعنوان: «حول الشعر وفن القريض عند العرب»، غوتا ١٨٥٦، وهو مؤلف تذكارى قدمه لجامعة غرايفسفالد بمناسبة الاحتفال بمهرجانها اليوبيلي لمرور اربعمائة عام على تأسيسها. وأراد به أن يشرح مبادئ الشعر العربى لفئات واسعة من المثقفين. وكتبه بلغة تفيض حماساً وعاطفة جياشة. وسعى فيه إلى إظهار المكانة الرفيعة التى يحتلها الشعر العربى فى انظار العرب أنفسهم، وإلى عرض المبادئ والمقاييس التى يعتمد عليها العرب فى تحديد قيمة قصائدهم الشعرية. وبحث كل المسائل التى تتعلق بموقف الشاعر من الطبيعة والبشر والله، كما أراد أن يفسر السبب الذى جعل هذا الشعب الشاعرى يحجم عن تطوير الشعر الملحمى أو الدرامى. ويكمن السبب، كما يعتقد آلفارت، فى الذاتية الفردية عند العرب، وفى «عجزهم عن التخلى عن الروح الفردية بحيث يتمكنون من فهم الأوضاع والأشخاص موضوعياً ووصف ذلك بصورة موضوعية أيضاً.» ولم ينشأ الشعر الملحمى لأن القبائل كانت متفرقة منقسمة على بعضها، بحيث لم يتوفر لديها ماض قومى موحد. ولم ينشأ الشعر الدرامى لأن العرب لا يفقه الماضى إلا كمجموعة من الحوادث المنفردة، ولا يفهمها فيما تحدثه من تأثيرات متبادلة، ولأنه لا يستطيع إبداع شخصيات منتزعة من الحياة وعرضها فى أداء تمثيلى. إن الذاتية الفردية تعيق الممثل المسرحى عن فن تقمص طابع الشخصية التى يمثلها. ومقابل ذلك فان الشعر الوجدانى الذى تجد فيه الحياة النفسية الباطنية للفرد اكتفاءها الكامل قد قطع مراحل واسعة من التطور.

وفى عام ١٨٧٠ نشر آلفارت دواوين شعراء الجاهلية: النابغة الذبيانى وعنترة وطرفه وزهير وعلقمة وامرئ القيس حسب مراجعة ابى الحجاج الأعلم الشنتمرى. ومع أن هذه الطبعة أصبحت اليوم بحاجة إلى المراجعة والتنقيح، كما أن طبعات جديدة حلت محلها، إلا أنها ظلت حتى اليوم، وبعد مرور مائة عام على صدورها، الطبعة النموذجية التى مازال المستشرقون الأوروبيون يستخدمونها ويعتمدون عليها. وفى مقدمة طبعته طرح آلفارت مسألة صحة هذه القصائد ومدى أصالتها. وكرر هذه المسألة فى كتابه الذى صدر عام ١٨٧٢ «ملاحظات حول صحة الشعر العربى القديم». ويسجل آلفارت هنا التباين فى تسلسل الأبيات والاختلاف فى أطوال القصائد ونسبة أبيات متشابهة تماماً لعدة شعراء مختلفين والافتقار إلى أى ذكر للآلهة القديمة والطقوس الدينية الوثنية. وبنظر ثاقب راح يناقش جميع الاحتمالات التى يمكن أن تكون قد سببت هذا التشويه فى التناقل والرواية. فقد تكون هذه القصائد، خلال فترة القرن ونصف القرن التى مرت منذ نظمها وتدوينها، قد مرت بتحوير شديد إما بسبب أخطاء فى ذاكرة الرواة أو لتزوير متعمد من طرفهم. وفى تشككه الخاص فى روايات حماد الراوية وخلف الأحمر فان آلفارت يحكم بكثير من الشك والريبة على مدى صحة الشعر الجاهلى وسلامته ككل. ويقول فى ذلك: «فى التاريخ القديم، لا بل واكثر من ذلك فى تاريخ الأدب يلعب الجنون وسرعة التصديق وحب التلفيق والسذاجة دوراً يثير القلق، كما أن الشخصيات الاسطورية الفاتنة بسحرها تتراقص حولنا وتطاردنا خطوة خطوة.» وفى القسم الثانى من كتابه يجمع آلفارت ما بين النداء الحار للاهتمام بدراسة الشعر العربى القديم والتحذير من الاستخفاف بما ينطوى عليه ذلك من مشقة وصعوبات. وقد تلاشى نداؤه: فحتى اليوم، وبعد مائة عام، يجب أن نتمنى مع آلفارت «أن تنتشل دراسة الشعر من الاهمال الذى تعانى منه فترة طويلة وعلى أيدى الغالبية.» وكان تحذيره موجهاً إلى طبعة ديوان النابغة الذبيانى التى أصدرها هارتفيغ ديرنبورغ (٧) Hartwig Derenbourg وطبعة ديوان علقمة لألبرت سوسين (٨) Albert Socin، وقد وصف هذين العملين دون وجل بالفجاجة وعدم النضوج.

وإلى جانب هذه المؤلفات النظرية والنقدية قام آلفارت بنشر نصوص من الشعر العربى: كالخمريات من ديوان ابى النواس (١٨٦١) والأصمعيات (١٩٠٢) وهى المجموعة الشعرية التى وضعها الأصمعى للأمير الأمين لتعريفه قليلا بأمجاد الماضى العربى.

وفى سن الشيخوخة عالج آلفارت أصعب مادة وأجفها فى الشعر العربى: فقد نشر ديوانى شاعرى الرجز، العجاج والزفيان (١٩٠٣) ثم ديوان رؤبة بن العجاج (١٩٠٤).

ولم تكن هنالك أية أعمال سابقة فى هذا الموضوع سوى المجموعة الصغيرة التى أصدرها محمد توفيق البكرى فى القاهرة عام ١٣١٣ هجرى بعنوان «كتاب أراجيز العرب» وسوى قصيدة للعجاج طبعها ماكسيميليان بتنر(٩) Maximilian Bittner فى ڤيينا عام ١٨٩٦. ورغم اعتماده على نسخة حديثة فقط فى كل مرة فقد أصدر آلفارت نصاً يستحق الثقة والتقدير، ولم يستطيع اصدار ملحقات له إلا النمسوى رودلف غاير(١٠) Rudolf Geyer. وحتى اليوم لم يستطع الرجاز أن يجدوا ناشرين جديدين لهم: وهذا دليل على الانجاز الخارق الذى حققه آلفارت فى هذا المجال. غير أن آلفارت لم يكتف بنشر النص العربى فقد كان قال فى عام ١٨٧٢: «إن الشعر نبات وطنى مرتبط بالبلاد التى نشأ فيها ويقتصر فى نموه على التربة التى انبتته بخصب وازدهار بحيث يبدو تقويمه وتقديره فى أية تربة اخرى مستحيلا.» وعلى رغم ذلك ترجم الآن ديوان روءبة إلى الألمانية (برلين ١٩٠٤)، واختار تفعيلات من عشرة مقاطع وأحد عشر مقطعاً، أى مقلداً الوزن الأصلى تقريباً مع استغنائه فى ذلك عن القافية. ويثير فى اخلاصه اللغوى دهشة القارئ، حيث لا يتلاشى الطابع الشعرى العربى للأبيات فى ذلك. وكالمتن الأصلى فان الترجمة أيضاً صعبة القراءة، إذ يغتصب آلفارت اللغة تماماً كما فعل الرجاز. فما الذى دفعه إلى هذا التقليد الشعرى فى الترجمة؟ هل كان يريد تجربة براعته وفنه الكلامى؟ وهل انتقلت إليه عدوى روح روءبه الهزلية الغريبة؟ لا شك فى هذا؛ واكثر من ذلك: أنه تمنى لو أن الشعراء الألمان تفكروا كذلك فى هذه القوافى «بحيث يدركون منها لصالحهم الخاص ما يصلح للتقليد وما لا يجوز اتباعه.»

وبالاضافة إلى أعمال آلفارت حول الشعراء، هناك طبعتان لعملين تاريخيين: ففى عام ١٨٦٠ أصدر «كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية والدولة الاسلامية» لمحمد بن على ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقى، الذى أبدى اعجابه الشديد بروعة اسلوبه وجلائه وايجازه. وفى عام ١٨٨٣ أصدر نصاً كان قد اكتشفه فى مخطوط بدون عنوان أو موءلف، مدرج تحت رقم: Berlin Petermann II 633 ويتعلق بجزء من فترة حكم الخليفة عبد الملك بن مروان وبتحليل ثاقب للمضمون أثبت آلفارت أنها كانت المجلد الحادى عشر من كتاب الأنساب والأشراف لأحمد بن يحيى البلاذرى.

إلا أن آلفارت قدم انجازاً فاق فى أهميته جميع ما نشره من مخطوطات: فقد قام بترتيب وفهرسة المخطوطات العربية للمكتبة الملكية فى برلين التى أصبحت فيما بعد المكتبة البروسية الحكومية. وكان فى مكتبة برلين سابقاً ما يقارب الـ ٦٠٠ مجلد من المخطوطات العربية، أضيف إليها عام ١٨١٧ مجلدات اخرى من ممتلكات القائم بالأعمال البروسى لدى الباب العالى، هاينرش فريدرش بارون فون ديتز. ونمت هذه المجموعة المتواضعة نسبياً نمواً سريعاً فى عهد الملك فريدريش ڤيلهلم الرابع، الذى كان محباً راعياً للفنون والعلوم، كما اهتم الامبراطور ڤلهلم الاول بشراء مخطوطات اخرى. ثم ساهم القنصل البروسى فى دمشق يوهان غوتفريد ڤتزشتاين(١١) Johann Gottfried Wetzstein فى ١٨٥٢ و١٨٦٢ بـ ٢١٠٠ مخطوطة؛ وباع البروفسور هاينرش بيترمان(١٢) Heinrich Petermann للمكتبة بين ١٨٥٣ و١٨٥٧ وكذلك عام ١٨٧٠ ما يزيد على الألف ومائة مجلد؛ وخلف المستشرق ألويس شبرنغر(١٣) Alois Sprenger عام ١٨٥٧ كذلك ١١٠٠ مجلد؛ وابتيع عام ١٨٨٤ من شركة بريل فى لايدن بهولندة ما يزيد على الألف مجلد من مجموعة الكونت لاندبيرغ(١٤) Graf Landberg؛ وفى عام ١٨٨٧ انتقلت ٢٤٠ مخطوطة كان قد احضرها معه ادوارد غلازر(١٥) Eduard Glaser من رحلاته فى جنوبى الجزيرة العربية عام ١٨٨٥—١٨٨٦ إلى حوزة المكتبة، وبالأضافة إلى مقتنيات صغيرة اخرى من المخطوطات بلغ مجموع ما فى حوزة مكتبة برلين ٦٤٥٠ مجلداً، وهى مجموعة لا تقل فى أهميتها عما فى امهات المكتبات الأوروبية الاخرى الاقدم عهداً فى باريس ولايدن ولندن واكسفورد، وتضم فى محتوياتها جميع فروع الأدب العربى. وقد حصل آلفارت عام ١٨٦٣ على التكليف بترتيب هذه المخطوطات وفهرستها. وقد أقر بأنه كان يكرس لهذا العمل الذى كان يقوم به فى منزله فى غرايفسڤالد كل يوم عشر ساعات على الأقل ولمدة عشرين عاماً. واحتاج طبع بيان الفهارس وحده إلى اثنى عشر عاماً اخرى. وعندما ظهرت المجلدات العشرة السميكة من القطع الرباعى عام ١٨٩٩ كان آلفارت قد أنجز عملا كان فريداً من نوعه فى اتساع مواده ودقة ضبطه وذا أهمية راسخة ثابتة بالنسبة لحقل دراسة اللغة العربية وآدابها.

لقد كان على آلفارت أن يتخلى عن المشروع الذى خطط له فى شبابه: وهو تأليف تأريخ للأدب العربى يبعث الحياة فى القوى الباطنية الداخلية للفكر العربى. والآن فقد كان قد وضع الأسس التى يمكن أن يقام عليها الهيكل الخارجى لتأريخ الأدب العربى على الأقل. وقد

اعترف كارل بروكلمان (١٦) Carl Brockelmann بامتنان أنه ما كان بمقدوره أن يكتب مؤلفه «تأريخ الأدب العربي» لولا بيان الفهارس الذى أعده آلفارت.

لقد أصبح ڤيلهلم آلفارت فى سكون عزلته واحداً من عظماء المستشرقين الألمان المختصين بالعربية. فبقدرته على إثارة الحماس وتفانيه فى البحث وحياته فى صومعة الدرس والتحصيل كان يجسد لوذعية علمية تبدو وكأنها أخذت تتلاشى فى عصرنا المتحيز المسعور، رغم أنها يجب أن تظل قبساً مضيئاً عبر كل العصور.

ترجمة: محمد على حشيشو

ملاحظات المترجم

١) كاسپر داڤيد فريدريش: ولد فى غرايفسڤالد فى ١٧٧٤ وتوفى فى دريسدن فى ١٨٤٠. أشهر ممثل للرسم الرومانتيكى للمناظر الطبيعية فى ألمانيا. اشتهر برسم الظواهر الطبيعية الخلابة على ساحل بحر البلطيق.

٢) ايرنست مورتس آرندت: شاعر ألمانى عاش من ١٧٦٩ حتى ١٨٦٠ اشتهر بأشعاره الوطنية الحماسية. اشتغل فى التأريخ والصحافة وناضل بقلمه ضد نابوليون ومن أجل وحدة ألمانيا تحت دستور ألمانى. عمل عام ١٨١٨ استاذاً للتاريخ فى بون ثم عزل من منصبه من ١٨٢٠–١٨٤٠ بتهمة الديماغوجية. أصبح عام ١٨٤٨ نائباً فى برلمان فرانكفورت.

٣) كاليماخوس: شاعر يونانى عاش بين ٣١٠ و٢٣٨ ق.م. ويعتبر مؤسس تاريخ الأدب اليونانى.

٤) پندار: شاعر وجدانى يونانى عاش بين ٥٢٢ و٤٤٢ ق.م.

٥) يوهان غوتفريد كوزغارتن: مستشرق ومؤرخ ولد فى جزيرة روغن Rügen على بحر البلطيق عام ١٧٩٣ وتوفى فى غرايفسڤالد عام ١٨٦٠. درس اللاهوت واللغات القديمة فى غرايفسڤالد وأصبح عام ١٨١٧ استاذاً نظامياً للغات الشرقية فى جامعة يينا ثم انتقل ليحتل نفس المقعد فى جامعة غرايفسڤالد عام ١٨٢٤. اشتهر باهتمامه الرئيسى باللغة العربية وآدابها فأصدر دراسة عن ابن بطوطة ونشر معلقة عمرو بن كلثوم (١٨١٩) كما نشر جزئين من تاريخ الطبرى (١٨٣١ – ١٨٣٧) وديوان بنى هذيل.

٦) هاينرش ايڤالد: لاهوتى بروتستنتى ومستشرق ولد فى غوتنغن عام ١٨٠٣ وتوفى فيها عام ١٨٧٥. عمل من ١٨٣١ حتى ١٨٣٧ استاذاً للغات الشرقية فى غوتنغن. عزل من منصبه لأسباب سياسية ثم انتقل عام ١٨٣٨ استاذاً فى قسم الفلسفة فى جامعة توبنغن. وبعد خلافات فكرية عاد إلى غوتنغن عام ١٨٤٨. واشترك عام ١٨٦٣ فى تأسيس الاتحاد البروتستانتى. عزل عام ١٨٦٧ من قسم الفلسفة بسبب نشاطه المعادى للحكومة البروسية. لقد كان ايڤالد أحد الممثلين الرئيسيين لعلم اللغات السامية وخاصة العبرية فى القرن التاسع عشر.

٧) هارتڤيج ديرنبورغ: مستشرق فرنسى من الطائفة الاسرائيلية ولد فى باريس عام ١٨٤٤ وتوفى فيها عام ١٩٠٨. درس على المستشرق فلايشر فى لايبزغ وعلى ايڤالد فى غوتنغن. وبعد أن عمل فى تدريس اللغة العربية فى معهد اللغات الشرقية الحية فى باريس عين عام ١٨٧٩ أستاذاً فى المعهد نفسه. أهم اعماله إصدار كتاب النحو لسيبويه (باريس ١٨٨١–١٨٨٩).

٨) ألبرت سوسين: مستشرق ولد فى بازل عام ١٨٤٤ وتوفى فى لايبزغ عام ١٨٩٩. درس منذ عام ١٨٦٢ اللغات الشرقية فى بازل وجنيف وغوتنغن ولايبزغ. قضى مدة عامين من ١٨٦٨ حتى ١٨٧٠ فى مصر وسوريا والعراق حيث قام بأبحاث هامة حول اللهجات العربية وحول السريانية والكردية. أصبح عام ١٨٧٦ استاذاً نظامياً فى توبنغن وفى ١٨٩٠ فى لايبزغ. أصدر عام ١٨٦٧ «قصائد علقمة» كما ألف عدة كتب حول اللهجات العربية والآرامية الحديثة وكتاباً لقواعد اللغة العربية.

٩) ماكسيميليان بتنر: مستشرق نمسوى ولد فى لوبوزتز عام ١٨٦٩ وتوفى فى مودلينغ عام ١٩١٨. كان استاذاً للغات الشرقية فى جامعة ڤيينا منذ عام ١٩٠٦ وكذلك فى الأكاديمية القنصلية وكان عضواً فى اكاديمية العلوم فى ڤيينا. كان عالماً لغوياً فذاً وقام بنشر مخطوطات فى عدة لغات شرقية.

١٠) رودلف غاير: مستشرق نمسوى ولد فى ڤيينا فى ١٨٦١ وتوفى فيها عام ١٩٢٩. درس اللغات الهندية فى جامعة ڤيينا فى بادئ الأمر ثم تحول إلى اللغات السامية وتفرغ لدراسة اللغة العربية بالذات. أصبح عام ١٩١٥ استاذاً نظامياً للغات السامية ورئيساً للمعهد الشرق فى جامعة ڤيينا. كان اهتمامه يدور بوجه خاص حول الشعر الجاهلى والبيئة الجاهلية. قام بنشر كتاب الوحوش للأصمعى وديوان أوس بن حجر وعالج ديوان رؤبة بن العجاج وغير ذلك.

١١) يوهان غوتفريد ڤتزشتاين: مستشرق ورحالة بحاثة ولد عام ١٨١٥ فى اولزليتس وتوفى عام ١٩٠٥ فى برلين. درس منذ عام ١٨٣٦ اللاهوت فى لايبزغ وبعدها تفرغ للغات الشرقية. واصل دراسته فى اكسفورد وختمها فى برلين عام ١٨٤٦ حيث نال اجازة تدريس اللغة العربية. أصبح عام ١٨٤٨ قنصلا بروسياً فى دمشق وتوصل إلى عقد اتفاقية صلح بين الحكومة التركية والدروز وتعهد أمر المسيحيين فى سوريا عام ١٨٦٠. سجل ملاحظاته حول حوران وبدو سوريا فى مؤلفات هامة وجمع عدة مخطوطات من الشرق.

١٢) هاينرش پيترمان: مستشرق ولد عام ١٨٠١ وتوفى عام ١٨٧٦. أصبح عام ١٨٣٧ استاذاً للغات الشرقية فى برلين. قام من ١٨٥٢ حتى ١٨٥٥ برحلات إلى تركيا وايران ثم زار فلسطين وسوريا بين ١٨٦٧ و١٨٦٨. كتب عدة مؤلفات فى قواعد اللغات الشرقية كما دون قصة رحلاته فى كتاب خاص.

١٣) الويس شپرنغر: مستشرق ولد عام ١٨١٣ فى قرية بجبال التيرول وتوفى عام ١٨٩٣ فى هايدلبرغ. ذهب عام ١٨٣٦ إلى لندن وعام ١٨٤٢ إلى الهند حيث عمل رئيساً للمعهد العالى فى دلهى وكالكوتا حتى ١٨٥١. وحين عاد إلى اوروبا اصبح استاذاً فى بيرن من ١٨٥٨ حتى ١٨٨١. نشر مخطوطات عربية وفارسية هامة كما ألف كتاباً عن حياة الرسول وتعاليمه وآخر عن جغرافية الجزيرة العربية.

١٤) الكونت لاندبرغ: مستشرق سويدى أصبح ايطالياً منذ عام ١٨٨٤. ولد عام ١٨٤٨ فى غوتنبورغ بالسويد وتوفى عام ١٩٢٤ فى نيزا. قام منذ عام ١٨٧٢ بعدة رحلات إلى الشرق لتعلم اللهجات العربية. أصبح بين ١٨٨٨ و١٨٩٣ قنصلا عاماً للسويد والنرويج فى القاهرة وترأس عام ١٨٩٨ البعثة العلمية إلى جنوبى الجزيرة العربية التى أوفدتها اكاديمية العلوم فى ڤيينا. كتب عن اللغة العربية ولهجاتها ونشر مخطوطات عربية أيضاً.

١٥) ادوارد غلازر: رحالة ألمانى ولد عام ١٨٥٥ وتوفى عام ١٩٠٨ فى ميونيخ قام برحلات فى جنوبى الجزيرة العربية عام ١٨٨٣ وكذلك من ١٨٨٥ الى ١٨٩٤ وجمع نقوشاً ومخطوطات هامة. وكتب عن تاريخ الجزيرة العربية وجغرافيتها منذ أقدم العهود حتى عهد الرسول.

١٦) كارل بروكلمان: مستشرق متخصص باللغات السامية والتركية ولد فى روستوك عام ١٨٦٨. عمل منذ عام ١٩٠٠ استاذاً للغات الشرقية فى بريسلاو وكونغزبيرغ وهاله وبرلين. اشتهر بانجازه العظيم الفريد «تاريخ الادب العربى» وبكتبه الاخرى عن تاريخ اللغات السامية وتاريخ الشعوب الاسلامية وكتب قواعد اللغة العربية.

٣٩

الملك للحجاج افعل ذلك واجتنب الحرم وانزل الطائف
فسار الحجاج حتى نزل الطائف ثم انه كتب الى عبد الملك
انك متى تدع ابن الزبير وتكف عنه ولا تأمر بزحمه
ومصادمته يكثر عدده ومدده وسلاحه فأذن له في
قتاله ومحاربته وكتب اليه افعل ما ترى فأمر أصحابه
أن يتجهزوا للحج ثم اقبل من الطائف وقدم مقدمته
فنصبوا المنجنيق على أبي قبيس فلما هبطوا الى منى
رأى من في عسكر الحجاج المنجنيق منصوبة فقال الأقيبل
ابن شهاب الكلبي وهو ينسب في القين ممن حسن بن جنيد
فيقال القيني
الطويل

لعمر أبي الحجاج لو خفت ما أرى
من الأمر ما ألفيت تعذلني نفسي
فلم أر جيشا غر بالحج قبلنا
ولم أر جيشا مثلنا غير ما خرس
خرجنا لبيت الله نرمي ستوره
وأحجاره زفن الولائد في العرس
دلفنا له يوم الثلثاء من منى

Dinawari 320.

صحيفة بخط الأستاذ آلفارت، عليها حواشي من اضافة الاستاذ تيودور نولدكه المستشرق الشهير.



يوليوس ڤلهاوزن

(١٨٤٤ - ١٩١٨)

بقلم : الأستاذ انطوان شال

إذا تجرأ كاتب هذه السطور، الذى لم يولد فى فترة حياة يوليوس ڤلهاوزن، أن يكتب عن ڤلهاوزن فى هذه المجلة، فإنه لا يفعل ذلك إلا لأنه أتيح له من خلال اتصاله الوثيق المستمر بأستاذه الجامعى خلال اثنى عشر عاماً أن يعرف تفاصيل شخصية كثيرة عن سلفه فى الوظيفة الجامعية وصديقه الشخصى الحميم[1]. وبهذه المعرفة حول شخص ڤلهاوزن التى انتقلت بالأتصال الانسانى المباشر وبالمعرفة التى تتناول مؤلفاته وأعماله والتى تمت بمواصلة الاطلاع الدائب، فإنى سأحاول فيما يلى أن أرسم معالم سيرة يوليوس ڤلهاوزن كرائد طليعى فى ميادين أبحاث الكتاب المقدس والدراسات الإسلامية والعربية.

ولد يوليوس ڤلهاوزن فى السابع عشر من مايو عام ١٨٤٤ فى مدينة هاملن فى سكسونيا السفلى على نهر الڤيزر وكان أبوه قسيساً لتلك البلدة الهانوڤرية الريفية بحيث أتيح للابن أن يترعرع فى اتصال مباشر بالشعب. وقد علق على ذلك مرة بقوله : «إننى مدين لذلك الوضع بالكثير، وربما بأفضل ما عندى».

وعاش ڤلهاوزن مع الطبيعة هنا كأبناء الريف، فكان يشعر مباشرة وبدون وساطة بتغير فصول السنة، ويستمتع ببدء مطاردة الأبقار والأغنام وكأنه عيد بهيج. وكان مزارع عجوز قد أحاط الصبى بحبه ورعايته الشديدين، حتى جاءه ذات يوم وأسر له بأنه أعد وصيته ثم قال له بلهجته الريفية العامية : «وقد ذكرتك بشىء فيها أيضا.»[2]

وقد كان ڤلهاوزن سعيدا بهذه التركة فيما بعد، مع راتبه الضئيل عندما أصبح استاذاً خارج الملاك فى هاله.

لم يكن ڤلهاوزن طفلا معجزة على الإطلاق. فقد كان هزيلا متحفظاً، كما أن معلماً كتب فى شهادته المدرسية أنه يفتقر إلى كل قدر من الخيال. وفى سن الخامسة عشرة انتقل إلى المدرسة الثانوية (الليسيوم) فى هانوڤر، ولم يكن هناك طفلا معجزة أيضا؛ إلى أن بدأ عام ١٨٦٢ دراسة اللاهوت فى جوتنجن كما كان ينتظر من ابن القسيس آنذاك. وراح يدرس فى البداية دون لذة واهتمام حقيقيين، وكان التأمل اللاهوتى والفلسفى بالنسبة له فى سنواته الدراسية الأولى شيئاً مقيتاً ككل ما يفرض بالإكراه. وراح ينتظر الرجل الذى لم يكن قادراً على تعليمه بعض العلم فحسب، بل وقادراً على إرشاده أيضاً. ولم يكن هناك فائض من أمثال هؤلاء الرجال فى جامعة جوتنجن وخاصة فى كلية اللاهوت فيها، إلى أن وقع بين يديه فى فصح عام ١٨٦٣ كتاب إيڤالد حول تاريخ بنى إسرائيل فلاقى فى نفسه هوى شديداً حتى أنه عزم على تعلم اللغة العبرية التى لم يكن قد تعلمها حتى ذلك الحين بعد. ويقول فى ذلك : «إننى لم اكن أفهم المشاكل اللاهوتية؛ ولكن ما همنى كان إيڤالد وكذلك الكتاب المقدس، الذى كنت ملماً بدقائقه بحكم نشأتى.» ويكتب ڤلهاوزن فى مكان آخر : «لقد أنقذنى إيڤالد، أنا الذى كنت أقابل بالسخرية غالباً آنذاك.»

وهكذا فقد كسب هاينرش إيڤالد (١٨٠٣ — ١٨٧٥)، الذى أصبح غريب الأطوار فى سنى عجزه، وأحد «كبار جوتنجن السبعة»، تلميذاً آخر استطاع بغريزته التى لا تخطئ أن يدرك ويستخلص لنفسه ما فى تفكير إيڤالد

(١) انظر رثاء ادوارد شڤارتز Eduard Schwartz لڤلهاوزن، ص ٣٢٧ من مجموع المؤلفات، المجلد الاول، برلين ١٩٣٨.

(٢) "Da steihst du ok in"



تصوير يوليوس ڤلهاوزن.

من عظمة وعمق وكلية. وكان إيڤالد لا يظل عالقاً فى التفاصيل الجزئية، بل كان همه الرئيسى إدراك الترابط الحيوى والعلاقات الأساسية. ومن إيڤالد تعلم ڤلهاوزن هذا الفن الذى كان يمارسه بالنسبة لأدق المواضيع وأصعبها ببراعة لا تجارى. وبعد إنهاء دراسته اللاهوتية تجرأ ڤلهاوزن إبتداء من عام ١٨٦٧ على حضور الحلقات الدراسية التى كان إيڤالد يعقدها عصراً حول النصوص الشرقية. ثم حدث شقاق بين المعلم وتلميذه حول الاحتجاج الڤلفى لعام ١٨٦٦، ضد ضم هانوڤر إلى بروسيا. فقد رفض إيڤالد بروسيا رفضا باتاً، بينما رفض ڤلهاوزن أن يتبعه فى ذلك، ولم تنقشع أسباب هذا الشقاق فيما بعد أيضاً بينه وبين معلمه.

وقبل اندلاع الحرب الألمانية الفرنسية فى ١٨٧١/١٨٧٠ بوقت قصير أنهى ڤلهاوزن سنى دراسته بالتقدم إلى درجة الليسانسية فى التاسع من يوليو (تموز) عام ١٨٧٠. وكشفت اطروحته مبكراً عن مواهبه وكانت تحمل العنوان اللاتينى : De gentibus et familiis Judaeis quae 1. Chron. 2,4 enumerantur أى : «حول القبائل والأسر العبرية، كما جاءت فى سفر العدد ٢، ٤». وفى عام ١٨٧٢ استدعى ڤلهاوزن إلى جامعة غرايفسڤالد كاستاذ نظامى للعهد القديم. وهناك عقد قرانه على الابنة الكبرى للكيميائى لمبرشت Limpricht. وظل زواجه السعيد بدون أطفال. وفى عام ١٨٧٦ جاء اولريش فون ڤيلاموڤيتس Ulrich von Wilamowitz إلى غرايفسڤالد، وبذلك حصل على زميل كان فى مستواه. وبفضل ڤيلاموڤيتس أثير اهتمامه باللغات الكلاسيكية كواقع مثير.

وفى عام ١٨٧٤ نال ڤلهاوزن درجة الدكتوراه فى اللاهوت من جامعة غوتنجن بدراسة حول الفريسيين والسدوسيين. وفى هذا العمل المبكر يتضح أن صورة التاريخ اليهودى قد اتخذت لديه أشكالا معينة خاصة. وبعد ذلك بفترة قصيرة، أى عام ١٨٧٦، بدأت سلسلة الأعمال الكبيرة التى اكسبت ڤلهاوزن مكان القيادة فى أبحاث العهد القديم والديانة الإسرائيلية. وفى دراسته حول تأليف الـ-Hexa teuch أى التوراة مع كتاب القضاة ، فصلت الطبقات الادبية بصورة محددة بعضها عن البعض الآخر. وكان الحديث حول اليهويين والإيلوهيين وحول الكتاب الأصلى دائراً منذ زمن طويل، كما أن فرضية أجزاء المخطوط الأصلى وما أعقبها من تتمات كانت أمراً مقطوعاً فيه

من حيث الأساس. أما ڤلهاوزن فقد كان أول من قام بأعماله هذه بدراسات تحليلية تستند إلى النص الحى نفسه. فبغريزة العبقرى كان يستخرج الجوهر الأساسى من المتن، ذلك الجوهر الذى يخضع للبرهان والدليل القاطع، ويترك الباقى، الذى لا يهم كثيراً فى الوقت الحاضر، لأولئك الذين يملكون الجلد والأناة الكافيين لتحرى أمره. وهكذا تبرز له فى الـ Pentateuch أى التوراة الطبقـات الكبيرة الثلاث دون أن يصبح التقسيم شديد الدقة والتشعب بحيث يصبح بذلك غامضاً وباعثاً على الشكوك.

إن على أبحاث التاريخ الخليقة بهذا الاسم أن تستند إلى التقاليد المتوارثة التى تتناولها هذه الأبحاث. فاذا ما انتقلت هذه التقاليد المتوارثة المتسلسلة بالدرجة الأولى بوساطة تراث أدبى، فإن القضايا والمسائل الأدبية والتاريخية ترتبط بعضها بالبعض الآخر وتتشابك بحيث يصعب الحل فيما بينهما. وإنه لمن أخطر الأشياء على البحث التاريخى أن يظل عالقا بالمسائل الأدبية. وقد حالت طبيعة ڤلهاوزن الخاصة الباحثة وراء الحقائق والوقائع دون اتخاذه من نقد الـ Pentateuch أى التوراة (كتب موسى الخمسة) هـدفـا نهائياً للبحث والدراسة. إذ لم يكن هدفه تأريخ الادب ولا نقد الأدب وانما كان التأريخ نفسه. ويتضح ما أراده فى الحقيقة من عنوان كتابه الشهير الذى ظهر عام ١٨٧٨ : «تاريخ بنى اسرائيل، المجلد الأول» والذى ألحق وتمم فيما بعد بكتاب «مقدمة لتاريخ بنى إسرائيل» (١٨٨٣ — ١٨٨٦). وبذلك بعث عالم منسى ضائع بعثاً جديداً. وتحولت التوراة من معضلة تاريخية إلى ما كانت عليه قديماً: إلى نهج كهنوتى منبعث من الحياة ولخدمة الحياة. وعرض كل ذلك بلغة واضحة شفافة كالبلور خلت من كل صقل لغوى علمى متكلف.

وبعد هذا المؤلف لم يعد ڤلهاوزن يتوقع أن تستدعيه كلية لاهوت لمنصب الاستاذية، وكان عليه أن يتقبل فكرة البقاء فى جامعة كانت امكانات التطور والارتقاء محدودة فيها، والاكتفاء بالمحافظة على الأفضل والأصيل لنفسه. وادى به هذا إلى التخلى عن استاذية اللاهوت فى غرايفسڤالد عام ١٨٨٢. وإذ تخلى عن كليته الخاصة، منحته كلية الفلسفة الدكتوراة الفخرية. وعينته الحكومة استاذاً خارج الملاك للغات السامية فى هاله. ولم يعجبه الحال هناك، وكان سعيداً حين استدعته بعد ثلاثة اعوام كلية اللاهوت فى جامعة ماربورغ ليصبح استاذاً نظامياً فيها. وكانت اعوام ماربورغ فى مناح كثيرة أسعد اوقاته اطلاقاً. وحين سئمت نفس ڤلهاوزن حقل العهد القديم بعد حين، لم تستهوه دراسة الكتابة المسمارية التى أصبحت اكثر شهرة آنذاك بقدر ما استهواه الوجه الآخر لدين يهوه وقانونه الذى انتهى أخيراً إلى يسوع المسيح، ونعنى بالطرف المقابل: الإسلام كما نشأ فى الجزيرة العربية وبالقدر الذى ظل يرتدى قالباً عربياً خالصاً فيه. وحين كان لا يزال فى غرايفسڤالد ألقى مرة محاضرة عامة عن محمد. وخلال زيارته إلى انجلترا بدعوة من ويليام روبرتسون سميث آنذاك اقتبس من مخطوط كتاب المغازى للواقدى أقدم وأرصن رواية متوارثة عن محمد فى المدينة، كما اقتبس من ابن سعد الوثائق الهامة المتعلقة بانتشار الإسلام. وفى فترتى هاله وماربورغ، حيث اهتم بالعربية بالدرجة الأولى، نشأت المشاريع والأعمال الأولية لمؤلفاته التالية، أو القسم الاكبر منها على الاقل. وفى غوتنجن أنهى تاريخ الدولة العربية وانهيارها (١٩٠٢) وكذلك الشروح والمقالات التى نشأت من الحواشى والتعليقات الخاصة ببحثه المذكور.

ومنذ الآن راح ڤلهاوزن ينكب بكل قوته واهتمامه على الشعر العربى والاحاديث والروايات العربية المتوارثة. ولم يمض وقت طويل حتى ألم بالأنساب العربية كمحدث عربى. ولم يبق عالقاً فى شباك الشعر العربى الذى ذهبت عدة مواهب ضحية له. ومن خلال اهتمامه بالعالم العربى القديم انتقل رأساً إلى صيرورة ونشوء آخر دين منزل فى أفق الكتاب المقدس. وحتى قبل ظهور النبى محمد كانت الديانة الوثنية التى تدين بها القبائل العربية والقائمة على تعدد الآلهة فى سبيلها إلى الانحلال، وكانت قد بدأت تعم بينهم ديانة توحيدية غريبة تجريدية، وكان قد ظهر التساؤل حول هدف الوجود على الأقل. وقد ولدت نفس تأثيرات التفرعات البرية الفطرية للمسيحية فى الولايتين الرومانيتين جزيرة العرب وفلسطين، ولدت فجأة عملية اختمار غريبة فى العالم العربى، كانت تصعيداً للحس الحياتى يتفوق على نمط الحياة الطبيعية المعتاد بحيث قدمت بذلك عجينة الاختمار للاسلام. واكتفى ڤلهاوزن بالتأكد أولا من تحديد ومعرفة التربة التى نشأ عليها الاسلام وبادراك التناقض بين الديانة الساذجة التقليدية، أى الوثنية، وبين عناصر الدين الجديد.

وبينما نجهل تفاصيل فترة الرسول المكية تتوفر معلومات أكثر حول العمل التنظيمى الذى تطور ونشأ فى المدينة: فمن خضم الروايات والاحاديث التى سرعان ما نمت وأصبحت كالاساطير اختار ڤلهاوزن الروايات المباشرة وخاصة تلك التى اشتملت عليها الوثائق التى كان السباق إلى نشرها

والتي تظهر كيف توصل النبي إلى إحلال السلام في البلاد بتوجيه طاقات الشعب الفتية المتدفقة إلى الخارج بدلا من تضاربها الواحدة ضد الأخرى. وبذلك مهد ڤلهاوزن من الأمام ومن الخلف الطرق التي تؤدي إلى المسألة التاريخية لنشوء الاسلام وصيرورته. ولكنه افتقد إلى الطريق الكامل الذي أدى بالعرب بعد وفاة الرسول إلى السيادة على مملكة عالمية لمدة تزيد على القرن. ولحسن الحظ، فقد بدأ تاريخ الطبري الضخم في الظهور في هذه الأعوام، وقد اقتبست فيه كتب التاريخ القديمة كل على حدة، بحيث اصبح من الممكن متابعة تطور الاحاديث والروايات والسير المتوارثة. وأدرك ڤلهاوزن خلافاً للحكم الذي كان سائداً أن ثروة القصص المتوارثة حول الفتوحات الكبيرة الأولى ما هي إلا مظهر خداع، ولكنها في رواياتها حول نشوء الخلافات المذهبية والفرق الكبيرة تقدم مجموعة وافرة من المعلومات المباشرة الأصيلة. ومن دراسة الروايات المتوارثة نمت بصورة عضوية فكرة عرض الخلافة الأموية. وكان تعاقب الخلافة في الأسرة الاموية ابتداء من معاوية الداهية حتى الكارثة الختامية المريعة خليقاً باغراء قصاص على سرد هذه الوقائع. ولكن كتابة تأريخ من نوع رفيع تحتاج إلى قطبية تولد حركة إيقاعية منتظمة في المادة التاريخية. ووجد ڤلهاوزن هذه القطبية في التوتر القائم بين الدولة والدين، بين سياسة الحكم التي ولدتها الدولة، والثيوقراطية التي يحتمها الدين. وكانت التناقضات بين عرب الجزيرة ذوي المراس الصعب والذين يصعب اخضاعهم للنظام وبني جلدتهم في سوريا وفيما بين النهرين الذين نشأوا نشأة سياسية وعسكرية بفضل انتمائهم الطويل للدولة الرومانية وللكنيسة المسيحية، لقد كانت هذه التناقضات سبباً في انهيار العروبة الحرة الأصيلة أمام استبداد العباسيين الخاضعين للتأثير الايراني. ورغم أن أمثال هذا العمل قليلة في مكتباتنا، إذ يعتبر في حجمه الضخم أروع عرض مملكه للتاريخ السياسي للاسلام حتى انهيار الدولة الأموية، إلا أنه لا يقرؤه إلا القليلون فقط.

ثم انتهت فترة ماربورغ السعيدة قبل الموعد الذي كان ڤلهاوزن يتمناه. فبعد وفاة پاول دي لاگارد Paul de Lagarde في ٢٢ ديسمبر ١٨٩١ استدعى ڤلهاوزن إلى غوتنجن كخلف له، وكان رودلف سمند Rudolf Smend يحتل مقعد الاستاذية لأبحاث العهد القديم في كلية الفلسفة. وفي غوتنجن تحول كتاب «مقدمة في تاريخ بني اسرائيل» إلى مؤلف عظيم بعنوان «التاريخ الاسرائيلي واليهودي» (١٨٩٤)، وصلت طبعاته حتى عام ١٩١٤ إلى السبع، وظهر عام ١٩٥٨ في طبعته التاسعة. وبما أن ڤلهاوزن عرض مؤلفه تحت هذه العبارة: «يهوه إله اسرائيل واسرائيل شعب يهوه»، فقد نال عرضه التاريخي بالمفهوم العلمي والفني قوة تعبير لم يبلغه مؤلف قبله في حقل التاريخ القديم.

وبعد إنهاء المؤلفات العربية اتخذ ڤلهاوزن لنفسه مهمة تفسير الأناجيل الثلاثة الأولى، وانكب على عمله حتى انتهى منه بالسرعة التي امتاز بها. وظهرت ترجمات وتفاسير أناجيل مرقس ومتى ولوقا بسرعة، الواحدة تلو الاخرى في ١٩٠٣ و١٩٠٤. وكان من ميزات ڤلهاوزن أنه لم يعالج الأمر من زاوية اللغة اليونانية الكلاسيكية، التي لم تكن ستفيد كثيراً بالنسبة للعهد الجديد، وانما جاء الأمر من زاوية اللغات السامية: فما كان آرامياً في التفكير وطريقة التعبير أدركه فوراً بمجرد سماع اليونانية المجردة من المرونة والخالية من قوة التعبير. وقد علمنا على فهم لغة انجيل مرقس فعلا وبوجه خاص وأظهر من خلال ثغرات عديدة أن أقدم رواية متوارثة، ليس الشفوية فحسب، بل وكذلك المخطوطة، كانت آرامية الأصل.

ويوجد ڤلهاوزن في تفسيره للأناجيل الثلاثة الأولى علاقاتها التاريخية بعالم أفكار وأحاسيس العهد القديم. ثم أتبع ذلك بتحليل لكتاب الرؤيا وبحثين حول تاريخ الحواريين. وفي عام ١٩١٤ ظهر التحليل النقدي لتاريخ الحواريين، وكانت حالته الصحية قد أعاقت طبع الكتاب عدة مرات. وفي السابع من يناير عام ١٩١٨ أنقذت المنية يوليوس ڤلهاوزن من استشهاد حقيقي. إذ بلغ حداً لم يعد عنده قادراً على العمل، ومما زاد من شعوره بقسوة ذلك أن فكره ظل صافياً يقظاً حتى النهاية.

لقد كان لأعمال ڤلهاوزن الخاصة بالتاريخ الاسرائيلي اليهودي أبعد الأثر. ولكن كاتب سيرته كارل هاينرش بيكر محق حين يقول عن ڤلهاوزن: «ولكن ربما كانت عبقرية الانجاز الفردي أقوى في حقل الدراسات العربية. ففي ميدان العهد القديم كان له سابقون، بحيث كانت الاسئلة قد أثيرت هناك، وكانت المشكلة في متناول اليد، رغم أن دخوله الميدان هو الذي أدار عجلة البحث. ويختلف الأمر تماماً بالنسبة لعرضه لتاريخ الخلافة العربية. فهنا شق بقوة لا مثيل لها حتى الآن سبل سير في ادغال

◀ صحيفة من الترجمة الألمانية التي قام بها ڤلهاوزن لديوان الهذليين والتي لم تنشر حتى الآن.
نشكر الأستاذ أنطون شال لوضعه هذا التصوير تحت تصرفنا.

كان لا يمكن اختراقها، كما بدأ فى تحويل أجزاء منها إلى منتزهات منسقة منظمة.»(٣)

وحتى ما قام بنشره من مخطوطات يدل على قدرة الناشر على الحكم التاريخى. فى الملاحظات السابقة لترجمة الواقدى(٤) يقارن الواقدى بابن اسحق فى بحث مختصر غنى بالمضمون والفائدة. وقد يقدم الواقدى فى بعض الحالات المادة الأصلية، ولكن فى اغلب الحالات التى يفترق فيها الواقدى وابن اسحق، يقدم لنا الاخير ما هو أفضل واكثر أصالة. ومع أغانى الهذيلية، التى أصدر ڤلهاوزن قسمها الأخير بالعربية والترجمة الألمانية عام ١٨٨٤(٥)، وذلك تتمة للقسم الأول الذى أصدره كوزيغارتن Kosegarten عام ١٨٥٤، ألحق ڤلهاوزن تقييما تاريخياً بالإضافة إلى رسائل محمد والسفارات التى وفدت عليه والتى أصدرها فيما بعد كقسم ثالث فى الكراس الرابع من «دراسات واعمال أولية» فى برلين عام ١٨٨٩. وعلى وجه العموم فليس هناك ما يدعو إلى الشك فى أصالة الرسائل الأخيرة. فغالبها موجه إلى قبائل بعيدة لا أهمية لها. وهى لا تتمشى وروح الرسائل التالية، ولكنها لا تظهر محمداً كنبى حازم لا يعرف الهوادة، وانما كسياسى عملى لا ينظم مراكز معتنقى الاسلام حسب مبادئ عامة ثابتة، وانما حسب اتفاقات مختلفة تقريبا، وأنه يتفاوت فى مطالبه وفى عروضه كثرة وقلة بتفاوت الأشخاص والظروف.

أما كتاب «بقايا الوثنية العربية، مجموعة ومفسرة» (برلين عام ١٨٨٧)، وهو أول عرض تاريخى فى حقل دراسات اللغة العربية لڤلهاوزن فيتعلق بتاريخ الأديان. وكل ما نملكه تقريباً من أخبار عن الوثنية العربية يعود فى مرجعه إلى العهد الاسلامى، بحيث صبغت جميعها بالصبغة الإسلامية. فالوثنية تشوه باظهار الناحية السلبية عندما تتناول أموراً يرفضها الإسلام، بينما تشوه باظهار الجوانب الحسنة فى الحالات التى ورث الاسلام فيها اموراً وثنية. ويحاول ڤلهاوزن تطهير الجذور الوثنية من الجانبين ليتعمق فى الاصول الوثنية الحقيقية؛ وبذلك ينفخ الحياة فى الآلهة والقرابين الوثنية وفى الأعياد والأسواق العربية القديمة، وفى الايمان بالأرواح والسحر. وبذلك يلقى اضواء شديدة على دين بنى اسرائيل، ومن الجهة الأخرى يساعد على تفهم ما هو عربى فى العهد القديم.

وتعالج دراسته «المدينة قبل الاسلام» (فى دراسات واعمال أولية، الكراس الرابع، القطعة الأولى، برلين ١٨٨٩) كذلك تاريخ ما قبل الاسلام، مؤكداً على الناحية السياسية اكثر من الناحية الدينية. وفى دراسته «مقدمة إلى اوائل تاريخ الاسلام» فى دراسات واعمال أولية، الكراس السادس، برلين ١٨٩٩، يتفرغ ڤلهاوزن للإسلام نفسه. وفى هذه المقدمة يعالج تاريخ الاسلام، باستثناء فترة محمد نفسها، حتى وقعة الجمل (٦٥٦ ميلادى). ومنذ الصفحات الأولى من هذه الدراسة تتضح المشكلة الرئيسية. إذ تتناول الأمر خيطين من الروايات المتوارثة الواحد منهما يستبعد الآخر، أحدهما سيف ويمثل الاتجاه العراقى المتحيز، والثانى ابن اسحق، والواقدى، والمدائنى وابن الكلبى ويمثلون اتجاه المدينة القديم الرشيد. وهناك روايتان لرجلى دين مسيحيين معاصرين للاحداث تؤيدان أمانة الاحاديث المدنية بالمقارنة بالأحاديث العراقية. وبالتحقق من تفوق الاحاديث المدنية يتحقق العمل الرئيسى لتأريخ هذه الفترة.

وبعد مقالتى «الفرق الدينية السياسية المتعارضة فى اوائل عهد الاسلام» و«معارك العرب والروم فى عهد الأمويين» اللتين نشرتا فى أبحاث وأنباء جمعية جوتنجن للعلوم عام ١٩٠١، توج ڤلهاوزن أعماله جميعاً بتأليف ذروة انتاجه فى التاريخ الإسلامى وهو: «المملكة العربية وسقوطها» الذى نشر فى برلين عام ١٩٠٢، والذى يتناول التاريخ الاسلامى حتى نهاية الخلافة الاموية عام ٧٥٠ ميلادى. وهناك عرض مختصر يتناول المصادر المتوفرة لهذه الفترة وميولها وأهميتها. فأبو مهنف يمثل الاتجاه العراقى الكوفى، وهو يميل بعواطفه إلى العراق ضد سوريا، وإلى جانب على ضد الأمويين. أما أبو معشر والواقدى فيمثلان الاتجاه العلمى المدنى وهما يتابعان، على تقاليد رواة المدينة الثقاة، تاريخ العهد الاموى بموضوعية علمية دون ابداء ميل عاطفى ملموس للأمويين. أما الروايات السورية التى تميل إلى الامويين فقد اندثرت، ولكن آثاراً منها بقيت محفوظة فى التاريخ المسيحيحى. أما المدائنى فقد كان موالياً للعباسيين. ويتمسك ڤلهاوزن فى تقييمه للمصادر بهذه الأسس، دون أن يتخلى من حين لآخر عن إصدار حكمه من حيث وجهات النظر الموضوعية. وكما يؤكد كارل هاينرش بيكر

(٣) انظر Carl Heinrich Becker, Julius Wellhausen فى Islamstudien، المجلد الثانى، لايبزغ ١٩٣٢، ص ٤٧٤ — ٤٨٠.

(٤) Muhammed in Medina. Das ist Vakidi's Kitab al Maghazi in verkürzter deutscher Wiedergabe, herausgegeben von Julius Wellhausen. Berlin, 1882.

(٥) هناك ترجمة ألمانية للقسم الأول موجودة على شكل مخطوط. وقد استخدمت فى قاموس اللغة العربية الكلاسيكية، Wörterbuch der Klassischen Arabischen Sprache، راجع فهرس الموضوعات ص XI من الكراس الأول، ڤيسبادن ١٩٥٧. وترى صفحة من المخطوط إلى جانب هذا الكلام.

فى رثائه(٦)، فإن هذا الكتاب الذى لم يلق اعتباراً يذكر فى بادئ الأمر «أصبح انجيلا لا غنى عنه بالنسبة لمؤرخ بواكر العهد الاسلامى.»

لقد كانت طبيعة ڤلهاوزن الاساسية تتسم بالبساطة. فحين كان يكتب، كان يضع أمام عينيه هدف التعبير عن رأيه بأبسط شكل ممكن، فكان لا يتخلى مع ذلك عن الجلاء والوضوح. وكان يتمتع بطبع مستقل ولا يعرف الغطرسة الفكرية. وكان له خصوم كثيرون دون أن يوجد بينهم عدو شخصى واحد. وأدى صممه إلى عزلته دون أن يصبح شديد الارتياب والحساسية. لقد توحدت فى يوليوس ڤلهاوزن ميزات المؤرخ وعالم اللغات، وصفات الحدس الشديد والدقة اللغوية فى كل متكامل لا مثيل له. وكان ملماً بجميع تفاصيل الفترة التاريخية التى يعالجها كالاوضاع السياسية فيها، والأحوال الاقتصادية، وطرق المسكن والمعيشة والغذاء، وأزياء الملبس والرأس، والمسائل الحقوقية والعادات. ولكن هدف أبحاثه ظل دائما التأكيد على خطوط التطور الكبيرة والرئيسية، واكتشاف العوامل والقوى الرئيسية للتحول والتطور التاريخيين. وكان يسعى بنجاح إلى إدراك وعرض تضارب القوى الداخلية للحدث التاريخى.

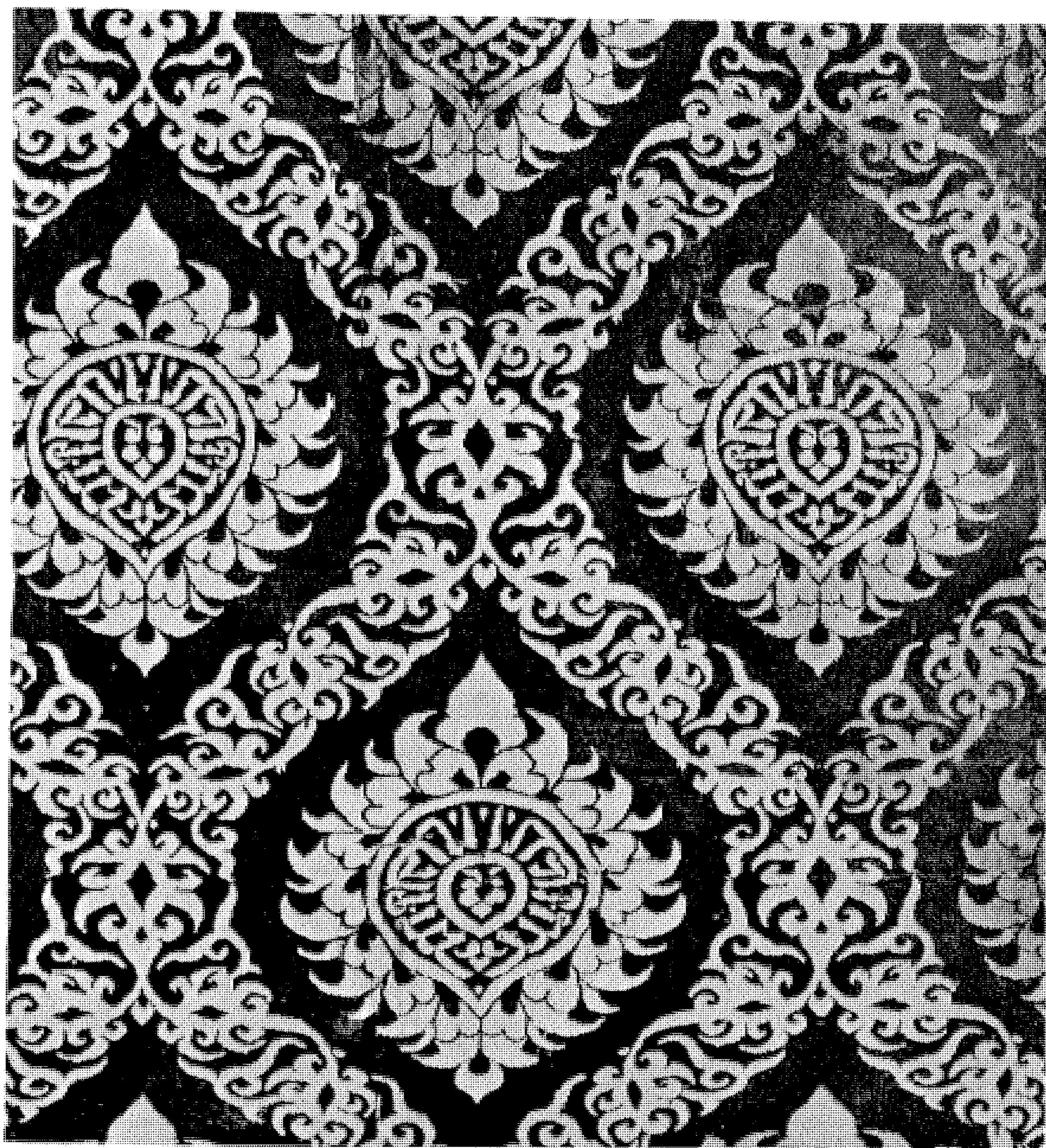
لقد كان أستاذى إينو ليتمان، الذى استدعى عام ١٩١٤ إلى جامعة جوتنجن كخلف لڤلهاوزن، شديد السعادة بصداقته لأكبر مستشرق فى عصره. وكان لا يذكره إلا بأسمى آيات التقدير والاعجاب وكان هو الذى ألقى كلمة الجنازة عند تشييع جثمانه(٧). لقد قدر لتيودور نولدكه ويوليوس ڤلهاوزن أن يرفعا لواء زعامة الاستشراق فى ألمانيا دون أى منازع. أما السؤال عن الأعظم بين الاثنين فقد أجاب عليه نولدكه بتواضع رقيق وثقة اكيدة بالنفس حين وصف نفسه بالموهبة، وربما بالموهبة العظيمة، بينما وصف ڤلهاوزن بالعبقرية نفسها(٨).

---

(٦) راجع C. H. Becker, Islamstudien، المجلد الثانى، لايبزغ، ١٩٣٢، ص ٤٧٥.

(٧) راجع هذه الكلمة الجنائزية مختصرة فى مجلة جمعية المستشرقين الألمان ZDMG، المجلد ١٠٦، ١٩٥٦، ص ١٨ — ٢٢ تحت عنوان Erinnerung an Julius Wellhausen.

(٨) كذلك إينو ليتمان Enno Littmann فى كتابه: نصيب الألمان فى علوم ودراسات الشرق الادنى: Der deutsche Beitrag zur Wissenschaft vom Vorderen Orient، شتوتجارت وبرلين ١٩٤٢، ص ٢٠.



تيودور نولدكه

(١٨٣٦ - ١٩٣٠)

بقلم : الأستاذ اينو ليتمان

ولد المستشرق إينو ليتمان فى أولدنبورج فى ١٨٧٥/٩/١٦ ودرس فى جامعات برلين وهاله وجرايفزفالد وستراسبورغ. بدأ حياته التدريسية كمحاضر للغات الشرقية فى جامعة برنستون فى الولايات المتحدة؛ ثم اشتغل كأستاذ للغات الشرقية فى جامعة ستراسبورغ عام ١٩٠٦، وفى جامعة جوتنجن عام ١٩١٤، وبون عام ١٩١٦، وأخيراً فى توبنجن من ١٩٢١ إلى ١٩٥١. وقد كان عضواً فى بعثات الآثار الامريكية إلى سوريا والحبشة وآسيا الصغرى؛ كما ترأس البعثة الأثرية الألمانية إلى الحبشة. ومن أهم مؤلفاته : «حول تفسير النقوش الثمودية (١٩٠٤)». و«تاريخ الأدب الاثيوبى (١٩٠٧)»؛ «مطبوعات حملة برنستون الاستكشافية إلى الحبشة» فى اربعة أجزاء (١٩١٠ — ١٩١٥)؛ «الكلمات الشرقية فى اللغة الألمانية» (١٩٢٠ و١٩٢٤)؛ «أول ترجمة كاملة لألف ليلة وليلة بالألمانية» فى ستة أجزاء (١٩٢١ — ١٩٢٨ و١٩٥٢/١٩٥٤).

رغم الهدوء الذى كان يسود بوجه عام مجرى حياة المستشرق العظيم تيودور نولدكه، إلا أن مكاسبه العلمية وقوة نفوذه طبعت حقل الاستشراق بكامله خلال السبعين عاماً الأخيرة(١) بطابع شخصيته المؤثرة، ولولاه لما أمكن تصور أى تطور لهذا العلم.

ولد نولدكه فى الثانى من آذار (مارس) عام ١٨٣٦ فى مدينة هامبورج، حيث كان والده آنذاك عميداً للمعهد الثانوى المتوسط. وقد خلدت المدينة ذكره بتنصيبه مواطناً فخرياً وبتسمية شارع باسمه يوم عيد ميلاده التسعين.

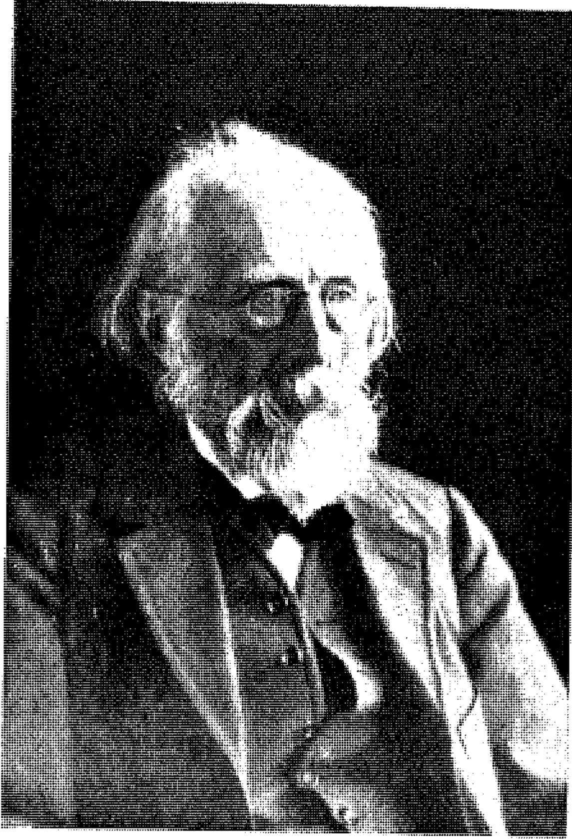
وأسرة نولدكه واسعة الانتشار فى شمالى غربى ألمانيا، ويعود أصلها عبر عدة قرون إلى أحد وجهاء مدينة هلدسهايم، كان يعيش فى بداية القرن السادس عشر. وقد برز من عائلة نولدكه هذه عدد كبير من رجال الدين والمعلمين والموظفين. وقد كان العميد نولدكه فى هاربورج موظفاً أميناً كذلك، وكان بالنسبة لابنه مثالا للتفانى فى أداء الواجب، كما أيقظ فيه، كعالم للغات القديمة، حب علوم الأوائل، ذلك الحب الذى لازم الابن طيلة حياته. وكان نولدكه فى مطلع حياته صبياً ضعيفاً؛ ورغم أنه كان يشترك فى الألعاب الرياضية لفتية هاربورج، ويتحدث بلهجتهم، غير أن اشتراكه فى ذلك لم يتسم بالحيوية والقوة الكافية. وقد عوض عما كان يفتقر إليه من حرارة الاختلاط وعمق الاحتكاك الشخصى بالبيئة المحيطة به بقوة الملاحظة والانتباه. وكانت النظرية منذ حداثة سنه تحتل مكان العمل إلى حد بعيد. ولكن هذه النظرية لم تكن وهمية غريبة عن العالم، ولم تكن محدودة الافق. وبقراءة كتب الرحلات عن الشرق ودراسة الآداب الشرقية، تعرف نولدكه فى سن مبكرة على شعوب الشرق الأدنى أفضل من كثيرين ممن عاشوا الأعوام الطوال هناك. وكان يفتقر إلى الجانب العملى فى اللغات أيضاً؛ فلم يتح له إلا تعلم التكلم قليلا بالتركية فى ڤينا، كما كان فى لايدن يجيد التكلم بالهولندية. غير أن اللغات التى كان يتناولها بأبحاثه العلمية كانت أقرب إليه منها إلى أى شخص آخر من زملائه المختصين. وفى الخامسة عشرة من عمره اضطر الى التوقف عن الدراسة مدة ربع عام لاصابته بفقر فى الدم. وعندها انكب على دراسة العبرية بمفرده حتى توصل بعدها إلى اعفائه من مادة اللغة العبرية المدرسية. وكانت دراسته الرئيسية فى المدرسة تشتمل على اللغات القديمة التى راح يدرسها باجتهاد تحت اشراف والده فى هاربورج، وكذلك فى لنكن، حيث نقل هذا عام ١٨٤٩. وفى خريف عام ١٨٥٣ التحق بجامعة جوتنجن ليصبح مستشرقاً، على حد قول أبيه. أما هو فقد كان ينوى دراسة اللغات القديمة والشرقية، غير أن شخصية الاستاذ إيڤالد(٢) الجبارة، وقد كان صديقاً لوالده، استحوذت عليه كلياً لدراسة الاستشراق وحده. وقد ظل مديناً لأستاذه طيلة

حياته، رغم أنه اضطر فيمابعد إلى الانفصال عنه شخصياً؛ وقد أدرك أن تأثير ايفالد الرئيسى كان يكمن فى أنه كان كأستاذ يطلب من تلاميذه اكثر بكثير مما يقدرون عليه، بحيث كان بذلك يجبرهم على العمل الشديد والتفكير الحاد. وبالإضافة إلى اللغات السامية فقد انكب على دراسة الفارسية والتركية، ثم تعلم السنسكريتية باشراف الاستاذ بنفاى(٣).

وفى عام ١٨٥٦ ظهر أول مؤلف لنولدكه. فقد تمكن من الفوز بالمسابقة العلمية للكلية، فطبع مؤلفه واعتبر فى الوقت نفسه اطروحة الدكتوراه بحيث نال فى اغسطس من العام نفسه هذه الدرجة العلمية. أما عنوان المؤلف باللاتينية فهو: "De origine et compositione Surarum qoranicarum ipsiusque Qorani" وترجمة ذلك بالعربية: «حول نشوء وتركيب السور القرآنية». أما نولدكه نفسه فقد دعا مؤلفه نتاج فتوة لا يتسم بالنضوج، وسر أنه تمكن من تخطيه بامتياز فى كتابه «تاريخ القرآن» الذى نشر عام ١٨٦٠. وقد كانت الفترة الواقعة بين ١٨٥٦ و١٨٦٠ أعوام «تجواله وترحاله». فقد اتجه اولا إلى ڤيينا للتعرف على مخطوطات المكتبة الملكية هناك، ماراً بمدينة لايبزج، حيث زار استاذ علوم اللغة العربية الشهير فلايشر(٤). وكانت تساوره سراً فكرة الانتقال من هناك إلى الشرق؛ غير أن هذه الرغبة لم تتحقق، وطالما اعتراه الندم على عدم تمكنه من التعرف إلى الشرق بنفسه وبأم عينيه. وفى خريف ١٨٥٧ انتقل إلى لايدن حيث قضى شهوراً بهيجة فى العمل المجد على المخطوطات العربية الموجودة هناك فى حلقة من الزملاء المختصين الشباب. وعقد آنذاك اواصر صداقة عميقة مع ميشائيل يان دى خويه(٥)، المستشرق الهولندى العظيم. وفى تلك الأثناء أقامت اكاديمية المخطوطات الباريسية مسابقة موضوعها تاريخ القرآن. وكان نولدكه المرشح المناسب للفوز بهذه المهمة، وبالفعل فانه لم يفوت الفرصة، بل غادر لايدن قبل الموعد الذى كان مقرراً، ليدرس فى غوتا وبرلين مخطوطات كانت مهمة بالنسبة لعمله. وفى ربيع ١٨٥٨ جاء برلين وأتم فيها كتابة بحث المسابقة. ثم أرسل المخطوط باللغة اللاتينية إلى باريس، حيث كان قد وصل مخطوطان آخران كتبهما عالمان معروفان هما: الألمانى شپرنجر(٦) والايطالى أمارى(٧). وما كان من الأكاديمية إلا أن ضاعفت الجائزة ووزعت المبلغ بالتساوى على الفائزين الثلاثة. وهكذا كان الشاب الذى لم يتجاوز سنه الاثنين والعشرين عاماً قد حل مسابقتين علميتين، كما فاز فى الثانية على صعيد واحد مع اثنين من رجال العلم البارزين كانا اكبر منه سناً. وبعد ذلك عمل على اتمام ترجمة ألمانية لكتابه الفائز أصدرها عام ١٨٦٠، وهى الكتاب الشهير الذى اشرنا إليه سابقاً: «تاريخ القرآن»، وهو أول مؤلفاته العظيمة الكثيرة. وبه دل على طريق البحث العلمى الصحيح فى الدراسات القرآنية. وقد أظهر هذا الكتاب مبكراً جميع خصائص طريقة نولدكه فى البحث؛ معرفة شاملة على أساس بحث أمين فى جميع التفاصيل، وحكم واضح دقيق يرد كل ما هو مشكوك فيه ويرفض مالا يقبل الاحتمال. وبطبيعة الحال فكان مما لابد منه أن تسبب طريقته هذه تنافراً بينه وبين استاذه إيفالد، الذى كان رغم علمه وعبقريته، عاتياً متسلطاً شديد التعصب والايمان بنفسه، وهو استاذه الذى كرس له هذا الكتاب بالذات فى كلمة الاهداء. ثم مكث نولدكه عاماً ونصف العام فى برلين كمساعد فى المكتبة. وفى هذه الفترة تصادق مع عدد من العلماء والباحثين المسنين، كان لهم أثر طيب فى تعريفه بحقول جديدة من العلم والمعرفة. ولكن عندما وجه إليه مدير المكتبة عام ١٨٦٠ طلباً جائراً مس كرامته وحريته الشخصية، عزم بسرعة على الاستقالة وغادر عمله بعد أن وجه رسالة تنبض بالرجولة إلى رئيسه. وعلى أثر ذلك مضى إلى إيطاليا لمدة ربع عام، وساعده على تحقيق هذه الرحلة عم طيب غنى.

وقد كتب عن أعماله وتجاربه وانطباعاته أثناء «أعوام ترحاله» بالتفصيل فى رسائله إلى استاذه إيفالد. وفى هذه الرسائل يحتل العلم المكان الأول، ولكنها لا تخلو كذلك من اهتمامه الحيوى بالأحداث العالمية. وفى بداية كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٨٦٠ عاد نولدكه إلى جوتنجن وأصبح فوراً مساعداً فى المكتبة. وفى ربيع ١٨٦١ قدم اطروحة الكفاءة التدريسية الجامعية وأصبح محاضراً خاصاً للغات السامية. وتخلى عن منصبه فى المكتبة بعد عام ونصف العام من جديد، إذ كان عمله فيها يعيقه كثيراً عن ابحاثه ودراساته العلمية. واهتم خلال تلك الفترة بالدرجة الأولى بالشعر العربى وباللغة التركية التى تعمق فى دراسة لهجاتها وبرع فيها.

وفى ربيع ١٨٦٤ استدعى إلى جامعة كيل ليخلف الاستاذ ديلمان(٨). وظل هناك أربعة أعوام كأستاذ غير نظامى، ثم أربعة أعوام ونصف العام كأستاذ نظامى عام. وقد كان الاستدعاء إلى كيل، كما اعتقد نولدكه نفسه، الداعى الاول إلى خصومة لاگارد(٩)، الذى كان يعيش كأستاذ آنذاك فى ظروف بائسة جداً، والذى كان يأمل فى الحصول



Noch einmal meinen besten Dank und meine volle Anerkennung Ihrer Leistung!
Ihr ergebener Th. Nöldeke

الاستاذ تيودور نولدكه قبيل وفاته.

الايمان والمعرفة. ولذا فقد هاجم كذلك «العقلانية الضعيفة، التى يلجأ إليها حتى مؤمنونا الراشدون اكثر فأكثر.» إذ أن «عقلانيته» كانت من عود قوى، كروحه، التى كانت تعمر فى جسد ضعيف كجسده.

وأما قيامه بالدراسات الآرامية فقد كان بمحض الصدفة. إذ أن مكتبة جامعة كيل، التى كانت لا تملك من الكتب الخاصة باللغات والشعوب السامية إلا النزر القليل، حصلت من مخلفات آدلر(١٢)، الذى توفى عام ١٨٣٤، وهو فى منصب المشرف الأعلى العام لمقاطعة شليزفيج — هولشتاين، على عدد كبير من المؤلفات الخاصة بالأدب السريانى. وكانت هذه الكتب هى الدافع إلى اهتمام نولدكه الآن بصورة أعمق وأدق باللغة الآرامية. وكما وضع الأبحاث القرآنية على قواعد متينة ثابتة فى كتابة «تاريخ القرآن»، فقد وضع الآن الاسس العلمية لدراسة اللغات السريانية، والسريانية الحديثة والمندعية. وظهر

على كرسى الاستاذية فى كيل. ولكن نولدكه لم يدعه يعانى طويلا من أجل ذلك، فحين أصبح منصب الاستاذ إيفالد شاغراً عام ١٨٦٩، ورغم أنه كان يود أن يكون خليفة استاذه فى منصبه العلمى، إلا أنه كتب إلى جوتنجن قائلا: إنه لا يعرف أحداً يرغب فى التخلى من أجله عن منصب إيفالد الشاغر أفضل من لاگارد، الذى يعتبره واحداً من أنبغ المستشرقين وأمتن العاملين خلقاً. حقاً، لقد كان محزناً ذلك القدر الذى كان يبعد شخصياً أولئك العظماء الثلاثة: إيفالد ولاگارد ونولدكه، الواحد منهم عن الآخر. ومن المسلم به أن طبائعهم كانت متباينة جداً. إذ لم يكن إيفالد ليحتمل أية معارضة، وكان يعتبر الآراء التى تختلف عن آرائه وكأنها أخطاء خلقية؛ أما نولدكه فكان يؤمن بحق الرأى الحر لكل إنسان، وكان يناقش الجميع بتجرد وموضوعية. وبينما كان لاگارد رومانتيكياً، كان نولدكه، كما كان يقول بنفسه، عقلانياً. وكثيراً ما كان ايفالد ولاگارد ينساقان بطريقتهما العاطفية إلى إصدار أحكام جائرة. أما نولدكه فقد كان فى القضايا العلمية مفعماً بروح العدل المجردة من العاطفة. وفى الرابع من تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٨٦٩ بعث برسالة وداعية إلى إيفالد، بعد أن سبق لهذا أن تعدى عليه عدة مرات بالكلام القاسى. وقد كانت رسالة قصيرة، وجيهة، حازمة، وقد أعرب فيها عن امتنانه واحترامه الدائم لاستاذه بأسلوب يملك الحواس. وكان نولدكه قبل ذلك قد تعرض بالتفصيل إلى وضعه مع إيفالد فى رسائل إلى صديقه الأبوى ڤيزلر(١٠)، دون أن يفقد فى أى منها اسلوبه الواضح وروحه الموضوعية. وكان لاگارد يهاجم نولدكه كثيراً فى مؤلفاته، هجوماً علمياً وشخصياً. ويختتم نولدكه دفاعه فى وجه هذه الهجمات بالكلمات التالية:

«أما أن أجيب على اتهامى بالتجنى المقصود على الحق، فهذا ما لا تقبل به كبريائى».

وفى الفترة التى قضاها فى كيل اهتم نولدكه بالعهد القديم، الذى كان عليه شرحه فى محاضراته، كما اهتم باللغة الآرامية بالدرجة الأولى. وأصدر آنذاك كتابى: «المؤلفات المختصة بالعهد القديم» و«أبحاث فى نقد العهد القديم». وكان الأول عرضاً شعبياً، والثانى يشكل الأساس العلمى لذلك. ومع أن هذين الكتابين قد أصبحا قديمين فى معلوماتهما إلى حد ما، وخاصة بفضل مؤلفات ڤلهاوزن(١١) الطليعية فى هذا الحقل، فقد كانا عملين ممتازين فى عصرهما كافيين لإسباغ آيات الفخار على أى عالم مختص بشئون العهد القديم. ولم يكن نولدكه يعرف حلا وسطاً بين

كتاب قواعد السريانية الحديثة وهو لايزال فى كيل، بينما ظهركتابا قواعد السريانية والمندعية اثناء وجوده فى ستراسبورج. وتعتبر كتب القواعد الثلاثة مؤلفات طليعية من الدرجة الأولى إطلاقاً. ولتأليف الثلاثة فقد كان عليه أن يعمل منقباً فى مواد اللغة كلها بمنتهى الدقة والعناية. وأدت قواعد السريانية الحديثة بعد فترة جديدة إلى بحث اللغات السامية الحية، التى تحمل أهمية كبيرة للحكم على اللغات القديمة. أما قواعد الآرامية الشرقية فقد كونت الأساس لا لفهم الأدب الآرامى الشرقى فحسب، بل وكذلك لتفهم كثير من مشاكل المقارنات اللغوية السامية؛ وكان كتاب قواعد السريانية، الذى صدر فيما بعد فى طبعة ثانية، وترجم كذلك إلى الانجليزية، عرضاً ممتازاً لهذه اللغة العظيمة الأهمية بالنسبة للشرق المسيحى. وفى ربيع ١٨٧٢ استدعى نولدكه إلى الجامعة الألمانية التى انشئت آنذاك حديثاً فى ستراسبورج؛ وفى خريف العام نفسه انتقل هناك وظل فيها حتى عام ١٩٢٠. وكان من المفروض أن يستدعى فى عام ١٨٧٦ إلى جامعة برلين، ولكن أحد تلاميذه تسبب فى عرقلة الاستدعاء وحصل على المنصب لنفسه. ثم رفض طلبات استدعاء إلى جامعات فيينا ولايبزج وجوتنجن، حيث كان مركزه فى ستراسبورج ثابت الجذور. ومع ذلك فقد ابتهج بوجه خاص لاستدعائه إلى جوتنجن، حيث كان المفروض أن يخلف لاگارد. ومنذ عام ١٩٠٦ أحيل نولدكه على المعاش. وعندما دخل الفرنسيون، بعد انكسار ألمانيا، أراضى الألزاس وأبعدوا جميع الألمان من ستراسبورج، لم يجرأوا أن يفعلوا ذلك مع هذا العالم الجليل، الذى اشتهر اسمه فى جميع أنحاء العالم. فغادر فى ربيع ١٩٢٠ المدينة بمحض اختياره واتجه إلى كارلزروهه ليقيم مع ابنه هناك. وظل هنا مدة أحد عشر عاماً قضاها فى يقظة فكرية تامة، إلى أن فارق الحياة فى صبيحة يوم عيد الميلاد من عام ١٩٣٠ وهو متكئ على كرسى الشيخوخة، بعد أن كان فى اليوم السابق قد أتم قراءة رواية للأديب كونراد فرديناند ماير(١٣).

وفى ستراسبورج صدرت كتب نولدكه الرئيسية. وبفضله أصبحت ستراسبورج مركز الدراسات الشرقية ليس بالنسبة لألمانيا وحدها فحسب، بل وكذلك بالنسبة للعالم أجمع. وقد تعمد ألا يؤسس لنفسه «مدرسة» خاصة؛ ولكن جميع علماء اللغات السامية المعاصرين أصبحوا تلاميذه، سواء أدرسوا على يديه، أم استمدوا من كتبه عدتهم العلمية وسلاحهم للبحث والدراسة. وكانت حلقاته التدريسية التى كان يعقدها فى غرفة عمله تتناول مجموع حقل اللغات السامية باستثناء اللغة البابلية ــ الأشورية والنقوش العربية الجنوبية، كما كانت تشتمل كذلك على الفارسية الحديثة والتركية. وكان التلاميذ يترجمون، بينما كان يصحح ويقوم بالتعليق والشرح، لغة ومحتوى. وكان، كأستاذه إيڤالد، يفرض على تلامذته مطالب عالية؛ فتعلموا منه أن يكونوا أمناء فى أصغر التفاصيل، والا يفقدوا نظرتهم الى الكل عموماً، وأن يجتنبوا النظريات القلقة التى لا تصمد أمام النقد ولا تستند إلى الحجة والبرهان. وحين كان أحد التلاميذ يلحن فى القراءة أو يخطئ فى أحد بحور الشعر أو فى الترجمة، كان جسم الاستاذ الصغير الشديد الحركة يهتز بقلق يمنة ويسرة، كما كان، فى الحالات الشديدة، يتعالى فجأة من مكانه المعتاد فى زاوية المقعد الطويل احتجاجاً واستنكاراً للخطأ الفادح. وبعد إحالته على التقاعد ظل يعقد حلقاته التدريسية مرات عديدة، ويبحث فيها نصوصاً عربية وفارسية صعبة، وكان أفضل تلامذتى الخاصين يشتركون فى ساعاته التدريسية أيضاً. وقلما كان يقوم بالقاء المحاضرات المنتظمة. ورغم السهولة والسلاسة التى كانت بهما تنصاع له الكلمة المكتوبة، ورغم الحيوية وعمق الأثر والثروة الفكرية التى كانت تتصف بها أحاديثه ــ إلا أنه لم يكن يحب إلقاء الخطب العامة. وقد تخلى عن المحاضرات المتعلقة بالعهد القديم فى ستراسبورج عن قصد، إذ كان الاستاذ القدير ادوارد رويس(١٤) يمثل هذه المادة التعليمية خير تمثيل.

وبالإضافة إلى قواعد الآرامية الشرقية والسريانية، فقد ألف نولدكه فى ستراسبورج سلسلة كبيرة من الكتب، وخاصة فى حقول الدراسات العربية واللغات السامية المقارنة، والحكايات الخرافية الشرقية، والدراسات الإيرانية. وكان فى جوتنجن قد اشتغل على دراسة الشعر العربى القديم. وفى ستراسبورج ألف ترجمات وشروح خمس معلقات واعطى بذلك مثلا فريداً من نوعه فى وضوح التفسير، لغة ومتناً. ولغرض الدقة فى تحديد الحيوانات والنباتات التى وردت فى النصوص، كان يستشير علماء الحيوان والنبات. وببحثه حول «قواعد اللغة العربية الكلاسيكية» كان اول من عالج العربية معالجة جادة من حيث الاعتبار والعرض التاريخى. وتناولت أبحاث أخرى دين وتاريخ عرب الجاهلية حيث ظهرت بوجه خاص أهمية معرفته التامة للمصادر اللاتينية والإغريقية. فقد كانت هذه عوناً شديداً له فى جميع أبحاثه التاريخية، وكذلك فى ترجمته لكتاب تأريخى سريانى، وبوجه خاص فى كتابه «تاريخ الفرس والعرب فى عصر الساسانيين. مترجم من

Karlsruhe 31/8. 22 Ettlingerstr. 53

Sehr geehrter Herr Doctor!

Besten Dank für die Uebersendung Ihrer Schrift, die ich
mit grossem Interesse gelesen habe. Die grossen Erzählungen, durch
die Sie uns [illegible] haben, sind mir zum Teil nur wenig, zum
Teil so gut wie gar nicht bekannt. Mit der Geschichte des Islâm's welche
Reiche von Muhammed's ersten Auftreten bis in die Zeit, wo das Abbasidische
Chalifat alle Kraft verliert, bin ich leidlich vertraut, aber
was sich die Stücke arabischer Sprache, wenn auch vielfach nicht-
arabischer Herkunft, über das Beduinenleben und die grossen
Taten der alten Muslime erzählen, das hat sich mir recht
entzogen. Natürlich ist es nicht immer leicht, die
Geschichte von der Legende oder der willkürlichen Ausschmückung
zu sondern. So glaube ich in der alten Ueberlieferung über den
Tod des tapferen Husain ziemlich das wirklich Geschehene
zu erkennen, namentlich daß die Regierung sich die grösste Mühe
gab, den Toren zum Aufgeben eines hoffnungslosen Unternehmens
zu veranlassen, und daß die Führer der Regierungstruppen das Ihrige
[illegible] und keineswegs die blutdürstigen Wüteriche waren, wie sie
die Legende darstellt. Daß in den Erzählungen über [struck out] Antara
so ziemlich alles unhistorisch ist, dass der Verfasser der

من رسالة الأستاذ نولدكه الى الدكتور رودى پارت. (يوجد امضاء نولدكه لهذا المكتوب على ص ٣٥).
نشكر الأستاذ پارت فى جامعة توبنجن لتصريحهلنا بنشر هذه الرسالة، ولما افادنا به من معلومات قيمة عن تيودور نولدكه.

تاريخ الطبرى ومرفق بايضاحات وتتمات تفصيلية». وقد أدت دراسته للمصادر الفارسية إلى قيامه بدراسة الحماسيات القومية الإيرانية، التى قرأ من أجلها اسطورة الفردوسى المنظومة «شاهنامه» الضخم مرات عديدة، كما أدت أيضاً إلى أبحاثه حول اللغة الفارسية الوسطى (البهلوية) وأدبها، وهى تمتاز بالصعوبة الشديدة، وفى هذه الدراسات حدد نهائياً وبصورة قاطعة الطابع الحقيقى لهذه اللغة، تماماً كما فعل صديقه أندرياز(١٥). وقد اهتم كذلك بدراسة النقوش الفارسية القديمة بينما ترك الشعر الوجدانى الفارسى الحديث جانباً بسبب ازدواج معناه.

وقد كرس نولدكه لأبحاثه فى اللغات السامية المقارنة مؤلفين هما: «أبحاث فى علم اللغات السامية» و«أبحاث جديدة فى علم اللغات السامية». وبتمكن كامل من المادة، وبمعرفة للغات، لم يحصلها من كتب القواعد والقواميس، وانما من المصادر الأولية، عالج عدداً من المسائل اللغوية الهامة، متمسكاً فى ذلك دوماً بما هو قائم فعلا، ومجتنباً

Zur Grammatik des classischen Arabisch 87

So auch [illegible] ‚und nicht hast du dich entfernt, den Paradiesgarten zu suchen' Ham. 792 v. 3 und [illegible] ‚und Gott weiss am besten, welche Mühe sie in S. auf sich nahmen' Ham. 284 v. 6. Aehnlich die Voranstellung eines zu seinem Particip oder Verbaladjectiv mit Artikel gehörigen Ausdrucks: وما هو عنها بالحديث المرجم ‚und nicht ist es eine Geschichte, die man nur so über sie erzählt' Zuhair, Mu. 29;

فتى ليس بالراضي بأدنى معيشة ولا في بيوت الحي بالمتولج

‚ein Mann, der nicht mit dem elendesten Leben zufrieden ist und sich nicht in die Häuser des Stammes eindrängt' Ham. 764 v. 3;

والحرب صاحبها الصليب على تلاتلها العزوم

‚und der Mann des Kampfes ist der Feste, der bei dessen Schwankungen energisch bleibt' Ham. 532 v. 1;

والخيل أجودها المناهب عند كبتها الأزوم

‚und das beste Rennpferd ist das wettlaufende, das beim Ueberstürzen der Rosse bissig ist' Ham. 532 v. 5. Ein weiteres Beispiel Chiz. 3, 563.

Eine ungewöhnliche, aber auch den obigen Fällen ähnliche, Trennung des Zusammengehörigen ist in ساقا ذات فقد من الأصحاب = من الأصحاب ساقا ذات فقد ‚ein Bein, das von den Genossen schmerzlich vermisst wird' Agh. 21, 69, 21 = Jaq. 1, 665, 12 und ebenso mit نفس für فقد ‚das den Genossen sehr werth ist' Agh. 21, 70, 1 = Jaq. 1, 665, 15.

Ganz ungewöhnlich hart ist die Wortstellung aber in folgenden Stellen: لو أن كريمي صيد [illegible] = كريمي لو أن هذا صيد أبقته ‚würde dieser erjagt, so erhielte er meinen Werthen (= Vater) am Leben' Hudh. 2, 14;

فما من فتى كنا من الناس واحدا به نبتغي منهم عميدا نبادله

فما من فتى من الناس كنا نبتغي به واحدا عميدا نبادله ‚und es giebt unter den Menschen keinen Mann, den wir als einzigen für ihn zum Führer, der ihn ersetzen sollte, suchen möchten' Ham. 165 v. 3. Ferner der berüchtigte Vers Farazdaq's

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

‚und nicht giebt es unter den Menschen einen Lebenden, ihm nahekommend, ausser einem Fürsten, dessen Muttervater sein eigner Vater ist' Wright, Op. ar. 67 und sonst citiert.

[illegible]

صحيفة عن كتاب نولدكه حول النحو العربي بحواشي المؤلف.
مأخوذة عن الطبعة الجديدة لهذا الكتاب الذى اصدره الاستاذ انتون شپيتالر فى جامعة ميونخ، دارمشتاد ١٩٦٣.

الفرضيات القلقة. وقد ساعد بعدة أبحاث نقدية ومقالات ومنشورات صغيرة على تطوير المعرفة باللهجات العربية والحبشية، وكذلك بالنقوش السامية إلى حد بعيد.
وفى حقل القصص الخرافية الشرقية ألف عدداً كبيراً من المقالات والرسائل الكبيرة والصغيرة، أهمها: «بحث حول تاريخ رواية الأسكندر» و«دراسة حول رواية أحيقار». وساهم كذلك فى إلقاء الضوء على تاريخ قصص ألف ليلة وليلة، أو بعض حكايات هذه المجموعة، كما خاض البحث فى مجموعة قصص «كليلة ودمنة»، مقتفياً طريق انتقالها من الهند عبر إيران والشرق الأدنى إلى الغرب.
لقد كان نولدكه سيد الاسلوب العلمى والاسلوب الشعبى معاً. وإن خمسة من كتبه، وهى «المؤلفات المختصة بالعهد القديم» الذى ذكرناه سابقاً، و«حياة محمد»، و«مقالات فى التاريخ الفارسى»، و«أبحاث شرقية» ثم بحث «اللغات السامية»، قد جعلت نتائج دراساته العلمية تراثاً عاماً للعالم المثقف.
وفى عيد ميلاده السبعين كُرس له مؤلف تذكارى بمجلدين، اشترك فى تأليف صفحاته الألف والمائتين مستشرقون عن الحقول العلمية ذات العلاقة بالاستشراق من جميع الدول وأجمعوا فى ذلك على مبايعته وتقديره. وفى عيد ميلاده الثمانين سرنى أن احمل إليه فى ستراسبورج كتاباً تذكاريا من جمعيتنا[16] مع كلمة إهداء من السيد إيلزر[17] ومنى. وطبع على الكتاب باللغة العربية البيت التالى:

تلك آثارنا تدل علينا　　فانظروا من بعدنا إلى الآثار

ولكننا نحن الذين كنا مقربين إليه لا يمكن أن نفكر بمؤلفاته وأعماله دون الرجل نفسه. فقد كان جميع الذين تعرفوا إليه عن كثب يقدرونه ويولونه أبلغ آيات الاحترام. فى كيل هناك عالم اللاهوت ليپسيوس[18]، واستاذ التاريخ القديم فون گوتشمت[19]. أما بين تلاميذه فى ستراسبورج فهناك خصوصاً ى. بارت[20]، الاستاذ السابق فى برلين، وبيفان[21] الاستاذ الحالى فى كامبردج، وبيتزولد[22] وبرونو[23]، الاستاذان السابقان فى هايدلبرج، وفرينكل[24] الاستاذ السابق فى برسلاو، وجيورج ياكوب[25]، الاستاذ الحالى فى كيل، ورودوكاناكيس[26]، الاستاذ الحالى فى غراتز، وسنوك هرگرونيه[27]، الاستاذ الحالى فى لايدن، وتورى[28]، الاستاذ الحالى فى نيوهيڤن، كونكتيكت بالولايات المتحدة الامريكية. وكانت تربطه بالعلماء دى خويه فى لايدن، وجويدى[29] فى روما، وجولد- تسيهر[30] فى بودابست، وراينش[31] فى ڤيينا، وج هوفمان[32] فى كيل صداقة متينة. وكان كل من نولدكه وڤلهاوزن يقول عن الآخر إن الآخر أهم منه نفسه بكثير. وكان يتبادل الرأى بنشاط مع إدوارد ماير[33] وإدوارد شڤارتز[34]. وكان يكرس وقتاً طويلا للاتصال الخطى مع أصدقائه وزملائه. وكان فى مراسلاته أميناً منتظماً.
وإنه ليشبه الاسطورة الخيالية أن هذا الرجل الهزيل الجسم، الذى بلغ عدد منشوراته العلمية ما يقارب السبعمائة بحث، والذى كان يساهم بنصيب فعال فى أعمال كليته وجامعته ومصير وطنه، والذى كان قارئ صحف نشيط، والذى كان يحضر كل محاضرة وكل تقريظ علمى للكتب الجديدة تحضيراً فى غاية الدقة والتمحيص والتفصيل كان يجد رغم كل ذلك متسعاً من الوقت لكتابة عدة آلاف من الرسائل. وفى الأعوام الأخيرة من حياته كانت رسائله تبدأ غالباً بالشكوى من ضعفه الجسدى، ولكن سرعان ما كانت تتلو ذلك تعليقات علمية وسياسية فعالة. ولم يكن ذلك ممكناً إلا بأرادته الحديدية فى رفض كل ما كان يعوقه عن العمل. وكانت تساعده فى ذلك بكل حرص وعناية زوجه المخلصة التى اختطفتها يد المنية منه عام ١٩١٦.

وكثيراً ما كان نولدكه يدعو نفسه بالعقلانى؛ ولكنه لم يكن كذلك بالمعنى المألوف لهذه الكلمة. ويمكن أن ندعوه بدلا من ذلك ممثلا للعقل الإنسانى السليم فى الشئون العلمية؛ أما فى المسائل الشخصية فكثيراً ما كان يصبح عاطفياً تماماً. وكان ينفر من كل ما هو رومانتيكى وصوفى. ولذا فانه لم يهتم كذلك بدراسة التصوف الشرقى، الذى لعب من دون شك دوراً هاماً جداً فى الإسلام. وقد رافقته روح الفكاهة حتى آخر أيامه وساعدته على التغلب على كثير من المصاعب والمزعجات. وقد كان بوده أن يصبح مؤرخاً للأحداث العالمية، ولذا فقد غمرته السعادة الكبرى حين أظهر له تيودور مومسن[35] اعترافه بعلمه، عندما اعترض نولدكه على بعض ما جاء فى بحث لمومسن حول السياسة الرومانية فى الشرق الأدنى.

لقد كان تيودور نولدكه يمثل العالم الألمانى من الطرز القديم فى ذرى كماله. ومن صفاته أيضاً أنه كان، رغم معرفته التامة الحقة بنفسه، متواضعاً بكل ما فى هذه الكلمة من معنى؛ فقد كان ينفر من كل جعجعة فارغة وغرور وحب للظهور.

لقد ولى بفقده عهد عظيم من عهود العلم البشرى.

ترجمة: محمد على حشيشو

تعليقــات . . . . . .

لمحمد على حشيشو

١) اقتبس المقال عن خطاب تأبينى ألقاه العلامة ليتمان عام ١٩٣٠.

٢) هاينرش إيفالد (H. Ewald)، مستشرق وعالم مختص بالعهد القديم، ولد فى جوتنجن فى ١٨٠٣/١١/١٦ وتوفى فيها فى ١٨٧٥/٥/٤. ظل استاذاً فى جامعة جوتنجن من عام ١٨٣١ الى ١٨٣٧، ثم انتقل إلى جامعة توبنجن، وعاد إلى جوتنجن ليحال على التقاعد عام ١٨٦٧ بسبب معارضته لإقسام يمين الولاء لملك بروسيا. وكان لمؤلفاته حول اللغة العبرية وتفسير العهد القديم وتاريخ بنى اسرائيل أثر بارز عظيم فى الدوائر العلمية المختصة بهذه الحقول.

٣) تيودور بنفاى (T. Benfey) عالم باللغة السنسكريتية وباحث فى اللغات والأساطير الشرقية، ولد فى نورتن فى ١٨٠٩/١/٢٨ وتوفى فى جوتنجن فى ١٨٨١/٦/٢٦. كان استاذاً فى جامعة جوتنجن وأسس بأبحاثه علم القصص الخرافية المقارنة.

٤) هاينرش ليبرشت فلايشر (H. L. Fleischer) مستشرق شهير ولد فى شانداو فى ١٨٠١/٢/٢١ وتوفى فى لايبزج فى ١٨٨٨/٢/١٠ حيث عين منذ ١٨٣٥ استاذاً للغات الشرقية، وبرز كأحد رواد البحث فى اللغة العربية فى ألمانيا. ومن أشهر أعماله إصداره تفسير البيضاوى فى مجلدين، بالإضافة إلى أبحاث كثيرة فى اللغة العربية.

٥) ميشائيل يان دى خويه (M. J. de Goeje) من أشهر المستشرقين وعلماء العربية فى هولندا. ولد فى دورنرب (فى فريسلند) فى ١٨٣٦/٨/١٣ وتوفى فى لايدن فى ١٩٠٩/٥/١٧ حيث كان استاذاً للغات الشرقية منذ ١٨٦٦. ومن مؤلفاته الأولى: «مذكرات فى تاريخ وجغرافية الشرق». أما أهم أعماله فإصداره للمؤلفات الجغرافية العربية تحت عنوان: «المكتبة الجغرافية العربية» فى سبع مجلدات، ويعتبر مرجعاً هاماً للجغرافيين العرب ومؤلفاتهم.

٦) ألويس شبرنگر (Aloys Sprenger) مستشرق ولد فى التيرول فى ١٨١٣/٩/٣ وتوفى فى هايدلبرج فى ١٨٩٣/١٢/١٩. أقام منذ ١٨٤٣ فى الهند وترأس من ١٨٥٠ إلى ١٨٥٧ المعاهد الإسلامية العليا فى كالكوتا ثم عين استاذاً للغات الشرقية فى برن بسويسرا من ١٨٥٨ حتى ١٨٨١. من أشهر كتبه «حياة محمد وتعاليمه» و«طرق البريد والسفر فى الشرق» و«جغرافية الجزيرة العربية القديمة».

٧) ميشيل آمارى (M. Amari) مؤرخ ومستشرق ايطالى ولد فى پالرمو فى ١٨٠٦/٧/٧ وتوفى فى روما ١٨٨٩/٧/١٦. قضى وقتاً طويلا من حياته فى المنفى ثم عاد عام ١٨٥٩ إلى ايطاليا وأصبح وزيراً للتعليم من ١٨٦٢ حتى ١٨٦٤. اشتهر لأبحاثه القيمة حول جزيرة صقلية أثناء الحكم العربى.

٨) آوغوست ديلمان (A. Dillmann) مستشرق وعالم لاهوتى بروتستنتى. ولد فى ولاية ڤورتنبرج بألمانيا فى ١٨٢٣/٤/٢٥ وتوفى فى برلين فى ١٨٩٤/٧/٤. عين عام ١٨٥٤ استاذاً فى كيل، وعام ١٨٦٤ فى غيسن، وعام ١٨٦٩ فى برلين. برز فى أبحاثه فى اللغة الاثيوبية، كما ألف عدة شروح لكتب العهد القديم.

٩) پاول أنتون دى لاگارد (P. A. de Lagarde) مستشرق وفيلسوف حضارى ولد فى برلين فى ١٨٢٧/١١/٢ وتوفى فى جوتنجن فى ١٢/٢٢/ ١٨٩١. عين منذ عام ١٨٦٩ استاذاً للغات الشرقية فى جوتنجن ومازال أثره حياً حتى اليوم بفضل شروحه وتحاليله لنصوص العهد القديم. اشتهر كذلك بمقالاته السياسية التى تتناول النقد الحضارى والمشبعة بالروح القومية الرومانتكية.

١٠) فريدرش يوليوس آوغست ڤيزلر (F. J. A. Wieseler) عالم آثار ولغات قديمة. ولد فى ألتنتزله فى شمالى ألمانيا فى ١٨١١/١٠/١٩ وتوفى فى جوتنجن فى ١٨٩٢/١٢/٣. كان من تلامذة الاستاذ إيفالد، ثم مال إلى دراسة اللغات الكلاسيكية والآثار. أصبح منذ عام ١٨٥٤ استاذاً للآثار واللغات القديمة، وقام برحلات علمية كثيرة ونشر عدة أبحاث تظهر اهتمامه بالجمع بين الآثار القديمة وعلم اللغات الكلاسيكية.

١١) يوليوس ڤلهاوزن (J. Wellhausen) مستشرق وعالم لاهوت بروتستنتى، ولد فى هاملن فى ١٨٤٤/٥/١٧ وتوفى فى جوتنجن فى ١٩١٨/١/٧، ويعتبر أهم عالم مختص بالعهد القديم فى القرن التاسع عشر. أصبح استاذاً للاهوت فى غرايفزڤالد فى ١٨٧٢ واستاذ اللغات الشرقية فى هاله عام ١٨٨٢، ثم فى ماربورغ عام ١٨٨٥، وفى جوتنجن عام ١٨٩٢. له مؤلفات وأبحاث عظيمة فى اللاهوت وتاريخ العهد القديم. وكمستشرق بارز اكتشف فى الأناجيل آثاراً ذات اصول آرامية. وكعالم باللغة العربية وعلوم الاسلام فقد شرح ڤلهاوزن «بقايا الوثنية العربية» وألف أول تاريخ نقدى للفترة الإسلامية الأولى فى كتابه «الامبراطورية العربية وسقوطها» كما ألف أيضاً كتاب «الأحزاب الدينية السياسية المعارضة فى بواكر عهد الاسلام».

١٢) يعقوب جيورج كريستيان آدلر (J. G. C. Adler) عاش بين ١٧٥٦ و١٨٣٤، واهتم بدراسة القرآن والكتاب المقدس.

١٣) كونراد فرديناند ماير (Conrad Ferdinand Meyer) من أكبر شعراء سويسرا، ولد عام ١٨٢٥ وتوفى فى زيوريخ عام ١٨٩٨.

١٤) ادوارد رويس (Eduard Reuss) عالم لاهوتى انجيلى ولد فى ستراسبورج عام ١٨٠٤ وتوفى فيها عام ١٨٩١. أصبح استاذاً منذ ١٨٣٤ وكان من ابرز ممثلى طريقة البحث التاريخى النقدى فى علم اللاهوت.

١٥) فريدريش كارل أندرياز (Friedrich Carl Andreas) مستشرق مختص بالدراسات الايرانية ولد عام ١٨٤٦ فى باتافيا وتوفى عام ١٩٣٠ فى جوتنجن. ألف عدة أبحاث حول النقوش الفارسية الوسطى وحول اللهجات الايرانية الحديثة.

١٦) جمعية العلوم فى جوتنجن.

١٧) لا تعرف هويته.

١٨) ريشارد آدلبرت لپسيوس (R. A. Lipsius) عالم لاهوت انجيلى ولد فى جيرا عام ١٨٣٠ وتوفى فى يينا عام ١٨٩٢. كان استاذاً فى ڤيينا وكيل وبينا وساهم بأبحاث هامة فى تاريخ العقائد الدينية وفلسفة الدين وكذلك فى تفسير العهد الجديد.

١٩) ألفرد فون گوتشمت (Alfred von Gutschmid) باحث تاريخى ولد بالقرب من دريسدن فى ١٨٣١ وتوفى فى توبنجن عام ١٨٨٧. كان استاذاً منذ ١٨٦٣ فى كيل وكونكسبرج ويينا وتوبنجن. اختص بدراسة تاريخ الشرق القديم وخاصة إيران.

٢٠) يعقوب بارت (Jakob Barth) عالم باللغات السامية من الطائفة الإسرائيلية ولد فى اقليم بادن عام ١٨٥١ وتوفى فى برلين عام ١٩١٤.

٢١) أنتونى آشلى بيڤان (Anthony Ashley Bevan) مستشرق وعالم لاهوتى بريطانى مختص بدراسة الكتاب المقدس واللغات السامية ولد عام ١٨٥٩ وتوفى عام ١٩٣٣. (ان كلمة «الحالى» فى مقالة الاستاد ليتمان تشير الى ان دونت المقالة بعد وفاة نولدكه بقليل، اى فى عام ١٩٣١).

٢٢) كارل كريستيان إيرنست بتزولد (C. C. E. Bezold) مستشرق وعالم باللغات السامية ولد عام ١٨٥٩ وتوفى فى هايدلبرج عام ١٩٢٢. اهتم خاصة بدراسة اللغة والحضارة الاشورية.

٢٣) رودلف برونو (R. Brünnow) ولد فى الولايات المتحدة من عائلة المانية سنة ١٨٥٨؛ ثم اتم تحصيل اللغات السامية وبالخاصة العربية فى المانيا؛ عين استاذا فى جامعة برنستون فى الولايات المتحدة عام ١٩١٠، وتوفى هنالك سنة ١٩١٧.

٢٤) زيجموند فرينكل (Siegmund Fraenkel) مستشرق اختص باللغات السامية ولد عام ١٨٥٥ وتوفى عام ١٩٠٩. اشتغل بدراسة اللغة الآرامية وساهم فى العمل على تاريخ الطبرى.

٢٥) جيورج ياكوب (Georg Jacob) مستشرق مختص باللغة التركية وعلوم الإسلام ولد عام ١٨٦٢ فى كونگزبيرغ وتوفى عام ١٩٣٧. أصبح منذ عام ١٩١٢ استاذاً للغات الشرقية فى جامعة كيل وأهتم خاصة بدراسة التصوف وأصحاب الطرق كالبكتاشية. وله مؤلف طريف وهام حول تاريخ مسرح العرائس وخيال الظل فى الشرق والغرب.

٢٦) نيكولاوس رودوكاناكيس (N.Rhodokanakis) مستشرق نمسوى ولد عام ١٨٧٦ وتوفى عام ١٩٤٥. اهتم بدراسة اللغة العربية وآدابها وأصدر ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات مع ترجمة له. وساهم كذلك فى دراسة حضارة جنوبى الجزيرة العربية.

٢٧) كريستيان سنوك هرگرونيه (Ch. Snouck Hurgronje) مستشرق هولندى ولد عام ١٨٥٧ وتوفى عام ١٩٣٦ واهتم بالدرجة الأولى بدراسة الفقه الإسلامى. يعتبر بالنسبة لهولنده كنولدكه بالنسبة لألمانيا. أصبحت أبحاثه وأعماله أسساً للدراسات الاسلامية الحديثة حيث أنها قدمت نظرة تاريخية لحقول الدين والتشريع والحضارة الاسلامية. ظل استاذاً فى لايدن، مركز الاستشراق الهولندى الشهير، من ١٩٠٦ حتى ١٩٢٧.

٢٨) تشارلزكتلر تورى (Charles Cutler Torrey) مستشرق امريكى اختص باللغات السامية ولد عام ١٨٦٣ وعمل استاذاً فى جامعة ييل من ١٩٠٠ حتى ١٩٣٢، وتوفى عام ١٩٥٦.

٢٩) اجنازيو جويدى (Ignazio Guidi) مستشرق ايطالى بمستوى تيودور نولدكه ولد عام ١٨٤٤ وتوفى عام ١٩٣٥. قدم ابحاثاً هامة فى علم اللغة العربية وساهم فى نشر مخطوطات فى التاريخ الاسلامى وعلم اللغة.

٣٠) اجناتز جولدتزيهر (I. Goldziher) مستشرق مجرى من الطائفة الاسرائيلية ولد عام ١٨٥٠ وتوفى فى بودابست عام ١٩٢١. بعد أن أتم دراسته فى بودابست أقام مدة عام فى مصر حيث كان اول اوروبى درس فى الأزهر فى القاهرة، مركز دراسة الفقه الاسلامى. أصبح عام ١٨٩٤ استاذاً فى بودابست. واهتم فى بادئ الأمر بالأبحاث المتعلقة باليهودية، إلا أنه عاد فتفرغ كلياً للدراسات الاسلامية. وأهم كتبه «دراسات محمدية» بجزئين و«رسائل فى علم اللغة العربية» و«محاضرات فى الإسلام» و«اتجاهات تفسير القرآن».

٣١) ليو راينش (Leo Reinisch) باحث لغوى وعالم باللغة والحضارة المصرية القديمة ولد فى النمسا عام ١٨٣٢ وتوفى فى ١٩١٩.

٣٢) جيورج هوفمان (G. Hoffmann) ولد عام ١٨٤٥ وتوفى عام ١٩٣٣. خلف نولدكه فى منصبه كأستاذ ومستشرق فى جامعة كيل.

٣٣) ادوارد ماير (E. Meyer) مؤرخ عاش بين ١٨٥٥ و١٩٣٠.

٣٤) ادوارد شفارتز (E. Schwartz) عالم باللغات الكلاسيكية ولد فى كيل عام ١٨٥٨ وتوفى فى ميونيخ عام ١٩٤٠. كان استاذاً فى جوتنجن وفرايبورج وستراسبورج وميونيخ. اهتم خاصة بالآدب الاغريقى.

٣٥) تيودور مومسن (Th. Mommsen) مؤرخ وحقوقى كبير ولد فى ١٨١٧ فى شمالى المانيا وتوفى عام ١٩٠٣ فى شارلوتنبورج. اشترك عام ١٨٤٨ حين كان استاذاً فى لايبزج فى الحركة الديمقراطية آنذاك ففصل بسبب ذلك. ثم أصبح استاذاً فى زيوريخ وبرسلاو وبرلين حيث درس التاريخ القديم. أصبح من ١٨٧٣ حتى ١٨٧٩ نائباً ليبرالياً فى البرلمان البروسى، ومن ١٨٨١ حتى ١٨٨٤ عضواً فى الرايخشتاغ. كان من خصوم بسمارك وله عدة مؤلفات تأريخية هامة. وحصل عام ١٩٠٢ على جائزة نوبل للأدب.

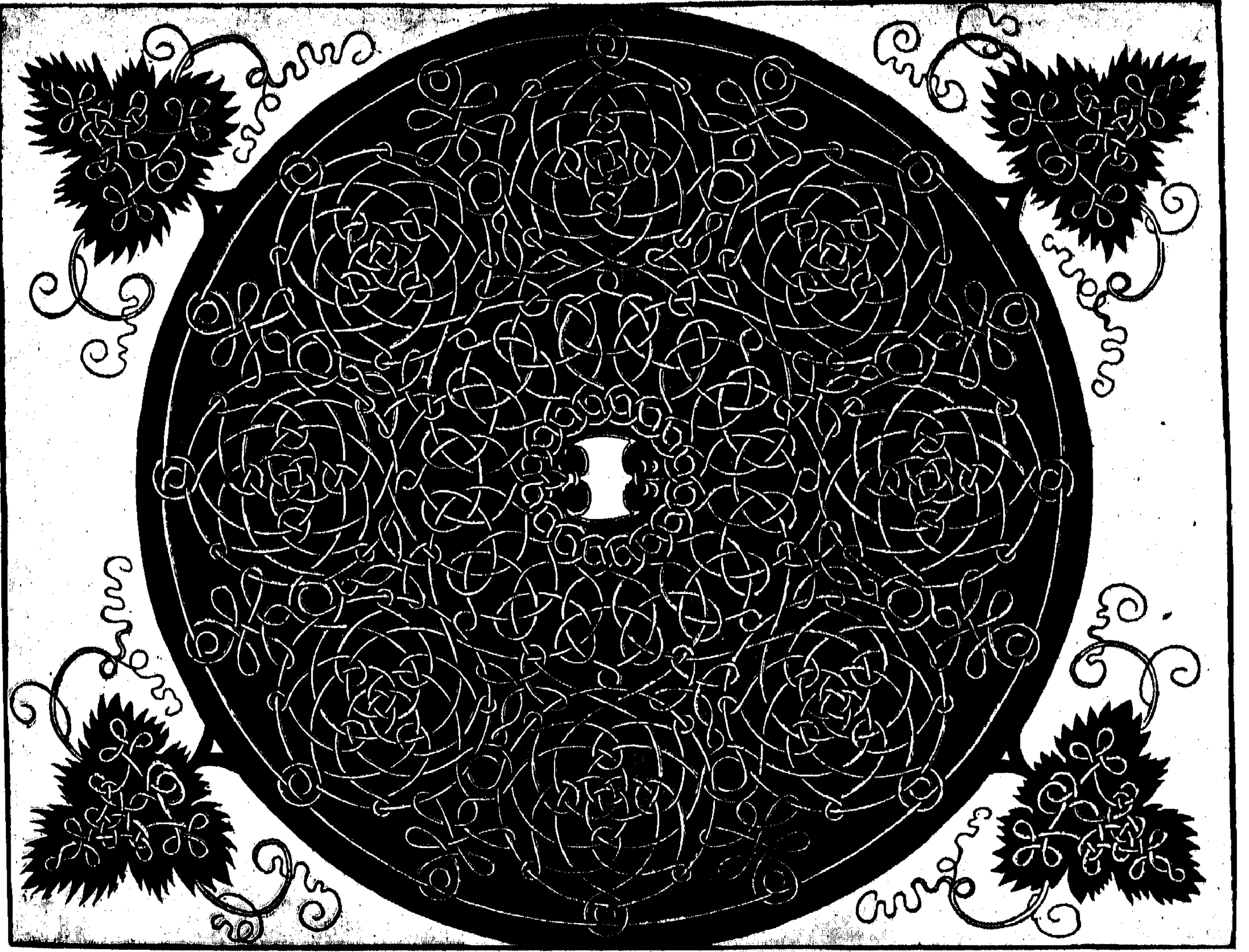
بعد اتمام هذا المقال تسلمنا نص بعض الذكريات للاستاذ الدكتور فؤاد حسنين على عن العلامة نولدكه، ويسرنا ان نضيف قسما منها الى مقال الاستاذ ليتمان.

تيودور نولدكه (٢ مارس ١٨٣٦ — ٢٥ ديسمبر ١٩٣٠)

لن انسى ذكريات يوم وفاته فقد كنت طالبا بجامعة ميونخ وكنت حديث عهد بالمانيا وجامعاتها، وشاء الله ان ارى واسمع نعى هذا المستشرق العظيم فى معهد من اكبر معاهد تلك البلاد، ومن عالم من اشهر رجالات المانيا الذين كرسوا حياتهم لخدمة الشرق والشرقيين، ونولدكه لم يكن غريبا على، وانا الذى شغفت بدراسة الشرق العربى، لغاته وآدابه، حضاراته ودياناته، قديما وحديثها، فكان لزاما على ان اتعرف على آثار هذا العلامة كلما اتيحت لى فرصة. وقد عرفته فى مصر لا عن طريق المصادر الالمانية، فقد كنت اجهل حينذاك تلك اللغة، بل عن طريق مصدرين انجليزيين عالميين، وهما دائرة المعارف البريطانية ودائرة معارف الكتاب المقدس، وذلك لان المستشرقين الانجليز اسندوا اليه تحرير معظم المواد المتصلة بالشرق والشرقيين فى المرجعين السابقين.

فى ذلك اليوم دخل (فريتز هومل) العالم المتواضع والشيخ الذى نيف على السبعين قاعة البحث عابسا مضطربا، لقد كان اليوم عبوسا قمطريرا، وما كاد يصل الى مقعده حتى صاح صيحة الحزين الكئيب «مات نولدكه» واستطرد فى الحديث عنه ورثائه.

مات زعيم المستشرقين الذى وان كان فى العالم القديم يذكر ففى الجديد لا ينكر. مات نولدكه الذى رفع لواء الاستشراق عاليا وظل رافعه زهاء نصف قرن، مات ذلك العالم الذى كان امة فى فرد واجيالا فى شخص. نولدكه هو المستشرق الذى خلق علوما لم تكن معروفة من قبل، وهجم على اعوص المشكلات فحلها لنا ووضع ايدينا على حقيقتها، فهو لم يمت الا بعد ان ترك للعالم اربعة وعشرين سفرا، واكثر من سبعمائة بحث فى الشرق، لغاته وآدابه، تاريخه ودياناته.



البرشت دورر: عقدة ثمانية.

.... والآن احب ان اضع بين يدى القارئ صورة تبين سر عظمة هذا العالم وقوته، وهذه الصورة ليست من عمل ريشتى او من وحى خيالى بل هى حقيقة مسجلة فى مقدمة الطبعة الثانية من الجزء الاول من كتابه فى (تاريخ القرآن) الذى نشره (فريدريش شواللى). فقد ارسل ناشر هذا الكتاب الى (نولدكه) عام ١٨٩٨ بخطاب يرغب فيه اليه ان يعيد نشر هذا الكتاب او يقترح عليه عالما آخر يراه اهلا للقيام بهذه المهمة، فاجابه (نولدكه) «.... فرفضت انا لاسباب عديدة وذلك لانه لم يكن فى استطاعتى ان اعيد نشر هذا الكتاب فى ثوبه الجديد الذى قد يرضينى، لذلك اقترحت على الناشر بعد تفكير لم يستغرق زمنا طويلا تلميذى وصديقى الاستاذ (شواللى) الذى اظهر ارتياحه واستعداده لتادية هذه الرسالة. فقد جعل من هذا الكتاب الذى الفته منذ نصف قرن سفرا يتفق الى حد ما مع المقتضيات العلمية الحديثة، اقول الى حد ما وذلك لان آثار تهور الشباب لا يمكن محوها جميعها الا باعادة تاليف كتاب جديد، وكثير من المسائل التى كنت اعتقد قليلا او كثيرا بصحتها، تبينت لى فيما بعد انها غير مؤكدة ...»

فؤاد حسنين على

جيورج ياكوب
(١٨٦٢ - ١٩٣٧)

بقلم : الأستاذة أنا ماري شمل

توفى المستشرق الكبير جيورج ياكوب حينما بدأت أتعلم العربية، ومع ذلك كانت تربطنى به أكثر من علاقة روحية : فعلى يديه نال أستاذى الأول فى اللغات الأسلامية، هانس إيللنبرج Hans Ellenberg، درجة الدكتوراه برسالة أعدها عن الفنون والصناعات عند القزوينى ؛ وعلى يديه أيضا نال أستاذى الذى حضرت عليه الدكتوراه، ريشارد هارتمان Richard Hartmann، درجة الأهلية للتدريس فى رحاب الجامعة. ومن هنا أستبيح لنفسى أن أدون نبذة عن حياة وأعمال هذا المستشرق العالم الذى كان له الفضل الأكبر فى شق آفاق جديدة كل الجدة على مناهج الدراسات الشرقية فى ألمانيا حتى مطلع القرن. وإنى لأستند فى هذا المقال على دراسة نشرها «إنوليتمان» فى دورية جماعة المستشرقين الألمان بمناسبة ذكرى وفاة صديقه ورفيق علمه.

وحتى نتفهم موقف ياكوب لابد أن نعلم أن الثقافة الاغريقية والرومانية كانت لا تزال المعيار الحضارى الوحيد المعترف به فى ألمانيا حتى أوائل هذا القرن، وكأن ماعداه لا يستحق العناية!

كما كان يوجد بين المستشرقين تيار لا يهتم إلا بالأبحاث والدراسات اللغوية البحتة، دون التفكير بالانجازات الحضارية للإسلام (وكما كان يقال «فقد كانت عائشة بالنسبة لهم لا تتعدى كونها اسم فاعل مؤنث من الفعل الثلاثى عاش») وكان علماء اللغات السامية يحاولون اكثر فأكثر سبر أغوار طبقات تاريخ اللغات السامية. وتصدى ياكوب لهذين الاتجاهين بكل ما لديه من طاقة؛ لا بل إنه مضى فى مقاومته إلى حد نشر مقالة له بعنوان «التعصب للكلاسيكية على نهج حفارى قبور الثقافة الألمانية»، ولم يتورع عن استخدام أقسى العبارات ضد بعض زملائه الذين اشتغلوا، على ما قال، «بوضع اللغات السامية فى عصر الجليد». أما بالنسبة له فكانت تصح هذه الحقيقة :

«إن مقياس علم خليق بالحياة يتوقف دوماً على مدى ما يقدمه هذا العلم بطريق غير مباشر من فائدة للمجال العملى أيضا» — كما كتب عام ١٩١٧.

ولد ياكوب فى السادس والعشرين من مايو عام ١٨٦٢ فى مدينة كينكزبيرغ Königsberg، وفقد والده فى سن مبكرة. والغالب أنه ظل يعيش فيما بعد مع أمه وأخواته دون أن يفكر فى الزواج. وبدأ ككثير من معاصريه بدراسة علم اللاهوت والاستشراق؛ ثم ما لبث أن اتجه بصورة أقوى لدراسة علوم اللغات الألمانية وعلم أخلاق الشعوب بدلا من اللاهوت. وكان تيودور نولدكه استاذه فى ستراسبورغ؛ وعلى يدى هاينريش ليبرشت فلايشر، العالم النحوى الكبير، تعمق فى دراسة النحو العربى. ثم نال الدكتوراه تحت إشرافه عام ١٨٨٧ ببحث رسم معالم اهتماماته المستقبلة وهو: «تجارة العرب الشمالية البلطيقية». وكان قبل ذلك بعام واحد قد نشر مقالة عن السلع التجارية التى كان يشتريها العرب من البلاد الشمالية البلطيقية، وذكر فى ذلك بوجه خاص حجر الكهرباء الذى كان ذا قيمة كبيرة بالنسبة للعرب. ثم اهتم بدراسة العلاقات بين البلاد العربية وألمانيا فى صيغ دائمة التجدد؛ ومن أخصب أعماله المقالات التى نشرها حول «رواية عربى عن فولدا وشليزفيج وزوست وپادربورن ومدن ألمانية اخرى»، التى نشرت لأول مرة عام ١٨٩٠، ثم وسعت وزيد عليها وأعيد طبعها عدة مرات حتى عام ١٩٢٧، وما زالت حتى اليوم عظيمة الأهمية لدراسة الاوضاع الألمانية فى العصر الوسيط.

ومن بين هذه الدراسات الشرقية — الغربية أيضاً محاضرته

حول «العناصر الثقافية الشرقية فى الغرب» عام ١٩٠٢، وكذلك كتابه الذى صدر بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة، والذى يرجع ويشار إليه اكثر من جميع مؤلفاته الأخرى وهو: «تأثير الشرق على الغرب، وخاصة خلال العصر الوسيط». وعلى هذا الكتاب تستند فى كثير أو قليل جميع الابحاث والمؤلفات التالية التى تعالج موضوع تأثيرات الشرق الحضارية على الغرب.

وبعد أن حصل ياكوب على درجة الدكتوراه فى لايبزغ، راح يعمل فترة من الزمن فى مكتبة الدولة فى برلين، ثم قدم بحث درجة الكفاءة للتدريس فى السلك الجامعى فى كرايفزڤالد تحت إشراف آلڤارد، مؤلف الفهارس الكبيرة الخاصة بالمخطوطات العربية فى برلين والعالم الضليع الممتاز بالشعر العربى القديم وتاريخ العهود الإسلامية الأولى. وقد يكون من المحتمل أنه اتجه بتأثير من آلڤارد إلى دراسة الشعر العربى القديم؛ وتلا بحثه «دراسات للشعراء العرب» عام ١٨٩٣ مؤلف يعتبر أساسياً فى ميدانه وهو «الحياة البدوية فى ضوء الشعر الجاهلى». ويقدم هذا العمل الذى وسع وغير وزيد عليه عدة مرات لوناً جديداً تماماً فى الاستشراق الألمانى (ولذا فقد قام عدد من زملائه بتقريضه ونقده بتجريح لا رحمة فيه) إذ حاول ياكوب فى هذا البحث لأول مرة أن يستخرج من الشعر الجاهلى معلومات عن طريقة حياة البدو ومعيشتهم. فبالنسبة له، لم يكن الشعر الجاهلى كنزاً للكلمات النادرة والأشكال النحوية الغريبة، وانما مرآة تنعكس فيها طريقة حياة حلقة حضارية قد تبدو لأول وهلة شديدة الغرابة بالنسبة لنا. وبطريقة مشابهة قام عام ١٩٠٦ بوصف خمارة فارسية مع كل ملحقاتها فى العصر الوسيط كما تبدو من خلال أشعار حافظ الغزلية. وحتى إذا أكد اليوم بشكل أقوى على الطابع الثابت الرتيب للشعر الجاهلى بحيث لا يعتبر انعكاساً للواقع بالقدر الذى فعله ياكوب، فان مما لا شك فيه أنه من خلال الوصف والتعابير التى يزخر بها الشعر الجاهلى — كوصف مواقد النيران، والخيام وتوابعها وأثاثها، وأحمال قوافل الجمال — يمكن اكتساب عدة تفاصيل قيمة، ذات أهمية قصوى بالنسبة لعلم أخلاق الشعوب. وبعد كتاب «حياة البدو فى الجاهلية» عام ١٨٩٧، تلت فى فترة متأخرة دراسات عن الشنفرى الذى حاول ياكوب أن يقلد لاميته بالشعر الألمانى — ولكنه بطبيعة الحال لم يلق النجاح الذى حققه روكرت من قبله. ومع ذلك فكثيراً ما كان ياكوب يهتم بنظم قصائد يقلد فيها الشعر الشرقى، سواء كان عربياً أم فارسياً أم تركياً.

ومن كرايفزڤالد اتيحت لياكوب الفرصة للسفر إلى تركيا، حيث استيقظ اهتمامه بالتركية، وكتب لهذا الاهتمام أن يعطى ثماراً خصبة فيما بعد. وفى عام ١٨٩٦ ذهب كمدرس جامعى إلى هاله Halle وأصبح هناك فى الوقت نفسه أميناً لمكتبة جمعية المستشرقين الألمانية. وفى عام ١٩٠١ استدعى ليحتل كرسياً جامعياً فى ايرلانجن، ثم انتقل عام ١٩١١ إلى كيل حيث بقى يعمل فيها حتى وفاته.

وفى استانبول اتيحت لياكوب فرصة مشاهدة ألعاب الظل أثناء شهر رمضان، وكانت تركيا تمتاز آنذاك بهذه الألعاب. وبدا هذا الفن لياكوب، العارف الخبير بالفن المسرحى الأوروبى والمعجب الكبير بمسرحيات شيكسبير، ذا سحر خاص، بحيث بدأ يهتم فى بحث تاريخ العاب الظل، التى فتنته كثيراً، لأنها لم تقتصر على بلد واحد بل شملت الشرق بطوله وعرضه. أما امتيازه الخاص فى هذا الميدان فهو اكتشافه لألعاب ظل للمؤلف المصرى ابن دانيال (المتوفى عام ١٣١١)، الذى قدم عام ١٩٠١ أولى المعلومات عنه. وكان يدرس ويفحص المخطوطات القليلة الخاصة بهذا النوع من الأدب بكل دقة وعناية، وكان يعيد الدراسة والتدقيق دوماً، رغم أن المتن كان يحتوى على صعوبات يكاد يكون من المستحيل التغلب عليها. واستطاع عام ١٩١٠ أن ينشر عينات متفرقة من هذه الأعمال وأن يعرف العالم على «طيف الخيال». وفى العام نفسه كتب استناداً إلى ما كانت تحتويه تلك النصوص حول «سوق سنوية مصرية فى القرن الثالث عشر». وإذ أدرك ياكوب أن ألعاب الظل أو طيف الخيال فى البلاد الإسلامية لا يمكن أن توجد دون نماذج جاءت من الشرق الأقصى، فقد راح يدرس تقاليد الهند والشرق الاقصى فى هذا الميدان، وتعلم فى سن متقدمة السنسكريتية والصينية، ليتمكن من متابعة دراسة هذا الفن. وكان أول عمل كبير وشامل نجم عن دراساته الطويلة كتابه «تاريخ مسرح ألعاب طيف الخيال فى الشرق والغرب» الذى صدر عام ١٩٢٥ فى طبعة ثانية موسعة. وبالاشتراك مع پاول كاله Paul Kahle استمر على دراسة وبحث أعمال ابن دانيال وساهم فى تأليف مقالات لأبحاث كاله عن العاب طيف الخيال العربية، كما أصدر عام ١٩٣٠ مؤلفاً عن ألعاب الظل الهندية.

وكما واجه جيورج ياكوب مسألة مسرح الظل لأول مرة فى تركيا، فقد كرس لمسرح الطيف التركى كتاباً خاصاً عرف الألمان فيه لأول مرة على قصص كاراغوز الهزلية الشعبية المحبوبة — وهو عمل تابعه هلموت ريتر بطريقة



جيورج ياكوب

نموذجية. ولكى يتصور الانسان مدى الجهد المبذول فى هذا الانجاز، فلا بد له أن يفكر بأن الدراسات التركية قلما كانت تجد مكاناً لها فى حقول العلم فى الجامعات الألمانية فى مطلع القرن الحالى. وإنه لعمل ياكوب الكبير وامتيازه الخاص أن يتمكن من ايقاظ الاهتمام بتركيا العثمانية وجميع اوجه ثقافتها. وهنا — كما كان الأمر فى العربية — اتسع ميدان اهتماماته اتساعاً مدهشاً؛ فقد كان اهتمامه بالغاً بالنحو التركى وبضرورة إعداد كتاب مساعد لتدريس اللغة العثمانية، وقد تعلمنا من كتابه المساعد — بين كتب أخرى — قراءة التمارين الأولى باللغة التركية العثمانية. إذ يضم كتابه قصصاً خرافية واشعاراً صوفية ونماذج باللهجات العامية ونصوصاً كلاسيكية بحيث يقدم للمبتدئ عرضاً جيداً ومختارات طريفة من الأدب التركى. وكما هو الحال فى كل أعماله فقد ظهر هنا ايضاً حب جيورج ياكوب لكل ما هو شعبى — إذ كان أول من شرح وحلل خطب القصاصين والمداحين الأتراك. ومن صفاته المميزة أنه لم يتردد فى الحرب العالمية الأولى، عندما كانت ألمانيا وتركيا تحاربان جنباً إلى جنب، لم يتردد فى تاليف معجم مساعد لرجال البحرية والممرضات، حيث كان فى تلك الأعوام منهمكاً إلى حد بعيد فى الدراسات التركية عموماً. ومع ذلك فانه لم يهمل العربية قطعاً بل إنه كان يحاضر كذلك فى مسائل تتعلق بالعهد القديم .. ومن أعماله الكبيرة أيضاً احياء «المكتبة التركية»، وهى تلك المجموعة من النصوص والدراسات الخاصة بتاريخ الإسلام الحضارى والتى تشتمل على اكثر من خمس وعشرين دراسة هامة منذ عام ١٩٠٤. وقد نشرها وحده أولا، ثم اشترك فى ذلك مع المستشرق السويسرى رودلف تشودى R. Tschudi فيما بعد، واخيراً معه ومع المستشرق الكيلى

اللاحق تيودور منزل Th. Menzel، الذى تابع اعمال ياكوب حول المسرح التركى بنجاح كبير. وفى هذه السلسلة ظهر ذلك الكتاب الذى عرف الألمان لأول مرة على إحدى الطرق الإسلامية؛ ونعنى به دراسته للطريقة البكتاشية (١٩٠٨). ويعتبر هذا الكتاب عملا طليعياً حقيقياً، إذ لم يكن احد يعرف حتى ذلك الحين أى شىء عن تكوين الطرق الإسلامية وتاريخها؛ والبكتاشية بالذات — التى لعبت فى تركيا دوراً كبيراً جداً نظراً لارتباطها بالانكشارية — تتمتع بأهمية كبرى فى ميدان علم أخلاق الشعوب وكذلك فى دراسة تاريخ الأديان، فقد بقيت فيها عدة عناصر غير اسلامية، كما أنها تحمل معالم شيعية كثيرة. وحتى اليوم يعرف كل تركى القصص الكثيرة التى تدور حول إجابات شيوخ البكتاشية التى تمتاز بحضور البديهة وسرعة الخاطر. وبهذا العمل افتتح ياكوب دراسة التصوف الشعبى فى الإسلام؛ وإن قيامه بعد ذلك ببضعة أعوام بضم كتاب ريشارد هارتمان البديع «عرض القشيرى للتصوف» إلى المكتبة التركية، ليظهر مدى اهتمامه أيضاً بالتعريف بالأسس النظرية للتصوف الإسلامى فى قالب واضح سهل القراءة والفهم فى اوروبا.

وكما أبدى ياكوب اهتمامه منذ دراساته الأولى بالقضايا الموضوعية بعينها رافضاً أى رأى لا مبرر له حول المسائل اللغوية البحتة، فقد جذبه الفن ايضاً بجميع اشكاله — ابتداء من الفن المسرحى، الذى سبق أن ذكرناه اعلاه، حتى فن العمارة والبناء. ومما لاشك فيه أيضاً أن المتعة الفنية الخالصة قد لعبت دوراً هاماً كذلك فى انشغاله الطويل بدراسة هياكل ورسوم ألعاب الطيف الصينية. وكان الفن الاسلامى فى تلك الأعوام لايزال ميداناً مجهولا إلى حد بعيد، بحيث لم يحصل إلا تحت إدارة فيلهلم فون بوده W. v. Bode على مكان فى معرض الفنون العام لمتاحف برلين. ولم يبدأ التفهم الجديد للفن الاسلامى فى ألمانيا إلا بعد افتتاح المعرض الكبير لروائع أعمال الفن الإسلامى فى ميونيخ عام ١٩١٠. وكان ياكوب أيضاً هو الذى اشتغل فى البيان الايضاحى على الفن السلجوقى والفن التركى والفن الاسلامى فى الهند — وكان كل من هذه الموضوعات جديداً تماماً ولم يخضه أحد بعد عملياً. ولكن هذا العالم الذى لا يعرف الكلل كان قبل ذلك قد نشر، فيما يتعلق بدراساته عن العلاقات الثقافية بين الإسلام واوروبا، كان قد نشر عام ١٩٠٥ دراسة حول انتقال الأقواس المدببة والأقواس الشبيهة بحذوة الحصان فى فن العمارة، ويعتبر أمراً محتملا أن القوس المدبب الغوطى قد تأثر بالقوس الإسلامى (كما يظهر مثلا فى مسجد ابن طولون فى القاهرة). وإذا لم يعد ياكوب بنفسه إلى تناول هذا الحقل فيما بعد إلا نادراً — وكان خبيراً ممتازاً بالطنافس الفارسية — فقد كان يشجع كثيراً من طلابه على الاهتمام بمسائل الصنعة اليدوية، كما يرد ذكرها وتعرض فى المصادر الإسلامية. فقد كان ياكوب نفسه يتمتع بطبيعة فنية قوية، وكان «رومانسياً ناقداً»، كما وصفه كارل هاينريش بيكر فى مقالته التقديرية الجميلة بمناسبة ذكرى عيد ميلاد ياكوب الخامس والسبعين. وقاده ذلك الميل الفنى كذلك إلى موضوع يتعدى حدود ألعاب الطيف والأساطير — إلى موضوع الأحلام: فدراساته حول الأساطير والأحلام التى صدرت عام ١٩٢٣ — ١٩٢٤ فى هانوفر تعطى الدليل على مدى انجذابه لهذا الحقل الجانبى ما بين الواقع الملموس وما فوق العالم الحسى — وكثيراً ما فسر المفكرون والمؤلفون الإسلاميون لعبة طيف الخيال كرمز لعمل اللاعب الخفى، الله، على ما يقول ابن الفارض.

لقد كان كل ما كتبه ياكوب متجهاً إلى الحياة، فى جميع مظاهرها وأشكالها المختلفة. وسواء أعالج مؤلفات العرب الجغرافية، أم كتب حول ما نشر حديثاً عن فلسطين، وسواء أدرس النحو التركى، أم نشر أشعار سلطانين تركيين، وسواء أترجم اشعاراً صوفية فارسية الى الشعر الألمانى، أم استخرج منها معلومات عن الحياة فى ايران فى العصر الوسيط — كان فى كل ذلك يبدى اهتمامه الدائم بكل ما هو نابض بالحياة. ومع أنه لم يسافر كثيراً، وكان يستقى شروحه فى الغالب من اختباراته الخاصة، إلا أن استعداده اللغوى الممتاز كان يعطيه سنداً وقوة كبيرين هنا. وقد دعاه بيكر فى مقالته التقديرية المذكورة أعلاه «بذى الفتوة المنفرد فى ميدان العلم» — رجل لم يكن من السهل دوماً الاتفاق والتعامل معه، إذ كان يعرب عن آرائه فى الغالب بخشونة ودون أى مراعاة؛ ولكن بيكر أكد كذلك على أن ياكوب كان يتمتع بمقدرة نادرة على رؤية العلاقات التاريخية الكبيرة وعلى الانغماس فى تقشف فى استقصاء وبحث التفاصيل بكل جهد وعناية. ولم يشتمل افقه على العالم الشرقى من الصين عبر الهند إلى البلاد الاسلامية فحسب، بل تناول كذلك دراسة الفولكلور والادب الأوروبى؛ ولكى يدعم دراساته جيداً فقد كان يهتم كذلك بالعلوم الطبيعية والمسائل المتعلقة بها. وكان يعيد النظر دوماً على دراساته ويعيد العمل عليها، ويكيفها إلى أحدث مستوى علمى، ولكن مما يؤسف له

Kiel 16.10.1931
Feldstr. 147 I.

Sehr verehrtes Fräulein Doktor,

Heute möchte ich Ihnen nur für Ihre Arbeit und Ihren freundlichen Brief herzlichst danken, da ich meine Augen schonen muß. Das Beduinenleben hat mir in jüngeren Jahren so viel Gemeinheit eingetragen, daß ich oft bedauert habe, es geschrieben zu haben. Hätte ich statt dessen ein Buch über den Zustands-Akkusativ zur Hilfszeit oder ähnlichen Schwindel verfaßt, so hätten mir der größte Stinkbock des Kontinents Praetorius und Geistesverwandte, die nicht begreifen können, daß historische und logische Entwicklung sich niemals decken, wahrscheinlich zugejubelt, aber damit war mir nicht gedient. So bin ich über das Türkische zum Jüdischen und schließlich zum Chinesischen

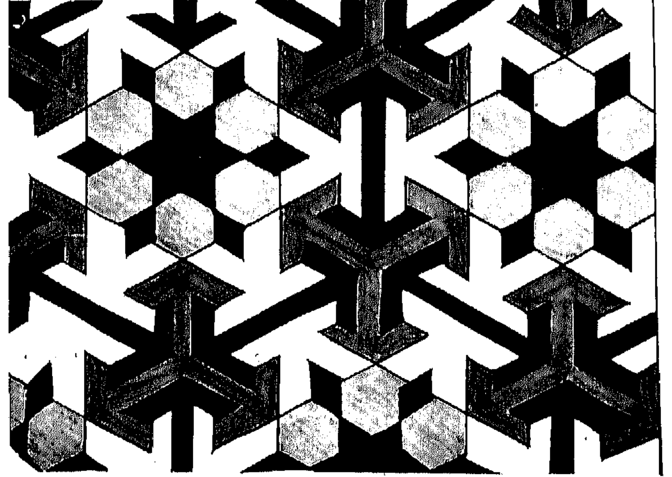
رسالة بعث بها جيورج ياكوب إلى الدكتور إلزه ليشتنشتيتر Ilse Lichtenstadter، وكانت قد بعثت إليه ببحثها الذى حصلت به على الدكتوراه وعنوانه «النسيب فى الشعر العربى القديم». وفى هذه الرسالة يكيل ياكوب اللعنة على عالم اللغات السامية بريتوريوس Prätorius (توفى ١٩٢٧) ملقبا إياه بـ «أكبر تيس أخرق فى القارة».

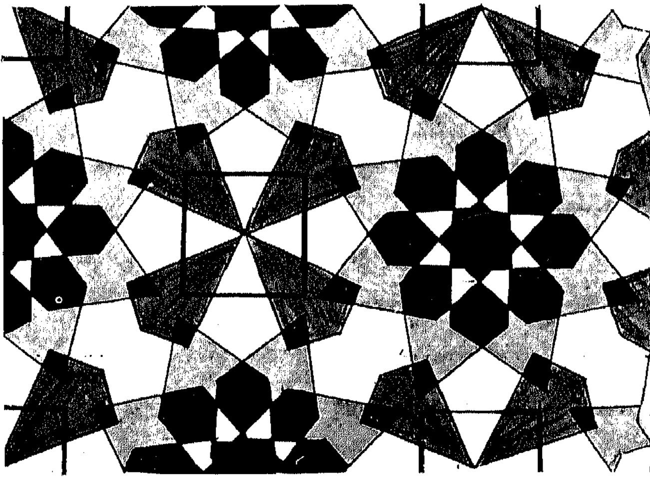
أنه كان يوزع أغلب نشراته العلمية فى آخر سنى حياته فى عدد محدود من النسخ المطبوعة بالآلة الكاتبة. وكانت صفة الشمول والكلية التى امتاز بها تمتد لتتناول أبعد الميادين وأقصاها، ونشعر فى جميع أعماله بطابع شخصيته القوية العنيدة. ولقد شق الطريق إلى دراسة الشرق الإسلامى دراسة تمتاز بطابع تاريخى حضارى وكذلك فولكلورى، مكافحاً فى ذلك ضد العقلية اللغوية الضيقة القديمة، وكذلك ضد الاتجاه المتحجر فى الدراسات السامية فى عصره، ويمكن أن نلمس مدى نفوذه وأثره العلمى فى مؤلفات كثيرين من أصدقائه وتلامذته وأعمالهم. ولعله كانت تكمن وراء جميع أعماله الرغبة «فى التفهم العلمى لصيرورة الشعر»، أو بعبارة أخرى، تخطى ذلك الحد الذى يفصل بين العلم والفن. فقد كان ذلك الميدان الجانبى الجذاب المثير، حقل أبحاثه الخاص. وما أجمل قوله فى كتابه «الاساطير والأحلام»: «إن الحلم هو شعر لا واع. والحالم يبدع مسرحية، تظهر فيها شخصيات يفرض عليها أدوارها. وتبدأ الحكاية الاسطورية صيرورتها بنقل تجربة الحلم إلى حالة الوعى.»

ألا يشبه بذلك الصوفيين الاسلاميين الذين يولون الاحلام دوراً كبيراً والذين كانوا دوماً يشيرون إلى الحد المتأرجح بين العالمين؟ وبهذه الصورة ينطق دوماً الشاعر التركى كشترى، الذى يرجع إلى غزله فى لعب الكارا غوز منذ زمن طويل لتفسير اللعب تفسيراً صوفياً (وكان ياكوب فى الحقيقة أول من درس ألعاب الكارا غوز دراسة علمية)؛ وبهذه الصورة أيضاً ينطق أعظم مغن فى التصوف العربى بطريقته الخاصة التى لا يمكن تقليدها، ونعنى به ابن الفارض:

فطيف خيال الظل يهدى اليك فى
كرى اللهو ما عنه الستائر شقت
ترى صور الأشياء تجلى عليك من
وراء حجاب اللبس فى كل خلقه.

ترجمة: محمد على حشيشو





أوغست فيشر

(١٨٦٥ - ١٩٤٩)

بقلم : الأستاذة أنّا ماري شِمّل

أذكر بوضوح لقاءنا الأول بأوجوست فيشر، وكان ذلك فى أحد مؤتمرات المستشرقين الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٢ على وجه التقريب ... شاهدناه وهو الذى عرفنا اسمه منذ بدأنا دروس اللغة العربية، وكان آنذاك شيخ قصير القامة، يقارب الثمانين من عمره، وإن لم تزل عيناه السوداوان تلمعان تحت جبينه العريض المتوج بالشعر الابيض كلما تحدث فروى من الكتب العربية ما روى أو نقد آثار زملائه — وكان شديد النقد لاذع اللسان ... أما نحن — «الأطفال فى عائلة المستشرقين» — فقد كنا نصغى الى حديثه وكأن على رؤوسنا الطير. فطالما تعلمنا من اللغة العربية وآدابها الكثير — بعد إتمامنا درس قواعد النحو الاولية — من الكتاب الذى نشره الأستاذ فيشر مجددا فيه ومنقحا لكتاب الأستاذ برونو وبذلك صار يدعى هذا المؤلف بالألمانية:

Brünnow-Fischer, Arabische Chrestomathie aus Prosaschriftstellern,

وعنوانه بالعربية:

«تسهيل التحصيل وهو كتاب مدرسى يتألف من نخب مختارة من الكتب العربية» ويعد هذا الكتاب من أهم مراجع دراسة اللغة العربية فى ألمانيا، فكم من الطلاب اشتغل بحكاياته واستفاد من قاموسه القيم منذ ان صدرت طبعته الأولى سنة ١٩١٣!

لم نكتف فى ذلك الوقت بالتعجب لأبحاث هذا الشيخ الجليل المتبحر فى النحو العربى بل رأينا فيه حفيداً روحياً لمؤسس الاستشراق العلمى فى اوروبا ألا وهو سيلفستر ده ساسى الفرنسى المتوفى عام ١٨٣٨؛ وكان التلميذ الأشهر لهذا المستشرق الشهير الأستاذ هاينريش ابرخت فلايشر H. L. Fleischer (١٨٠١ الى سنة ١٨٨٨) الذى كان استاذ اللغات الشرقية فى جامعة لايبزيج وهو الذى جعل معهدها الشرقى مركزا لتدريس فقه اللغة العربية وبالخاصة النحو العربى، فقد اهتم بمسائل النحو المجرد وكان صاحب علم غزير باحثا فى المشاكل اللغوية والنحوية ولاشك انه استحق ان يدعوه زملائه أعلم المستشرقين وشيخهم فى الغرب كله بعد وفاة أستاذه الفرنسى حتى اننا نعثر على ثمار علمه فى التصحيحات العديدة التى أضافها الى قسم كبير من المصنفات فى مجال اللغة العربية وآدابها سواء أكانت قواميس ام كتب تأريخية، ولكنه مما يثير الأسف انه مع تأليفه الملاحظات القيمة والحواشى المفيدة التى لايحصيها العدد فهو لم يقم بجمع نتائج أبحاثه ومحصول أعمال سلفه العظيم فى كتاب شامل لفقه النحو واللغة العربية، ومع ذلك يعد فلايشر أستاذا لكبار المستشرقين الأوروبيين فى القرن التاسع عشر إذ كان يحضر دروسه الطلاب من الأقاليم السبعة وأصبح معهد لايبزيج مثالا نموذجيا لدرس العربية حسب النهج العلمى فى الغرب.

أما أستاذنا أوجوست فيشر فأخذ كثيراً من علمه عن تلميذ لفلايشر يدعى هاينريش توربكه H. Thorbecke الذى توفى فى سنة وفاة أستاذه (١٨٨٨): وهكذا عين فيشر فيما بعد فى منصب فلايشر فى جامعة لايبزيج وصار أمينا على تراثه العلمى. والحق أن فيشر كان شبيها لأستاذه الكبير فى وجوه كثيرة، الأمر الذى نستدل عليه من المقال الذى كتبه عن فلايشر سنة ١٩٣٠، وكان هو الآخر ينهج الفلسفة الوضعية للغة فى ابحاثه العلمية ويطبق فى درسه طرق البحث التحليلية، فهو لم يقبل صحة افادة ما إلا بعد التثبت منها علميا، ولذا كان — رحمه الله — ناقدا لايرحم لكل من أهمل الأصول اللغوية والنحوية فى التراجم سواء عن العربية ام التركية إلى اللغات الغربية ولم يعرف التسامح مع من كان يقوم ببناء القصور العلمية فى الهواء دون ان يقيم اساسها النحوى على صورة لا غبار عليها ...

لبيزج ١٦/٢/١٩٤٥

حضرة المستشرقة العالمة الدكتورة ا. شيمل

عزيزتي وصلني خطابك الرقيق الذي تهنئينني فيه بعيد ميلادي
الثمانين وتتمنين لي كل سعادة وخير وقد أضفت اليه شعرا
عربيا وزوقت صحيفتيه تزويقا فنيا جيدا. فتقبلته بيد السرور
وقرأته بلسان الفرح وأعيه بقلب مملوء بحبور. وإني لأشكرك
على ما أبديته نحوي من العطف وما تجلت عنه عبارتك
اللطيفة من حسن الظن بي.
ورجائي عدم المؤاخذة في تأخيري الشكر حيث كانت لدي
سوانح قهرية منها تخرب بعض منزلي بقنبلة منفجرة أميركانية

صحيفة من مكتوب لأوجوست فيشر بعث به الى مؤلفة هذا المقال فى شهر شباط ١٩٤٥.

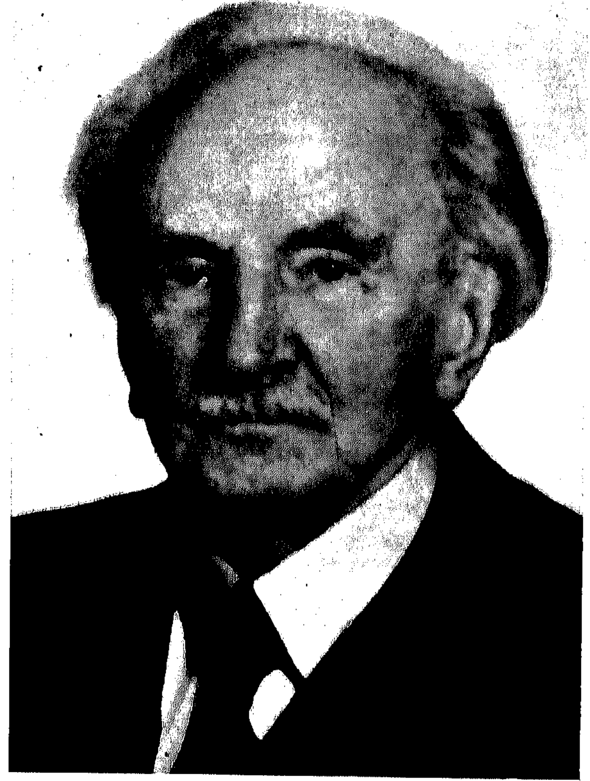
ولد أوجوست فيشر سنة ١٨٦٥، ودرس اللغات الشرقية قاصدا فى أول الأمر الاشتغال بالتوراة واللغات السامية؛ ثم ركز همته على درس العربية والتركية، واقام فى فترة دارسته لمدة فصل دراسى واحد فى جامعة ماربورج على نهر لان ليستفيد هناك من دروس ولهاوزن Wellhausen المؤرخ العظيم (١٨٤٤ الى ١٩١٨) الذى كان قد اشتهر أولا بنقده لمتون التوراة من الوجهة التأريخية (فصار لذلك أحد مؤسسى علم اللاهوت العصرى فى الغرب)؛ ثم نشر بعد ذلك ابحاثه فى مجال تاريخ العرب فى عصر الجاهلية وفى عهد الرسول وعهد بنى أمية، وكان هو العالم الواسع الصيت العميق البحث الذى لم تزل كتبه عن خروج الخوارج وعن دولة بنى أمية مفيدة للغاية حتى يومنا هذا، خاصة لأنه سلك فيها طريقة جديدة فى البحث عن التاريخ الاسلامى وكانت له موهبة خاصة لفهم الروابط الداخلية بين الحوادث التاريخية وايضاح الوقائع وتمثيل خصوصيات الأشخاص المشتركين فى وقائع الدهور.

لذلك قصد فيشر فى شبابه الى درس العربية على يدى ولهاوزن. وكتب بعد ذلك بستين سنة فى بطاقة بعث بها فى يناير عام ١٩٤٦ الى مؤلفة هذا المقال وهى اذ ذاك مدرسة فى جامعة ماربورج:

«درست فصلا دراسيا واحداً فى مدينة ماربورج على يدى ولهاوزن الذى ضرفنى عنه اذ لم استطع ان استزيد منه علما، ولانه كان بصدد بناء دارا لنفسه مما عاقه عن إعداد الدروس لى (فقد كنت تلميذه الوحيد فى اللغة العربية). وأحب مدينة ماربورج منذ ذلك زمان»...

ثم حصل فيشر على درجة الدكتوراه من جامعة هاله سنة ١٨٨٩، وكان موضوع أطروحته مأخوذاً عن «علم الرجال» وقد برهن فى هذه الاطروحة على غزارة علمه فى اللغة العربية، وعلى ان اطلاعه على المصادر التاريخية القديمة يستحق كل تقدير وثناء، ونشاهد حتى فى باكورة تآليفه البحث المنقب عن الحقيقة العلمية المطلقة، فهو لم يدع تعبيرا غريبا ولا كلمة مبهمة الا وسعى الى فهمها وايضاحها بكل اجتهاد، مستعينا بكافة المصادر اللغوية والتاريخية.

كان هذا هو اسلوبه العلمى، فهو لو أراد ان يحقق معنى جملة واحدة او ينقب عن تعبير نادر استعان بكل المتون والشواهد التى كانت لديه او كانت محفوظة فى متاحف الغرب والشرق (ولا اظن انه يوجد من متن عربى قديم إلا وعرفه معرفة خبير!) ولذلك الوازع الملح لبلوغ الحقيقة العلمية اشتهر فيشر فيما بعد كناقد لا تغمض عيناه عن هفوات



صورة الأستاذ اوجوست فيشر فى أواخر أيامه.
نشكر الأستاذ الدكتور يوهان فوك الذى انعم علينا بهذا التصوير.

زملائه اذا اخطأوا، وقال فيه الأستاذ يوهان فوك J. Fück فى مقالة تذكارية أجاد فيها وصفه:
«لم يدّع بأى حال أنه معصوم عن الخطأ بل كان بالاحرى يعلم تلامذته أن عليهم قبل البدء بالبحوث ادراك جهلهم الكلى، ثم كان يرشدهم الى الطريق محاولا أن يبين لهم ان أساس كل بحث فى جميع فروع العلوم الاستشراقية لايكون الا بمعرفة المسائل المطلوبة معرفة كاملة من جهة الصرف والنحو وبمساعدة القاموس والمصطلحات اللغوية».
بعد ان أتم فيشر درسه فى مدينة هاله عين مدرسا للغة العربية فى معهد اللغات الشرقية الجديد فى برلين سنة ١٨٩٦، وجلبت اهتمامه هناك اللهجة المغربية التى درسها أولا فى برلين ثم فى المغرب نفسه، ونشر فيما بعد مجموعة من الاشعار المغربية التى حصل عليها اثناء إقامته فى المغرب فى كتاب عنوانه Das Liederbuch eines marokkanischen Sängers (اناشيد مغن مغربى، لايبزيج ١٩١٨) ذلك أنه كان على اقتناع كامل بأن درس اللهجات العربية العصرية من اهم الواجبات على كل من قصد تعلم العربية الفصحى وأراد ادراك خصائصها والتعمق فى تاريخ تطورها منذ قديم الزمان الى ايامنا هذه. ولذلك كرس جانبا كبيرا من ابحاثه لتحقيق مسائل لغوية تتعلق باللهجات العصرية (فلنذكر انه توجد هناك مثلا مقالة ذات اهمية له عن اسماء القط فى اللهجة المغربية...) واستحث تلامذته الى تدوين ملاحظاتهم فى مختلف الاقطار العربية التى يزورونها.
بعد ان عاد فيشر من المغرب عينته الحكومة أستاذا لكرسى اللغات الشرقية فى جامعة لايبزيج سنة ١٩٠٠ ولم يتخل عن هذا المنصب العلمى الى ان توفى الى رحمة الله سنة ١٩٤٩، وبفضله اصبحت مدينة لايبزيج مرة أخرى مركزا لدراسة العربية فى المانيا على نحو ما كانت عليه فى عهد الأستاذ فلايشر؛ وكان فيشر حاضرا لمعاونة زملائه وتلامذته اذا طلبوا اليه مددا فى مسائل الصرف والنحو واللغة فاستفادوا منه، لأنه كان يعتبر النحو العربى قلب العلوم الاستشراقية، ولذلك نشر كثيرا من الملاحظات القيمة والمقالات الغنية التفرعات فى هذا المضمار، ومن ذلك ما ألفه حول مسألة النطق الصحيح باسم الشاعر امرئ القيس، او عن مختلف صيغ القسم كما انه عالج مشاكل الترجمة فى إجابته على مثل هذه الأسئلة: كيف نحصل على ترجمة صحيحة لبيت من ابيات الشاعر فلان بن فلان، او: ماهو المعنى الحقيقى المقصود فى سورة تبت، وهو قد أظهر فى هذه المقالات على

79 32

Das Liederbuch eines marokkanischen Sängers. صحيفة من كتاب اناشيد مغن مغربي، نشر سنة ١٩١٨.

72 A. Fischer:

esels nicht in ängstliches Zittern gerieten[1]). — Und sei mir gnädig, o Gott, wenn ich sündige! — Und gar manche eine Wange[2]) zierende Rose, deren Besitzer hört und sieht, tränkt früh und spät der Tau der Tränen, ohne daß sie ein Bewußtsein davon hat. — Und von manch anderer, auf einem Strauche blühender Rose zerstreuen sich die Blätter, weil sie welkt und durstet, während doch das Wasser in der Wurzel ihres Stockes rinnt. — Und Gott in seinem Edelmut ist huldvoll gegen den, der ihm dient, und so führt dieser ein angenehmes Leben. — Und nähren mögen die alten Geier mit dem Lobe ihres Herrn ihre Jungen[3])! Endreim."

S. ٤٧٦, 11 ff.:

رجع : وإن كانت صُفْرةُ البَهازِ من خَوْفِ المَوْتِ فهِىَ تَشْعُرُ إذا دَنَا مِنْها الجانُونَ؛ وإن كانت صُفْرتُها غَريزةً فلا بالةَ لها أَفْتَكَ الجانِى بأُخْتِها أَمْ بالشِّيحَةِ؛ وعَظُمَ عَفْوُ اللهِ خَطَرًا. وَلَوْ ظَنَّ الحِرْباءُ أَنَّ أُمَّ حُبَيْنٍ تَحْمِلُه على قِشْوةٍ لَطَلَّقَها بغَيْرِ استِثْناءٍ، ولاتَّخَذَ بَدَلًا

1) Cf. Mutanabbī, ed. Dieterici, S. ٧٥, ult.:

مَوْتٌ فَرِيصُ المَوْتِ مِنْه يُرْعَدُ

(Diet. falsch يَرْعُدُ), mit dem Kommentar: وهو مَوْتٌ لأَعْدائه فيَخافه المَوْتُ وتَرتعد فرائصُه وهى لحمات عند الكتف تضطرب عند الخَوْف (ungefähr ebenso ʿUkbarī, aber mit — noch schlechterem — تُرْعِدُ statt يُرْعَدُ); Ḥarīrī, *Maqāmāt*, ٣٦٦, 1: وأُرْعِدَت فَرائِصى ارتياعًا u. a.

2) وَجَنات steht hier von der Wange einer Person. So auch, und zwar gleichfalls in Verbindung mit وَرْد, Yāqūt, a. a. O., I, ٦٥٣, 21:

الخَمْرُ فى لَحَظاتِها والوَرْدُ فى * وَجَناتِها والكَشْحُ غَيْرُ مُفاضِ

und Maqqarī, I, ٨٩٠, 12:

خافَ اقتِطافَ الوَرْدِ من وَجَناتِها * فأَدارَ من آسٍ سِياجَ عِذارِ

3) قَشاعِم von Geiern auch *Naqāʾiḍ Ǧarīr wa-l-Farazdaq* ٣٨٩, 3; *Bibl. arab.-sic.*, ed. Amari, ٥١٤, 2 u. 8.

صحيفة من الرسالة العلمية التى الفها اوجوست فيشر حول «كتاب الفصول والغايات لأبى العلاء المعرى»، ويلاحظ فيها الاسلوب الذى كان يتبعه فيشر فى معالجة موضوعاته العلمية.

صغر حجمها علما موسوعيا بالتقاليد العربية وتاريخ التفسير والآداب وآثار النحويين ... ومن بين الموضوعات التى عنى فيشر ببحثها وضع اللهجات المختلفة فى جزيرة العرب فى عهد النبى والخلفاء الراشدين كما أنه لم يتوان عن جلب اهتمام المستشرقين الى تقدير مدى أهمية الأشعار الجاهلية فى ايضاح بعض التعابير الصعبة فى القرآن الكريم. وقد رأى فيشر فى الآداب العربية القديمة اربعة مجالات لغوية يختلف بعضها عن بعض من الوجه النحوى واللغوى ومن جانب الاسلوب والمضمون، ألا وهى الشعر الجاهلى، واسلوب القرآن، والنثر فى الصورة التى نجدها فى كتب السير و المغازى، وأخيرا الحديث النبوى. إلا ان هذا التدقيق النحوى والتحقيق اللغوى الذى نهجه فيشر لم يكن هدفا فى حد ذاته كما ظنه الكثيرون من زملائه وإنما كان وسيلة لفهم الآداب العربية او — إن شئت — الوسيلة الوحيدة الموثوق بها. ومع ان المستشرقين كانوا يخشون لاذع نقده لهم وان بعضهم لم يحبوا طريقته هذه فى تقطيع كل كلمة وتشريح كل عبارة، فكان فيشر نفسه قد اعترف «ان الآداب فى نظرى لهى جوهر التآليف الشرقية كلها وصميمها». ومع ميله للاداب لم يروم الفقه الاسلامى ولا آثار اهل الكلام، وفى صفته الموضوعية لم يتمكن من الالتفات الى التصوف الا من الوجهة اللغوية، ومع ذلك فقد كان يرجح عبارات المتصوفين على اقوال اهل الكلام، وقد وجه الأستاذ فيشر شكره الى كاتبة هذا المقال فى احد الايام (وكان آنذاك فى الرابعة والثمانين من عمره) على ترجمتها لبعض الأشعار الصوفية قائلا:

«ان للتصوف اخطار ومزالق، ولكنه بلا شك اعظم جاذبية من الكلام والعقائد الاسلامية الشرعية فهو يسلب العقول اكثر منها، ومن المعتقد انه من حظ التصوف الفارسى انه سوف يمن على العالم بالكثير من الهبات».

وكان الأستاذ فيشر على الرغم من تقديره للأدب والتصوف الى حد ما لايستحسن آثار بعض زملائه الذين صنفوا كتبا ورسائل فى مواضيع تاريخية وادبية ودينية بدون ان يعتمدوا على أسس نحوية قوية او ان يحققوا معانى كل من التعابير تحقيقا علميا ... ومما يدعو للأسف ان اوجوست فيشر — وهو يشبه فى ذلك أستاذه فلايشر — لم يقم بتأليف كتاب فى النحو العربى رغم أنه قد وقف حياته على بحث

هذا الموضوع ، ذلك أن ملاحظاته وحواشيه مشتتة فى مختلف المراجع والمصنفات ... كما نأسف أسفا أشد من ذلك إذ لم يأذن له القضاء باتمام قاموسه الكبير الذى انكب على تجميع شواهده أكثر من اربعين سنة ، إذ كان قد اعلن مشروعه هذا فى عام ١٩٠٧ هادفا الى اصدار معجم موسوعى يستمد عناصره من المتون العربية الكلاسيكية الممتدة حتى القرن الثالث للهجرة وبحيث لايستند الى الكلمات المسرودة فى القواميس العربية القديمة والتى يضمها قاموس «لين» Lane وغيره. وقد بقى هذا المعجم الشامل نصب عينى الأستاذ فيشر حتى آخر لحظات حياته ، وكانت قد دعته الحكومة المصرية الى القاهرة ليعمل هناك بضعة أشهر من كل سنة فى الإعداد لقاموسه المذكور ، وهكذا أخذ معه ما كان قد جمعه من الكلمات والتعابير وحفظها فى مصر منذ سنة ١٩٣٦ ، ولما ودع القاهرة للمرة الأخيرة عام ١٩٣٩ ترك مجموعاته فى عهدة «مجمع فؤاد الأول — سابقا — للغة العربية» الذى كان يتمتع بعضويته منذ سنوات ، ولم يأته خبر من مصر اثناء الحرب العالمية الثانية ولا بعدها حتى ظن أن مجموعاته كلها قد ضاعت فى تلك الحقبة المبلبلة وقد كتب الينا «إنه من الطبيعى ان أتألم غاية الألم لأن قاموسى قد راح ضحية الحرب ...» ولكنه أخطأ فى ظنه ، وليته تمكن قبل وفاته من السفر الى مصر على النحو الذى تمناه ! فلا زالت هناك بطاقاته الستة والثلاثون ألفا التى كانت محفوظة فى المجمع المذكور فى القاهرة ... كما قام مجمع اللغة العربية بالقاهرة بنشر نموذج لمتن قاموس فيشر بعد وفاته مع مقدمة المؤلف المكتوبة باللغة العربية (فى عام ١٩٥٠) ، وكان عنوان هذا المصنف «معجم تاريخى للغة الآداب العربية حتى نهاية القرن الثالث الهجرى». وذكر فيشر فى مقدمته التى دونها قبيل الحرب طريقته فى جمع الشواهد من المتون فهو لم يستغن تماما عن القواميس الشهيرة المعروفة من قبل. وهو قد وجه شكره الى «القراء والنساخين» المصريين الذين عاونوه فى مطالعة المتون الهامة واستنساخ الكلمات والتعابير. ولمزيد الأسى لم تمهله المنية لاتمام هذا المصنف العظيم أو استكمال مواده وجمعها فى معجم يستفيد منه اهل العلم فى الشرق والغرب ..

والى جانب شهرة الاستاذ فيشر كمؤلف للقواعد اللغوية فى مجال اللغة العربية وكناقد صارم فى مضمار فقه اللغة لا يصح ان ننسى أعماله الهامة حول الآداب التركية العصرية. فقد كان يجيد التركية حيث نشر ترجمات لاشعار محمد امين وكذلك ، فى سنة ١٩٢٢ ، كتيبا يحمل عنوانه العبارة التالية :

Aus der religiösen Reformbewegung in der Türkei (عن حركة الاصلاح الدينى فى تركيا).

ترجم فيه رسالة للوزير الاعظم سعيد حليم باشا (١٨٦٣ الى ١٩٢١) الذى كان قد نشرها هذا المؤلف عام ١٩١٨ عند انهيار الدولة العثمانية ، وتفصح هذه الرسالة المعنونة «اسلاملاشمق» عن امكانيات تجديد الافكار الاسلامية واصلاح حياة المسلمين الروحانية ، كما ترجم فيشر فى الكتاب ذاته بعض الاشعار لضياء كوك الب ، عالم الاجتماعيات وواعظ النهضة التركية ، وكذلك بعض الاشعار الاخرى لعبد الحق حامد الذى اعتبره اهم شاعر تركى معاصر. وقال العلامة فيشر فى مقدمته لهذا الكتاب انه يتفق ورأى المستشرق الهولاندى المشهور «سنوك هوركرونيه» الذى اعتبر مسألة الاسلام من المسائل المهمة فى عصرنا هذا وانها جديرة باهتمام العلماء وداعية لاجتهادهم. وأضاف فيشر الى هذه الكلمات انه من الواجب — فى رأيه — على كل مؤرخ ومستشرق ان يهتم بالحالة الراهنة فى العالم الاسلامى وان المهمة السامية التى يجب على المستشرقين الاضطلاع بها ، هى تعريف الجمهور بالتيارات الأدبية الجديدة فى أصح صورة ممكنة ، اى فى ترجمتها العلمية. لذلك قام فيشر بترجمة الاعمال التى تنطوى تحت هذه التيارات الادبية الدينية التى انبعثت فى تركيا. ومن العجيب ان كتابه هذا قد صار منبع الالهام لواحد من كبار المجددين فى عالم الاسلام الا وهو محمد اقبال الباكستانى الذى يتبادل الرسائل مع الاستاذ فيشر حتى أنه أوصى صديقا تركيا له (وهو المؤرخ خليل خالد ، احد اساتذة معهد اللاهوت القديم فى جامعة استانبول) ان يتصل بهذا المستشرق الاوروبى الجليل. وقد ترجم محمد اقبال نفسه الكثير من الافكار التى اوردها فيشر فى تراجمه المذكورة واقتبسها فى كتابه «تجديد الفكر الدينى فى الاسلام» دون ذكر اسم المستشرق الالمانى أو عنوان كتابه. وما أعظم تاثير مؤلف فيشر — آنف الذكر — على تعليقات محمد اقبال فى كل ما كتبه حول طرق التجديد الدينى والاصلاح الروحانى فى تركيا بعد الحرب العالمية الاولى ! والحق يقال ان اوجوست فيشر قد لعب بواسطة هذا الكتيب دورا لايستهان به فى تجديد الفكر الدينى فى الهند والباكستان !

اما نحن فيروقنا فى كتاب فيشر هذا — جانبا من تراجمه العلمية — ألاوهو أنسه بالمصادر الصوفية وتاريخ التصوف. ولم يزل الأستاذ يشتغل بالآداب التركية حتى أثناء الحرب العالمية الثانية عندما نشر فى مجلة جمعية المستشرقين الالمان ترجمة للاشعار الاربعة الحسنى لعبد الحق حامد الشاعر

التركى المتوفى سنة ١٩٣٧، وفى الفترة نفسهـا قام فضلا عن ذلك باصدار ترجمة لمسرحية ألفها هذا الشاعر تحت عنوان «روحلر» (اى: الاشباح)

ويجدر بالذكر ان الاستاذ فيشر على رغم شيخوخته فى ذلك الوقت وما اصابه من بلايا اثناء الحرب قد داوم على اشتغاله باصعب المتون العربية، اذ نشر عام ١٩٤٢ رسالة حول «كتاب الفصول والغايات» لأبى العلاء المعرى، ومن المعلوم ان هذا المؤلف نادر جدا لصعوبة أسلوبه ولأن بعض النقاد قد اعتبروه «معارضة للقرآن الكريم». وقد أثبت فيشر خطأ هؤلاء النقاد من كلمات ابى العلاء نفسه عندما تكلم فى «رسالة الغفران» عن ابن الراوندى وكتابه «الدامغ» قائلا:

«واجمع ملحد ومهتد — وناكب عن الحجة ومقتد — ان هذا الكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه كتاب بهر بالاعجاز ولقى عدوه بالارجاز، ما حذى على مثال — ولا اشبه غريب الامثال، ماهو من القصيد الموزون — ولا الرجز من سهل وحزون — ولا شاكل خطابة العرب — ولا سجع للهنة ذوى الأرب، — وجاء كالشمس اللائحة — نوراً للمسرة والبائحة ...»

وقد بين فيشر ان رأى المستشرقين الاوروبيين فى معارضة ابى العلاء المعرى للقرآن لا أساس له من الصحة وبرهن كذلك على انه لم يرا احدهم الكتاب نفسه وانما اقتبسوا ما وجدوه فى آثار العرب الذين لم يستحسنوا افكار المعرى، ومنهم ابن الجوزى وياقوت الرومى والذهبى، مع ان اكثر هؤلاء المؤلفين لم يشاهدوا مخطوطة لهذا الكتاب المختلف عليه. وقد فسر الأستاذ فيشر الجزء المنشور فى مصر سنة ١٩٣٨ وحقق أسلوبه وتحقق من قوافيه ودقق مناسبة الغايات والأقسام المسجعة، وعلى كل من اراد التعمق فى افكار أبى العلاء وفن نظمه ان يطلع على كتاب فيشر هذا بكل دقة كى يتعلم منه طرز البحث العلمى الأصيل.

وفى أواخر الحرب وبعدها اصاب فيشر من المصائب ما اصابه لما ضاع قسما كبيرا من كتبه وخربت كذلك مكتبة الجامعة فى مدينة لايبزيج وانهدم نصف بيته بالقنابل، ومع ذلك لم يستسلم لليأس بل لبث يكتب ويقرأ فيما تبقى له من الكتب حتى فى تلك الأيام المفجعة وقد كتب يقول فى أول رسالة بعث بها الينا بعد الحرب:

«لم نصب فى العام الماضى الا بالكارثة تلو الاخرى ... ولكن لافائدة من اطالة الكلام عن ذلك بل من المهم الآن ان نحافظ على بقائنا بمقاومة جميع القوى ....»

وهو يومئ بالتعبير الاخير الى بيت لشاعرنا جوتيه انه من يقاوم الرزايا القوى والبلايا يستجلب المعونة الالهية:

Allen Gewalten zum Trotz sich erhalten
Rufet die Arme der Götter herbei . . .

ولما توفى خليفته فى معهد لايبزيج — البروفسور اريش برونليش Bräunlich — فى شهر آب ١٩٤٥ بينما كان أسيراً فى الحرب، قام شيخنا الجليل بالتدريس على الرغم من تقدم سنه ... وكان قد حل مكان الأستاذ برونليش فى زمان الحرب؛ ثم منعته الحكومة عن التدريس (ووقعت على ذلك المرسوم المدينة لايبزيج فى منطقة الاحتلال الروسى آنذاك) ولكنه داوم على التدريس الخاص مع انه قد فاق الثمانين من عمره، حيث كتب يقول فى سنة ١٩٤٨: «لا يزال عندى بضعة طلاب أقوم بتدريسهم رحمة بهم اذ لايوجد هناك معلم للعربية ...»

ومما يثير الحيرة ان اوجوست فيشر لم تأخذه كيلولة ولاتعب رغم ما مر به من ظروف عصيبة، بل أنه ألف من المقالات والأبحاث الكثير حيث نجد من بينها رسالة يعالج فيها صيغ القسم فى العربية، مثل «آلله، ها اللهذا، لاه ابوك، تعمر، عمرتك الله» وما الى ذلك.

وفى هذا العام — ١٩٤٨ — جاءته دعوة من جامعة ماربورج وبذلنا مساعينا كى نجلبه الى مناطق المانيا الغربية ليتمكن من هنا من السفر الى الديار المصرية، وكان يرجو ان يلقى فى معهد الاستشراق بجامعة ماربورج «بعض المحاضرات ربثما تدعونى الهاوية (كذا فى الاصل الالمانى!) بلطف، اكثر او اقل، للولوج اليها...» إلا أن امنيته لم تتحقق، وهكذا رحل الى السماء فى ١٤ شباط ١٩٤٩. وكان ذلك اليوم الذى صعدت فيه روحه الى باريها يوافق يوم ميلاده الذى اتم فيه الاربعة والثمانين من عمره.

نذكره — وستذكره الاجيال القادمة — كلما قرأنا وقرأت كتابه الدراسى الفريد: Arabische Chrestomathie، وكلما استفدنا فى استيضاح المتون العربية العسيرة من ملاحظاته وتراجمه، عملا بقول الشاعر:

ما الفخر الا لأهل العلم انهم
على الهدى لمن استهدى ادلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه
والجاهلون لأهل العلم اعداء
ففز بعلم تعش حيا به أبدا
الناس موتى و أهل العلم أحياء

تاريخ الصّيدلة العربيّة عند المستشرقين الألمان

الحمد لله
الذي خلق لكل داء دواء
ولكل مرض شفاء

بقلم : جيزلا كيرشر

كان مسلمو القرون الوسطى يدعون العقاقير «عجائب المخلوقات»، ويريدون بذلك أن الله تعالى خالق السموات والأرض قد خلق أيضا هذه الأشياء كي تعود على الانسان بالنفع والخير.

وكانت «عجائب المخلوقات» هبة السماء إلى الطبيب الذى يقضى عليه واجبه أن يعرف كيف تشفى الأمراض وكيف تعالج وتتقى.

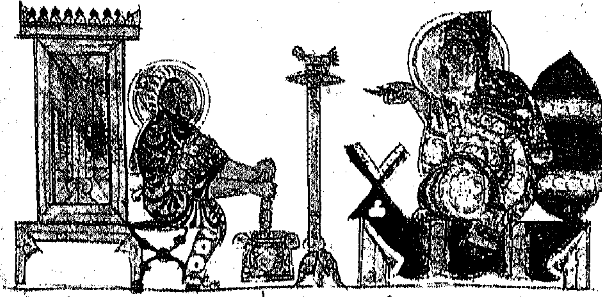
وقد أخذ عرب العصور الوسطى فنون العقار عن «ديوسقريدس» Dioskurides (المتوفى حوالى عام ٧٠م) وجالينوس Galen (المتوفى حوالى عام ٢٠٠م)، ولكنهم مالبثوا أن زادوا عليها واستكملوها بفضل خبراتهم الطبية التى أتوا بها من مملكة ما بين النهرين والهند والشرق الأقصى وشمالى أفريقيا. وجدير بالملاحظة أن عبارة «الطب والصيدلة العربية» وإن أطلقت على آثار الحضارة الاسلامية فى هذا الميدان، فضلا عن أن ما ألف فيها من أسفار كان بلغة العرب، إلا أن مصنفى تلك الكتب ومؤلفيها كانوا ينتمون إلى عديد من الشعوب التى تترامى من الهند والسند حتى الشرقين الأدنى والأوسط وشمالى أفريقيا.

صنف ابن البيطار (المتوفى عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م) فى موسوعته المسماة «الجامع فى الأدوية المفردات» عجائب المخلوقات وهى التى كانت، باعتبارها عقاقير نباتية ومعدنية وحيوانية، محط تصرف الطبيب العربى فى القرون الوسطى، إذ كان عليه أن يعرف مدى أثرها فى الجسم. ولكل عقار قوى وصفات تخصه، كما قال الاغريق. وقد أشار البحاثة الايرانى الفقيه المدعو البيرونى (توفى عام ٤٤٠هـ/١٠٥٠م) فى مقدمة «كتاب الصيدلة» إلى ما للعقار من مكانة خاصة بين الأطعمة والسموم، فقال: «وجميع ما يتناول بقصد أو بجهل فمنقسم فى أول الأمر إلى أطعمة وسموم، والأدوية واقعة فى البين لأنها بالاضافة إلى الأغذية مفسدة وإلى السموم مصلحة لا يظهر فعلها إلا الطبيب الحاذق المشفق لها، ولهذا توسط بينها وبين الأغذية ما سموه دوائيا، وبينها وبين السموم ما سموه دواء سميا، واعتمدها الأطباء بعد اصلاح قواها والاحتيال لدفع غوائلها حتى تم الانتفاع بها.»

ويشير المؤلف إلى مسئولية الطبيب عندما يعد الدواء، ولذا تحتوى مؤلفات مشاهير الأطباء على مقالات طويلة فى هذا الباب، ومنها «فردوس الحكمة» لعلى ربان الطبرى (المتوفى حوالى عام ٢٤٦هـ/٨٦٠م)، و«الحاوى فى الطب» للرازى (المتوفى عام ٣١٣هـ/٩٢٥م)، و«القانون فى الطب» لابن سينا (المتوفى ٤٢٨هـ/١٠٣٦م)، و«كتاب التصريف» للزهراوى (المتوفى ٤٠١هـ/١٠١٠م) و«كتاب العمدة فى صناعة الجراحة» لابن القف (المتوفى ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)؛ وقد بحث الأطباء فى الكتب المذكورة وأمثالها عن أفضل أنواع العقار بحسب درجة تأثيره، ثم عن الأمراض التى يعالجها مع إثبات كمية الدواء لكل من هذه الأمراض.

ونستطيع أن نتبين اهمية إلمام الطبيب بخصائص العقار من كلمات أحمد الغافقى (المتوفى عام ٥٦٠هـ/١١٦٤م) فى كتابه «الجامع فى الطب فى الأدوية المفردة» حيث يقول: «وإن كان أطباؤنا يرون أن هذا إنما يلزم الصيدلانى دون الطبيب لكان ظنهم صادقا لولا أنهم يتولون بأنفسهم عمل الأدوية المركبة وما أقبح بأحدهم أن يطلب أدوية مفردة فيؤتى بأدوية لا يعلم هل هى التى ارادها أم غيرها فيركبها ويسقيها عليله مقلداً فيها الدجالين ومتعاطى الحشائش، قوم لا يقرئون الكتب ولا يعرفون من الأدوية إلا أقلها.»

حتى إذا ما تعذر العلاج بواسطة الأدوية المفردة راح الطبيب يستعمل آنذاك الأدوية المركبة التى كانت تسمى «الأقراباذين» لأنه من المظنون أن قوى الأدوية المفردة المستعملة فيها ستبلغ حدا بعيدا من التأثير باكمال بعضها البعض. وقد بدأ الأطباء فى قديم الزمان بجمع نشرات خاصة بتحضير الأقراباذين وإعدادها، ونعد من هذا النوع



عمل مضمة لمعالجة لدغة الرتيلاء. صحيفة عن نسخة قديمة لترجمة عربية لكتاب ذيوسقوريديس، دونت فى بغداد سنة ١٢٢٤ م. وهى محفوظة فى Freer Gallery, Washington. نشكر إدارة Freer Gallery لتصريحها لنا بنشر هذه اللوحة.

من العقار مثلا المراهم والشراب والربوب والمعاجين والحبوب وغير ذلك.

وكان إعداد هذه الأدوية المركبة وتحضيرها من وظائف الصيادلة؛ كما قال البيرونى :

«الصيدلانى (الصيدلى) وهو المحترف بجمع الأدوية على أحمد صورها واختيار الأجود من أنواعها مفردة ومركبة على أفضل التراكيب التى خلدها له مبرزو اهل الطب.»

وبعد، فقد عرف العالم الإسلامى الصيدليات منذ القرن التاسع للميلاد، اى منذ عصر العباسيين، كما وجدت فى المدن الكبيرة مستشفيات ألحق بها فى أغلب الأحيان صيدليات، وكانت لهذه المؤسسات كتب خاصة بطريقة تحضير الأقراباذين دعيت «بالدستور البيمارستانى» ومازالت العلاقة الوثيقة بين الطب والصيدلة قائمة عبر القرون.

اما الصيدلى فكان يحافظ على نوع «عجائب المخلوقات» وكيفيتها ويحضر الأدوية المركبة التى يوصى بها الطبيب، وكان له بذلك اليد الطولى فى علاج المرضى وشفائهم. وهكذا ظل الحال حتى يومنا هذا. ومع ان المستحضرات الجاهزة التى تقوم بتركيبها معامل الأدوية الكبرى قضت على تحضير الاقراباذين فى الصيدليات، فانه مما لا شك فيه ان قول الصيدلى كوهين العطار فى كتابه «منهاج الدكان» (عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م) لم يزل سازيا، اذ يخاطب ابنه قائلا: «الصيدلة أشرف الصنائع بعد صناعة الطب وهى آلة لصناعة الطب.»

ولا عجب انه عندما تطورت الدراسات العربية والإسلامية وتعمق المستشرقون الألمان فى تاريخ ثقافة الإسلام تطور كذلك اهتمامهم بتاريخ الطب العربى وما يتعلق به من



إحضار أدوية لأمراض العيون. صحيفة عن نسخة قديمة لترجمة عربية لكتاب ذيوسقوريديس، دونت فى بغداد سنة ١٢٢٤ م. وهى محفوظة فى Freer Gallery, Washington. نشكر إدارة Freer Gallery لتصريحها لنا بنشر هذه اللوحة.

محالات، ونذكر من بين هؤلاء العلماء الألمان: اويجن متفوخ Eugen Mittwoch (المتوفى عام ١٩٣٢)، وإرنست ليبرت Ernst Lippert (المتوفى عام ١٩١١)، ويوليوس روسكا Julius Ruska (المتوفى عام ١٩٤٩)، وأيلهارد ڤيدمان Eilhard Wiedemann (المتوفى عام ١٩٢٨)، وإرنست زايدل Ernst Seidel (المتوفى عام ١٩٢٢)، وكذلك العالم الدائب البحث هلموت ريتر Hellmut Ritter الذى كشف عن الكثير من المخطوطات الهامة الخاصة بتاريخ الطب والصيدلة عند العرب والتى أخرجها من المكتبات التركية والايرانية والعربية. وما زال البحث عن هذا الفرع المهم من فروع الدراسات الإسلامية يمضى ويتطور فى أيامنا هذه، ويكفى أن نشير الى ألبرت ديتريش Albert Dietrich وكريستوف برجل Christoph Bürgel وبيتر باخمان Peter Bachmann وهاينريش شيبرجس Heinrich Schipperges وهانز لاور Hans Lauer وإلى أوتو شبيس Otto Spies وتلاميذه الذين انصرفوا للتنقيب عن آثار الطب عند العرب. ويجدر بنا أن نذكر من بين من ذكرنا من المستشرقين، اسمى عالمين ألمانيين اختصا بدراسة تاريخ الطب والصيدلة، وهما إرنست زيكنبرجر Ernst Sickenberger (المتوفى عام ١٨٩٥) وماكس مايرهوف Max Meyerhof (المتوفى عام ١٩٤٥)، إذ أقام كلاهما فى الشرق مدة طويلة أتاحت لهما الفرصة للانكباب على درس منابع العلوم الطبيعية عند العرب.

جاءا الى مصر يطلبان العمل هناك، وكان الأول صيدليا والثانى طبيبا للعيون، وقد أصبح كلاهما مواطنين مصريين وكرما فوق ذلك بمنح كل منهما شرف عضوية المعهد



إرنست زيكنبرجر

المصرى Institut d'Égypte الذى كان قد أسسه نابليون الأول؛ كما توفى كلاهما بالقاهرة.

وعندما فاضت روح الأول لم يكن الثانى الا طالبا للعلم، حديث العهد بالحياة بعد، ولم يعرف أحدهما الآخر، ومع ذلك ربطت بين حياتهما صداقة العالم الكبير جورج شفاينفورت Georg Schweinfurth (المتوفى عام ١٩٢٥)، ذلك الباحث الدائب عن جغرافية افريقيا، وكان «زيكنبرجر» قد عاونه فترة ثم اتصل التعاون العلمى بعد ذلك بين شفاينفورت ومايرهوف.

فى ١٠ ديسمبر ١٨٩٥ شيع الصيدلى إرنست زيكنبرجر إلى مقره الآخير بالقاهرة. وقد ودعه حتى مقبرته عدد كبير من العلماء البارزين وممثلى الدولة المعروفين ومن بينهم نوبار (باشا) رئيس الوزراء فى ذلك الحين، وكذلك جميع الطلبة الذين درسوا على زيكنبرجر. «إن المصريين الذين اندفعوا الى تشييع جنازته احترموا فيه الأوروبى المثالى الذى بذل كل اهتمامه فى خدمة وطنه المختار» — هكذا قال الباحث جورج شفاينفورت عند تأبينه لإرنست زيكنبرجر أمام أعضاء المعهد المصرى؛ ثم استرسل قائلا: «يجب أن تشعروا بالفخر أيها السادة لأن واحدا منا قدم هذا المثل النبيل لحياة مليئة بالعمل؛ وكان أسلوب حياته بسيطا لا يركن إلى الراحة ولا يهتم بمتاع الدنيا، فهو لم يعرف سوى العلم وواجبه تجاه عمله.»

ولد إرنست زيكنبرجر فى كراوتهايم/بادن Krautheim/Baden عام ١٨٣١، ودرس العلوم الطبيعية والصيدلة فى جامعتى هايدلبرج وبرلين، ثم قدم الى مصر عام ١٨٧٦، حيث أصبح مديرا للصيدلة الألمانية بالقاهرة؛ وتولى بعدها فى عام ١٨٨٣ إدارة حديقة النباتات بالقاهرة، نظرا لغزارة معلوماته فى هذا الميدان. وفى عام ١٨٨٩ عين إلى جانب عمله هذا أستاذا ومدرسا لعلم الصيدلة ثم الكيمياء بمدرسة الطب بالقاهرة École de Médicine.

وعندما سئل عام ١٨٨٧ عما إذا كان يريد البقاء فى مصر أم لا أجاب القنصل الألمانى بقوله: «إننى أفضل الحياة فى مصر وإننى أرجح الجنسية المصرية على أية جنسية سواها.»

وقد امتدحه جورج شفاينفورت بكلماته التى قال فيها: «لم يهمل زيكنبرج مهامه العلمية خلال الأعوام الخمسة عشر المليئة بالعمل الجاد المجهد بمدرسة الطب ولا لحظة واحدة، فانه لم يكن يعرف الإجازات ولا العطلات الصيفية الطويلة فى اوروبا للاستجمام من الحرارة القوية فى الصيف المصرى الذى يجعل العمل الذهنى مرهقا.»

وبعد، فقد قدم الأستاذ زيكنبرجر لمصر — وطنه الثانى — أبحاثا مفيدة وهامة فى مجالات الكيمياء والنبات والجيولوجيا



ماكس مايرهوف

وعلم المعادن؛ والجدير بالذكر أنه قدم كذلك خدمات جليلة فى أبحاث الصيدلة القديمة عند العرب، ووفق فى كتابه الموسوم بعنوان «النباتات المصرية» Les Plantes Égyptiennes إذ قام فيه بتعريف النباتات التى ذكرت أسماؤها فى كتاب ابن البيطار «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» فيما عدا قليل منها؛ وقد ابتدأ قبيل موته بنشر ما سماه «المقتطف المختصر» لكتاب ابن البيطار الذى لا يعرف فى الغرب الا بترجمة ألمانية ركيكة، وترجمة فرنسية يصعب الحصول عليها؛ ذلك أن الأستاذ زيكنبرجر كان يعتقد عن حق أن مؤلفات ابن البيطار لم تنل فى اوروبا ما تستحقه من التقدير. على الرغم من أن قيمة هذا الكتاب من الوجهة العلمية لا توازى الجهد الذى بذله المؤلف فانه يحتوى على بعض الملحوظات الهامة التى نشرها زيكنبرجر الصيدلى فى متن هذا البحث، ولعله جدير بنا أن نعجب لجسارته وجهوده التى كرسها لإداء مثل هذا العمل إلى جانب وظائفه ومسئولياته الجمة.

ولنترك الكلمة مرة أخرى لجورج شفاينفورت الذى قال: «ولو لم يكن لهذا العالم سوى هذا الكتاب لكفاه حتى يذكر اسمه بغاية التكريم والتبجيل فى مصر وفى أوروبا.»

وختم السيد وزير المعارف المصرى تأبينه للأستاذ زيكنبرجر بالكلمات التالية: «إن هذا العالم الباحث الممتاز توحدت فيه الفضائل النادر وجودها من إخلاص تام فى عمله وتواضع كامل وسيظل حيا بيننا كالمثل الأعلى لعالم بارز وأستاذ قدير.»

«تغيب مصر عن النظر، ويستغرقنى حزن وشوق عميق. عيشى يا أرض العجائب الجميلة الكثيرة الألوان! إلى اللقـــاء!»

بهذه الكلمات ختم «ماكس مايرهوف» يومياته عن رحلته الأولى إلى مصر عام ۱۹۰۰/۱۹۰۱، ولم يكن يتوقع حينذاك أن هذا البلد سيصبح عما قريب وطنا ثانيا له حيث سيقضى فيه أكثر من ثلاثين عاما من حياته.

ولد مايرهوف فى مدينة هلديسهايم Hildesheim فى شمالى ألمانيا عام ۱۸۷٤، واستقر رأيه على دراسة الطب، ثم تخصص فى طب العيون، وعند رحلته المذكورة الى «بلاد الفراعنة» أتيحت له الفرصة لدراسة الأمراض الكثيرة للعيون، وهى التى كانت متفشية فى ذلك الوقت فى مصر. وقد عاد الدكتور مايرهوف عام ۱۹۰۳ الى «أرض العجائب الجميلة الكثيرة الألوان» لكى يعمل «كحكيم للعيون» بالقاهرة، وسرعان ما انهال عليه سيل لا ينقطع من المرضى الذين أحبوا «الدكتور ماكس» وقدروه، وهو الذى لم يرد قط عن بابه فقيرا أو محتاجا الى معونته، فقد كان يعالج الفقراء دون اتعاب.



قطع النبات المسمى بـ«ابليوسقوين». صحيفة عن نسخة قديمة لترجمة عربية لكتاب ذيوسقوريديس، دونت فى بغداد سنة ١٢٢٤ م. وهى محفوظة فى Freer Gallery, Washington. نشكر إدارة Freer Gallery لتصريحها لنا بنشر هذه اللوحة.

عاد الدكتور مايرهوف إلى مصر وطنه المختار، بعد أن قطع إقامته بها منذ ١٩١٤ حتى ١٩٢٢. وقد حصل على الجنسية المصرية عام ١٩٣٥، وعاش بالقاهرة حتى وافاه أجله بعد مرض تحمله بصبر وشجاعة فى ٢٠ ابريل عام ١٩٤٥.

وإلى جانب معالجته اليومية لأمراض العيون وأبحاثه العلمية فى هذه الأمراض الخاصة بمصر وكيفية معالجتها، اهتم الدكتور مايرهوف بدراسة تاريخ أمراض العيون، ووجد فى مجال دراسته هذا مواداً غنية من كتب الأطباء العرب فى أثناء القرون الوسطى، كما مكنته خبراته العلمية ودراساته اللغوية التى بذل فيها ما بذل من الجهد، من تقديم معلومات هامة للأطباء الذين يهتمون بتأريخ الطب فى بلاد الشرق وكذلك للمستشرقين المهتمين بالطب العربى وتأريخه.

ونجد فى مؤلفاته التى يعالج فيها طب العيون عند حنين ابن إسحق ويحيى بن ماسويه ومحمد بن قسوم بن أسلم الغافقى، مادة غنية تتناول العقاقير التى كان يستعملها الأطباء العرب فى القرون الوسطى لعلاج المرضى. وأعد الدكتور مايرهوف ملحقا قيما لكتاب الغافقى «كتاب المرشد فى الكحل» ذكر فيه الأدوية المختلفة التى كانت تستعمل على زمان المؤلف لمعالجة امراض العيون، ومنها الأكحال و«الشياقات» وغيرها.

وسرعان ما انتقل مايرهوف الى دراسة علم العقار عند العرب. ولعله يجدر بالعلماء والباحثين أن يتأملوا أسلوبه فى التفتيش

استخراج الطين المختوم. صحيفة عن نسخة قديمة لترجمة عربية لكتاب ذيوسقوريديس، دونت فى بغداد سنة ١٢٢٤ م. وهى محفوظة فى Freer Gallery, Washington. نشكر إدارة Freer Gallery لتصريحها لنا بنشر هذه اللوحة.

عن المراجع والمتون الهامة. ومنها أنه أشار لأول مرة الى وصف الأدويـة المفـردة للعالم المشهـور «الشريـف الإدريسى» (المتوفى عام ٥٦٠هـ/١١٦٦م)؛ وأشار كذلك إلى أهمية كتاب الصيدلة فى الطب للبيرونى الذى يلقب «بأستاذ» حيث ترجم المقدمة المهمة التى اقتبسنا جزءاً منها على ص ٤٩. وقام بمساعدة جورج صبحى بنشر «كتاب الأدويـة المفـردة» المختصر لأحمد الغافقـى، وفى ترجمته وإعداد الملاحق والشروح العديدة لهذا الكتاب، غير أنه لم يتمكن للأسف من إتمامها. اما مؤلفه الأهم فى مجال علم العقار فهو نشر «كتاب شرح أسماء العقار» لموسى بن ميمون حيث يوضح كل واحد من أسماء العقاقير المختلفة ايضاحاً علميا واسعا. وتعتبر المقدمة الشاملة التى ألفها الدكتور مايرهوف لهذا الكتاب من أهم النصوص واعمقها فى موضوع تطور علم الصيدلة عند العرب. زد على هذا عددا من الرسائل الصغيرة عن البنج والحشيش والشئم التى تكمل ابحاثه الخاصة بتاريخ الطب والصيدلة؛ اما مقالته العميقة حول «سوق العطارين بالقاهرة» (عام ١٩١٨) فقد اشاد بها جورج شڤاينفورت — الذى كان متخصصا فى دراسة النباتات المصرية — كل اشادة.

بلغ عدد مؤلفات مايرهوف الثلاثمائة، ويتبدى فى كل منها العلم الموسوعى الذى امتاز به هذا العلم، وإذ لا يمكننا ذكر عناوينها فعلينا أن نشير الى بعض ماله قيمة خاصة

منها فى تاريخ الطب، كأبحاثه التى تعالج الإرث اليونانى فى الطب العربى، ثم تلك التى تبحث فى مؤلفات جالينوس وترجمتها العربية، فضلا عن دراسته لكتاب «فردوس الحكمة» لعلى ربان الطبرى وكذلك تعرضه لابن النفيس.

كتب جورج سارتون George Sarton، الإخصائى الشهير فى تاريخ الطب، قائلا عن ماكس مايرهوف: «إن أحسن جزاء يمنح لذكراه يكمن فى حقيقة بسيطة، هو أن تقرر أعماله فى المستقبل على طلبة تاريخ الطب العربى، وهكذا ينال اسمه التخليد.»

وقد منحت كلية الآداب بجامعة بون الدكتور مايرهوف درجة الدكتوراه الفخرية عام ١٩٢٨ لكونه «باحثا كبيرا فى الطب والعلوم الطبيعية عند العرب ومشجعا دائبا للاعمال العلمية.»

وعندما توفى عام ١٩٤٥ حزن لوفاته الكثيرون، وهم جميع من عرفوه وبخاصة العلماء المصريون وزملاؤه الأجانب الذين كانت تربطه بأكثرهم علاقة صداقة وطيدة.

وأمام أعضاء المعهد المصرى الذى كان ينتمى إليه الدكتور مايرهوف القى كلمة التأبين بمناسبة وفاته الدكتور لودفيج كايمر Ludwig Keimer عالم الطبيعة والآثار المصرية، وكثر عدد مقالات النعى التى دونت بمناسبة وفاة مايرهوف؛ اما أعمقها وأشدها تأثيرا فهو ما كتبه عنه الأستاذ يوزيف شاخت Joseph Schacht، صديقه وزميله، حيث قال: «ستحيا ذكراه لمدة طويلة بين طلبة العلم فى العالم بأسره كعالم متبحر فى الطب والعلوم الطبيعية عند العرب؛ ثم بين الأطباء كباحث ممتاز لأمراض العيون بمصر، ثم بين المرضى الشاكرين كطبيب ناجح يستحق التكريم والتبجيل، وبين أصدقائه الكثيرين من أنحاء العالم كشخصية طيبة محبة للجميع ... وبينما كان ينفر من كل تفاؤل مريح راح يتدفق شعوره العميق بالمسئولية الأخلاقية تجاه علاج مرضاه وفى تناول بحوثه العلمية الدقيقة. ومن بين المثل العليا التى كان يعمل ماكس مايرهوف على تحقيقها ويعيش من أجلها كان أن يبصر أهل الشرق بماضيهم التليد، وأن يساعد على تشييد أسس مشتركة للتفاهم والتعاون المتبادلين بين الشرق والغرب والتغلب على التعصب والكراهية أينما كانت ...»

***

إرنست زيكنبرجر وماكس مايرهوف — عالمان ألمانيان خدما العلم فى الشرق. أحدهما طمست ذكراه الأيام: كان صيدلياً وأستاذا لعلم الصيدلة والكيمياء فى بلد ترجع تقاليده إلى جذور بعيدة العمق فى هذا المجال .. فى مصر، وقام بدوره فى توضيح علم الأدوية والعقار عند العرب فى القرون الوسطى.

أما الآخر فهو طبيب العيون الذى عرفته القاهرة واشتهر بين أهلها، كما اشتهر بين العلماء عن طريق دراساته العديدة فى علم العقار عند العرب، وهى التى أدى بها خدمة كبرى لميدان البحث فى هذا المجال حتى اليوم.

كانا عالمين كرسا حياتهما لخدمة العلم، وفتحا بابا جديداً لإدراك العلوم العربية على مصراعيه؛ ولقد أحب كلاهما وطنه الثانى — مصر— وأخلص له، وفهم قومه ومشاكلهم فهما عميقا. لذلك فان ارنست زيكنبرجر وماكس مايرهوف يستحقان احترامنا وتقديرنا لما قدما من مساهمات علمية قيمة وهامة ولما اتصفا به من خلال إنسانية عالية، بل نادرة الوجود.

ترجمة: عزيزه حمدى

يوليوس روسكا

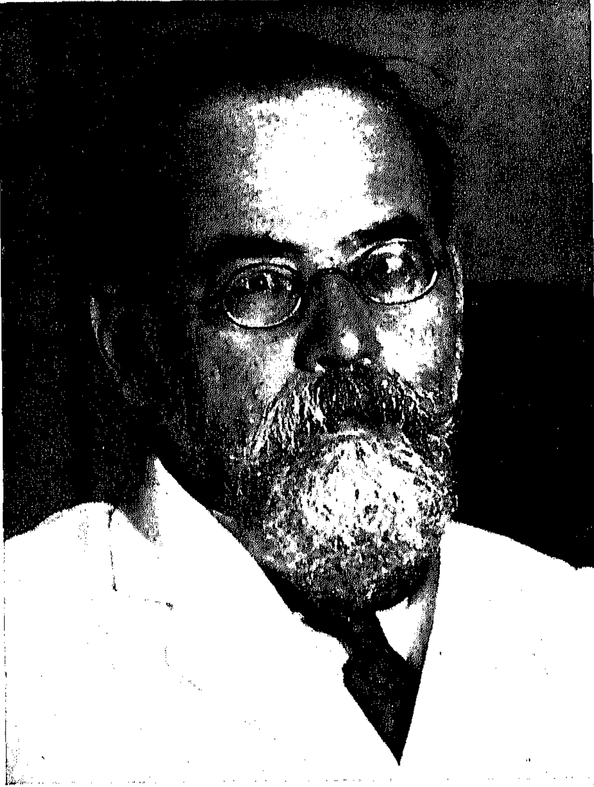
(١٨٦٧ - ١٩٤٩)

بقلم : الأستاذ محمد يحيى الهاشمي

ينحدر العلامة يوليوس روسكا من اسرة عريقة، لعل منشأها ايطاليا، تهتم بالعلم والتربية بصورة خاصة، فقد كان والده فرديناند معلماً متعدد الجوانب فى مدينة برناو فى الغابة السوداء، وفى مدينة بول Bühl من مقاطعة بادن، ومما يذكره الرسام هانس توما Hans Thoma بانه زار مدرسته للرسم ويملك حفيده البحاثة فى المجهر الالكترونى هيلموت روسكا صورة من الغابة السوداء من رسم هذا الرسام وذلك بتاريخ ١٨٦٠/٩/٥، وفى كنيسة «غرافنهاوزن» بالقرب من جبل كايزرشتول (كرسى الامبراطور) يوجد سجل عقد قران الجد الاعلى نيقولاوس روسكا فى عام ١٧٤٨، ومن المظنون ان هناك صلات بين نيقولاوس روسكا ورسام الاشخاص كارلو فرانسيسكو روسكا الذى عاش (١٦٩٦-١٧٦٩)، وان اسم روسكا يتردد بين سويسرة الجنوبية وايطاليا العليا. ولم يكن الجد الاعلى الكبير هو الفنان الموهوب الوحيد، بل هناك اربعة عشر شخصا ممن ينتمون الى هذه الاسرة كانوا معمارين ونحاتين ورسامين والذين جاء اسمهم فى قاموس الفنانين فى سويسره. وقد قرأ كثيرون قصة حياة رئيس الواعظين نيقولاوس روسكا فى قصص يناتش Jürg Jenatsch العائدة لمؤلفه «كونراد فرديناند ماير» وقد ولد هذا الرجل الدينى أعنى روسكا فى عام ١٥٦٠ ومات شهيداً فى عام ١٦١٨. وقد كتب راهب يحمل اسم «روبيرتو» قصة حياته الى درجة وصل بها الى حد الاساطير، وان نسخة منها كانت توجد فى مكتبة الدولة فى برلين. وكان علامتنا يفتخر بحمله نفس الاسم الذى كان يحمله رئيس اساقفة كنيسة كومو Como اعنى يوليوس روسكا.

ولد يوليوس روسكا فى ٩ شباط ١٨٦٧ فى مدينة بول Bühl من مقاطعة بادن — بادن، فعدا عن الارث العلمى والفنى فقد كان ينحدر من سلالة مقاومة للشدائد مجدة فى العمل وكانت مقيمة فى راينـدورف — غرافنهـاوزن — Rheindorf Grafenhausen من دائرة اتنهايم Amt Ettenheim وكانت والدته المرأة الرقيقة الاحساس محبة للأزهار وبمحبة نادرة عرفت توجيه اولادها.

بعد ان انهى يوليوس روسكا دراسته الابتدائية والثانوية زار الجامعة لدراسة الرياضيات والعلوم الطبيعية، وبدون اية صعوبة وصل الى هدفه. ولم يكن مرتاحا نفسيا، لان التضارب بين العلم والايمان استيقظ فى نفسه، شأنه فى ذلك شأن جميع احرار الضمير فى العالم. ومنذ ان كان طالبا فى المدرسة كان باحثا عن الله وكان دوما يفكر بذلك السؤال: لماذا لم تتجاوز رسالة الخلاص المسيحية دائرة الشعوب الجرمانية والرومانية والسلافية؟ وكطالب جامعى اهتم كثيراً بالبحث النقدى لتاريخ الاديان، وكان يقبل على التعلم بعطش لا يرتوى، وكان يريد عمل الانسجام بين عيشه وعلمه. وبحماس زائد كان يهتم بمعرفة الامم وتاريخ الحضارات وتاريخ تطور البشرية. ولقد قاده حب الكشف عن لغز العالم الى المسائل الدينية، وهكذا اخذ ينمو فى نفسه حب التعرف على الاديان العالمية وكتبها المقدسة بلغاتها الاصلية، لان الترجمة مهما كانت محكمة فقد تفقدها شيئا من خصائصها. وهكذا عزم عزماً اكيدا على الاطلاع على اللغات التى كتبت بها هذه الوثائق الدينية الاصلية، ولقد نفذ المخطط بهمة لا تعرف الكلل والملل، وان العالم ليدين لعزمه على ذلك بالقاء



الاستاذ يوليوس روسكا
إعارة: الأستاذ محمد يحيى الهاشمي.

In diesem Sinne, mit einem herzlichen „Glück auf", grüsst Sie bestens Ihr
J. Ruska

خاتمة رسالة من الأستاذ روسكا Ruska إلى الاستاذ محمد يحيى الهاشمي.

انوار كشافة على تاريخ الكيمياء الذى لم يكن فى بدء حياته العلمية ضمن تفكيره. وحتى قبل ان يبدأ عمله كمدرس للعلوم الطبيعية فى مدينة هايدلبرغ درس اللغة العربية والعبرية عند رودولف برونوف Rudolf Brünnow ووسع معارفه اللغوية باللغات السريانية والآشورية والفارسية. وعندما غادر رودولف برونوف مدينة هايدلبرغ مغادرة نهائية بقى تدريس مثل هذه اللغات مدة من الزمن فى هذه المدينة فارغاً، فولى يوليوس روسكا وجهه شطر البحاثة الكبير فى العهد القديم آدالبرت مركس Adalbert Merx الذى علم اى طير نادر قد حط عنده. بيد أن هذا الاستاذ اشار على تلميذه وصديقه الصغير تحويل اتجاهه من دراسة علم الاديان الى تاريخ العلوم بتقديمه اطروحة عن الرياضيات السريانية نظرا لمخطوطة فى هذا الموضوع موجودة فى مدينة غوتينغن، وقد اصغى روسكا للنصيحة وفى كانون الاول من عام ١٨٩٥ قدم الاطروحة المذكورة بعنوان «المربعات من كتاب محاورات لسرفيوس ابن شاكو "Quadrivium aus Servus bar Schaku's Buch der Dialoge" عند الاستاذ بيتسولد Bezold وبهذه الاطروحة سلك اتجاها جديدا لاعماله العلمية من اجل المستقبل بصورة اساسية. وكانت تخامره فكرة البحث عن اصل وانتشار العلوم العربية حتى انتقالها الى عالم الغرب.

لم يكن الطريق امام هذا العالم الفتى معبدا، فان المحافظ ومستشار المدينة قررا بان روسكا لا يمكنه ان يكون استاذا رسميا فى المدارس الثانوية فى هايدلبرغ الا اذا استغنى عن مسلكه الجامعى، وبقلب جريح ونفس حزينة خضع لهذا الامر، وودع الشرق، وكان آخر عمل قام به هذا المجال ان ترجم «كتاب الاحجار» من «عجائب فى المخلوقات» لزكريا بن محمد القزوينى وشرحه وذلك فى عام ١٨٩٦.

لكن، كيف يمكن ايقاف الميول الاصلية فى الانسان؟ هنا الخلق: فيضا محتما، يجول فى النفس تواقاً للتدفق... وهل يقوى الينبوع على كبت الامواه المختزنة فى احشائه، ام هل تستطيع الشمس ان تحول دون انبثاق الضياء؟ وهكذا ايضا فان هذا الرأس المشتعل بحب البحث لا يمكن اطفاء شعلته، فقد كان يكرس اوقاته خارجا عن عمله المجبر على ادائه فى البحث فى تاريخ العلوم، ومع ذلك فقد كان يقوم فى تفهيم ما اوكل اليه من تدريس العلوم الطبيعية على اساس تربوى نادر، لان تاريخ العلم يعطينا مقدرة تدريسية فى تفهيم كيفية تطوره. وقد كان

يعلم علم المستعدنات Mineralogie والجيولوجيا والرياضيات، وبعد سنين قلائل اهتم باللغات والفلسفة وفن التربية. ونظرا للدراسات العديدة والمتنوعة التي قدمها فمن الصعب على من لم يكن يحمل نفس روح الشمول والهدف الفاوستي[١] فهمه او تصنيفه ضمن اختصاص معين. ومع ان المعلم روسكا كان ناجحا في مهمته كمدرس للعلوم في المدارس الثانوية فلم يكن مرتاح الضمير، وبعد فراق العلوم القديمة مدة اثنتي عشرة سنة عاد اليها ثانية في دراسة ما يسمى كتاب الاحجار لارسطوطاليس، وكان يود متابعة دراسته في هذا الخصوص، ولكن توسع الاسرة ونمو الواجبات الملقاة على كاهله كانت المانعة من تفرغه.

من هذه الحقب ظهرت بعض الدراسات له اذكر منها «دليل المستعدنات» Leitfaden der Mineralogie الفه لطلاب التجهيز عام ١٩٢٠ يحوي جميع ما يلزم ان يعرفه الطالب الثانوي عن هذا العلم الجديد بتبسيط واضح ومع ذلك كان ملما بالموضوع جهد المستطاع، كما اطلعني على النماذج من المقوى التي قام بصنعها لطلابه لابراز الاشكال الهندسية للبلورات الطبيعية· امام الاعين مع ما رافق ذلك من عرض نماذج من الفلزات جاذبا التلميذ الى محبة هذا العلم، عدا عن الرحلات المدرسية من اجل المشاهدات الجيولوجية، فضلا عن ذلك فهناك دراسات عن العلوم الطبيعية بالذات كالحيوانات الفقرية من وجهة التشريح المقارن وعلم الحياة، والمناسبات بين علم المستعدنات والجيولوجيا والكيمياء، وكما انّ هناك دراسات اخرى مثل الكتّاب الانكليز من مجال الفلسفة، وبعض تقارير قدمت الى مؤتمرات اللغويين، ومقالات تربوية مختلفة، ومع ذلك تتخلل هذه الفترة التي دامت من ١٩٠٢—١٩١٨ مقالات ودراسات عديدة عائدة لتاريخ العلوم العربية بصورة مدهشة، ولقد احصيت في الخطاب الذي القاه «ويندريش» تكريما لعلامتنا عند بلوغه السبعين وذلك في عام ١٩٣٧، وهي تبلغ حتى عام ١٩١٨ مائة وثلاثة دراسة[٢].

لقد حدث حادث محزن لم يكن بالحسبان هز حياته هزّا مريعا، ان عمه والد زوجته العلامة الكبير المستشار ادالبرت مركس المار الذكر وقع في حفرة القبر ميتا اثناء تأبين صديق له على قبره. كانت هذه المأساة ضربة كبيرة من اجل العلم، لان هذا العلامة مركس كان يقوم باخراج السفر العظيم لـ«الأناجيل الاربعة الاساسية»، ولا يمكن الثقة باحد لاخراج هذا السفر العظيم الا يوليوس روسكا، وان الدراسة الاخيرة التي انتهت من انجيل يوحنا هي باللغة السريانية ومفسرة بمخطوطة باليمبسست Palimpsest وقد عثر عليها في دير سيناء، فكانت تنتظر من يتولى اخراجها ايضا الى الطبع بصورة صحيحة. من اجل ذلك منح اجازة للقيام بهذه المهمة الشاقة، بيد ان الاجازة لم تكن كافية فلما طالب بالتمديد ثانية رفض طلبه، ولكنه في هذه المرة لم يخضع للامر الواقع ولم يقطع عمله، فاستقال منه ومن التدريس بالثانوي وذلك عام ١٩١٠، واستغنى بذلك عن حقه في التقاعد وعن خدمة عشرين عاما. ولو كان روسكا من امة لا تقدر البحث العلمي لقضى على نشاطه واصبح نسيا منسيا. نعم لقد انسد امامه طريق ضيق، ولكن انفتح امامه طريق واسع، فأخذ يعمل بما تتوق اليه نفسه، وانكب على اخراج السفر المذكور لعمه، وقدم دراسة عن «كتاب الاحجار لارسطوطاليس» كدكتوراه ممتازة[٣]، وقام بمحاضرة نموذجية في الجامعة في عام ١٩١١ وذلك عن علم المستعدنات عند العرب. وعلى ضوء مقارنة المخطوطات العربية واللاتينية تبين لروسكا بأنه يلزم البحث عن اصل هذا الكتاب في مراكز الدراسات الطبية السريانية الايرانية، وكبرهان لا يقبل الجدل على ذلك وجد معالجة المستعدنات لها طابع ايراني، وكثيرا ما جاء ذكر ايران وخراسان والهند والصين كمكامن لبعض الاحجار السحرية، في بعض الاحيان حسب دراسة روسكا يظهر لنا مؤلف كتاب الاحجار المذكور طبيبا قد زاد في ذكر الاحجار التي لها تاثير طبي، وفي الاحيان الاخرى يتراءى لنا كأنه مؤمن بالاعاجيب، وجمع اخبار الاحجار السحرية وغير ذلك.

---

١) الهدف الفاوستي: نسبة لفاوست في اثر غوته الشهير.

٢) انى مدين لهذا الخطاب الآتى الذكر، وذكرى مرور مائة عام على المدرسة الثانوية لهايدلبرغ الذى حرره ابن علامتنا هيلموت روسكا رئيس معهد المجهر الألكتروني في جامعة دوسلدورف، وما ارسله لي ارنست روسكا رئيس معهد المجهر الألكتروني في جمعية ماكس بلانك في برلين من المعلومات:
هيلموت روسكا، ذكرى الأستاذ روسكا
Helmut Ruska, Zur Erinnerung an Prof. Dr. phil. Dr. phil. h.c. Julius Ruska, Festschrift zur 100-Jahr-Feier der Heidelberger Oberrealschule mit Realgymnasium, 9.2.1867—12.2.1949.
ر. ويندريش: يوليوس روسكا وتاريخ الكيمياء
R. Winderich: Julius Ruska und die Geschichte der Alchemie, Festgabe zu seinem 70. Geburtstage am 9. Februar 1937. Dargeboten von der Deutschen Gesellschaft für Geschichte der Medizin, Naturwissenschaft und Technik, Berlin 1937.

٣) هي ما تسمى «هابيليتاسيون» Habilitation والتي يحق لحاملها الترشح لاستاذية الجامعة.

كان روسكا يطرح دوما على نفسه السؤال الآتى: عن اى طريق اخذ العرب علومهم؟ وكيف انتشرت كتاباتهم وخاصة فى الغرب المسيحى اللاتينى الذى كان فقيرا فى العلم؟ ولم تكن النتائج التى وصل اليها مرضية، بيد انه بقى امينا لنفسه، رغم ان فى دروسه فى الجامعة لم يعط الا اللغة العربية للمبتدئين ودراسة القرآن. وكان سلفه فى تدريس العلوم الشرقية كارل هاينريش بيكر Carl Heinrich Becker الذى اصبح فيما بعد وزيرا للمعارف، وهو الذى فهم روسكا فى رسالته العلمية الجديدة واستدعاه الى برلين ليتولى ادارة معهد البحث فى تاريخ العلوم الطبيعية وذلك فى عام ١٩٢٧ والذى توسع فى عام ١٩٣٠ الى معهد البحث عن تاريخ الطب والعلوم الطبيعية تحت ادارة العلامة الكبير باول ديبغن Paul Diepgen رئيس الشرف للجمعية الالمانية لتاريخ الطب والعلوم الطبيعية والصناعة والتى لى الشرف ان اكون عضوا فيها وان اشترك فى عدة مؤتمرات لها مقدما ابحاثا تتعلق بتاريخ العلوم الطبيعية العربية.

اتصلت بهذا المعهد قبل توسعه وغالب الظن انه كان ذلك فى عام ١٩٢٩. اما الدافع لهذا الاتصال فهو الحادث الآتى: كنت اقدم فحصا فى الكيمياء غير العضوية عند الاستاذ الكبير مانيش Mannich مدير معهد الصيدلة فى جامعة برلين، وفى اثناء الفحص سألنى عن اماكن وجود الحديد فى العالم، وذكرت له وجوده فى المانيا وفى اوربا، ولما سألنى عن وجوده فى البلاد العربية لم اعرف اعطاء جواب له، لانى لم اكن على علم فى ذلك الوقت، فنصحنى ان اهتم ايضاً ببلادى لأن العلم الذى اتعلمه فى الغرب يلزم ان تعود فائدته على بلادى ايضا ووطنى، فذهبت تواً الى مكتبة الدولة فى برلين فى شارع «تحت ظلال الزيزفون» "Unter den Linden" وراجعت القسم الشرقى منها والفهرس العام الكبير قسم الموضوعات، فعثرت على بعض المصادر، ولما راجعتها وجدت ان قسما كبيراً منها من جملة ما اتخذه من المصادر، الكتب العربية القديمة مثل والتر شميدت، صاحب دراسة مكامن المستعدنات فى العربية Walther Schmidt, Minerallagerstätten Arabiens والذى اتخذ كتاب صفة جزيرة العرب للهمدانى مصدراً. فقلت فى نفسى اذا كان الالمان يدرسون هذه الكتب القديمة مع صعوبة اللغة العربية من اجلهم، فما احرانا نحن معشر العرب ان نقوم بمثل هذه الدراسة وهى مكتوبة بلغتنا وليس من الصعب علينا فهمها اليوم رغم تقادم السنين، فاتصلت بمعهد البحث بتاريخ العلوم الطبيعية وتعرفت على البحاثة الكبير فى هذا الموضوع، ورئيس المعهد يوليوس روسكا، فقدم لى عدة كتب من دراسته ودراسة غيره، وكان من جملتها دراسته القيمة عن كتاب الاحجار لارسطوطاليس، فجذبتنى هذه الدراسة، وفيها اذكر ايضا، رغم مرور اكثر من اربعين سنة، بانى اثناء مرورى فى حديقة «تيرغارتن» بعد ان قطعت شارع تحت ظلال الزيزفون اخذت اقرأ المقدمة فاستهوتنى عبارات المؤلف الحكيمة فيها فاخذت متابعة قراءتها رغم ان الوقت أصبح مساء والنور ضئيلا، ورغم تقادم العهد على مطالعتها فلا تزال ترن فى اذنى كأنها البارحة، وها أنا اقوم بترجمتها الى العربية:

«ليست الاشعار البدوية ولا الأدب الذى نشأ بعد ظهور الاسلام هو الذى جعل اسم العرب لامعاً فى الغرب. اذا اردنا ان نفكر بتأثير الحضارة الاسلامية فى الغرب المسيحى، فيجب علينا ان نفكر فى الرياضيات العربية والفلك والكيمياء والطب، تلك الفروع التى تعلم منها الغرب بجد ونشاط قروناً عديدة قبل اكتشاف العلوم اليونانية، ولا تزال كثير من التعابير العربية المتداولة تنبؤنا عن ازدهار العلوم تحت راية الاسلام، وتعلق الغرب المسيحى من الشرق الاسلامى»؟ فهزتنى هذه الكلمات فاقبلت على دراسة العلوم العربية القديمة بارشاد العلماء الالمان، وقد طلب منى الاستاذ روسكا ان اترجم كتاب احمد بن يوسف التيفاشى القيم من القرن السابع الهجرى والرابع عشر الميلادى فى القاهرة واصله من مدينة قفصة من اعمال تونس والذى هو بعنوان «ازهار الافكار فى جواهر الاحجار»، والذى كان يوجد منه عدة مخطوطات فى غوتا وبرلين والقاهرة. وكان ذلك بعد فترة تأسيس المعهد الكبير فى برلين وذلك فى عام ١٩٣٢ والذى اصبح يضم معهد تاريخ الطب ايضاً، ومكثت فيه حتى اواخر عام ١٩٣٣، وقمت فى ترجمة كتاب التيفاشى المذكور ولا تزال الترجمة محفوظة عندى لم اجد الفرصة اللازمة فى تنقيحها ووضع الشروح اللازمة ونشرها، كما قمت بعمل دراسات مطولة عن المستعدنات العربية نشرت منها بعض الفصول. ولكن بعد ذلك ساقتنى الاقدار الى جامعة بون، لان جامعة برلين لم توافق على المزج بين العلوم الطبيعية العصرية والعلوم القديمة رغم ما بذله استاذنا رئيس قسم تاريخ العلوم الطبيعية من جهود، ولعل موت المستشرق المار الذكر بيكر كان السبب فى ذلك، فوافقت على هذا المزج جامعة بون، فحولت وجهى اليها، وهناك قدمت اطروحتى عن «منابع كتاب الاحجار للبيرونى»،

مع مواد الفحص علم المستعدنات والعلوم الاسلامية والفلسفة، وهكذا لم اقطع صلتي بالعلوم العصرية ابدا.
عدت ثانية الى برلين وذلك فى آخر عام ١٩٣٥ واتصلت بمعهد تاريخ العلوم الطبيعية ثانية وعندما قدمت للاستاذ روسكا اطروحتي والتي فيها تعليق على كتابه الاوهو كتاب الاحجار لارسطوطاليس هنأنى ورحب بدراستي، وفى حقه ينطبق وما تواتر عن الامام الشافعي قوله المأثور: «اذا كنت فى مجلس لا أبالى ان انطق الله الحق على لسانى اولسان خصمي». اخذت بعد ذلك بدراسة مؤلفات روسكا وخاصة المتعلقة بتاريخ الكيمياء. ولقد قام هذا العلامة بكشف جديد فى هذا المضمار، ففى ربيع ١٩٣١ عندما كان مقيما فى غوتينغن عثر على مخطوطة سر الاسرار للرازى، ولكن قسما من هذه المخطوطة وترجمتها الى اللغة الالمانية لم تظهر الى النور الا فى عام ١٩٣٥ العام الذى عدت فيه الى برلين، ولعل هذا الكتاب الذى اخرجه روسكا هو من اهم الاعمال التي قام بها لكشف النقاب عن تاريخ هذا العلم، لان هذا الكتاب هو كتاب تجارب محضة بعيد عن الطلاسم والخيالات والالغاز، ولم اتوفق لدراسته نظراً لقصر المدة التي بقيتها بعد ذلك فى المانيا وانشغالى فى امور غير تاريخ الكيمياء وسفرى ايضا الى الوطن وزيارتى مناطق اسكندناڤيا، ولكنى قمت بشيئ من هذه الدراسة عندما القيت فى معهد البحث فى تاريخ العلوم الطبيعية التابع لجامعة مونيخ فى المتحف الالمانى سلسلة من المحاضرات عن تاريخ الكيمياء العربية فى صيف عام ١٩٦٧، بعد ان فرغت من زيارتى للمعاهد العلمية الالمانية بدعوة من التبادل الاكاديمى الالمانى فى باد غوديسبرغ. وكان جل اهتمام المعهد بالمواد التي كان يعرفها الاوائل من العرب والعمليات التي قاموا بها.
اما الطلاسم والسحر التي وردت عند المؤلفين القدامى فقد كان اهتمام المعهد بها قليلا، لان هذا المعهد التابع للمتحف الالمانى المذكور يهتم بتطور العلوم من الوجهة الواقعية، اما الامور الاخرى فهى خارجة عن نطاق اختصاصه.
وقد استعنت بالقاء هذه المحاضرات على دراساتى فى المخطوطات القديمة ودراسات روسكا وكذلك دراسة ايلهارد ويدهمان عن الكيمياء عند العرب: Eilhard Wiedemann, Zur Chemie bei den Arabern, Beitr. z. Geschichte der Naturwissenschaften XXIV., Erlangen 1911.
وما يخص تاريخ الكيمياء فقد اخرج روسكا كتابين: الاول عن مشكلة خالد بن زيد بن معاوية واشتغاله فى الكيمياء وخاصة الكتاب المنسوب اليه كتاب القراطيس، والثانى عن جعفر الصادق الامام الشيعى السادس، فى الكتاب الاول يقول روسكا بان الانسان لا يقدر ان ينفى الصلة ولا ان يثبتها والمصادر العربية هى اوثق من المصادر اليونانية، ومما يذكره رواية عن خالد، الشعر المأثور:

هو الحجر المصاب بكل ارض
وفى الاسواق تلقاه حقيراً
يضمن به الجواد على اخيه
اذا اضحى به يوما خبيراً

اما الكتاب الثانى فينفى روسكا علاقة جعفر الصادق بالكيمياء ويعد هذا الكتاب منتحلا ورغم كل شيئ يقوم على دراسته بكل دقة وامانة ونزاهة ضمير، وتبقى جميع هذه الآثار كوثيقة هامة فى تبيان العمل الجدى والدراسة المتقنة لهذا المحقق التي نحن بأمس الحاجة اليها.
ومما يؤسف له حقا ان مخطوطات جابر لم تخرج الى النور على الطريقة التي قام بها علامتنا المذكور مع الترجمة والشرح لتفتح باب البحث على مصراعيه فى هذا الخصوص(٤) لان الدلائل تشير على وجود كيمياء عربية فى القرن الثانى الهجرى، والثامن الميلادى رغم وجود زيادات متأخرة.(٥)
ان الصعوبة هنا فى معرفة اثر جعفر الصادق فى الكيمياء، لدى دراستى الاماكن التي تنوه بجعفر فى الكتب المنسوبة الى جابر تبين ان هذه النصوص ليست فى العمليات الكيميائية بل بالارشادات الدينية، ولدى فحص المذهب الجعفرى حسب الوثائق المتواترة عنه، نجد التوافق فيما يذكره جابر عن امامه فى الارشادات الدينية فذهب جعفر(٦).

---

٤) ان ما قام به باول كراوس فى اخراج مخطوطات جابر لا تتجاوز بعض منتخبات كيفية وتحتاج الى دراسات جدية، من اجل ذلك لا يمكن اعطاء الحكم النهائى الا بعد اخراج جميع المخطوطات المنسوبة لجابر على النمط الذى اخرج به روسكا مخطوطاته. اما الاحكام المبنية على غير ذلك فلا يمكن ان تكون لها قيمة الا بعد معرفة النصوص معرفة تامة.
٥) «راجع كتابى الامام الصادق ملهم الكيمياء» ودراساتى المنوه عنها سابقا، وقد روى روسكا عن ابن خلدون:
«وحدث هذا العلم فى الملة ... وعند ظهور الغلاة من المتصوفة وجنوحهم الى كشف حجاب الحس وظهور الخوارق على ايديهم والتصرفات فى عالم العناصر وتدوين الكتب والاصطلاحات ومزاعمهم فى تنزل الوجود عن الواحد وترتيبه، وزعموا ان الكمال الاسمائى مظاهرة ارواح الافلاك والكواكب وان طبائع الحروف واسرارها سارية فى الاسماء فهى سارية فى الاكوان من لدن الابداع الاول تنتقل فى اطواره وتعرب عن اسراره، فحدث لذلك علم اسرار الحروف وهى من تفاريع علم السيمياء».
٦) انى لم اقل عن علاقة اكيدة بين جعفر الصادق وجابر بن حيان، بل ذكرت انها ممكنة وذلك فى الارشادات الدينية، انظر كتابى الامام الصادق ملهم الكيمياء وبدء الكيمياء العربية، المصادر المتقدمة، وهكذا وقع فى هذا

ان فى اخراج كتاب الكيميائين العـــــرب رقم ٢ Arabische Alchemisten II, Heidelberg 1924 اى الكتاب المنسوب لجعفر الصادق سد به روسكا فراغا كبيرا، رغم انه نفى تماما علاقة الامام بالكيمياء. ويجد روسكا الصعوبة فى فهم الكيمياء القديمة لخفائها بالرموز، ولتسهيل الموضوع اخرج بالتعاون مع ايلهارد ويدهمان «الاسامى المستترة الكيميائيـة» J. Ruska-Eilhard Wiedemann, "Alchemistische Decknamen", Sitzungsberichte der phys.-med. Sozietät Erlangen 56, 1924. ومما وجده انـه يوجد للاسم الواحد عدة اسماء مستترة كالنشادر مثلا الـذى يسمى العقاب والطير الخراسانى والملح الطائر وبصاق الاسد وغير ذلك، وكذلك الامر فى الزئبق وغيره.

اثناء بحث روسكا بتاريخ النشادر وجد النص الاصلى لكتاب اللوح الزبرجدى Tabula Smaragdina والذى كان معروفا فى ترجمته اللاتينية، ويعتبر هذا الكتاب كتابا مقدسا من اجل الكيميائيين القدامى، وان سحره لا يمكن ان يستغنى عنه اى طالب لصناعة الكيمياء. وان آخر كتاب له اثر فى الاغلاق الهرمسية، ولكن هل هذا الكتـاب من اصل عربى؟ وهـل انتقـل بعـد ذلك الى اليونانية ووصل عالم الغرب عن طريق اللاتينية؟ وللرد على هذا السؤال جال روسكا مسافة قرنين من الزمن فى تاريخ الكيمياء ووجـد ان هذا اللوح الزبرجدى فى صيغته الاصلية هو ثمرة نهاية مخطوطة تبحث فى الكون، وقد جاء ذكره ايضا فى اسفار جابر، وينسب تفسير اسرار الخليقة وعلل الاشياء الى بلينـــــــوس الطوانى Apollonios von Tyana(٧) ولم يعرف ان هـذا العالم الفيثاغورى اشتغل بالكيمياء. اما فكرة تاثير العلويات على السفليات والكواكب فيلزم ان تكون ضمن الحضارة المصرية اليونانية، وبذلك نصل الى الفكرة القديمة بأن العالم الارضى ليس الا صورة عالم السماء، وهنا نكون فى المراكز الطبية السريانية الفارسية وفى المدن الكبيرة فى الشمال والشرق من المملكة الساسانية وفى الطرقات المؤدية الى شعوب آسيا المركزية. ومن هناك كانت تنصب منذ القرن الثانى الهجرى والثامن الميلادى تيارات من الفلكيين والمؤمنين بالاساطير الفلكية (المنجمين) والاطباء والكيميائيين فقـد كانت هـذه المـراكـز المحراقـات الفكرية للحضـارة الاسلامية.

ان دراسة تاريخ النشادر افضى بعلامتنا بصورة اضطرارية الى دراسة جابر بن حيان ذلك اللغز فى تاريخ الفكر الاسلامى، ففى البدء اقتصر روسكا على مطالعة ما اخرجه برتولت Bertholet من كتب السبعين المشوهة. وفى مجرى عمله استلم بناء على رجائه من البحاثة فى تاريخ الطب الاسلامى ماكس مايرهوف فى القاهرة(٨) صور مخطوطات جابر التى القت انواراً كشافة على هذا الموضوع، وقد كانت هذه المخطوطات مشحونة بجانب المعالجات الكيميائية والصناعية بالافكار الفلسفية، وكانت الفكرة الهامة عند جابر مشكلة العلية ويراها فى فهم النظام وان الاختلافات الكيفية فى الكون ترجع الى الكميـة(٩).

لمعرفة دور الكيمياء فى القرون الوسطى الاوربية افضى به البحث عن كتاب ما يسمى «صراع الحكماء» Turba Philosophorum والـذى كان معروفـا فى عالم الغرب فى القرن الثانى عشر. ولكن لم يفطن احد بقيمته، ولكن روسكا برهن انه ترجمة لاصل عربى، وان الاسامى التى وردت فيه والتى كانت غير مفهومة فى النقل تشير الى الاعتراف بالاسلام وذكـر السورة ١١٢ من القرآن الكريم «قل هو الله احد الله الصمد لم يلـد ولم يولد ولم يكن له كفوءاً احد»(١٠)

لقد وجد فى هذا الكتاب اسامى يونانية محرفة، وكانت بعد معرفة التشويش الذى حصل فى النقل اسامى فلاسفة اليونان امثال انكسمندرس وكسينوفان وامبدوقليس وغيرهم، كما وجد بعض اسامى مستعدنات مثل غادنيا (غادميا

الخطأ «مارتين بلسنر» فى مجلة المستشرقين الالمانية انظر:
Martin Plessner, Ǧābir ibn Ḥayyān u. die Zeit der Entstehung der arab. Ǧābir-Schriften, ZDMG, Bd. 115, Heft 1, 1965.

٧) ابولونيوس الطوانى: عاش هذا المفكر اليونانى فى عام (١٠٠ ب. م.). وقد جاء ذكره عند علماء الاحجار فى ذكر علل الاحجار، راجع مقالى فى مجلة الحوليات الاثرية السورية، ج ١٥، ١٩٦٥.
M. Y. Haschmi, Die griechischen Quellen des Steinbuches von al-Beruni, Les Annales Archéologiques de Syrie, Damas 1965, Vol. XV, Tom II, p. Vgl. W. Windelband, Lehrbuch der Geschichte der Philosophie, Tübingen 1935, p. 179, J. Ruska, Tabula Smaragdina, Heidelberg 1926, p. 164.

٨) عن تاريخ حياة هذا البحاثة فى تاريخ الطب العربى والذى عاش فى القاهرة كطبيب للعيون، وتوفى فيها عام ١٩٤٥، راجع مقال جيزلا كيرشر، «الالمان وتاريخ الصيدلة العربية»، فكر وفن ١٣، ص ٥٣/٥٤.

٩) J. Ruska, Turba Philosophorum, Quellen und Studien z. Geschichte der Naturw. und der Medizin, Bd. I, Berlin 1931.

١٠) وقد وجد تلميذ روسكا پاول كراوس هنا افكاراً اسماعيلية، وقد قمنا فى الرد عليه فى كتابنا، الامام الصادق ملهم الكيمياء، المصدر المتقدم، اما بدء الكيمياء فى الحضارة العربية فيلزم ان تكون قبل القرن التاسع الميلادى، انظر المصادر السابقة.

ـ الاثمد)، بوريتيس (حجر القداح)، والسنـــدروس (كبريت الزرنيخ) وغير ذلك. ولم يكن التفسير عن طريق الكيمياء اليونانية بل العربية، ويشير ايضا الى رموز عديدة فى هذه المخطوطة وارشادات عملية عديدة. وكل هذه الدراسات هى فى الحقيقة مقدمة لدراسة الرازى.

ان العمل العظيم الذى قام به روسكا فى تاريخ الكيمياء العربية هو اظهار كتاب سر الاسرار للرازى الموجود بصورة مخطوطة فى مكتبة غوتينغن الى ضوء النهار وترجمته الى اللغة الالمانية مع التفاسير والشروح، وبذلك يلقى انوارا كشافة على هذا الموضوع بصورة واضحة جلية. وقد كان قد انتهى روسكا من هذا السفر الكبير بصورة مخطوطة قبل سنوات من بلوغه سن السبعين وذلك فى عام ١٩٣٧. ولقد تعاون كل من دار نشر يوليوس شبرنغر Julius Springer فى برلين ومعهد دراسات تاريخ الطب والعلوم الطبيعية فى نفس المدينة لاخراج هذا السفر الرئيسى للرازى مترجماً الى اللغة الالمانية، وقد سبق ذلك مقال نشره فى مجلة الاسلام الالمانية (عدد ٢٢ ــ ١٩٣٥ ص ٢٨١ ــ ٣٧١) بعنوان «الكيمياء عند الرازى»، وكذلك اخراج فصول ثلاثة من كتاب الرازى المذكور، وكتاب الشبوب (جمع شب) والاملاح والسفر الاساسى للكيمياء[١٠]. وتكريما لعلامتنا اخرجت دار النشر المذكورة الترجمة الالمانية الكاملة مع الشروح والتفاسير لهذا الاثر عند بلوغ روسكا السبعين وذلك فى عام ١٩٣٧[١١].

ويذكر روسكا نفسه فى مقدمة كتاب الرازى الاخير ما يلى: «ويظهر ان جميع مصادر الكيمياء من مواد وآلات ومنهج واعمال والمصادر اللاتينية لجيبر Geber[١٢] يمكن ارجاعها الى مصادر كتاب الرازى (سر الاسرار)».

نعم ان بعض النتائج العلمية التى اتى بها روسكا قد تبدلت اليوم، وتبين ان الكيمياء العربية هى من تاريخ اقدم مما كان يظن، حتى انه من المحتمل ان تكون شخصية جابر شخصية حقيقية عاشت فى ذلك الزمن المتواتر اى القرن الثانى الهجرى والثامن الميلادى، نظرا للمخطوطات العديدة المكتشفة حديثا[١٣]. حتى ان انتحال كتاب ارسطوطاليس قد عرفه محمد بن احمد البيرونى من القرن العاشر والحادى عشر الميلادى، اذ يقول فى كتابه الجماهر فى معرفة الجواهر (حيدر آباد ١٣٥٥ هـ) ص ٤١: «وفى كتاب الاحجار المنسوب الى ارسطوطاليس (فما اظنه الا منحولا عليه) انه ربما اتفق فى الياقوت نكتة فاضلة الحمرة على سائرها فاذا نفخ عليه فى النار انبسطت النكتة فيه فزادته حسنا وان كانت سوداء ذهبت ببعض سوادها».

وهذا النص مع بعض الاختلافات موجود ايضا فى كتاب الاحجار لارسطوطاليس الذى نشره وترجمه روسكا (ص ٩٩، ١٣٥)[١٤]. وهناك فى الحقيقة بعض المناسبات بينما تواتر عن ارسطوطاليس الفيلسوف المعروف وكتاب الاحجار المنتحل له. ان النتائج متبدلة دوما، ولكن البحث العلمى النزيه باق الى الأبد، ويقيم هذا لروسكا وامثاله نصبا تذكارياً خالداً لا يقضى عليه تعاقب الايام ومر الاعوام، وينطبق هنا وما تواتر عن الشاعر الالمانى ليسنغ، Lessing:

«لا ينحصر فضل الانسان فى امتلاكه للحقيقة ... وانما فضله فى الجهد الذى يبذله مخلصاً فى السعى اليها، ولا تنمو ملكات الانسان بامتلاك الحقيقة، بل بالبحث عنها، وكماله المتزايد ينحصر فى هذا وحده، بل ان امتلاك الانسان للشئ يميل به الى الركود والكسل والغرور. ولو ان الله وضع الحقائق كلها فى يمينه ووضع فى شماله شوقنا المستمر اليها وان اخطأناها دائما ثم خيرنى لسارعت الى اختيار ما فى شماله، وقلت ــ يا ابانا؟ رحمتك، ان الحق الخالص لك وحدك.» وهذا يوافق دعاء المسلمين فى صلواتهم من سورة الفاتحة: «اهدنا الصراط المستقيم»، ويؤثر عن محمد اقبال فى هذا الصدد قوله: «انى اضحى باليقين المطلق فى سبيل الشك لأنى شهيد البحث».

بقيت علينا ناحية واحدة لابد لنا فى ختام ذكرى هذه الشخصية الفذة من التنويه بها الا وهى تربية اولاده، فيقول عنه ابنه هيلموت ما يلى[١٥].

---

١٠) الكيمياء اللاتينية المتأخرة Das Buch der Alaune und Salze. Ein Grundwerk der spätlateinischen Alchemie, Berlin 1935, Verlag Chemie.

١١) Al-Razi's Buch Geheimnis der Geheimnisse, Quellen und Studien z. Geschichte der Naturw. u. d. Medizin, Bd. VI, 1937, Berlin, XII.

١٢) تختلف نصوص الكيمياء فى مخطوطات جابر بن حيان العربية عن ما تواتر عن جابر «جيبر» من المخطوطات اللاتينية فى الكيمياء، ويرجع روسكا هذه النصوص الاخيرة للرازى. بيد ان هوليارد يشير بان مصادر جابر اللاتينية هى ليست من كتب جابر بل مما دونه الجلدكى عن جابر، راجع مقال هوليارد عن الكيمياء فى القرون الوسطى الاسلامية، اطروحة التسليمى المقدمة لجامعة لندن ١٩٥٤.
E. J. Holmyard, Alchemy in medivial Islam, Endeavour, Vol. XV, 55, July 1955. M. Taslimi (Jildaki) Thesis aproved for the Ph. D. degree University of London 1954.

١٣) Fuad Sezgin (Frankfurt/M), Das Problem des Ǧābir ibn Ḥayyān im Lichte neu gefundener Handschriften, ZDMG, 114, 1954, S. 255—68.

١٤) راجع مقالى عن المصادر اليونانية للبيرونى، المصدر المتقدم (مجلة الحوليات الأثرية السورية).

١٥) ذكرى روسكا، المصدر المتقدم. (هيلموت روسكا)

«لقد كان ابونا الكثير الانشغال، من اجلنا نحن الاولاد غرقاً فى غرفة دراسته، ورغم ذلك فقد كنا نقوم بصحبته بالنزهة فى ايام الآحاد وفى العطلات بصورة كافية، وكذلك كنا نجرى بعض المباحثات فى الجيولوجيا وعلم المستعدنات والنبات، وكان التاريخ وما قبل التاريخ من المواضيع المحببة الينا. اما قيام والدنا فى مراقبة بعض الواجبات المدرسية فلم تكن محببة لدينا. وكانت تثار فى بعض الاحيان بينى وبين اخى مناقشات حادة، ولكن وجودنا حول طاولة الدراسة للوالد كانت تسكن من حدة هذا التوتر وتهدئ الزوبعة الفكرية. وفى مقال نشره والدنا عن العيد المئوى لتأسيس المدرسة (فى هايدلبرغ) ذكر انه استعمل المجهر المبعد فى احدى خزائن المدرسة. ولم تتح لى الفرصة بالقيام بالتجارب المكروسكوبية مع والدى، ولكن الاستاذ لايبر Leiber دربنا على تمارين فحص الانسجة والخلايا لاداء الفحص التمهيدى للطب. وعندما اظهرت لوالدى رغبتى للحصول على مجهر حقق لى هذه الرغبة على الفور. وبعد عشر سنوات من ذلك كنت اتمرن على المجهر الالكترونى لاخى ارنست Ernst ولصهرنا بودو فون بوريس Bodo von Borries فى مختبرات سيمنس — هالسكه (الشركة المساهمة) .Siemens-Halske AG للفحص الحياتى.» ثم يتابع قوله: «هناك شكايات عديدة من اجل اصلاح المدارس، وكان والدى من اولئك المصلحين، وكان يتطلب ثقافة فى العلوم الطبيعية فى المدارس بصورة كافية، رغم انه كان من المنتمين الى الثقافة الانسانية (للأوائل)، والتاريخ، وعلم اللغات (بجانب العلوم الطبيعية)، وكان على يقين بأن المواهب النادرة فى جميع الفروع لابد من ان تتقدمها ثقافات فى العلوم الطبيعية المحضة. لقد تعلمنا فى البيت احترام المدرسة وجهود المعلم، ولقد تربينا على ان نكون بنشاط دائم للقيام باعمال فريدة داخل المدرسة وخارجها، وكان والدى يعطى الحرية لنا فى اختيار الاختصاص الذى كنا نصبو اليه، وان لم تكن هناك وظيفة براتب تداعب خواطرنا. تربينا ايضا على لزوم التعاون بين البيت والمدرسة، ونعترف بدفع مواهبنا الى الامام بدءاً من المدرسة حتى الى المواقف الحاسمة فى تقدم الحياة، وان تنفيذ مثل هذه الامور بحكمة وروية هى من الواجبات الاولية للمجتمعات الانسانية». ان فكرة الدقة هذه اورثها يوليوس روسكا لابنيه كل من ارنست واخيه الاصغر هيلموت، فاصبح الاول اليوم مدير معهد المجهر الالكترونى فى جمعية ماكس بلانك[٢٠] فى برلين والثانى مدير معهد الفيزياء الحياتية والمجهر الالكترونى فى جامعة دوسولدورف. وليست هذه المرة الاولى التى توقظ العلوم الفكرية البحتة العلوم الايجابية الحديثة، فلقد تقدمتها ايضا جهود سابقة، فاذا كانت جهود روسكا مزيجاً من العلوم الايجابية والفكرية، فهناك ممن كانوا من العلوم الفكرية المحضة وكانوا مع ذلك السبب فى تقدم العلوم الواقعية، فان الباعث على تشكيل جمعية الامبراطور ويلهلم والتى اصبحت فيما بعد جمعية ماكس بلانك هو ويلهلم فون هومبولدت الديبلوماسى والعالم اللغوى والمربى الكبير، وان اول رئيس لهذه الجمعية كان العالم اللاهوتى ادولف فون هارناك Adolf von Harnack ومع ذلك فقد كانت هذه الجمعية الباعثة على تقدم العلوم الايجابية بصورة مثالية.

يجدر بنا ان نختتم ذكرانا لعلامتنا يوليوس روسكا بكلمة للجاحظ، ذكرتها ايضا فى ختام محاضرتى عن علم الحياة عند الجاحظ فى مؤتمر تاريخ الطب الدولى العشرين الذى انعقد فى برلين،[١٦] تعبيرا عن التقدم المستمر الى الامام: «ينبغى ان يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا، على انا قد وجدنا من العبرة اكثر مما وجدوا، كما ان من بعدنا يجد من العبرة اكثر مما وجدنا».

هكذا اغمض هذا العالم النحرير والمدقق القدير عينيه فى الثانى عشر من شباط عام ١٩٤٩ الى الراحة الأبدية. ويصادف الآن مرور احدى وعشرين عاما على وفاته، ولكنه سيبقى خالدا الى الاجيال القادمة طالما هناك دراسات جدية فى تاريخ العلوم العربية.

---

١٦) عام ١٩٦٦.

Biologie bei al-Dschahiz, einem arabischen Naturphilosophen aus dem IX. Jahrhundert.

ولقد نشرت هذه المحاضرة ايضا باللغة العربية فقط. المجلس الأعلى للعلوم فى أسبوع العلم التاسع (مهرجان الجاحظ) دمشق ١٩٦٨.

كارل بروكلمن

(١٨٦٨ - ١٩٥٦)

بقلم : الأستاذ يوهان فولك

لم يكن من طبع بروكلمان أن يثير ضجة كبيرة حول نفسه وأعماله، فعندما احتفلت جامعة هاله عام ١٩٤٨ بعيد ميلاده الثمانين وذكرت فى تهنئتها له جليل أعماله فى خدمة الاستشراق، أجاب مذكرا الحاضرين أن مصير جميع الابحاث العلمية أن يتفوق عليها تقدم المعرفة العلمية وقال إن العادة هى أنه بعد مرور خمسين عاماً على وفاة الباحث يصبح كل ما كان صحيحاً ثابتاً من أبحاثه تراثاً عاماً للبحث العلمى، بينما تذهب اخطاؤه ضحية للنسيان. إن مثل هذا الرأى يبدو مفاجئاً حين ينطق به رجل أغدق عليه بالوافر الكثير من آيات التقدير والاعتبار — فقد كان عضو شرف فى جمعية المستشرقين الألمانية والجمعية الاسيوية الملكية والجمعية الاسيوية والجمعية الشرقية الامريكية والجمعية اللغوية الامريكية، كما كان عضواً نظامياً فى أكاديمية العلوم السكسونية، وعضواً مراسلا لسلسلة من الاكاديميات والجمعيات العلمية، ومنح عام ١٩٥١ الجائزة الوطنية من المرتبة الأولى — ومع ذلك فإن رأيه ذاك كان مميزاً للموضوعية الصافية الخالية من أى وهم التى كان بروكلمان ينظر بها لأعماله الخاصة ولأعمال غيره أيضاً. ولذا فمن الضرورى لكى نفهم قوة فاعليته أن ننتبه دوماً للعلاقة الداخلية التى كانت تربط عمله الفردى بكل مستوى من مستويات البحث العلمى، وخاصة أنه شهد ثلاثة أعمار بشرية تقريباً وأنه كان منذ الثمانينات شاهداً على الازدهار الكبير الذى مر به الاستشراق.

ولد بروكلمان فى السابع عشر من سبتمبر من عام ١٨٦٨ لعائلة ميسورة معتبرة من طبقة التجار فى مدينة روستوك. وقد أعزى ميوله العلمية لأمه، التى كانت امرأة خصبة الفكر عرفته بكنوز الأدب الألمانى. وظهرت موهبته للغات بسرعة فى المدرسة الثانوية ولاقى تشجيعاً خاصاً من مدرس علم اللغة الألمانية ك. نيرغر K. Nerger. وأثار نيرغر، الذى كان قد ألف كتاب قواعد لتاريخ لهجة مكلنبورغ أثار حماس بروكلمان الشديد لدراسة الألمانية السفلى، بحيث ظل طيلة حياته يتابع باهتمام شديد مراحل التقدم فى هذا الحقل. ومع هذا الحب الشديد للوطن كان يتمتع بحب غريب للاقطار البعيدة كانت تغذيه قصص الرحلات الاستكشافية فى اجزاء العالم المجهولة بحيث نشأت فى نفس الصبى رغبة ملحة فى أن يجوب العالم سواء كطبيب بحرى أو مترجم أو مبشر. وكان هذا هو الدافع الذى حدا به إلى الاستماع إلى درس العبرية الذى كان يعطيه نيرغر؛ وقد ذكر بافتخار أنه استطاع فى امتحان الشهادة الثانوية النهائى أن يترجم مقطعاً غير مشكل من سفر عاموس (العهد القديم) دون أى إعداد سابق. وتعرف فى المدرسة أيضاً إلى لغة الكتاب المقدس الآرامية وإلى السريانية كذلك. وحين التحق بجامعة روستوك بعد عيد الفصح عام ١٨٨٦ قرر أن يدرس اللغات الكلاسيكية والتاريخ إلى جانب الاستشراق. وكان مدخله إلى العربية والاثيوبية والقواعد المقارنة للغات السامية على يدى المستشرق فريدرش فيلهلم مارتن فيليبى، F. W. M. Philippi. وبدافع من فيليبى ذهب بعد عيد الفصح من عام ١٨٨٧ إلى بريسلاو للدراسة على فرانتز پريتوريوس Franz Praetorius الذى كان عالماً ممتازاً بلغات الحبشة. ودرسه زيجموند فرنيكل S. Fraenkel لغة التلمود. وراح يدرس اللغة التركية التى كان تدريسها لا يزال نادراً فى ألمانيا، راح يدرسها لوحده.

وحسب نصيحة فيليبى وپريتوريوس مضى بروكلمان فى عام ١٨٨٨ إلى ستراسبورغ للدراسة على يدى تيودور نولدكه. والى جانب ذلك راح يدرس السنسكريتية والأرمنية لدى عالم اللغات الإندو — جرمانية هاينريش هوبشمان Heinrich Hübschmann. وجذبته كذلك دراسة الحضارة المصرية القديمة فراح يحضر محاضرات دوميشن Dümichen، الذى كان عالم آثار بالدرجة الأولى

Halle/S. 1.12.57

الى العلامة الجليل صلاح الدين المنجد
سيدى العزيز بعد التحيات والاحترام فقد تفضلتم
بارسالى كتاب فضائل الشام ودمشق للربعي وقد عنيتم
بتحقيقه ونشره فابتهجت بقراءته واستفدت من
احاديثه المهمة فتفضلوا بقبول شكري على المنحة
الجليلة على اصحاب العلوم العربية ودمتم بالخير

المخلص
Brockelmann

Halle/S. 4. Liebknechtstr. 18 – 11.2.57

العلامة صلاح الدين المنجد
تحيات طيبات
واشكركم خالص الشكر على انكم انبأتموني بصدور كتابي
الاستاذين الجليلين محمد كرد على في المذكرات واحمد
امين في حياتي فاني ما رأيتهما الى الآن كأكثر الكتب الجديدة
الخارجة عن المطابع المصرية والشامية وعزّتها استمنيت ان اقرأها
واضيف بضعة اسطر عنهما الى دراستي في التراجم الشخصية
عند العرب فان تفضلتم بارسالهما الى شكرتكم خالص الشكر
ودمتم بخير وتقبلوا خالص الاحترام

المخلص
Brockelmann

رسالتان من الاستاذ بروكلمن الى صلاح الدين المنجد

بحيث أهمل علم اللغة. وقد أسف بروكلمان كثيراً لعدم عثوره على استاذ قدير فى هذا الحقل، إذ أن العلاقات القائمة بين اللغات السامية ولغات شرقى وشمالى أفريقيا ظلت تشغله طيلة حياته. واشترك كذلك بتمارين قراءة النقوش التى كان يديرها مدير مكتبة جامعة ستراسبورغ فيما بعد، يوليوس أويتينغ Julius Euting، الذى كان أحسن عارف بتاريخ الكتابة السامية وخبيراً ممتازاً بالنقوش.

وفى شتاء عام ١٨٨٩ وضع نولدكه مسابقة كان الواجب فيها دراسة العلاقة بين «الكامل» لابن الاثير و«أخبار الرسل والملوك» للطبرى. واستطاع بروكلمان أن يحل هذه المسألة ونال فى التاسع من ابريل عام ١٨٩٠ درجة الدكتوراة فى الفلسفة. وبعد ذلك بقليل فاز فى امتحان الدولة — وكان قد حضر فى ستراسبورغ كذلك محاضرات عالمى اللغات الكلاسيكية ليو Leo وكايبل Kaibel، وعالم الآثار ا. ميشائيلس A. Michaelis، والمؤرخين ك. ى. نويمان K. J. Neumann وپاول شيفر- بويشورست Paul Scheffer-Boichorst وباومغارتن Baumgarten وكذلك الفيلسوف ڤندلباند Windelband، وبدأ يعمل منذ اول اكتوبر فى المدرسة الثانوية الانجيلية فى ستراسبورغ كمساعد مدرس. والى جانب ذلك واصل دراساته العربية ونشر عام ١٨٩١ بدافع من نولدكه الترجمة الألمانية للجزء الاول من ديوان لبيد التى أتمها انطون هوبر Anton Huber قبل وفاته المبكرة، ثم أصدر الجزء الثانى من الديوان بالمتن والترجمة استناداً إلى العمل التحضيرى الذى كان قد أعده هوبر وهاينرش توربيكه H. Thorbecke.

ولم يدم عمله فى المدرسة الانجيلية طويلا؛ وبما أنه لم يكن يرغب فى العمل فى مدرسة خارج ستراسبورغ، فقد قرر العمل فى التدريس الجامعى، فذهب فى نهاية عام ١٨٩٢ إلى بريسلاو وحصل على درجة الكفاءة للتدريس الجامعى فى ١٨٩٣/١/٢٨ بدراسة تاريخية أدبية عن مؤلف ابن الجوزى التاريخى.

وفى هذه الأثناء كان بروكلمان قد جمع بنشاط كبير مادة لأول مؤلف كبير له وهو المعجم السريانى Lexicon Syriacum. وكان تأليف قاموس للسريانية آنذاك مهمة مطلوبة: فقد كان المعجم السريانى لكاستيلوس Castellus المطبوع عام ١٧٨٨ قد نفد منذ زمن طويل وأصبح قديماً، كما أن معجم المفردات السريانية Thesaurus Syriacus الذى كان فى سبيله إلى الطباعة منذ عام ١٨٦٨ لمؤلفه ر. پين سميث R. Payne Smith، كان يحتوى



المستشرق كارل بروكلمان

اشيـاء كثيرة لا تهم أغلب المحتاجين له ولا تفيـدهم. وفى فترة قصيرة جداً لا تتجاوز الثلاثة أعوام استخرج بروكلمان مفـردات «بيشتا» و «أفرات» و«افريم» وراح يقـرأ نصوصاً كثيرة غيرها ليتمم عمله. وتكسب الشروح والتعليقـات هذا المؤلف قيمة خاصة حيث أنها تستند جميعاً إلى جمع من عمل المؤلف الخاص. وظهرت ميوله اللغوية فى بعض الإشارات الخاصة بتاريخ المفردات وتطورها. وفوق ذلك فقد أفرد فهرساً لاتينياً سريانياً. وساهم كل ذلك فى تفضيل الكتاب من الناحية العلمية على قامـــوس J. Bruns, Dictionarium Syriaco-Latinum الذى صدر فى الفترة نفسها فى بيروت.

وقبل أن يطبع المعجم السريانى Lexicon Syriacum فى شهر شباط من عام ١٨٩٥ طلب إدوارد زاخاو Eduard Sachau من بروكلمان أن يساهم فى العمل على مؤلف ابن سعد الضخم وأن يسافر إلى لندن واستانبول لدراسة المخطوطات المتعلقة بذلك. وهكذا سافر فى شهر اغسطس عام ١٨٩٥ إلى لندن وانتقل من هناك فى شهر سبتمبر إلى باريس ومرسيليه وأثينا وأزمير ومن ثم إلى

استانبول حيث امضى الشتاء هناك. ولم يقم بتنفيذ ما كلف به فحسب، وإنما نقل نسخة من عيون الاخبار لابن قتيبة وأخذها معه. وفى نهاية شباط (فبراير) عام ١٨٩٦ عاد بطريق البر إلى بريسلاو.

واهتمت أكاديمية برلين بطباعة مؤلف ابن سعد، وظهر المجلد الثامن الذى اشتغل عليه بروكلمان عام ١٩٠٤. أما أمر إصدار نسخة عيون الأخبار فقد كان عليه أن يتعهد به بنفسه ووجد فى شخص إ. فيلبر E. Felber فى ڤايمار ناشراً كان مستعداً للقيام بتكاليف النشر إذا ما ترك له بروكلمان فى الوقت نفسه أمر كتاب آخر كان تصريفه يعد بأكثر من مثل هذا المتن العربى الذى لن يهم إلا عدداً قليلا من المكتبات والاختصاصيين. وكان هذا هو الدافع الخارجى لتأليف ذلك الكتاب الذى اعتمدت عليه شهرة بروكلمان العالمية وهو تاريخ الأدب العربى Geschichte der arabischen Literatur (GAL) وكان قد رسم الخطة لتأليف ذلك العمل منذ زمن طويل. وكان يعلم أنه كان من المستحيل إزاء المستوى الذى بلغه البحث العلمى آنذاك أن يتمكن المرء من عرض مجرى التطور الداخلى للأدب العربى والمؤلفات العربية؛ ومع ذلك فقد كان عدد النصوص المطبوعة بمقارنتها بمجموع المؤلفات العربية عموماً ضئيل لا يذكر، والأقل من ذلك هو عدد تلك المؤلفات التى جرى تحقيقها ودراستها فعلا. وإلى جانب ذلك ظهر بغضه لجميع المؤلفات المتعلقة بتاريخ الأفكار التى تفتقر إلى الأساس اللغوى الثابت. وهكذا فقد قرر كشرط لا غنى عنه لجميع الأبحاث والدراسات المقبلة للأدب العربى والمؤلفات العربية أن يقدم عرضاً كاملا لجميع المؤلفات الإسلامية باللغة العربية المتوفرة حتى الآن مع استبعاد المؤلفات الصادرة باسماء مغفلة والتى لا تحمل تاريخاً لتأليفها، مع اثبات جميع المخطوطات والمطبوعات وتبيان أماكنها واعطاء نبذات مختصرة عن سير مؤلفيها. وفى عام ١٨٩٧ صدر النصف الأول من المجلد الأول، وفى عام ١٨٩٨ تلاه النصف الثانى، وفى ١٩٠٢ صدر المجلد الثانى وتم المؤلف بذلك.

إن ما مكن بروكلمان من القيام بهذا المشروع الهائل وتنفيذه حسب خطة مدروسة وفى حدود ما يمكن تحقيقه عملياً هو ذاكرته الممتازة التى كانت تحفظ بأمانة كل ما كان يقرأ — وكان يقرأ كثيراً وبسرعة —، ويضاف إلى ذلك قدرته على التنظيم والتنسيق التى كانت تحيل التفاصيل الكثيرة المتجمعة إلى كل معقول، وأخيراً فإن الفضل فى ذلك يعود كذلك إلى براعته وموهبته فى التعبير عن افكاره بعبارات سلسة دون عناء وفى سيولة بحيث كانت المسودة التى يخطها تصلح فى الغالب للطبع مباشرة. وبذلك كان يعتمد اثناء تأليفه ذلك العمل الجبار على ذاكرته إلى حد بعيد؛ وما كان بوسعه أن يعمل بسرعة لو أراد أن يتحقق ويفحص كل دقيقة وكل تفصيل على حدة، بغض النظر عن أن كثيراً من المصادر التى كان يستقى معلوماته منها لم تكن متوفرة دوماً بين يديه. ومن الطبيعى أنه لم يكن بالوسع تجنب الاخطاء والسهو فى مثل طريقة العمل هذه على كتاب يزخر بالأسماء والسنوات والأرقام، بحيث أن بروكلمان نفسه أدرك ذلك وكان ممتناً لكل تصحيح. ولكن أهمية عمله الحقيقية لم تتأثر بهذه النواقص مهما بلغ مدى تشويشها على القارىء، إذ أن تقديم عرض لحقل كان يشبه حتى ذلك الحين أدغالا كثيفة لا يمكن اختراقها لم يكن يتوقف على التفاصيل الصغيرة، وقد أحسن بروكلمان باهماله اولئك النقاد الذين أرادوا أن يقيسوا هذا العمل الجبار بنفس المقياس الدقيق الذى تقاس به مقالة علمية. ومن الطبيعى أن نصف المجلد الأول الذى تناول الفترات المعروفة جيداً من الأدب والتأليف العربى كان أبعد من أن يكون ملائماً لتوضيح فكرة هذا الكتاب، بحيث أن النقاد الحسنى النوايا لم يستطيعوا أن يولوه التقدير الصحيح. ولكن عندما صدر تاريخ الأدب العربى (GAL) بكامله أصبح فوراً أداة لا يستغنى عنها لكل مستشرق مهتم بالعربية.

وفى ربيع عام ١٩٠٠ استحضر زاخاو Sachau بروكلمان كمدرس للعربية فى معهد اللغات الشرقية فى برلين. وكان عليه أن يدرس هنا اللهجة المغربية بدلا من آغوست فيشر August Fischer الذى استدعى إلى لايبزغ، واستطاع بروكلمان القيام بدراسات عملية فى اللهجة المغربية مع المحاضر الظلالى من الرباط. وفى صيف العام نفسه أصبح استاذاً خارج الملاك فى ايرلانجن على إثر وفاة لودڤيج آبل Ludwig Abel، وقدم له على إثر ذلك أيضاً منصب استاذ خارج الملاك فى بريسلاو على إثر انتقال هـ. تزيمر H. Zimmer إلى لايبزغ، فأختار بريسلاو.

وكان بروكلمان يدرك دوماً واجب تيسير نتائج العلوم والابحاث للقراء غير الاختصاصيين بلغة مفهومة وسهلة. وهكذا فقد قدم فى المجلد الأول من مؤلفه الجامع: «آداب الشرق ١٩٠١» "Die Literaturen des Ostens"، «تاريخ الادب العربى» Geschichte der arabischen Literatur وذلك بصيغة مختصرة، وقد اعيد طبعها للمرة الثانية

ملحوظة دونها الأستاذ بروكلمان.
وأرسل الأستاذ أنطون شبيتالر (جامعة ميونيخ) مشكوراً صورتها الأصلية إلينا مزودة بامضاء بروكلمان المنشور على ص ٨٧.

عام ١٩٠٩. وقد أوحى إليه باصدار «تاريخ الآداب المسيحية فى الشرق» „Geschichte der christlichen Literaturen des Orients“ فى المجلد السابع من السلسلة نفسها، وعالج فيه الأدب السريانى والمسيحى العربى. وقد سعى بعد ذلك إلى وصف المجموعة الصغيرة من المخطوطات الشرقية فى مكتبة مدينة بريسلاو فى «فهرس» خاص عام ١٩٠٣. وفعل الشيء نفسه فى الاعوام القادمة بالنسبة لمجموعة المخطوطات الشرقية الاكثر أهمية فى مكتبة هامبورغ.

وفى ربيع عام ١٩٠٣ استدعى بروكلمان ليحتل مقعد الاستاذية النظامى فى كونيجسبرج Königsberg بعد أن أصبح خالياً بسبب استقالة جوستاف يان G. Jahn. وهنا ألف ذلك العمل الذى يعتبر اكثر اعماله أصالة والذى كان أحب أعماله جميعاً إلى نفسه وهو: «موجز قواعد اللغات السامية المقارنة» Grundriß der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen. (2 Bde, 1907—13)

وكان قد تعرف على يدى هوبشمان على طرق البحث الخاصة بالوضعية التاريخية اللغوية، التى أصبحت سائدة دون منازع منذ نشوب النزاع بين علماء اللغة الشباب فى حقل اللغات الإندوجرمانية. وقد وجدت هذه النظرية التاريخية اللغوية أن طبيعة اللغة تكمن فى عملية النطق الفردية وفسرت العلاقات القائمة بين اللغات المتقاربة بافتراض أن أصوات اللغة الأصلية قد تطورت ضمن لهجة معينة وخلال عصر لغوى معين حسب قوانين صوتية ثابتة لا شواذ لها، وأن الشواذ الظاهرة للقوانين الصوتية المفترضة يجب أن تفهم على اساس انها تراكيب قياسية تعتمد على التداعى السيكولوجى لمعانى الكلمات. وقد طبقت هذه النظرية التاريخية اللغوية فى اللغات السامية بالدرجة الأولى فى بحث اللغات المفردة كل على حدة، بينما كانت الدراسات التى تتناول جميع اللغات أو عدة لغات، كأبحاث پاول دى لاجارد P. de Lagarde وى. بارت J. Barth مثلا، كانت لا تزال تخضع لتصورات فلسفة لغوية رومانتيكية تسعى إلى الاستدلال على المعانى الأصلية لأشكال الكلمة بطرق منطقية شكلية. أما بروكلمان فقد استخدم الطريقة التاريخية اللغوية لأول مرة بشكل منظم فى دراسة جميع اللغات واللهجات السامية، بالقدر الذى كانت معروفة فيه آنذاك، وعرض فى موجزه الخالد مادة زاخرة وشواهد كثيرة عرضت بتنسيق وشرحت شرحاً يعتمد على طريقة علمية منظمة. وتجنب بكثير من الموضوعية أى تحيزات قد تجر إليها عقيدة عدم الشواذ فى القوانين الصوتية ونظرية التطور التى تستند إلى التصورات البيولوجية، ووصف فى عصر كان النزاع فى اللغات الإندوجرمانية على أشده فيه حول ما يدعى بالوطن الأصلى للإندوجرمانيين، وصف محاولة إعادة تركيب لغة أصلية كشبح وهمى لم يعد العلماء والباحثون الحقيقيون يسعون جادين فى البحث عنه. إن ما أثار اهتمامه هو بالذات كان مجرد تطور وصيرورة كل من اللغات فى وضعها التاريخى، فكان يرى من الضرورة لهذا السبب فقط أن يستعين بالاصطلاحات القريبة من اللغة المدروسة لغرض المقارنة، لأنه لا يمكن أن تجعل لغة ما مفهومة من خلال عباراتها وحدها فقط ودون الاستعانة بغيرها ولأن قوانين تطور اللغات فى الأزمنة التاريخية ظلت ثابتة لم تتغير. وكان بروكلمان يدرك أن موجزه لا يستطيع أن يعطى جواباً ثابتاً لجميع الأسئلة المطروحة، وصرح إنه لن يسعده شىء اكثر من إصدار طبعة ثانية من هذا الكتاب بعد تنقيحه من أساسه. ولكن

هذا الأمل لم يتحقق، إلا أنه كان يسجل دون كلل جميع ملاحظاته وتصحيحاته فى نسخته اليدوية، تلك التصحيحات والملاحظات التى بدت له ضرورية لإصدار طبعة جديدة منقحة؛ وتشير مقالاته حول المسائل المتنازع عليها فى اللغات السامية واشتقاقاته المصرية السامية وتقريظاته للكتب أنه كان مطلعاً على التقدم فى علم اللغات وأنه كان يسعى إلى السير خطوة خطوة مع هذا التطور والتقدم. ولذا فقد كان يتمتع فى دوائر علماء اللغة أيضاً باعتبار كبير؛ وقد دعى للاشتراك فى المؤتمر الخاص بالتسجيل الصوتى والكتابة الصوتية الذى عقد فى ابريل عام ١٩٢٥ فى كوبنهاغن، كما أنه مثل ألمانيا عدة اعوام فى لجنة اللغويين الدولية الدائمة (CIPL).

وإلى جانب الموجز، فقد ألف بروكلمان فى موجز قواعد اللغات السامية المقارنة فى Porta linguarum orientalium (Bd. 21) عام ١٩٠٨ كتاباً تعليمياً عالج فيه علم الأصوات وقواعد الصرف واقتطف الشواهد والأمثلة فيه من اللغات الأدبية. وفى عام ١٩٠٦ كان قد عرض أهم الحقائق المتعلقة باللغات السامية فى كتيب صغير من دار Göschen بصورة واضحة ومفهومة تحت عنوان «علم اللغات السامية» Semitische Sprachwissenschaft. وقام ويليام مارسيه William Marçais ومارسيل كوهين Marcel Cohen عام ١٩١٠ بترجمة الكتاب إلى الفرنسية وإعداده ليتلاءم وحاجات الدارسين الفرنسيين الخاصة، كما أن النسخة الألمانية اعيد طبعها مرة ثانية عام ١٩١٦. وفى العشر سنوات الأخيرة من عمره قام بروكلمان بتحضير طبعة جديدة تتلاءم ومستوى البحث العلمى الحاضر، وأراد أن يراعى اللغة الأوغارية بالدرجة الأولى؛ إلا أن مشروعه هذا لم يتحقق.

ولتفهم المسائل التاريخية اللغوية فقد اعتبر بروكلمان اللغة السريانية ذات ملاءمة خاصة بين اللغات السامية الكلاسيكية. ولذا فقد عالج فى قواعد اللغة السريانية الذى صدر فى بادئ الأمر عام ١٨٩٩، عالج قواعد الأصوات بتفصيل خاص ثم كان يعود إليها دوماً اثناء علاجه لقواعد الصرف لإيضاح خصائص التراكيب الصرفية على ضوء التطور التاريخى اللغوى. ومن الطبيعى أن عدداً كبيراً من القراء الذين كانوا يتعلمون السريانية لأهمية أدبها بالنسبة لتاريخ الكنيسة فقط كانوا على استعداد للاستغناء عن التفسيرات اللغوية العلمية، إلا أن بروكلمان رفض كلياً فكرة تأليف كتاب للقواعد من وجهات نظر عملية تطبيقية خالصة. ومن الجهة الاخرى فقد كان يحسب منذ البداية حساباً خاصاً لرغبات الدارسين اللاهوتيين بحيث جمع فى منتخبات القراءة التى تمثل النواة الحقيقية لكتابه والتى اختيرت من الأدب الكلاسيكى فقط لأسباب تاريخية لغوية، لقد جمع نصوصاً تبين تطور الكنيسة السريانية من البداية حتى الانشقاق. وهكذا انتشر الكتاب بسرعة ومر حتى عام ١٩٥١ بخمس طبعات ونقل معارف طريقة البحث التاريخية اللغوية حتى إلى الدوائر البعيدة عن علوم اللغة.

واتيحت له فرصة استخدام الطريقة نفسها بالنسبة للغة العربية عندما كلفته هيئة Porta linguarum orientalium إعادة تنقيح كتاب ألبرت سوسين Albert Socin فى قواعد اللغة العربية (ابتداء من الطبعة الخامسة عام ١٩٠٤). ومنذ الطبعة السادسة قدم قسماً خاصاً حول قواعد الاصوات كان يعود إليه دوماً فى القسم الخاص بقواعد الصرف. وأزال القطع التى وضعت لترجمتها إلى الألمانية لاعتقاده بأن مثل هذه القطع تلائم قواعد المحادثة ولكنها لا تتناسب وعرضاً للغة الادبية الكلاسيكية. ولهذا السبب نفسه فقد قاوم فكرة تقسيم المادة إلى دروس صغيرة حسب وجهات نظر عملية تطبيقية. وكسب الكتاب بين يديه شيئاً فشيئاً طابع القواعد العلمية. وابتداء من الطبعة الحادية عشرة (١٩٤١) أخذ الكتاب يحمل اسمه. وبثلاث عشرة طبعة بلغ الكتاب شهرة وانتشاراً لم يحققهما أى كتاب آخر من هيئة Porta linguarum orientalium ومع أن بروكلمان لم يكتب قواعد صوتية وصرفية للغة العبرية إلا أنه عقد عشرات المرات حلقات دراسية للتمرن على القواعد العلمية للغة العبرية لتعريف طلاب اللاهوت بالدرجة الأولى على طرق بحث اللغات السامية المقارنة التى لم يتوقف عن نشرها قط والتى كان يحزن لإهمالها فى الجامعات الألمانية.

وفى صيف عام ١٩٠٩ توفى زيجموند فرينكل Siegmund Fraenkel فى بريسلاو. وعاد سلفه بريتوريوس Praetorius، الذى كان قد استدعى إلى هاله عام ١٨٩٣، عاد الآن إلى جامعة بريسلاو. وبذلك أصبح المقعد الجامعى فى هاله خالياً وقدم لبروكلمان الذى قبله بسرور وخاصة أن مكتبة جمعية المستشرقين الألمانية ستقدم له امكانيات دراسية أفضل وأوسع. وفوق ذلك فقد كان قد تزوج عام ١٩٠٩ ولم تكن زوجته قادرة على تحمل مناخ كونغسبرغ. وفى هاله أنهى موجزه، الذى ظهر قسمه الثانى الذى يتناول علم الإعراب وتركيب الكلام ما بين ١٩١١ و١٩١٣. وفوق ذلك راح يحضر

الطبعة الثانية من معجمه السرياني. إلا أن الحرب العالمية الأولى أعاقت العمل كثيراً؛ وظلت طبعات النصوص الصادرة فى الخارج بعيدة عن متناول يده وبدأت تجد طريقها بعد الحرب تدريجياً إلى المكتبات الألمانية. ورغم أن طباعة المعجم بدأت فعلا عام ١٩١٨ وأمكن تقديم القسم الأول عام ١٩٢٣، إلا أن المعجم لم ينته بكامله إلا عام ١٩٢٨. وبمقارنة هذه الطبعة الثانية بالطبعة الأولى فانها تبدو عملا جديداً تماماً بضعف الحجم وبشروح وتعليقات جديدة وكثيرة. وقد وسعت الشواهد المتعلقة بالاشتقاقات التاريخية بحيث يمكن اعتبار المعجم خطوة عملية تمهيدية لقاموس مقارن للغات السامية يمكن أن يصدر فى المستقبل.

لقد كانت الظروف اكثر ملاءمة لدراسات بروكلمان فى حقل اللغة التركية منها فى حقل الدراسات السريانية، وخاصة أنه طبع أثناء الحرب العالمية الأولى فى استانبول أهم عمل عربى — تركى فى حقل علم اللغة وهو كتاب: ديوان لغات الترك الذى ألفه محمود بن الحسين الكاشغرى بين ١٠٧١ و١٠٧٣ ميلادى. ويحتوى سجل لغات الترك هذا عدداً زاخراً من الأخبار والروايات عن لهجات الشعوب التركية لأواسط آسيا فى العصر الوسيط. ولكن الكتابة العربية غير الملائمة مطلقاً لتسجيل الأصوات التركية وتعابير النحويين العرب التى استخدمها الكاشغرى للغة التركية ذات الطابع المختلف تماماً عن العربية، كانا عائقين شديدين أمام أية محاولة للاستفادة من هذا الكنز الثمين لدراسة تاريخ اللغة التركية. ولذا فقد شرح بروكلمان لفائدة وخير علماء التركية الذين لا يلمون الماماً حسناً بالعربية، شرح اول الأمر عرض الكاشغرى لتركيب الافعال التركية (فى المجلد الثامن عشر من مجلة Keleti Szemle لعام ١٩١٩)، ثم حقق ما يحتوى عليه الديوان من بقايا الشعر الشعبى التركستانى القديم وكذلك الحكم الشعبية التركستانية القديمة وكرس لذلك عدداً من الدراسات الأخرى ولكنه بذل مجهوداً خاصاً فى كتابة جميع الكلمات التركية الواردة فى «الديوان» بالحروف اللاتينية وترجمة شروح الكاشغرى العربية إلى اللغة الألمانية، مضيفاً لكل كلمة عدداً من الشواهد والشروح التاريخية اللغوية والاشتقاقية. وهكذا نشأ بالتدريج كتابه المرتب حسب الحروف الأبجدية: «المفردات التركية الوسيطية حسب ديوان لغات الترك لمحمود الكاشغرى» ,,Mitteltürkischer Wortschatz nach Maḥmūd al-Kāšgarī's Dīwān luġāt at-Turk" ذلك الكتاب الذى طبع عام ١٩٢٨ بمساعدة الاكاديمية المجرية للعلوم كمجلد أول من المكتبة الشرقية المجرية ,,Bibliotheca Orientalis Hungarica"، وكمواصلة لهذه الأبحاث رسم بروكلمان خطة لكتابة تاريخ اللغات التركية المكتوبة. ونفذ من هذه الخطة كتابه: «قواعد اللغة التركية الشرقية للغات الادبية الاسلامية لأواسط آسيا» من عام ١٩٥١ حتى ١٩٥٤.

,,Osttürkische Grammatik der islamischen Literatursprachen Mittelasiens". وعالج فى هذا الكتاب تاريخ الأصوات وعلم تكوين وتصريف العبارات التى استخدمتها قبائل اواسط آسيا التركية فى الأدب منذ دخولها الاسلام فى القرن العاشر وحتى فقد استقلالها السياسى.

ان الفترة الأولى لنشاط وفعالية بروكلمان فى جامعة هاله تمتد من ١٩١٠ حتى ١٩٢٢. وقد احتل ذروة الحياة فى تلك الأعوام. وقد حقق لنفسه بانجازاته الفردية الخاصة اسماً لامعاً فى الدراسات السريانية والعربية وعلوم اللغات السامية واللغات التركية — وهى حقول كانت مع تقدم التخصص العلمى آخذة بدورها فى الاستقلال كل بمفرده كعلم خاص ذى نظام قائم بذاته. وبفضل ثقة زملائه الذين انتخبوه رئيساً للجامعة فى يوليو عام ١٩١٨، وقعت على عاتقه مهمة ذات مسئولية كبيرة وهى قيادة مصير الجامعة فى فترة انتقالية عسيرة. وفى مايو عام ١٩١٩ حيا اعضاء الجامعة العائدين فى ميادين القتال بخطاب طبع بعنوان «اعادة البناء».

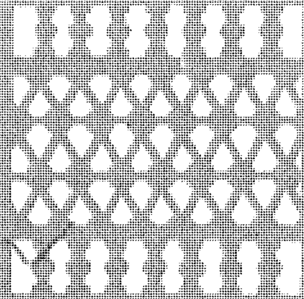
وفى هذه الاثناء كان مقعد التدريس الجامعى الذى كان يحتله ادوارد زاخاو لا يزال خالياً منذ انتهاء خدمات الأخير، كما تصادف أن أصبح مقعد التدريس فى القسم الشرقى بجامعة بون خالياً عام ١٩٢١ كذلك. وعرض المقعدان على بروكلمان، الذى قرر قبول منصب برلين لأنه كان يرجو أن يجد فيها ظروف عمل أفضل منها فى أية جامعة ألمانية أخرى وأن يجد المراجع الاجنبية التى لا يستغنى عنها لأبحاثه ودراساته المقبلة. إلا أن الآمال التى نشأت فى نفسه أثناء المفاوضات حول قبول مقعد برلين لم تتحقق. فلم يستطع الانتقال إلى برلين واضطر أثناء فترة هبوط النقد الألمانى إلى السفر إليها كل اسبوع لبضعة أيام وذلك طيلة فصلين دراسيين. وكان اكثر ما خيب ظنه أن غرف المعهد التى وعد بالحصول عليها قدمت لفرع دراسى آخر. ولكى يتجنب مواقف شاذة أخرى كهذه فقد تخلى بعد عام واحد عن منصب الاستاذية فى برلين وعاد كخلف لاستاذه بريتوريوس فى جامعة بريسلاو، حيث أمضى على حد تعبيره «سنوات جميلة

من الناحية الإنسانية»، إلا أنه ظل يعانى من الافتقار إلى المراجع الاختصاصية، ذلك الافتقار الذى اشتكى منه فى مقدمة تاريخ الادب العربى (GAL). وفى صيف عام ١٩٣٢ انتخب رئيساً للجامعة. وفى فترة رئاسته حدثت مظاهرات الطلاب النازيين ضد الاستاذ الحديث التكليف «كـون» مما ادى إلى اغلاق الجامعة لمـدة ثلاثة أيام. وبما أن بروكلمان سعى جاهداً إلى حماية الحرية التعليمية الجامعية، فقد راحت الصحافة النازية تهاجمه بشدة بحيث اضطر أخيراً إلى التخلى عن رئاسة الجامعة فى شهر مارس عندما تسلم النازيون زمام الحكم.

وفى خريف عام ١٩٣٥ احيل بروكلمان على التقاعـد وانتقـل فى ربيع عـام ١٩٣٧ إلى هـالـه ثـانية، لأنه أراد أن يستخدم مكتبة جمعية المستشرقين الألمانية لأبحاثه وخاصة لمواصلة العمل على تاريخ الأدب العربى. وكان، كعادته، قد جمع فى نسخته اليدوية جميع التصحيحات والتصويبات والتتمات المتعلقة بتاريخ الأدب العربى، التى توصل إليها منذ عام ١٨٩٧. وكان الاحب إلى نفسه والافضل إلى الدارسين لو أنه تمكن من إصدار طبعة ثانية من العمل الضخم؛ ولو تم له ذلك لما تمكن من تصحيح بعض الاخطاء والسهو فحسب، بل وكذلك من مراجعة بعض احكامه على المؤلفين العرب، ومن تحسين خطة وتنظيم الكتاب بكامله أيضاً، ولو تم ذلك لنشأ كتاب جديد تماماً. ولكن بما أن مطالب ورثة الناشر فيلبر جعلت إصدار طبعة ثانية أمراً مستحيلاً، فقد نشر بروكلمان المادة المجموعة الاضافية فى مجلدين ملحقين ضخمين صدرا عامى ١٩٣٧ و١٩٣٨ عن دار بريل فى لايدن. وفى الاربعين عاماً التى مضت منذ صدور الكتاب الأصلى كان الادب العربى الحديث قد تطور بشكل هائل، وكان بروكلمان قد اهتم اهتماماً كبيراً به أيضاً. وهكذا فقد استطاع عام ١٩٤٢ إصدار ملحق ثالث عالج فيه تاريخ الأدب العربى الحديث من عام ١٨٨٢، وهو عام الاحتلال البريطانى لمصر، حتى الوقت الحاضر. وكما فعل فى المؤلف الأصلى والملحقين فقد احتفظ فى الملحق الثالث أيضاً بعرض لسير المؤلفين؛ ولكن بينما اكتفى هناك بتعداد المؤلفات، قدم هنا معلومات تفصيلية عن محتويات المؤلفات المختلفة، وأشار إلى المثل العليا الأدبية وسجل ملاحظات تتعلق باللغة والاسلوب ولم يتحفظ فى احكامه على الأعمال الجارى بحثها. ولم يخف شيئاً من تعاطفه مع الاتجاهات السياسية لشعوب الشرق الأدنى ضد الاستعمار الأوروبى وضد الاستبداد المحلى بحيث كان يتمتع باعتبار كبير فى العالم الاسلامى بسبب موقفه هذا. وكان على اتصال دائم بالمراسلة مع عدد كبير من شعراء وكتاب وعلماء الشرق، وقد سر قبيل وفاته حين علم بأن القسم الثقافى لجامعة الدول العربية قرر نشر الترجمة العربية لتاريخ الأدب العربى وملحقاته.

وللتعرف على الخلفية السياسية الثقافية للأدب العربى الحديث فان بروكلمان لم يهتم بدراسة الاسلام فى الوقت الحاضر بتعمق فحسب، بل وراح يدرس تاريخه بنفس التعمق أيضاً. ويعود اهتمامه بالأبحاث الاسلامية إلى سنوات دراسته فى ستراسبورغ. فمن عام ١٨٩٥ حتى عام ١٩١٤ كان يكتب عن أحدث المؤلفات فى التاريخ الاسلامى فى التقارير السنوية لعلوم التاريخ وفى عام ١٩١٠ قدم فى المجلد الثالث لتاريخ العالم الذى أصدره يوليوس فون پفلوك-هـارتونغ Julius von Pflugk-Hartung عرضـــاً لتاريخ الإسلام منذ بدايته حتى العصر الحاضر (من الصفحة ١٣١ حتى ٣١٩). والآن وبعد مضى ربع قرن على ذلك عاد إلى هذا العمل القديم من جديد واعاد تنقيحه وأضاف له فصلا عن «النظام الجديد للدول الاسلامية بعد الحرب العالمية الثانية» صور فيه الأحداث حتى بداية عام ١٩٣٩. وبذلك نشأ كتاب تاريخ الشعوب والدول الاسلاميـة Geschichte der islamischen Völker und Staaten وظهر عام ١٩٣٩ كجزء من المجموعة التى أصدرتها دار نشر ر. أولدنبورغ عن تاريخ الدول. ونظراً لاتساع إطار التاريخ الإسلامى الهائل الذى امتد عبر ثلاثة عشر قرناً وانتشر فوق ثلاث قارات فقد كان العمل ينطوى على جرأة كبيرة وخاصة أن المصادر لم تكن معروفة بعد بالنسبة لحقول كثيرة فيه، فضلا عن معالجتها واستخدامها بطريقة نقدية علمية. وكان سد هذه الثغرات يفوق طاقات مؤلف بمفرده. ومن الجهة الأخرى فقد استطاع جمهور القراء غير المختصين والمهتمين بالسياسة العالمية أن يتوقع بحق الحصول من رجل اختصاصى على نظرة عامة تتمشى ومستوى البحث العلمى الحاضر عن التاريخ الاسلامى. وكما هو الحال مع بروكلمان دوماً، فقد استغنى هنا أيضاً عن جميع الحقوق فى الاولوية وتمسك فى المسائل المتنازع عليها مستغنياً عن أى بحث للموضوع بأولئك الثقاة الذين اعتبرهم الأفضل فى رأيه. وأبرز من بينهم ى. ڤلهـاوزن J. Wellhausen ول. كيتانى L. Caetani بالنسبة لتاريخ العرب وف. بارتولد W. Barthold وف. مينوركسى V. Minorsky لتاريخ آسيا الوسطى

جامعة الدول العربية
الإدارة الثقافية



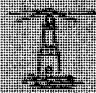
كارل بروكلمان

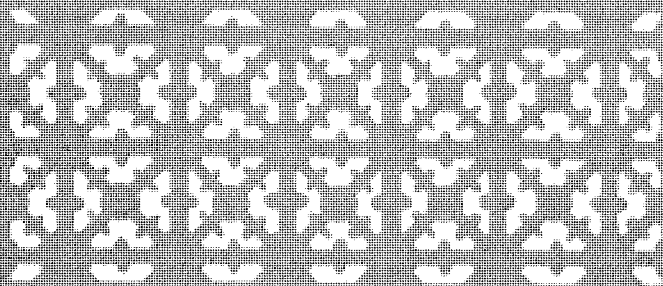
تاريخ الأدب العربي

نقله إلى العربية

الدكتور عبد الحليم النجار

الجزء الأول





دار المعارف بمصر

غلاف الجزء الأول من تاريخ الأدب العربي للاستاذ بروكلمن
الترجمة العربية

و ب. ڤيتك P. Wittek لتاريخ الدولة العثمانية. وبأصالة وحذق مألوفين استطاع أن يمد أمام القارئ خضما كبيراً من الحقائق التاريخية منسقة بشكل قابل للاستيعاب، كما راعى فى ذلك الحضارة والحياة الفكرية، وتخلى عن كل التفاصيل التى لا داعى لها وأفسح مجالا كافياً للتطورات التى حدثت منذ عام ١٨٠٠. وجاء الكتاب ليلبى حاجة ملحة واعيد طبعه ثانية عام ١٩٤٣. وهناك ترجمة انجليزية تمت خلال الحرب العالمية الثانية دون علم بروكلمان وظهرت عام ١٩٤٧ (واضيف إليها عرض للأحداث التى جرت من عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٤٧، اتخذ مؤلفها م. پيرلمان M. Perlmann فيها موقفاً من القضية الفلسطينية مغايراً لموقف بروكلمان). واعيد طبع هذه الترجمة الانجليزية (دون مراجعة پيرلمان) عام ١٩٤٩ فى لندن. ثم ظهرت فيما بعد ترجمات فرنسية وعربية وتركية وبولونية.

وكأستاذ متقاعد فى بريسلاو اضطر بروكلمان عام ١٩٤٥ إلى القيام بمنصب أمين مكتبة جمعية المستشرقين الألمانية بصورة مؤقتة؛ واهتم منذ ذلك الحين بتصنيف وترتيب الكتب المكدسة. وفى صيف عام ١٩٤٧ أصبح استاذاً فخرياً وحصل فى العام نفسه على مقعد الاستاذية فى اللغات التركية حسب رغبته. وراح يدل طلابه على مبادئ اللغة التركية الحديثة ويقرأ معهم فصولا تاريخية عثمانية قديمة، ويفسر لهم الوثـائق التركية ويحاضرهم فى تاريخ الدولة العثمانية. وإلى جانب ذلك فقد كان يلقى محاضرات فى التعريف بالسريانية والاكدية والاثيوبية والقبطية وكان يفسر المصادر السريانية المتعلقة بتاريخ الاسلام، والنصوص العبرية الأرامية، والنقوش السامية الشمالية، ومختارات من رسائل العمارنه، والنصوص الميثولوجية والتاريخية الأكدية. وكان يعقد كذلك حلقات دراسية كثيرة للتمرن على قواعد اللغات السامية المقارنة.

وكما يظهر هذا العرض فقد أخذ بروكلمان أثناء نشاطه التعليمى ــ وكان قد ألقى وعقد ما يقارب الخمسمائة محاضرة وحلقة تعليمية ــ أخذ بنظر الاعتبار رغبات مستمعيه حتى وإن كان الامر يتعلق بحقول قلما عالجها فى مؤلفاته أو لم يعالجها قط. وهكذا فقد كان يقيم حلقات دراسية كثيرة لتعليم الاكدية والفارسية الحديثة، واحياناً الفارسية الوسطى والأرمنية. وكان فى المحاضرات يجيب بكل طيب خاطر على جميع الأسئلة التى كان طلابه يوجهونها له ولم يكن يتقدم فى المحاضرة إلا بعد التأكد من زوال أى غموض أو صعوبة. أما خارج محاضراته فقد كان منغمساً فى أبحاثه وأعماله العلمية، بحيث قلما تجرأ طلابه على توجيه أى سؤال له. وإذا ما حدث وسأله أحد رغم ذلك، فان بروكلمان كان يلقى عليه الجواب فوراً بكل ما يتعلق بالموضوع من تفاصيل وبكل دقة بحيث يمكن أن يرسل جوابه للطبع فوراً. أما السبب فى عدم تكوينه مدرسة خاصة به فيكمن فى طبيعة شخصيته كباحث، تلك الشخصية التى جمعت بانسجام فريد من نوعه ذاكرة ممتازة، وقدرة خارقة على التنظيم والتنسيق، وموهبة للفهم السريع، وقدرة على حسن تقدير ابعاد عمل أو بحث معين، بالإضافة إلى ارادة حديدية وطاقة خارقة على العمل والانتاج. وقد عرف مقدراته خير معرفة وكان يستخدمها خير استخدام. وكان عمله اليومى منظماً بكل دقة وصرامة، ولكنه كان يترك لنفسه أيضاً ساعات للراحة والاسترخاء. وفى اعوام حياته الأولى كان يسافر كثيراً فى الاجازات وكان يحب البحار ويستمتع بالتجوال.

وفى صيف عام ١٩٥٣ احيل بروكلمان للمرة الثانية على التقاعد، ولكنه واصل نشاطه التعليمى. وفى ليلة عيد الميلاد من عام ١٩٥٤ أصيب بزكام لم يستطع أن يتخلص من مضاعفاته فيما بعد. وراح يواصل العمل محاطاً برعاية زوجته الثانية، متابعاً أبحاثه بالقدر الذى كانت تسمح به حالته الصحية. وبمساعدة أحد مستمعيه الأخيرين، الدكتور كونراد فون رابناو Dr. K. von Rabenau استطاع أن يتم كتاب قواعد الصرف العبرى Hebräische Syntax الذى ظهر بعد وفاته. وفى السادس من مايو عام ١٩٥٦ فاضت روحه عائدة إلى خالقها بسلام.

وقد أهدى قواعد الصرف العبرى لقسم اللاهوت فى جامعة هاله شكراً على منحه لقب الدكتوراه الفخرية فى اللاهوت أثناء يوبيل الجامعة لعام ١٩٥٢. وهى العمل الوحيد الذى يحمل إهداء باستثناء اطروحة الدكتوراة التى أهداها إلى والديه.

وفى عصر أصبحت فيه الدراسات الاسلامية وعلوم اللغات السامية واللغات التركية وعلوم الشرق المسيحى علوماً مستقلة ذات اهداف وطرق بحث قائمة بذاتها مع موجة التخصص العلمى المستمرة التى لا تعرف التوقف، فى هذا العصر الذى أصبح فيه كل من هذه الفروع حقلا واسعاً يكفى لملء حياة عالم بكاملها، استطاع بروكلمان أن يمثل فى شخصه وفى انتاجه وعلى أتم وجه وحدة علم الاستشراق. وقد عنت وفاته نهاية عصر بكامـلـه.

ترجمة: محمد على حشيشو

هانز هاينريش شيدر

(١٨٩٦ - ١٩٥٧)

بقلم: الأستاذ أوميليان پريستاك

فى صباح الثالث عشر من مارس ١٩٥٧ توفى فى غوتنغن بعد عذاب جسدى ونفسى طويل مبرح الاستاذ النظامى للغات الشرقية وتاريخ الأديان هانز هاينريش شيدر Hans Heinrich Schaeder. وبفقده فقد الاستشراق الألمانى، الذى لا يفتقر إلى الشخصيات العظيمة، واحداً من أطرف ممثليه، لا بل مستشرقاً فريداً من نوعه.

وعندما ينوى المرء كتابة سيرة مستشرق عظيم، يتجه عادة، بعد الافتتاح بتسجيل المعلومات الشخصية اللازمة، إلى تصوير تاريخ الحقل العلمى الذى يمثله ومساهمته العلمية فيه بمعزل عن شخصه. أما بالنسبة لشيدر فقد كان اعتناقه للظواهر الفكرية يتسم، حتى مع أشد الالتزام بالروح العلمية، بطابع شخصى، فقد كان دوماً يتنقل فى الحدود بين العلم والفن والفلسفة والدين، تماماً كما كان اختيار موضوعاته العلمية يتحدد عادة بحياته المتأثرة بانسانية القرنين السادس عشر والسابع عشر. وفى عصر الاختصاص المطرد فى العلوم الإنسانية التى ظلت — خلافاً للعلوم الطبيعية — تتابع أهدافها الذاتية السرية وحدها بسبب عزلتها عن الحياة اليومية، لم يرد ولم يستطع أن يكون مجرد عالم مختص. وظل طيلة حياته على اهتمام دائم بجميع الظواهر الفكرية لعصره كما كان يبذل الجهد لانتظامها فى فلسفته العامة عن العالم، تلك الفلسفة التى ظلت فى توتر دائم بين التقويم الإنسانى والمسيحى. وفوق هذا فقد كان يسعى إلى مواجهة هذه الظواهر الفكرية بالواقع فى نشاط فكرى نابض بالحياة — ونذكر هنا محاضراته التى لا تحصى والتى كانت تبلغ عدة محاضرات فى الاسبوع الواحد. وكما قال صديقه كارل ى. بوركهارت[1] Carl J. Burckhardt عنه بحق: «لقد كان من القلائل الذين تمكنوا من شد قوس أوديسيوس: فعلى أسمى صعيد للخبرة اللغوية والتاريخية تجرأ على اتخاذ اسلوب البحث التركيبى ونجح فى ذلك. وفى أى عهد كان نجاحه؟ فى عهد كان الباحث والمفكر فى حقل العلوم الانسانية لا ينجو فيه من ضغط السلطة الغاصبة إلا بالفرار أو التخفى — عهد أحيل التراث الذى أوكل إليه، وهو تراث جهد انسانى عبر آلاف السنين، إلى مهزلة باستخدام الكذب الدائم المنظم.»[2]

ولم تتوفر شروط هذه الجرأة فى أحد كما توفرت لدى شيدر. فقد ظلت ذاكرته حتى وفاته فريدة من نوعها. كما منحته الطبيعة بالتساوى موهبة لغوية ومواهب موسيقية شعرية: فقد كان خطيباً بليغاً شديد الاستيعاب للظواهر الموسيقية والأدبية، كما كان يتصف بقلق فكرى يكاد يبلغ درجة إتلاف النفس. وكان من حسن طالعه أنه نشأ فى منزل أبوى على مستوى رفيع من الثقافة فى كوتنكن (١٨٩٦—١٨٩٩) وفى كيل (١٨٩٩—١٩١٨). وكان أبوه د. ايريش شيدر D. Erich Schaeder (١٨٦١ — ١٩٣٦) استاذاً لعلم اللاهوت (المذهب البروتستنتى) — فلا عجب أن يهتم الصبى المتفتح منذ السادسة من عمره — مبتدئاً بأسئلة طفولية — بالبحث فى الكتاب المقدس وأن يتمكن وهو لا يزال فى سن الدراسة الثانوية من تهذيب وتدريب إحساسه الفريد بالظواهر الدينية.

غير أن اسلوبه فى الملاحظة التاريخية نشأ على خلاف

لاهوت أبيه (آرنولد توينبي : Arnold J. Toynbee: Challenge and Response). واعتاد شيدر أن يشير دوماً بكبرياء إلى «جعبته المدرسية» العامرة. فقد استوعب اللغات والآداب الكلاسيكية فى الجمنازيوم الانسانى فى كيل بالإضافة إلى اللغات الحديثة (الانكليزية والفرنسية والايطالية) وكذلك العبرية. وحين بلغ السابعة عشرة كان قد قرأ الكوميديا الإلهية لدانتى بكاملها بلغتها الأصلية. وإلى جانب ذلك فقد تلقى دروساً نظرية فى الموسيقى (التوافق والتأليف)؛ وكان عازف بيانو فوق المستوى المتوسط. وظلت الموسيقى مع جهده الفكرى وقلقه الدائمين ترويحاً لا غنى عنه طيلة حياته.

إلا أن الشئ الحاسم بالنسبة لتطوره وكذلك بالنسبة لحياته كلها ونتاجه الفكرى فقد ظل التقاؤه بالمنطق اليونانى والعقل اليونانى وتراث الرومان الانسانى. واختار الشاب الذى بلغ الثامنة عشرة عندما بدأ دراسته فى جامعة كيل فى فصل الصيفى عام ١٩١٤ الاستاذين: الإنسانى ڤيرنر ييكر[٣] Werner Jaeger ومؤرخ العصر الوسيط فريتز كيرن (١٨٨٤ — ١٩٥٠)[٤] Fritz Kern. وكان الأخير يعمل آنذاك على تقويم التقارير والروايات العربية حول تاريخ ألمانيا، وكان يأسف كثيراً لعدم استطاعته دراسة المصادر والحكم عليها بنفسه مستقلا. ونصح تلميذه الموهوب شيدر بدراسة العربية واعطاه بذلك الدافع الأول للمضى فى طريقه إلى دراسة اللغات الشرقية. وما كاد الفصل الدراسى الأول بالنسبة لشيدر ينتهى، حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى، فتقدم متطوعاً، وكيف كان له أن يفعل غير هذا؟ ولأسباب صحية أحيل على الخدمة الصحية التى قضاها أولا فى المحاجر الصحية فى فرنسا (نوايون، لاكابيل)، وفيما بعد (خريف ١٩١٥ حتى نهاية ١٩١٦) فى ليتوانيا (كوڤنو، ڤيلنا) وأخيراً فى زيينبوركن وكوكسهاڤن (١٩١٨). وكانت سنوات الخدمة الحربية هذه بالنسبة له «جامعات» للخبرة والمراس على حد تعبير مكسيم غوركى. إذ بعد أن عاد فى نهاية ١٩١٨ إلى الوطن (كان أبوه قد بدأ يعمل فى بريسلاو منذ ١٩١٨) كان قد أصبح رجلا وباحثاً ناضجاً. وخلال الفصلين الدراسيين المحددين عند تغيير الجامعة لم ينه اطروحة الدكتوراه فحسب، وإنما تمكن من اجتياز امتحان الدكتوراة أيضاً.

لقد جعله اتصاله اليومى بالموت متفتحاً لجميع قضايا الوجود البشرى. ولكن هذا كان يعنى بلوغه مرحلة النضوج. وكان الموظف الصحى الشاب يصطحب معه دوماً الكتاب المقدس والمؤلفات اليونانية وكتب دانتى وجوته وكانط وكتب النحو لعدة لغات شرقية وخاصة السامية منها. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان يتابع — بقدر ما كان يسمح به ظرفه — قراءة منشورات الاوساط الأدبية والفكرية فى تلك الآونة. وقد حمل لقاءان من ذلك العهد أهمية خاصة بالنسبة لمؤرخ الأديان والمستشرق الناشئ شيدر. وكان اللقاء الأول مشاهدته للشرق اليهودى فى كوڤنو وڤيلنا (١٩١٥ — ١٩١٦) وقد ظل هذا لقاءه الوحيد مع الشرق الحى. وبمساعدة حاخام كوڤنو استطاع اتمام دراسته الخاصة بالكتاب المقدس وذلك بمشاهدة جميع مظاهر الحياة الدينية عن كثب. أما اللقاء الثانى فقد كان ذا طابع أدبى. ونعنى به المقالات التى ظهرت فى «آرشيف العلوم الاجتماعية» منذ ١٩١٥ حول «الاخلاق الاقتصادية للأديان العالمية» لماكس ڤيبر[٥] Max Weber (١٨٦٤ — ١٩٢٠) الذى سنتحدث عن تأثيره على شيدر فيما بعد.

وكان عالم اللغة الآشورية برونو مايسنر[٦] Bruno Meissner (١٨٦٨ — ١٩٤٧) صاحب كرسى تدريس اللغات السامية فى بريسلاو آنذاك يود مساعدة العائد من الحرب شيدر عام ١٩١٩ على كتابة أطروحة غير معقدة بحيث يمكن اتمامها بسرعة. ولذا فقد اقترح عليه أن يعمل على دراسة مادة الحسن البصرى، ممثل الورع الاسلامى الهام فى القرن الهجرى الأول فى الجزء الأول من المجلد السابع من طبقات ابن سعد الذى أصدره آنذاك. ولكن شيدر أدرك بسرعة أن «المادة التى يقدمها ابن سعد وغيره من مؤلفى علم الرجال لا تكفى فى حال من الاحوال لهذا البحث، لا بل انها على العكس من ذلك ملائمة لإحاطة الموضوع الحقيقى بالغموض». كما أن السيرة وحدها لا تضيف شيئاً جديداً. فالسبيل إلى فهم الطابع الدينى الحقيقى للحسن البصرى هو فى ضرورة العودة إلى «مؤرخى الدين الاسلامى وخاصة مؤلفى سير القديسين والصوفيين» (مجلة Der Islam، المجلد ١٤، ١٩٢٤، ١). وهكذا فقد مال الثقل فى بحث هذه الاطروحة إلى جانب التاريخ الدينى. وكشرط أساسى لذلك كان لا بد من دراسة التيارات الفكرية فى العراق، موطن الحسن. وأدى هذا الأمر بشيدر إلى مواجهة المسائل الجذرية فى الأبحاث والدراسات الإسلامية ومنها إلى المسائل الجذرية لعلم الأديان بوجه عام. فالعراق، بلاد بابل القديمة، هى الوطن الحقيقى لعلم الديانة الاسلامية، وللتصوف الإسلامى، كما أنها موطن العقائد الغنوصية المختلفة، وخاصة المانوية، أى تلك

الروح المحركة التى أدت بصورة حاسمة إلى نشوء علم الكلام عند المسلمين (وعلم اللاهوت المسيحى قبل ذلك). ولم يكن العراق جزءاً من المملكة الساسانية فحسب، وإنما محورها الأساسى. فهنا كانت تقع العاصمة كتيسفون، على مقربة شديدة من بابل القديمة، ومن بغداد فيما بعد. وتبرهن الدراسات الطوبوغرافية والتاريخية التى قام بها شيدر تقصياً وراء أصل الحسن أنه كان منذ ذلك الحين يهتم اهتماماً جدياً بدراسة اللغة والحضارة الايرانية. وقد فعل ذلك معتمداً على نفسه بطبيعة الحال ولكنه بلغ من الدراسة الذاتية مستوى جعله يفوز بعد ذلك ببضعة أعوام بكرسى الاستاذية لعلم اللغات الايرانية والأرمنية — وهو الوحيد فى ألمانيا. ولم تنشر أطروحة شيدر فوراً، بل أعاد مراجعتها وتنقيحها مرتين، وكانت المرة الثانية عام ١٩٢٢، إذ تمكن فى هذه الأثناء من الاطلاع على مؤلف لوى ماسينيون[٧] Louis Massignon الرائع عن أبرز ممثلى التصوف الإسلامى، الحلاج. ولم ينشر من الاطروحة المنقحة إلا القسم الأول (مجلة Der Islam، المجلد ١٤، ١٩٢٤، ص ١ — ٧٥). أما الفصلان الهامان اللذان تناولا أهمية الحسن فى التاريخ الادبى والفكرى فقد ظلا بدون نشر، وهو أمر يؤسف له. وكرس شيدر لعمل الحلاج بحثاً واسعاً فى مجلة Der Islam (المجلد ١٥، ١٩٢٥، ص ١١٧ — ١٣٥) ندرك منه مدى تأثره بأسلوب بحث ماسينيون وروحه. وكماسينيون الذى أولى دوراً مركزياً لدراسة تكوين الاصطلاحات الدينية وأشكالها اللغوية فقد فعل شيدر ذلك فيما بعد فى دراساته وأعماله المتعلقة بالمانوية. غير أن توحيده للمفكر المتمرس فى الفلسفة اليونانية والأوروبية والباحث اللغوى والموضوعى فى شخص واحد مكنه من المعارضة الواضحة لموقف «يعتقد بالاقتصار إزاء التراث الفكرى الشرقى على مجرد الاعادة والتوليد والوصف بقدر الامكان» بدلا من الرد عليه فكرياً (مجلة Der Islam، المجلد ١٥، ١٩٢٥، ١٣٥). لقد أصبح الحوار الفكرى مع الشرق وليس هضمه، بسبب التصورات الرومانتيكية، الدافع البارز لموقف شيدر إزاء الشرق. ولم يكن يتمتع بعلاقات تذكر مع «شرقيين» معاصرين ولم يكن راغباً فى عقد هذه الصلات؛ كما أنه لم يذهب إلى «الشرق» الحقيقى قط. وكان يعتبر الدراسات الشرقية الطريق الذى يستطيع الغرب عليه أن يدرك ذاته بتحديدها من الشرق مع اقتباس ملا يلائمه من تراثه الفكرى فى الوقت نفسه. وقد وجد شيدر موقفاً مشابهاً كذلك فى «الديوان الغربى الشرقى» لجوته. ولكننا سنعود إلى ذلك فيما بعد.



صحيفة بخط الأستاذ شيدر.

إن موقف المانيا الفكرى بعد الحرب العالمية الأولى كان مبلبلا ولكنه يتسم بالنشاط. وقد شعر شيدر بدافع ذاتى للاشتراك فيه. فبعد نواله درجة الدكتوراة جاء فى بداية ١٩٢٠ إلى برلين واشترك فى تحرير "Grenzboten" وراح يحتك بدائرة الشبيبة المسيحية المحافظة لنادى يونيو وللحلقة وكانت تتألف من محاربين سابقين أمثال شيدر نفسه. ان نظرة سريعة فى قائمة المواضيع التى عالجها الكاتب الشاب فى ١٩٢٠ — ١٩٢١ تعطى فكرة كافية. فهى تبدأ بتقويم أدبى لأوتو براون[٨] Otto Braun بمناسبة طبع مذكراته واشعاره ورسائله، ثم تتلو ذلك أربع مقالات عن الموسيقى (حول النزاع بين Busoni[٩] و Pfitzner[١٠])، وحول الجذور القومية للموسيقى الألمانية فى العصر الحاضر، وحول الموسيقى فى الحياة العصرية، وحول موسيقى ماكس ريجر[١١] Max Reger)، ثم أعمال أدبية من جديد (شعر وجدانى جديد، والطبعة الجديدة

لأعمال رودلف بورشاردت[١٢] R. Borchardt ومقدمة لعمل ج. ياكوب[١٣] G. Jacob: قصائد مترجمة لحافظ وعسكرى). وفوق ذلك فقد عالج شيدر تيارين اعتبرهما مفتتين على حد اقتناعه: إذ كتب مقالين حول رودلف شتاينر[١٤] Rudolf Steiner ومقالين آخرين حول رسول الانحطاط أوزفالد شبنجلر[١٥] Oswald Spengler ولم يفته أن يكتب كلمة تقدير عن «مثله الأعلى» ماكس ڤيبر؛ فنى عام ١٩١٩ بالذات كان قد صدر للأخير مؤلفان أثارا اهتمامه الشخصى أيضاً. وكتب شيدر حول هذين المؤلفين عام ١٩٤٩، بعد الكارثة الوطنية الثانية التى كان عليها أن يشهدها: «إن من كان يذهب آنذاك إلى الجامعة ليتعلم شيئاً حقاً وليشهد فى التعلم الحق حرية الفكر، فانه لن ينسى قط كيف مسه فى اولى سنوات ما بعد الحرب، وفى وسط الضجة التى بدأت حول نبوءة الانحطاط التى أرسلها شبنجلر، صوت قوى هادئ مرتين، صوت مسه فى الأعماق. وكان هذا الصوت يؤكد له صحة الدرب المطروق، وينير الطريق أمام تساؤلاته الغامضة ويكسبها نظاماً وجلاء، ويعطيه شجاعة وثقة لخوض الحياة الفكرية. لقد انطلق ذلك الصوت من كراسين، طبعا على ورق ردئ كما كان يقتضيه الظرف، وضمنا فى غلاف بائس أصفر. وكان المرء يقرأ الكراسين، ثم يعيد قراءتهما مرة بعد أخرى، ويناولهما للأصدقاء وقد تجعدت صحائفهما وامتلأت بالخطوط تحت السطور؛ أوكان يجمع القروش — وكان المرء عام ١٩١٩ لا يزال يحسب بالقروش — ليشتريهما بها ويقدمهما هدية للأصدقاء. وكان عنوان الكراس الأول «العلم كمهنة» والثانى «السياسة كمهنة». وكان يجمع بين الاثنين خليط من الموضوعية والحماس يسلبان اللب ويفحمان من الجملة الأولى».[١٦] وكان هذان الكتيبان الدافع الظاهرى لقرار شيدر فى استبدال العلم بالسياسة وفى الإسراع إلى ميونيخ للمثول بين يدى المعلم الكبير. إلا أن هذه الخطة فشلت بسبب وفاة ڤيبر المفاجئة. فقد ظل شيدر فى برلين وراح يشترك بالاضافة إلى عمله التحريرى فى الدورات العلمية التى كان يعقدها اللاهوتى والفيلسوف البروتستنتى الكبير ايرنست ترولتش[١٧] Ernst Troeltsch الذى أصبح يرعى تراثه الفكرى بكثير من التقدير فيما بعد أيضاً.

وفى تلك الفترة كان قد التقى كذلك بعالمين وشخصيتين كان لهما أثر خارق فى تكوينه الفكرى: وكان الأول مؤسس حقل الدراسات الإسلامية فى ألمانيا، وزير الثقافة ك. هـ. بيكر[١٨] C. H. Becker، والثانى المؤرخ والعالم بالدراسات الإيرانية ى. ماركڤارت[١٩] J. Markwart. ومن الطبيعى أيضاً أن يكرس شيدر أول بحثين كبيرين ألفهما لهذين العالمين: «النظرية الاسلامية فى الإنسان الكامل» — مهداة الى ى. ماركڤارت (١٩٢٥) و«دراسات فى التوفيقية فى العصر القديم — دراسات إيرانية» — مهداة إلى ك. هـ. بيكر (١٩٢٦). أما ما سحره فى ك. هـ. بيكر فقد أعرب عنه شيدر عام ١٩٤٦ كمايلى: «يعود تأثيره المباشر على زملائه فى الاختصاص إلى دراساته التاريخية الدينية وما كان يتوصل إليه من نتائج فى ذلك. وكان منطقه الأساسى هو الحقيقة القائلة بأن للعصر الوسيط الغربى والشرقى مصدرى تراث مشتركين وهما الهيلينى والمسيحى، فنى الأول تلقى الجرمان هذا التراث مستغنين عن استقلالهم الفكرى، وفى الثانى تلقاه العرب مع تعديله بالعقيدة الإسلامية التى جاءوا واحتفظوا بها عند دخولهم عالم الحضارة القديمة.»[٢٠] وكتب شيدر عن ماركڤارت الذى جاء كذلك من العهد القديم إلى الدراسات الايرانية، كتب عام ١٩٣٠: «وأثناء شرح الشاهنامه مثلا التى لم يكن يتعرض كثيراً لمضمونها الشعرى، كان يخوض ابحاثاً تستغرق عدة ساعات كان يعلق فيها، دون الحاجة إلى ما يدعم الذاكرة، على خطاء فى المتن، أو ملاحظة ميثولوجية، أو نقطة طوبوغرافية، فتصبح أبحاثه هذه مصدر علم وافر لايقدر بثمن.»[٢١] ويمكن اعتبار شيدر وريثاً للاثنين. وهكذا فقد أشرف على نشر مؤلف بيكر «دراسات إسلامية» (١٩٢٤)؛ كما أن بيكر أهدى شيدر الذى كان قد بلغ الخامسة والثلاثين إحدى كتاباته الأخيرة التى كانت تعالج أيضاً «تراث الأولين فى الشرق والغرب» (١٩٣١). وفى السنة نفسها خلف شيدر ماركڤارت فى احتلال مقعد تدريس اللغات الايرانيـة فى برلين.

وفى محاضراته ودراساته الواسعة العديدة كان شيدر يتعرض دوماً إلى التراث اليونانى فى الشرق. وفى دراسة خاصة كرسها لاستاذه السابق فى كيل ڤ. ييجر بين بصورة تبعث على الاهتمام الاختلاف فى استمرار تأثير التراث اليونانى فى الغرب (الرومان) وفى الشرق (١٩٢٨)[٢٢]. فهنا (أى فى الغرب) نشهد القدرة على المرور ببعث فكرى جديد ناجم عن الاحتكاك (أى الرغبة التى لا حد لها فى التعلم) بالفكر اليونانى، بينما هناك (أى فى الشرق) لا نلمس بعثاً للقديم ناجماً عن التفاعل معه، وانما حفظاً وتخليداً له. «بينما ندرك لدى الرومان إرادة منفتحة للتعلم،

وانفتاحاً سخياً، لا بل خضوعاً صادق العاطفة للفكر اليونانى، فاننا نجد لدى الشرقيين أنه رغم تشبعهم الذى لا يقل عمقاً بالتراث الفكرى اليونانى الموروث، إلا انهم لا يملكون تلك النزعة الفكرية الخاصة بالرومان إلا فى حالات فردية استثنائية. ويعتبر الرومان مثلا أعلى لبقية الأمم الغربية حيث أنهم الأمة الأولى التى حققت فكرة الانسانية.»[٢٣] «أما ما تعلمه الشرقيون من الاغريق فقد استخدموه لأغراض عملية، وليس لتجديد ثروتهم الثقافية ولإحداث تغيير فى كيانهم الثقافى والعلمى.»[٢٤] إذن فلا وجود لفكرة الانسانية القائمة على بعث التراث القديم فى الشرق! وكتتمة لا هوادة فيها لهذا التسلسل الفكرى ظهرت دراسة شيدر الرائعة «الفرد فى الإسلام (١٩٢٩)».[٢٥] وجاء فيها: «ان اعلى قيمة يستطيع الوعى الانسانى تكوينها، وهى الحرية، لم تكن تعنى ولن تعنى بالنسبة للشرق إلا حرية النفس المنطوية على ذاتها السامية فى حد ذاتها وحيدة فوق خوف الحياة الأرضية وآلامها.»[٢٦]

وكانت لدى شيدر أيضاً أمور كثيرة مشتركة بينه وبين ماركفارت فهناك أولا نفس المنطق: إذ انتقل كلاهما من حقلى العهد القديم واليونانية القديمة إلى حقل الدراسات الايرانية، كما فعل أيضاً تيودور نولدكه[٢٧] Th. Nöldeke وب. دى لاغارد[٢٨] P. de Lagarde اللذان كان لهما أثر كبير فى تحويل شيدر إلى عالم بالدراسات الايرانية — وهو الطريق الوحيد الذى يمكن طرقه ليمكن الباحث من التغلب على مشاكل حقل الدراسات الايرانية. كما أن حب ماركفارت لمعالجة الوجوه اللغوية والتاريخية والدينيـــة والاثنوغرافية لمسألة ما، بحيث يضع قدماً فى ايران والاخرى فى آسيا الوسطى أو الصين، صفة تمتاز بها دراسات شيدر الاختصاصية. وأود هنا أن أشير فقط إلى عمله «ايرانيكا Iranica». وكماركفارت فان شيدر أيضاً لم يكن يميل إلى نشر النصوص الطويلة المستقلة.[٢٩] وكان اهتمامهما الحقيقى عمل دراسات نقدية للنصوص المنشورة أو نشر مواضع معينة من النصوص تتعلق بالمسائل التى كانا يعالجانها.

لقد كان طريق شيدر من الحسن البصرى (اطروحة الدكتوراة، ١٩١٩) إلى حافظ (بحث اجازة التدريس الجامعى، ١٩٢٢) على خط ميله الخاص إلى الظواهر الفكرية على الحد الفاصل بين الدين وعلم الجمال (الشعر). وكان دانتى هو البداية كما سبق وذكرنا. أما المراحل الاخرى فهى: ر. بورشارت[٣٠] R. Borchardt (وهو مترجم دانتى أيضاً)، وهوجو فون هوفمانزتال[٣١] H. v. Hofmannsthal

ور. ا. شرودر[٣٢] R. A. Schröder وحافظ وغوته وأخيراً (وابتداء من ١٩٤٦) ت. س. ايليوت[٣٣] T. S. Eliot وظل بحث اجازة التدريس الجامعى «دراسات حول حافظ» محفوظاً غير منشور (ويذكر شيدر فيه ج. ياكوب[٣٤] G. Jacob وهيلموت ريتر[٣٥] H. Ritter، كأستاذيـه الأدبيين)[٣٦]. ومما يضاعف الشعور بالأسف لعدم نشر هذه الدراسة أن شيدر يبدو فيها عارفاً بجميع الشعر الفارسى الكلاسيكى وقادراً على التمييز بين العناصر الاسلوبية والفردية لدى الشاعر الفارسى. إن البؤس الذى يجب أن ينجم عن معالجة منعزلة لشاعر فارسى يتضح فى النقد الذى نشره شيدر حول دراسة ه. ماسيه[٣٧] H. Massé عن الشاعر سعدى فى مجلة «الأسلام» Der Islam، مجلد ١٤، ١٩٢٤، ١٨٥ — ١٩٠.

وبالحصول على إجازة التدريس الجامعى عام ١٩٢٢ بدأ شيدر الذى بلغ السادسة والعشرين الآن مدرجه المهنى اللامع فى الجامعة كباحث وأستاذ. ويمكن تقسيم نشاطه العلمى إلى ثلاث مراحل: مرحلة برسلاو—كونغزبيرغ (١٩٢٢ — ١٩٢٦ — ١٩٣٠)، مرحلة برلين (١٩٣١ — ١٩٤٤) ومرحلة غوتنغن (١٩٤٦ — ١٩٥٧). وكانت الاولى أهم المراحل واكثرها انتاجاً. كان فى بريسلاو قد اكتسب معرفة مدهشة فى ميادين اللغات السامية والدراسات الايرانية وعلم اللغات المقارن والدراسات التركية وتاريخ الأديان، وعلم الأديان والفلسفة بالدراسة الذاتية، معززاً معرفته بالاتصال بذوى الاختصاص كل فى حقله (وقد تحولت هذه الاتصالات بعد ذلك إلى صداقات). وبالاضافة إلى المذكورين فقد كان يستشير الباحثين التالين: ج. بيرغشتريسر[٣٨] G. Bergsträsser (اللغات السامية)، ر. كيتل[٣٩] R. Kittel (الدراسات اليهودية)، ا. هيلليبرانت[٤٠] A. Hillebrandt (حقل أبحاث الڤيدا)، ف. تومسون[٤١] V. Thomsen (علم اللغات المقارن، والدراسات التركية)، ه. ڤينكلر[٤٢] H. Winkler (علم اللغات المقارن)، ف. بانغ[٤٣] W. Bang (الدراسات التركية والمانوية)، ى. ستنتزل[٤٤] J. Stenzel (الفلسفة القديمة)، ر. رايتزنشتاين[٤٥] R. Reitzenstein (التوفيقية الدينية القديمة)، وه. س. نيبرغ[٤٦] H. S. Nyberg (الغنوصية الإسلامية، الدراسات الايرانية). وتدل مقالاته النقدية المفصلة فى مجلة «الاسلام» Der Islam (المجلدات: ١٣—١٥) وكذلك فى «الحوليات السنوية المجريـــة» "Ungarische Jahrbücher" (المجلد الخامس) على أنـه كان قادراً لا على الكتابة كباحث اختصاصى فحسب،

وانما فوق ذلك على تطوير البحث فى المسائل التى تعرضت لها الكتب التى كان يقرظها. وفى تلك الفترة أيضاً نشأت دراساته الطليعية الخاصة حول المانوية: «مساهمات ايرانية» و«عزرا الكاتب».

كان حسن البصرى وحافظ منطلق شيدر لدراسة التصوف الاسلامى(٤٧) والغنوصية الاسلامية (مبتدئاً بحركة الباطنية)(٤٨) وإذ تعرف على الحقل ودخله من الدراسات الرائعة التى ألفها ل. ماسينيون(٤٩) L. Massignon وتور أندرى(٥٠) T. Andrae ور. أ. نيكولسون(٥١) R. A. Nicholson وه. س. نيبرغ، وضع نصب عينيه مهمة متابعة تطور «فكرة شرقية قديمة مقتبسة من الحضارة الهيلينية حتى تشكيلها التأملى الكلاسيكى فى الغنوصية الإسلامية»: أما هذه الفكرة فهى فكرة الانسان الكامل (النظرية الاسلامية للانسان الكامل، أصلها وتشكيلها الشعرى: "Die islamische Lehre vom Vollkommenen Menschen, ihre Herkunft und ihre dichterische Gestaltung" فى مجلة جمعية المستشرقين الألمانية ZDMG, Bd. 79, 1925, 192—268). ومن هنا وجد طريقه إلى المانوية. ومنذ اكتشف العبقرى ف. ڤ. ك. مولر(٥٢) F. W. K. Müller بين مخطوطات أحضرها معه عام ١٩٠٤ — ١٩٠٥ من تورفان فى شمالى سينكيانغ مؤلفات مانوية أصلية بثلاث لهجات ايرانية وبالتركية حصلت الأبحاث المانوية على دوافع جديدة. ويجدر بالدرجة الأولى هنا أن نذكر أعمال اللغوى الكلاسيكى فى كوتنغن ر. رايتزنشتاين الذى اشترك مع مؤسس معهد الدراسات الايرانية فى كوتنغن ف. ك. أندرياز(٥٣) F. C. Andreas فى دراسة المكتشفات الجديدة وتقييمها وشرحها. وقد أثرت نظريته فى سر الخلاص الايرانى(٥٤)، الذى يرى أنها الأساس الذى تقوم عليه الزرادشتية والمانوية وطقوس العبادات الهيلينية، قلنا إنها أثرت كثيراً على شيدر. وقام بينهما سيل من الرسائل أدى بعد حين سريع إلى تعاون وثيق. وبالاشتراك مع رايتزنشتاين أصدر شيدر الآن عملا ذا أهمية هائلة عولجت فيه لأول مرة نظرية الانسان الأول (وقد عالج شيدر النظريات الايرانية)(٥٥) وكان ذلك عام ١٩٢٦. غير أن طريقيهما انفصلا بعد حين. فبعد أن انشغل شيدر بدراسة للمصادر المانوية لم يعد قادراً على موافقة رايتزنشتاين على موضوعه الكلى الخاص «بسر الخلاص». وقرر أن يجمع نتائجه الخاصة وينشرها. وبذلك نشأت دراسته المهداة إلى ى. شتينتزل J. Stenzel «الشكل الأصلى والتطورات التالية للنظام المانـوى»(٥٦) "Urform und Fortbildungen des manichäischen Systems" وذلك عام ١٩٢٧، وقد جعلته الموقظ الحقيقى لفكر مانى. وقد حكم رفيق شيدر القديم فى البحث نيبرغ عام ١٩٣٥ على هذا الكتاب بالكلمات التالية: «إن شرف الأولوية فى إحلال النظام فى هذه الفوضى (أى فى النظريات السائدة حتى ذلك الحين حول طبيعة المانوية الحقيقية — المؤلف) يعود إلى المستشرق الألمانى الشاب ه. ه. شيدر. فبه فازت أبحاث المانوية بقوة من الدرجة الأولى تمتاز بشروط غير عادية للقيام بأعبائها الهائلة. وقد بدأ مدرجه العلمى بصفته مؤرخاً دينياً كتلميذ لرايتزنشتاين ... ثم ما لبث أن أنفصل عنه فيما بعد ليشق طريقه الخاص بنفسه. وفى عام ١٩٢٧ أصدر فى لايبزغ بحثاً عرض فيه رأيه فى مسألة المانوية (الشكل الأصلى.. الخ) وهو ليس بحثاً واسعاً — ٩٢ صفحة — ولكنه بدون شك أهم بحث برنامجى ألف حتى الآن حول مسألة المانوية. فبالانطلاق من الكساندر لليكوپوليسى(٥٧) Alexander von Lykopolis الذى يعرض الافكار الأساسية لنظام مانى دون أى غلاف اسطورى، يسعى إلى تحديد العلاقة بين المحتوى النظرى للمانوية والحواشى الاسطورية المحيرة التى تظهر فى كل مكان ولا تخلو منها كذلك نصوص مخطوطات تورفان سواء فى عرض النظرية أم فى التراتيل. ثم يستنتج أن مانى أقام دينه على نظام فلسفى عقلانى واضح، يهدف إلى إعطاء تفسير للعالم والحياة وإلى منح البشر المعرفة، γνῶσις، التى كانوا بحاجة إليها للخلاص. وأمكن التعبير عن هذا النظام بكلمات عقلانية واضحة، فقد كان بلاغة عقلية، λόγος بالمعنى الفلسفى الاغريقى. ولايصال هذه التعاليم إلى البشر، استخدم مانى اصطلاحات اسطورية ميثولوجية. وبالرجوع إلى تصورات البشر المألوفة استخدم الصور الميثولوجية المتداولة فى الاوساط التى كان يخاطبها كعناصر اسلوبية تعبيرية. وهكذا فالى جانب كلامه العقلانى الفلسفى λόγος قدم الاسلوب الميثولوجى μῦθος كما فعل أفلاطون قبله. وكانت هذه الفكرية عبقرية بحيث جعلت الميثولوجيا المانوية مفهومة من حيث المبدأ مرة واحدة.»(٥٨)

ويربط بين المؤلفين «عزرا»(٥٩) و«مساهمات ايرانية»(٦٠) (١٩٣٠) نفس الموضوع الرئيسى: ايران والكتاب المقدس، وكذلك شخصية الانسان الرئيسى الذى يدور حوله البحث. ففى تحليل فلهوى لكلمة Sōpēr «الكاتب» يتم البرهان على أن عزرا، المجدد الفكرى للجالية اليهودية بعد النفى البابلى، استخدم هذا اللقب كدلالة رسمية على ظيفته

Yea, East is East and West is West
And never the twain shall meet,
Till Earth and Sky stand presently
At God's great judgment seat.
But there is neither East nor West,
Border nor breed nor birth,
When two strong men come face to face,
Though they come from the end of the earth.

In herzlicher Dankbarkeit für gütig gewährte
Gastfreundschaft und Fürsorge
Marburg 4./5. Mai 1949 Hans Heinrich Schaeder

هانس هاينريش شيدر.
نشكر أرملة الأستاذ المرحوم، الدكتورة جريته شيدر، التي وضعت هذا التصوير تحت تصرفنا.

ومنصبه الادارى فى المملكة الأخيمينية. إلا أن الجالية اليهودية اتخذت هذا اللقب بمعنى «الكاتب العالم». وبذلك يصبح هنا لقب «الكاتب» رمزاً لمكانة عزرا الفريدة الخاصة بين الحكومة الايرانية والمجتمع اليهودى. إن ما فتن شيدر فى دراساته للكتاب المقدس هو انجاز اليهود الفريد من نوعه فى حقل الدين، ذلك الانجاز الذى يعتبره مضاهياً لانجاز الإغريق فى الميدان الفكرى (ولانجاز الألمان فى حقل الموسيقى). إن العملين («عزرا» و«مساهمات ايرانية») لا يعتبران رمزاً لطريقة بحث شيدر فحسب، وانما كذلك لطبيعته الفكرية: فهنا يؤدى الجو اللاهوتى الذى نشأ فيه شيدر فى منزل والديه إلى ايقاظ الأهتمام بعلم الدين الذى يمثل بدوره وفى الوقت نفسه ربطاً بين الدراسات السامية والدراسات الايرانية ويطرح بذلك وجهات نظر جديدة فى التاريخ العالمى! لقد ظلت «مشكلة ايران والكتاب المقدس» حتى وفاة شيدر القضية الرئيسية التى تشغل باله. وقد صمم سلسلة من الدراسات الخاصة الاخرى حول هذه المسألة. إلا أنه لم يتمكن لسوء الحظ من نقل الافكار الجاهزة فى فكره إلى الورق. ومع ذلك فان المؤلفين غزيران جداً من الناحية اللغوية البحتة أيضاً. فقد أدرك شيدر لأول مرة كنة «الآرامية الامبراطورية» (كان ماركفارت هو الذى وضع هذه التسمية). والمقصود هنا هو لغة ادارية موحدة كانت تستخدم فى جميع دواوين الدولة الأخيمينية وتخلو من أى اختلاف فى اللهجة ولم تكن لغة للمخاطبة وإنما للتدوين وتتألف من رموز صورية يستطيع كل قوم قراءتها بلغته الخاصة. وفى جدال طويل مع ف. ك. اندرياز أظهر شيدر أن الكلمات والأسماء الايرانية فى «الآرامية الامبراطورية» لم تكن متقدمة كثيراً فى طريق تطورها إلى اللغة الفارسية

الوسطى (المساهمات الايرانية، ٢٥٥ — ٢٧٣). ويربط بحثه حول تاريخ تطور الاصطلاح العربى «زنديق» مؤلفه «المساهمات الايرانية» (٢٧٤ — ٢٩١) بمؤلفاته المانوية. والأكثر أهمية بالنسبة لتاريخ الأديان هو رأى شيدر النقدى حول مسألة التاريخ الأصلى للتعميد المسيحى. فقد استطاع أن يثبت بطلان موضوعة رايتزنشتاين القائمة، وهى اشتقاق تعميد يوحنا وتعميد المسيحية الأصلية فى تنوعه من التعميد الماندوى: إذ أن التعميد المسيحى جاء من التعميد اليهودى لمعتنقى الدين الجدد.(٦١)

لقد أفرد شيدر «لقوة الشاعر التنظيمية» مكانة خاصة. فهو يرى أن الشاعر يستطيع ويجب أن «يعطينا ما لا يستطيع أن يعطينا إياه العلم التجريبى فى البحث والنقاش والإفصاح ولا الفلسفة فى المعادلات التجريدية التى تستخدمها فى لغتها المدرسية: ألا وهى الرموز التى لا ينضب معينها والتى تشبع روحنا وتهدئ من قلق خاطرنا، الرموز التى تشير إلى علاقات كل شئ بكل شئ. إن وحدة الحياة، والعلاقات الأزلية والبسيطة بين الله والعالم، وبين العالم و«الأنا»، بين الاجتماع والانفراد، إن هذه الأمور هى التى تشغل بال الشاعر والتى — بتشكيلها والتعبير عنها — يربطنا بالمطلق».(٦٢) وهكذا فقد افتتن شيدر لأمد طويل بالحوار الدائر لدى ر. ا. شرودر بين الانسانى والمسيحى، بين الإنسان المتعشق للجمال والمتدين. وقد أهدى له — بالاضافة إلى بضع دراسات — عام ١٩٣٨ كتابه «تجربة غوته للشرق» وعام ١٩٤٨ الكتاب الذى ألفه مع زوجته «طريق إلى ت. س. إيليوت»؛ وكما سبق وقلنا فان ر. ا. شرودر مترجم أعمال ايليوت أيضاً.

وفى فترة بريسلاو — كونغزبيرغ كان شيدر شديد التعلق بهوغو فون هوفمانزتال. وقد كرس له دراستين وكتاباً ضخماً كان قد أعلن عنه عام ١٩٣٣، غير أنه لم يسمح بنشره، وقد وصف فيه طريق هوفمنزتال من جو جمالى خالص إلى احتلال العالم الفكرى الغربى، إلى الارتباط الشخصى بقيمه الأخلاقية والدينية. ويكتب شيدر فى رثائه لهوفمنزتال عام ١٩٢٩: «لقد كان شاعراً يحيل القدرة اللانهائية على التجربة والألم فى طبيعته وفى جيله منذ بداية الظهور إلى فكرة خالصة ويشكلها فى كلمات خالصة، شاعراً انفتح أمامه — بفضل وعيه الطبيعى لثبات النظام الأخلاقى — الطريق إلى عالم من الأشكال يحتوى جميع المناحى الانسانية على اختلاف ألوانها، وهو طريق اجتازه بطاقة تهذيب ذاتى للنفس تعتبر فريدة فى عصرنا.»(٦٣) واصبح هوفمنزتال شاعر قدره أيضاً. لقد استيقظ الاهتمام بأعمال هوفمنزتال منذ عام ١٩٢٧ عندما اشترك شيدر بدراسة هذه الأعمال مع الباحثة الشابة المختصة بالشاعر غريته ڤارانيتش(٦٤) Dr. Grete Waranitsch (المولودة عام ١٩٠٣) التى أصبحت منذ ذلك الحين حرمه الوفية المضحية ورفيقة عمره وشريكته فى البحث فى حقل الأدب.

لقد بدأت الفترة البرلينية بداية تعد بالآمال والوعود الزاخرة. فقد استطاع شيدر الآن أن يوجد مع كثير من أصدقائه (ك. هـ. بيكر وف. بانغ وغيرهما) فى مكان واحد. كما أن زملاء القسم فى تلك الجامعة البارزة استقبلوه بحفاوة وود كبيرين. وأصبح «جاره» المباشر بعد حين استاذه الفاحص السابق فى بريسلاو وسلفه فى كونغزبيرغ ريشارد هارتمان(٦٥) Richard Hartmann وسرعان ما أصبح شيدر عضو الندوة الشهيرة "Kränzchen". ويدل فهرس اسماء ومواضيع أعضاء هذه الندوة (ويظهر اسم شيدر كثيراً فيه) الذى طبع عام ١٩٣٩ على مدى نشاط وأهمية هذه المؤسسة الخاصة التى انشأها الاساتذة البرلينيون بالنسبة للتطور العلمى. وأصبح شيدر ناشر عدد كبير من المتسلسلات النشرية التى يجب أن نخص بالذكر منها «الأبحاث الايرانية Iranische Forschungen» و«امبراطورية المغول العالمية Das Mongolische Welt-reich». ومن مؤلفاته الخاصة فى تلك الفترة نذكر: تحقيقه ودراسته لنقوش آريارامنس الفارسية القديمة(٦٧)، ودراسته الخاصة بسلف مانى: باردسانس الرهاوى، وأربع دراسات من حقل الأديان الشرقية (زرادشت — المانوية — محمد فى OLZ ١٩٣٢، ص ١١٧٧ — ١١٨٥؛ وDLZ ١٩٣٢، ص ٢١١٣ — ٢١٢٧) وأخيراً الدراسة «ايرانيكا» Iranica(٦٩) ويذكر شكلها الخارجى بمؤلفه «دراسات ايرانية»: فهى تحتوى على مسألتين منفصلتين من حيث الزمان والمكان (وهما اللقب الأخيمينى «عين الملك»، ص ٣ — ١٩، والاسم الصينى 'Rom' Fu-lin من عهد T'ang، ص ٢٤ — ٦٨)(٧٠) وبحثان آخران أيضاً؛ وتتصل جميع هذه الموضوعات بالمانوية. وبفضل مقدرته الخاصة فى ايجاد الصلات والروابط، أدرك شيدر كلمة frwm فروم (Frōm) فى البارسية والصوغدية وهى الكلمة التى سبق ل ب. بيليوت(٧١) P. Pelliot أن طالب بأنها الشكل الايرانى الشمالى الشرقى لكلمة 'Rom' Hrōm فى الايرانية الوسطى وهى الكلمة التى يقوم عليها اسم Fu-lin الصينى. والمهم أيضاً البحثان الآخران حيث يبحث فى الأول (بالنفى) مسألة التعميد المانوى المزعوم (ص ١٩ — ٢٤)، وفى الثانى يتناول بالبحث مذهب الديناوارية التابع للمانوية

الشرقية. واستطاع أن يبرهن بالحجة القاطعة أن مؤسس هذا المذهب هو سداد أورمزد حوالى سنة ٦٠٠ ق.م.
لقد ختم شيدر محاضرة افتتاح مدرجه التدريسي فى جامعة لايبزغ بعنوان «فكرة تاريخ الأديان الشرقية» (٣١/٥/ ١٩٣٠؛ لم تنشر؛ وكان شيدر قد جاء إلى لايبزغ خلفاً لـ ا. فيشر[٧٢] A. Fischer) بالكلمات التالية: «إن الحوار بين المسيحى والإنسانى هو الموقف الذى تواجهه حياتنا الفكرية». ولم تكن هذه الجملة مجرد كلمات «أكاديمية» فحسب، وانما كانت اعترافاً ذاتياً عما يؤمن به بنفسه. وعندما نطق بهذه الكلمات كان الاتجاه المسيحى الذى بدأ فى بريسلاو قد ولى. وكان الجانب الإنسانى هو الفائز فى الصراع. وكانت فكرة الثقافة الإنسانية قد طرحت على شيدر بواسطة غوته، الذى كان قد تمكن من اختيار سعة افق التنبؤى من قبل أثناء عمله على أطروحة اجازة التدريس الجامعى حول حافظ وشعره: ونعنى بذلك حكم غوته على شعر حافظ. لقد رافق الكتاب المقدس غوته — كما رافق شيدر— طيلة حياته؛ وكان —كشيدر أيضاً — يعرفه بجميع تفاصيله. ورغم أنه كان يعتبره وحى منزل من الله، ولكنه لم يكن بالنسبة مصدر الوحى الوحيد، تماماً كما كان شيدر يرى ذلك أيضاً فى تلك الفترة. وبذلك أصبح غوته بالنسبة لشيدر الضمانة الكبرى لديانة الفكر تلك، التى اعتقد أنها توحد فى ذاتها بين العلم والايمان.

ثم جاءت فترة ١٩٣٣ — ١٩٣٤. وبقى شيدر فى برلين وتولى مؤقتاً مهمة إدارة معهد الدراسات الشرقية (١٩٣٣— ١٩٣٥). إنه لا يستطيع الحياة دون أن يتوفر لديه حقل واسع من النشاط والفاعلية، حتى وإن اضطر فى سبيل ذلك إلى دفع ثمن من التكيف للوسط الجديد وخداع النفس والتخلى عن امتلاك خط واضح. وأخذت الصراعات الداخلية تشوش عليه وقدرته على التركيز. ورغم أنه نشأت مساهمات هامة فى حقل تاريخ اللغة والكتابة الايرانية[٧٣]، وفى حقل النقوش الايرانية[٧٤]، ودراسات تاريخية — طوبوغرافية مليئة بالآراء المحفزة[٧٥]، وتقييم لتعاليم زرادشت[٧٦]، ودراسة حول الزرقانية[٧٧]، ودراسات عن المانوية[٧٨] وعن المسيحية[٧٩]، وأبحاث عديدة، منها ما يعالج أيضا مشاكل العالم الشرقى[٨٠] منها ما يتناول أبحاث الاستشراق الألمانية[٨١] — إلا أنه لم يكتب لأى من هذه الموضوعات المطروقة أن ينمو ويترعرع. وهو فى جميع الصعوبات التى يواجهها يجد العزاء لدى غوته. فقد جذبا بسحر الشرق — ثم الشعور بالغربة وعملية الاندماج فالابتعاد التاريخى ومحاولة انقاذ الذات باتخاذ «السلوك الانتاجى» فى زمن عاصف — هنا اكتشف شيدر عند غوته عدة مشكلات كمشكلاته نفسها. ومن اكثر المسائل أهمية بالنسبة لشيدر فى ذلك العهد مفهوم غوته حول تاريخ العالم[٨٢] — وهى المسألة التى كان عليها أن تصبح العمل «المنتج» الذى سيشغل شيدر منذ الآن. وإذا كان فى الماضى قد رأى التاريخ بالدرجة الأولى كتاريخ للافكار والأديان، فقد أصبح التاريخ السياسى يحتل المرتبة الأولى الآن — وبعد أن شهد السلطة السياسية. وكمعلمين يهتدى بهم فى هذا الاتجاه اختار ادوارد غيبون[٨٣] Edward Gibbon وليوبولد رانكه[٨٤] Leopold Ranke، وياكوب بوركهارت[٨٥] Jacob Burckhardt ويوليوس ڤلهاوزن[٨٦] J. Wellhausen وڤلهلم (ڤاسيلى ڤلاديميروڤتش) بارتولد[٨٧] Wilhelm (Vasilij Vladimirovič) Barthold. وكان الموضوعان الرئيسيان: «الامبراطورية الفارسية الكبرى» و«محمد» (دخول العرب فى التاريخ العالمى). ولكن الموضوعين لم يتخطيا حدود الدراسات الأولية الصغيرة[٨٨]. ومع ذلك فانهما يستحقان القراءة حتى فى هذه الصيغة. وأود هنا أن أشير فقط إلى التفسير الذكى لعبارة «فى العام نفسه» فى نقش دارا. غير أن العمل على غوته و«ديوانه» جاء بثماره أيضاً. فقد نشأ من ذلك أعظم مؤلف له فى هذه الفترة: «تجربة غوته للشرق»[٨٩] "Goethes Erlebnis des Ostens"؛ وفى أعوام حياته الأخيرة رسم أن يصدر طبعة ثانية يوسع فيها الفصلين: «غوته والكتاب المقدس» و«النظرة الحياتية والشكل الوجدانى عند حافظ».

ثم جاءت فترة غوتنغن وهى فترة الهبوط (١٩٤٦—١٩٥٧). فقد ذكرته الاعوام التى اعقبت الحرب العالمية الثانية كثيراً وبصورة حية جداً بتجاربه كطالب يبحث عن الحقيقة بعد انهيار الدولة والعقيدة السائدة بعد الحرب العالمية الأولى. وهكذا فقد رأى من واجبه أن يسعف هذا الشباب بالعون فى المحاضرات العامة ذات الصبغة الانسانية من حقل التاريخ الفكرى والتاريخ السياسى الأوروبى والأوروبى الاسيوى. وقد سعى بوجه خاص إلى تمهيد الطريق أمام الجيل الجديد من مواطنيه للتعرف على ت. س. إليوت وعلى المؤرخ الجامع ا. ج. توينبى A. J. Toynbee وكثيراً ما كان مزاجه يدفعه إلى التفوه بأقوال لا مبالاة فيها، كانت تفهم خطأ أحياناً، وتثير له المتاعب الكبيرة من جهات مختلفة، وكان من نتيجتها أيضاً أنه منع عن القاء الخطب مدة عام تقريباً. وقد سبب له هذا

وغيره من التجارب المأساوية شعوراً بالأسى والكدر، وأضيف اليه المرض والآلام العضوية التى لم يعد قادراً على الخلاص منها. وبذل محاولات يعتريها التشنج لتحقيق جزء من مشاريعه على الأقل. إلا أنه لم يتمكن من تأليف بحث جديد عن أناشيد الا Gathas الزردشتية على الورق، ولا من تحقيق مشروعه الكبير فى تأليف دراسة تاريخية حول دخول العرب فى التاريخ العالمى؛ ولم يعرف إلا فصل منه على شكل محاضرة، وهو الذى عالج فيه القبائل الآوارية الاسيوية Avaren. ولم تتحقق كذلك محاولاته لوضع كتاب فى قواعد الفارسية الوسطى ودراسة حول التصوف الإسلامى، كما لم يتمكن من تأليف بحث شامل جديد عن المانوية استناداً إلى المصادر الجديدة(٩٠).

كانت آخر تجربة شعرية لشيدر هى أعمال ت. س. ايليوت التى تعرف عليها منذ عام ١٩٤٦. وأصبح ايليوت بالنسبة له ما كانه هوفمنزتال فى فترة بريسلاو — كونغزبيرغ وما كانه غوته فى الفترة البرلينية. وبذلك نشأت دراساته العديدة حول ايليوت وكذلك الكتاب الذى اشترك مع زوجته فى تأليفه «طريق إلى ت. س. ت» ايليوت "Ein Weg zu T. S. Eliot" (هاملن، ١٩٤٨، ١٦٠ صفحة). أما الشئ الذى فتن شيدر فى ايليوت فهو التغلب بقوة الشعر على عصره وأهواله فى «الرباعيات الاربع». فكما فعل بيتهوفن فى رباعياته الأخيرة: السمو فوق صعيد الموسيقى بوسائل الموسيقى نفسها، أراد ايليوت أن ينير بوسائل الشعر عالماً سامياً أعلى من مستوى الشعر نفسه، لا يمكن ادراكه إلا بالايمان. وهنا يظهر التحول الدينى لأول مرة، ذلك التحول الذى يتم فى شيدر نفسه فى أعوامه الأخيرة. ويتحقق ختام ذلك بانتقاله إلى المذهب الكاثوليكى عام ١٩٥٥.

كتب شيدر فى رثائه لماركفارت عام ١٩٣٠: «لم يكن معلما فى المعنى المألوف للكلمة. ومن حضر محاضراته ودروسه كمبتدئ أصيب بالدوار. ولكن كلما حاول المرء أن يتعلم عنده، كلما ازداد فهمه له.»(٩١) غير أن هذه الكلمات تنطبق تماماً عليه نفسه. إذ أن كاتب هذه السطو يستطيع أن يشهد أنه فى درس واحد لمدة ساعتين فى مادة الفارسية الوسطى حدث «عرضا وبالمناسبة» تناول مسائل أخرى أيضاً كمشاكل الأدب الفرنسى الحديث، وتاريخ الصين القديم، والتاريخ الروسى، وتصنيف اللغات الأفريقية وغير ذلك، تبعها نقاش لآراء شبنجلر وف. ك. أندرياز ودوستويفسكى وغيرهم أيضاً. ولم يكن لشيدر تلامذة أتباع. ومن استطاع أن «يصمد» لديه، كان لا بد أن يكون قد جاءه وهو باحث تام الاعداد. ورغم أنه يوجد عدة علماء يشعرون بالانجذاب إليه، ويقدرونه كأستاذهم — إلا أنه لا توجد له مدرسة مستقلة به. فقد كان أكثر عالمية وأوسع شمولا من أن يعطى مدرسة ما اتجاهاً معيناً. وكان شديد التركيز على نفسه شديد الاندفاع. وكان يعيش دوماً بين الحدود المتطرفة. وقد اشتهرت الألقاب الوصفية "Epitheta" التى كان يبدعها من وحى اللحظة ويسجلها كتابة فوراً، وكان يصف فيها افكار شركائه فى البحث، وتلامذته أيضاً. وكان بحثه الدائم عن «المواهب الجديدة» الناجم عن حسه الفطرى يؤدى إلى إحساس «ذوى مواهب الأمس الجديدة» بالكبت والإهمال إزاء «مواهب اليوم» و«الغد»، رغم أن استعداده الودى للعون وحبه للضيافة لم يكن لهما حد. غير أن كل لقاء معه، سواء أكان ذلك فى الدرس، أم فى منزله، كان دوماً تجربة لا تنسى، واثراً للمعرفة وتصحيحاً للرؤية وحافزاً لاكتشاف أفكار جديدة(٩٢).

إن قائمة من المؤلفات المهداة إليه وأسماء مؤلفيها الذين يمثلون حقولا مختلفة عديدة لتعتبر أفضل دليل على تأثيره على البيئة المحيطة به:

1926: Joachim Wach, Die Typenlehre Trendelenburgs und ihr Einfluß auf Dilthey. Tübingen.

Eberhard Zwirner, Zum Begriff der Geschichte. Eine Untersuchung über die Beziehungen der theoretischen zur praktischen Philosophie, Leipzig.

1928: Martin Plessner, Der Oikonomikos. Heidelberg.

1931: C. H. Becker, Das Erbe der Antike im Orient und Okzident, Leipzig.

Julius Stenzel, Metaphysik des Altertums. München und Berlin.

Wilhelm Eilers, Gesellschaftsformen im altbabylonischen Recht, Leipzig.

Günther Raphael, Quartett Nr. 3 in A-dur für 2 Violinen, Viola und Violoncell. Op. 28, Leipzig.

H. S. Nyberg, Hilfsbuch des Pehlevi, II. Glossar, Upsala.

1934: P. Kraus, Beiträge zur islamischen Ketzergeschichte. Das Kitāb az-zumurruḏ des Ibn ar-Rāwandī, Rom (Rivista, Bd. 14, 93–379).

Hans Jakob Polotsky, Abriß des manichäischen Systems. Stuttgart. (Pauly-Wissowa, Real-Encycl., Suppl, VI, 241–72)

1943: Bertold Spuler, Die Goldene Horde, Leipzig.

وبعد وفاته:

لقد كان شيدر يتمتع بطلاقة فى أغلب اللغات الأدبية الأوروبية والأسيوية (بما فى ذلك الروسية والصينية). إلا أنه كان كذلك بليغاً فى الألمانية — وهو شئ نادر فى تاريخ أدب الاستشراق! وكان حماسه للروائع العلمية التى كان يبدعها زملاؤه فى الاختصاص من الاجانب يبلغ حداً بحيث لم يكن يعتبر الأمر مضيعة للوقت فى أن يترجم دراسات موسعة بكاملها إلى الألمانية ليتيح بذلك الفرصة أمام الاوساط المثقفة الألمانية للاطلاع على هذه الكنوز(٩٣).

لقد كتب صحافى سويسرى عام ١٩٢٨ بمناسبة محاضرة ألقاها شيدر فى زوريخ ما يلى: «إن الجمهور العام لا يعرف حتى الآن إلا جزءاً يسيراً من علمه ومعارفه ... إلا أن قسما كبيراً منها يكمن كوعود ضخمة أو مشاريع لم يكتمل اكثر من نصفها، وكل ذلك أجزاء من برنامج هائل لا يمكن لإنسان واحد أن يحققه إلا إذا اقتصد فى قواه بعناية. وهنا يكمن الخطر؛ إذ أن قوة هائلة مدمرة للذات تنبض فى جوانح شيدر؛ وهى تبرق فى كل لحظة فى نقده، إلا أنها، كما أكد لى وكما اعتقد، اكثر ما تكون تأثيراً فى محاضرته وإلقائه الشفوى.»(٩٤)

ومما يؤسف له أن الأمر حدث كما تنبأت به هذه الكلمات العرافة. مما يؤسف له؟ كلا، إذ لم يكن بالوسع أن يكون الأمر غير ما كان عليه! ونحن، الذين كان من حظنا أن نشهد شيدر، مدينون لهذا التنبؤ فى أن تصبح هذ الأجزاء الرائعة تراثنا المشترك.

ترجمة: محمد على حشيشو

تعليقـات

١) كارل ياكوب بوركهارت: مؤرخ وديبلوماسى وكاتب سويسرى ولد فى بازل عام ١٨٩١. انتدبته عصبة الأمم فى دانزيغ من ١٩٣٧ حتى ١٩٣٩. أصبح رئيساً للصليب الأحمر الدولى من ١٩٤٤ حتى ١٩٤٨، ثم وزيراً مفوضاً فى باريس من ١٩٤٥ حتى ١٩٤٩ له عدة مؤلفات ادبية وتاريخية.

٢) من مقال نشره بوركهارت حول هانز هاينريش شيدر فى الصحيفة السويسرية Die Tat, Zürich, 25. 3. 1957.

٣) ڤيرنر ييجر: عالم باللغات القديمة ولد فى منطقة راينلاند عام ١٨٨٨ وتوفى عام ١٩٦١. عمل استاذاً فى بازل وكيل وبرلين وشيكاغو وكامبردج (ماساتشوستس). برز بوجه خاص بفضل دراساته فى الفلسفة اليونانية وتاريخ الفكر اليونانى.

٤) فريتز كيرن: مؤرخ ولد فى شتوتغارت عام ١٨٨٤ وتوفى فى ماينز عام ١٩٥٠. أصبح عام ١٩١٤ استاذاً فى فرانكفورت على الماين ثم انتقل إلى بون عام ١٩٢٢. انطلق من تاريخ الدساتير الوسيطية وحاول وضع تاريخ عالمى للفكر.

٥) ماكس ڤيبر: عالم اجتماعى ألمانى ولد فى ايرفورت عام ١٨٦٤ وتوفى فى ميونيخ عام ١٩٢٠. عمل استاذاً فى برلين وفرايبورغ وهايدلبرغ وڤيينا وميونيخ. اشترك فى تأسيس الحزب الديمقراطى الألمانى وكان بفضل مؤلفاته المتفرقة أهم علماء الاجتماع فى عصره واقواهم نفوذاً. برز كذلك فى تحليله للسلطة والسيادة واسس ما يدعى بعلم الاجتماع الدينى. اهم اعماله «الاقتصاد والمجتمع».

٦) برونو مايسنر: عالم بالآشورية والآثار القديمة ولد عام ١٨٦٨ وتوفى عام ١٩٤٧. أصبح عام ١٨٩٤ استاذاً مساعداً فى هاله واشترك فى ١٨٩٩/١٩٠٠ فى حفريات بعثة الآثار الألمانية فى بابل. ثم انتقل لتدريس العربية فى المعهد الشرق فى برلين واصبح منذ عام ١٩٠٤ استاذاً فى بريسلاو ومنذ ١٩٢١ فى برلين.

٧) لوى ماسينيون: مستشرق فرنسى ولد عام ١٨٨٣ وتوفى فى باريس عام ١٩٦٢. كان استاذاً فى معهد كوليج دو فرانس ومن أشهر العارفين بالتصوف الاسلامى. وقد حاول ماسينيون كمسيحى متمسك بالكاثوليكية أن يوجد للاسلام مكاناً خاصاً فى التاريخ الدينى المسيحى. ألف دراسة عن الحلاج وكتبا اخرى عن التصوف الاسلامى.

٨) أوتو براون: شاعر وأديب ولد عام ١٨٩٧ وتوفى عام ١٩١٨ ضحية الحرب العالمية الأولى وهو فى الحادية والعشرين. أمه ليلى (Lily Braun) أديبة وكاتبة مذكرات وزعيمة فى الحركة النسائية الاشتراكية.

٩) بوزونى: موسيقار وعازف بيانو ولد عام ١٨٦٦ فى ايطاليا وتوفى عام ١٩٢٤ فى برلين. اشتهر اثناء جولاته الموسيقية فى اوروبا وامريكا واقام فى برلين منذ عام ١٨٩٤ ثم فى زيوريخ (١٩١٥ — ١٩١٩). منذ عام ١٩٢٠ أصبح استاذاً للتأليف الموسيقى فى الأكاديمية البروسية للفنون فى برلين. حاول فى مؤلفاته الأخيرة مواصلة التقاليد الموسيقية الكلاسيكية بوسائل موسيقية تقدمية حديثة.

١٠) هانز بفتزنر: موسيقار ألمانى ولد فى موسكو عام ١٨٦٩ وتوفى فى زالتزبورغ عام ١٩٤٩. يمثل فترة الرومانتيكية المتأخرة رغم أن تآليفه تمتاز بفردية شديدة وتنوع فى التركيب النغمى. عمل فى تدريس التأليف الموسيقى والقيادة الموسيقية فى برلين وستراسبورغ وميونيخ وڤيينا.

١١) ماكس ريجر: موسيقار ولد عام ١٨٧٣ وتوفى فى لايبزغ عام ١٩١٦. عمل فى تدريس الموسيقى فى ڤيسبادن وميونيخ ثم انتقل إلى لايبزغ. برز كعازف بيانو وارغن وأبدع فى تآليفه الخاصة بموسيقى الارغن.

١٢) رودلف بورشارت: شاعر ولد عام ١٨٧٧ وتوفى عام ١٩٤٥. درس اللاهوت واللغات القديمة وعلم الآثار؛ وكان صديقاً لهوفمنزتال (انظر تعليق ٣١). امتاز بقوة تعبير لغوى نادرة وكان خطيباً ألمعياً حريصاً على تراث الحضارة الغربية.

١٣) جيورج ياكوب: مستشرق مختص باللغة التركية وعلوم الاسلام. ولد عام ١٨٦٢ وتوفى عام ١٩٣٧. أصبح منذ عام ١٩١٢ استاذاً للغات الشرقية فى جامعة كيل واهتم خاصة بدراسة التصوف وأصحاب الطرق كالبكتاشية. وله مؤلف طريف وهام حول مسرح العرائس وخيال الظل فى الشرق والغرب. (انظر فكر وفن ١١)

١٤) رودلف شتاينر: مؤسس علم الانثروبوسوفى القائم على دراسة الفكر والروح. ويرمى هذا العلم إلى توحيد علم الروح الهندى والافلاطونية والمسيحية والغنوصية والتصوف والمثالية الفلسفية والسحر فى نظام موحد شامل. ولد شتاينر عام ١٨٦١ فى كرواتيا وتوفى عام ١٩٢٥ بالقرب من بازل. اهتم كذلك بدراسة أعمال غوته ونيتشه.

١٥) أوزفالد شپنجلر: فيلسوف تأريخ (١٨٨٠ – ١٩٣٦) اشتهر بكتابه الرئيسى «انحطاط الغرب» الذى اعتمد فيه على آراء غوته ونيتشه فوضع فلسفة للتاريخ ونظرية تقييم للتطور التاريخى. ويتخلى شپنجلر فى نظرته إلى التاريخ عن الوضعية ويحاول ادراك التاريخ العالمى من خلال الفن والأدب، فيرى فى ذلك حضارات ثمان، يعتبر كلا منها كائناً متكاملا ذا روح خاصة به فى طريق التطور ثم الزوال.

١٦) Sonntagsblatt der Basler Nachrichten, 43. Jhg., Nr. 27, 10. 7. 1949.

١٧) إيرنست ترولتش: لاهوتى وعالم اجتماع وفيلسوف تأريخ (١٨٦٥– ١٩٢٣). أصبح عام ١٨٩٢ استاذاً فى بون ثم انتقل عام ١٨٩٤ إلى هايدلبرغ وعام ١٩١٥ إلى برلين. احتل منصب امين الدولة فى وزارة الثقافة البروسية عام ١٩٢٢.

١٨) كارل هاينرش بيكر: مستشرق عاش بين ١٨٧٦ و١٩٣٣. قام برحلات فى افريقيا وتركيا وعمل استاذاً فى هامبورغ وبون وبرلين منذ ١٩٣٠. أصبح عام ١٩٢١ وكذلك من ١٩٢٥ الى ١٩٣٠ وزيراً للثقافة. له كتاب «دراسات اسلامية» فى جزئين وكان يبدى اهتماماً خاصاً بقضايا المشرق والعرب فى عصره.

١٩) يوسف ماركڤارت: مستشرق عاش من ١٨٦٤ إلى ١٩٣٠. كان استاذاً فى برلين وكان اهتمامه موجهاً بشكل خاص إلى دراسة الجغرافية التاريخية لآسيا الوسطى وأرمينيا.

٢٠) Sammlungen, Jhg. 1, 8, Göttingen, Mai 1946, 455.

٢١) Ungar. Jahrb., Bd. 10, 1930, 119.

٢٢) Der Orient und das griechische Erbe, in ,,Antike'', Bd. 4, 226—65.

٢٣) Neue Schweizer Rundschau, Nov. 1928, 807.

٢٤) Antike, Bd. 4, 233.

٢٥) Biologie der Person, Bd. 4, 1929, 913—55
راجع أيضاً: Die Leistung des Islam, in Z. f. Missionskunde u. Rel. wiss., Bd. 46, 12, 1931, 353—81.

٢٦) Die Biol. d. Person, Bd. 4, 923.

٢٧) تيودور نولدكه: مستشرق ألمانى كبير ولد فى هاربورغ عام ١٨٣٦ وتوفى فى كارلزروهيه عام ١٩٣٠. راجع المقالة التى نشرت عن حياته فى مجلة فكر وفن، العدد ٩، ١٩٦٧ (السنة الخامسة)، ص: ٣٣–٤١.

٢٨) پاول أنتون دى لاگارد: مستشرق وفيلسوف حضارى (١٨٢٧– ١٨٩١). عين منذ عام ١٨٦٩ استاذاً للغات الشرقية فى غوتنغن وما زال أثره حياً حتى اليوم بفضل شروحه وتحاليله لنصوص العهد القديم. اشتهر ايضاً بمقالاته السياسية التى تتناول النقد الحضارى والمشبعة بالروح القومية الرومانتيكية.

٢٩) باستثناء قيام شيدر بنشر كتابى عزرا ونحميا فى:
R. Kittel, Biblia Hebraica, 2. Aufl. 1937 und 3. Aufl. 1945, 1284—1324.

٣٠) راجع التعليق رقم (١٢).

٣١) هوغو فون هوفمانزتال: شاعر نمساوى عاش بين ١٨٧٤ و١٩٢٩. قام برحلات إلى ايطاليا وفرنسا واليونان. درس الحقوق واللغات الرومانية وعاش فى ڤيينا أو قريباً منها. كانت اشعاره ومسرحياته الأولى تتسم بقوة الشعور والايقاع الموسيقى وصوفية الموت والعدم. أصيب بخيبة أمل شديدة فى أعوام الحرب العالمية الأولى وما بعدها فاخذ اهتمامه يدور حول قضايا الفكر والسلطة، الشعراء والزمن، والحفاظ على الفكر الغربى وخاصة الألمانى. يعتبر هوفمانزتال كشاعر وجدانى ومؤلف مسرحى ممثلا رئيسياً للانطباعية والرمزية النمسوية. وقد كان لتعاونه الوثيق مع الموسيقار ريشارد شتراوس اهمية كبيرة للمسرح الموسيقى الحديث. تنعكس من أعماله بوجه عام جهوده الكبيرة للحفاظ على تراث الفكر الأوروبى.

٣٢) رودلف ألكساندر شرودر: شاعر ورسام ولد عام ١٨٧٨ فى مدينة بريمن. كان صديقاً لهوفمانزتال وبورشارت. تأثر بفكرة «الثورة المحافظة» التى اقتبسها من هوفمانزتال وأصبح حريصاً على الحفاظ على تراث الفكر الغربى القائم على النظم المسيحية والكلاسيكية الأوروبية.

٣٣) ت. س. إيليوت: شاعر وناقد انجليزى ولد عام ١٨٨٨ فى سانت لويس بالولايات المتحدة. درس فى هارڤارد وباريس واكسفورد وألمانيا. أصبح عام ١٩٢٧ مواطناً بريطانياً وفاز عام ١٩٤٨ بجائزة نوبل للأدب. يعتبر أهم شعراء انجلترا المعاصرين واقواهم اثراً. تأثر بالرمزية الفرنسية وشعر دانتى و«الشعراء الميتافيزيقيين» وألف أشعاراً معقدة البناء غنية بالرموز والتشابيه والايماءات تظهر الأزمة الفكرية التى يجتازها العالم العصرى (The Waste Land, 1922) ثم اعقب ذلك فيها بعد بشعر يكشف عن احتمالات الخلاص والتغلب على الزمن باللازمنى (Ash-Wednesday, 1930; Four Quartets, 1943) ويسعى ايليوت إلى تجديد الدراما الشعرية الانجليزية ويمارس، كشاعر، ومن صفحات مجلة «Criterion» التى يشرف عليها، تأثيراً كبيراً على الأدب الاوروبى. غير أنه محافظ فى نقده الاجتماعى.

٣٤) انظر الملاحظة ١٣.

٣٥) هيلموت ريتر: مستشرق معروف عاش بين ١٨٩٢ و١٩٧١. عمل استاذاً فى هامبورغ بين ١٩١٩ و١٩٢٦ وفى استانبول عام ١٩٣٥. كان ممثلا لجمعية المستشرقين الألمانية فى استانبول من ١٩٢٧ حتى ١٩٤٩. عضو المجمع اللغوى فى دمشق وخبير كبير فى الشعر الصوفى العربى والفارسى. انظر كلمة رثائه فى مجلة فكر وفن ١٨.

٣٦) بناء على بحث الكفاءة التدريسية الجامعية ألف فصـــل: Lebensansicht und lyrische Form bei Hafiz فى كتاب شيـــدر: Goethes Erlebnis des Ostens الصادر فى لايبزغ عام ١٩٣٨ (ص: ١٠٥ – ١٢٢ و١٧٣ – ١٧٨). انظر أيضاً
,,Die persische Vorlage von Goethes Seliger Sehnsucht'' in: Festschrift E. Spranger, Berlin 1942, 93—102.
وكذلك ,,Läßt sich die ‚seelische Entwicklung des Dichters Hafis' ermitteln?'' in OLZ 1942, 201—10.

٣٧) ماسيه: مستشرق فرنسى ولد عام ١٨٨٦ وعمل استاذاً فى كلية الآداب فى الجزائر ثم مديراً للمعهد الوطنى للغات الشرقية حتى عام ١٩٥٨. نشر عدة كتب تتعلق بالأدب الفارسى توفى عام ١٩٧١.

٣٨) ج. بيرجشتريسر: عالم باللغات السامية عاش بين ١٨٨٦ و١٩٣٣. عمل أستاذاً فى استانبول عام ١٩١٥ ثم فى كونغزبيرغ وبريسلاو وهايدلبرج. يعتبر خبيراً بالشرع الاسلامى أيضاً.

٣٩) رودلف كيتل: لاهوتى بروتستانتى عاش بين ١٨٥٣ و١٩٢٩.

٤٠) الفريد هيليبرانت: عالم بالسنسكريتية عاش بين ١٨٥٣ و١٩٢٨. اهتم بوجه خاص بأدب الڤيدا.

٤١) ڤ. تومسن: باحث لغوى دانمركى عاش بين ١٨٤٢ و١٩٢٧ وعمل استاذاً فى كوبنهاغن من ١٨٨٧ إلى ١٩١٣.

٤٢) هـ. ڤينكلر: مستشرق ألمانى عاش من ١٨٦٣ حتى ١٩١٣.

٤٣) يوهان ڤيلهلم بانغ–كاوب: عالم باللغات والآداب التركية والانجليزية عاش بين ١٨٦٩ و١٩٣٤. درس فى فرنسا وهولندا وانجلترا عمل عام ١٩١٤ استاذاً للغة الانجليزية وآدابها فى لوڤن وفى عام ١٩١٧ استاذاً لعلم اللغة التركية فى فرانكفورت ثم انتقل بعد ذلك إلى برلين. كرس جل اهتمامه لدراسة اللغات الفارسية والموغولية وتاريخ لغات الترك وساهم فى تطوير الدراسات المتعلقة بالمانوية.

٤٤) ى. شتنتزل: لم نتمكن من العثور على ترجمته.

٤٥) ر. رايتسنشتاين: عالم باللغات القديمة ومؤرخ أديان عاش من ١٨٦١ إلى ١٩٣١. عمل استاذاً فى روستوك وجيسن وستراسبورغ وفرايبورغ وجوتنجن.

٤٦) هـ. س. نيبرغ: مستشرق سويدى ولد عام ١٨٨٩ وعمل استاذاً فى اوپسالا. له همية خاصة كعالم باللغات السامية والايرانية القديمة.

٤٧) راجع: Zur Deutung der islam. Mystik, in OLZ 1927, 834—48.

كذلك: Die kleineren Schriften des Ibn al-ʿArabī, in OLZ 1925, 794—99.

وكذلك: Zur Stifterlegende der Bektaschis, in OLZ 1928, 1038—58.

٤٨) انظر: Neue Quellen zum Verständnis der bāṭinitischen Bewegung, ZDMG, Bd. 78, 1924, LXXVI—VII.

٤٩) انظر ملاحظة رقم (٧).

٥٠) تور أندريه: لاهوتى ومؤرخ أديان سويدى عاش من ١٨٨٥ إلى ١٩٤٧. عمل استاذاً فى ستوكهولم وأوپسالا وأصبح اسقفاً فى لينكوپينج عام ١٩٣٦. يعتبر عالماً طليعياً فى العلوم الاسلامية وله عدة مؤلفات عن الرسول وأصل الاسلام والمسيحية.

٥١) ر. ا. نيكولسون: مستشرق انجليزى عاش من ١٨٦٨ إلى ١٩٤٥ وعمل منذ عام ١٩٢٦ استاذاً فى كامبردج. من أهم أعماله: التاريخ الادبى للعرب، ودراسات فى التصوف الاسلامى.

٥٢) ف. ف. ك. مولر: مستشرق المانى عاش من ١٨٦٣ إلى ١٩٣٠ واهتم بدراسة لغات الشرق الأقصى. قدم مساهمة كبيرة فى فك رموز مخطوطات تورفان.

٥٣) فريدرش كارل أندرياز: مستشرق مختص بالدراسات الايرانية. ولد عام ١٨٤٦ وتوفى فى ١٩٣٠. ألف عدة أبحاث عن النقوش الفارسية الوسطى وعن اللهجات الايرانيه الحديثة.

٥٤) وخاصة: Das iranische Erlösungsmysterium, Bonn 1921;
راجع أيضاً نقد شيدر فى: DLZ 1922, 318—21

٥٥) انظر: Studien zum antiken Synkretismus, Teil II, Leipzig 1926 (Studien der Bibliothek Warburg 7), 203—355.

٥٦) انظر: Vorträge der Bibliothek Warburg 4, 65—157

وكذلك: Ein Lied von Mani, OLZ 1926, 104—07; Manichäer und Muslime, ZDMG Bd. 82, 1928, LXXVI—LXXXI; Manichäismus, RGG, Bd. 3, 1929, 1959—73.

كذلك تقريظ Ein Mani-Fund aus Ägypten: Schmidt-Polotsky Gnomon, Bd. 9, 1933, 337—62.

ومن ذلك أيضاً دراستا شيدر حول الصابئة: Die Stellung der mand. Überlieferung im orientalischen Synkretismus, Klio, Bd. 21, 1927, 441.

وكذلك: Zur Mandäerfrage, OLZ 1928, 163—71

٥٧) لم نعثر له على ترجمة.

٥٨) Z. f. d. neutest. Wiss., Bd. 34, 1935, 85.

٥٩) Esra der Schreiber, Tübingen 1930, VIII, 77.

٦٠) Iranische Beiträge I, Halle, 1930, Schriften d. Königsb. Gel. Ges., 6. Jhg., H. 5, XI, 199—296.

٦١) Gnomon, Bd. 5, 1929, 353—70.

انظر جواب رايتسنشتاين: Archiv f. Rel. wiss., Bd. 27, 3—4, 1929, 241—77.

٦٢) Neue Schweizer Rundschau, 1929, H. 8, 573.

٦٣) نفس المرجع. كذلك In memoriam Hugo von Hofmannsthal, Antike, Bd. 5, 1929, 221—41.

٦٤) قدمت أرملة شيدر لمؤلف هذه المقالة مساعدات كثيرة كفتح خزائن أرشيف زوجها ومراسلة أصدقائه القدامى للحصول على تفاصيل عن مراحل حياته.

٦٥) ريشارد هارتمان: مستشرق ولد عام ١٨٨١ وعمل استاذاً فى لايبزغ وكونجزبيرج وهايدلبرج وغوتنغن. اشتهر ببحوثه حول الاسلاميات وكتب مؤلفات حول التصوف والإسلام عموماً. انظر فكروفن ٦.

٦٦) Kränzchen (1929—39). Berlin 1—100, 1939.

٦٧) Über die Inschrift des Ariaramnes, SBAW 1931, 23, 635—45; SBAW 1935, 19, 494—96.

٦٨) Z. f. Kirchengesch., 3. Folge, II, Bd. 51, 1—2, 1932, 21—74.

٦٩) Iranica (Abh. d. Ges. d. Wiss. zu Göttingen, 3. Folge, Nr. 10), Berlin 1934.

٧٠) ترجمت هذه الدراسة إلى الصينية.

٧١) پ. پليو: مستشرق فرنسى تخصص فى لغات الشرق الأقصى وعاش من ١٨٧١ إلى ١٩٤٥ وعمل منذ عام ١٩١١ استاذاً فى الكوليج دو فرانس بباريس. احضر معه مخطوطات قيمة من رحلاته فى آسيا الوسطى بين ١٩٠٦ و١٩٠٨.

٧٢) أ. فيشر: مستشرق ولد عام ١٨٦٥ فى هاله وتوفى عام ١٩٤٩ فى لايبزغ. درس فى هاله وبرلين وماربورغ. عمل مدرسا للغة العربية منذ عام ١٨٩٦ فى معهد اللغات الشرقية فى برلين. ثم انتقل استاذاً الى جامعة لايبزغ حيث خلف المستشرق المعروف فلايشر فى كرسى علم اللغات الشرقية. وكان فيشر عارفاً ممتازاً باللغة العربية ابتداء من الشعر الجاهلى حتى اللهجات الحديثة وقد قام بأبحاث قيمة لدراسة هذه اللهجات. انظر فكروفن.

٧٣) Beiträge zur iran. Sprachgeschichte, in Ung. Jahrb., Bd. 15, 1935, 560—88; Ein parthischer Titel im Soghdischen, BSOS Bd. 8, 1935, 737—49; Eine verkannte aramäische Präposition (bəgan), OLZ 1938, 593—99; Ein indogerman. Liedtypus in den Gathas, ZDMG, Bd. 94, 1940, 399—408; Altpersisch aruvastam 'Rüstigkeit', OLZ 1940, 289—93; Die Veröffentlichung der Kopenhagener iran. Handschriften, OLZ 1940, 145—50; Mittel- und neupers. bāš 'sei!', OLZ 1941, 193—201; Beiträge zur mittelpers. Schrift- u. Sprachgeschichte, ZDMG Bd. 96, 1942, 1—22; Ein iran. Lehnwort in den Inschriften von Mānikiāla, ZDMZ Bd. 97, 1943, 330—32.

٧٤) Über einige altpers. Inschriften, SBAW 1935, 489—506; Die Jonier in der Bauinschrift des Dareios von Susa, Jahrbuch d. Deutschen Archäol. Inst. 1932: 1/2, 269—74; Die Gründungsurkunden des Sassanidenreiches und der zoroastr. Staatskirche, ZDMG, Bd. 95, 1941, 14—18.

٧٥) Türkische Namen der Iranier, Die Welt d. Islams, Festschrift F. Giese, 1941, 1—34; Zwei altiran. Ortsnamen, ZDMG, Bd. 96, 1942, 127—38.

٧٦) War Daqīqī Zoroastrier?, in Festschrift G. Jakob, 1932, 288—303; Gott und Mensch in der Verkündung Zarathustras, in Corolla (Festschrift L. Curtius), 1937, 187—200; Zarathustras Botschaft von der rechten Ordnung, Corona, Jhg. 9, 1940; 6, 575—602.

٧٧) Der iran. Zeitgott und sein Mythus, ZDMG, Bd. 95, 1941, 268—99.

٧٨) Der Manichäismus und spätantike Religion, in Z. f. Missionskunde, Jhg. 50, 3, 1934, 65—85; Der Manichäismus nach neuen Funden und Forschungen, in Orient. Stimmen zum Erlösungsgedanken, 1936, 80—109.

٧٩) Historische Theologie und Religionsgeschichte, Z. f. syst. Theologie, Bd. 9, 3 (Festschrift E. Schaeder), 1931, 567—79.

٨٠) Geschichte der islam. Staaten, SA aus Propyläen-Weltgeschichte, 1933, Bd. 3, 211—48; Bd. 5, 511—52; Bd. 9, 237—98; Der Vordere Orient, in Handbuch der Kulturgeschichte, hrsgb. v. H. Kindermann, 1937, 161—250; Der Orient in der Zeitenwende, Corona, Jhg. 7, 3, 1936/37, 277—304; Imperium und Kalifat, Corona, Jhg. 7, 5, 1936/37, 540—63.

٨١) Deutsche Orientforschung, Der Nahe Osten, Bd. 1, 8—9, 1940, 129—34; Orientforschung, Studien z. Auslandskunde, Bd. I, 2, 1944, 75—84.

٨٢) راجع بهذا الخصوص شيدر فى طبعة E. Beutler للديوان الغربى الشرقى: West-östl. Divan, 1943, 788—805
وكذلك: Goethes Entdeckung der Geschichte und der Orient, in Neue Zürcher Zeitung, 28.8.1949, Sonderausgabe, SA, S. 18—20.

٨٣) إدوارد غيبون: مؤرخ انجليزى عاش بين ١٧٣٧ و١٧٩٤، واشتهر بمؤلفه تاريخ انحطاط الامبراطورية الرومانية وسقوطها». وقد كتبه بروح ڤولتير الناقدة. ويحتوى على معلومات واسعة عرضت بأسلوب خلاب وحكم ثاقب.

٨٤) ليوبولد فون رانكه: مؤرخ ألمانى عاش بين ١٧٩٥ و١٨٨٦.

٨٥) راجع التعليق ١.

٨٦) يوليوس ڤيلهاوزن: مستشرق وعالم لاهوت بروتستنتى، ولد فى هاملن عام ١٨٤٤ وتوفى فى غوتنغن عام ١٩١٨، ويعتبر اهم عالم مختص بالعهد القديم فى القرن التاسع عشر. أصبح استاذاً للاهوت فى غرايفزڤالد فى ١٨٧٢ واستاذ اللغات الشرقية فى هاله عام ١٨٨٢ ثم فى ماربورغ وغوتنغن. له مؤلفات وأبحاث ممتازة فى اللاهوت والعهد القديم. وكمستشرق بارز اكتشف فى الأناجيل آثاراً ذات أصول آرامية. وكعالم باللغة العربية وعلوم الاسلام فقد شرح ڤلهاوزن «بقايا الوثنية العربية» وألف أول تاريخ نقدى للفترة الاسلامية الأولى فى كتابه «الامبراطورية العربية وسقوطها» كما ألف أيضاً كتاب «الأحزاب الدينية السياسية المعارضة فى بواكر عهد الاسلام». انظر فكروفن.

٨٧) ڤلهلم بارتولد: مستشرق روسى تخصص فى تاريخ الأتراك ولغتهم وكذلك فى تاريخ آسيا الوسطى عموماً. عاش بين ١٨٦٩ و١٩٣٠ وعمل استاذاً فى لننغراد منذ عام ١٩٠١.

٨٨) Das persische Weltreich. Vorträge d. Friedrich-Wilhelms-Universität zu Breslau, 1940/41, 39 S.;
وقد تترجم نفس الكتاب إلى الفارسية على يد الدكتور منشى زاده، طهران، ١٩٥٠، ٥٢ ص؛ Muhammed, in Arabische Führergestalten, 1944, 1—72.
وكان اول بحث الفه شيدر عن محمد قد ظهر عام ١٩٢٣ فى: Kämpfer. Großes Menschentum aller Zeiten, Bd. 1, 115—38.

٨٩) ظهر فى لايبزغ عام ١٩٣٨. ومما له صلة بهذا المجال أيضاً المقالات التالية: Der Osten im West-östlichen Divan, in GOETHE, Westöstl. Divan, hrsgb. v. Beutler, Wiesbaden, 1943, 2. Aufl. 1948, 787—839; Des Epimenides Erwachen, in Goethe-Kalender auf das Jahr 1941, 219—63;
ثم الخطاب الاحتفالى فى كوتنغن: Goethe als Mitmensch, 1949, 15 S.

٩٠) لم يستطيع أن يصدر إلا دراسات قصيرة أهمها:
Der Manichäismus und sein Weg nach Osten, in Glaube und Geschichte (Festschrift F. Gogarten), 1947, 236—54; Des eigenen Todes sterben, Nachrichten der Akad. d. Wiss. in Göttingen aus d. J. 1945—47, 24—36; Die Kantäer, in: Die Welt des Orients, Heft 4, 1949, 288—98.

٩١) Ung. Jahrb., Bd. 10, 1930, 119.

٩٢) يجد المرء فى كثير من المؤلفات اشارات بأن الدراسات والأبحاث المعنية تمت بإيحاء من شيدر أو بمساهمة منه أو تعليقاً يقول بأن المؤلف مدين بالحل المعنى إلى بيان شفوى أو تحريرى من شيدر حول المسألة المذكورة، كما فعل مثلا ب. أ. فرانكه O. Franke فى تاريخ الامبراطورية الصينية Geschichte d. chin. Reiches فى المجلد الثالث، ١٩٣٧، ص: ٢٨٥، ٣٥٨؛ وكذلك: F. Altheim, Weltgeschichte Asiens im griech. Zeitalter, Bd. I, Halle 1947, 53—54, Anm. 18.
ولبيان مدى اهتمام زملاء شيدر فى البحث بمراسلاتهم العلمية معه — وقد كان شيدر حريصاً على الرد على رسائله برعاية وعناية — ما قاله هـ. س. نيبرغ Nyberg بهذا الخصوص: «إن الرسائل الطويلة التى كنت اتبادلها معه (شيدر) فى هذه الاعوام، والتى لم نكن نبحث فيها Iranica وحدها فحسب، بل وكذلك كل ما يتعلق بالشرق والإله والإنسان على الاطلاق، كانت بالنسبة لى أغنى مصدر للعلم والحفز والسعادة الفكرية» (من كتاب Hilfsbuch des Pehlevi, Bd. 2, S. XIII).

٩٣) أود هنا أن أذكر أهم الترجمات التى قام بها شيدر. فمن اللغة الدانمركية ترجم ما يلى:
V. Thomsen, Alttürkische Inschriften aus der Mongolei, ZDMG Bd. 78, 1924, 121—75; S. Kierkegaard, Über den Begriff der Ironie, München 1929, 283 S.; F. Buhl, Das Leben Muhammeds, Leipzig 1930, 2. Aufl. Wiesbaden 1954, viii, 379 S.; V. Grønbech, Werke 1. Zeitwende; 2. Jesus der Menschensohn), Stuttgart 1942, 157 S.

ومن اللغة السويدية ترجم:
H. S. Nyberg, Die Religionen des alten Iran, Leipzig 1938, X, 506 S.; T. Andrae, Die letzten Dinge, Leipzig 1940, 2. Aufl. 1942, 240 S.

ومن الانجليزية:
A. D. Nock, Paulus, Zürich und Leipzig 1940, 203 S.; M. Rostovtzeff, Geschichte der Alten Welt, 2. Bde, Wiesbaden 1941—42, 500, 502 S.

ومن الإيطالية:
E. Rossi, Die Kulturarbeit Italiens im Nahen Osten, Der Nahe Osten, Jhg. 1, 8—9, 1940, 134—39.

ومن الروسية:
W. Barthold, Zur Geschichte der der pers. Epos, ZDMG Bd. 98, 1944, 121—57.

٩٤) E. H., Hans Heinrich Schaeder (Zu seiner Vorlesung am 4. Juni), in: Neue Zürcher Zeitung, Morgenausgabe 2. 6. 1928, Nr. 1007.

أنـّـو ليـتمان

(١٨٧٥ - ١٩٥٨)

بقلم : الأستاذ رُودي بَاريت

فى عام ١٩٥٨ ذكرت الصحافة والاذاعة فى كثير من التقدير رجلين شهيرين من أولدنبورغ مرات عديدة: وهما استاذ الفلسفة فى جامعة بازل كارل ياسپرز Karl Jaspers(١)، الذى بلغ آنذاك الخامسة والسبعين عندما منح جائزة السلام لهيأة تجارة الكتب الألمانية، واستاذ اللغات الشرقية فى جامعة توبنجن إينو ليتمان عندما وافته المنية عن اثنين وثمانين عاماً فى الرابع من مايو من ذلك العام. وقد غرس العالمان بشخصيتهما وأعمالهما قطعة من طبيعة ألمانيا السفلى فى الجنوب الغربى من البقاع الناطقة بالألمانية وجعلاها تشع على العالم كله من وطنهما الجديد. وكان كلاهما، رغم اختلاف وجهات نظرهما تماماً، يسعيان طيلة حياتهما إلى إدراك ماهو حقيقى واقع وإلى الاعتراف به فى واقعه هذا.

ولد إينو ليتمان فى السادس عشر من سبتمبر عام ١٨٧٥ لصاحب مطبعة فى اولدنبورغ. أما أمه فقد انحدرت من اسرة ألمانية فريزية. وفى مدينة أولدنبورغ نفسها قضى مع اخوته واخواته التسعة فترة شبابه الأولى. وبعد أن أنهى دراسته الابتدائية والثانوية وألم بالعبرية ومبادئ الإيطالية والعربية والسريانية والفارسية وتعلم الألمانية السفلى على يد عم له كان يعيش فى الريف، التحق فى الأعوام ما بين ١٨٩٥ و١٨٩٨ بجامعات برلين وكرايفزڤالد وهاله. وكان من اساتذته العالم بالعهد القديم إميل كاوتش Emil(٢) Kautzsch، والمؤرخ ادوارد ماير E. Meyer(٣)، واستاذ اللغات الألمانية أوتو بريمر Otto Bremer(٤)؛ وكان بينهم من المستشرقين استاذ اللغة الحبشية آوغست ديلمان August Dillmann(٥)، وفرانتز بريتوريوس Franz(٦) Praetorius، الخبير فى حقل علم اللغة الحبشية وقراءة النقوش السامية والنحو والوزن الشعرى العبرى، وأخيراً جيورج ياكوب Georg Jacob(٧)، واحد من اكثر ممثلى الاستشراق تعدداً فى الاهتمامات وخصوبة فى الأفكار واستقلالا فى الشخصية. وكان حب الطالب الشاب من نصيب اللغات الشرقية بوجه خاص. ولكن بما أن الاستشراق وحده لم يكن آنذاك أيضاً ليفتح المجال لمستقبل مضمون فقد اختار علم اللاهوت كفرع مهنى. وفى ربيع عام ١٨٩٨ اجتاز فى جامعة هاله امتحان التعليم الثانوى بمادتى اللاهوت والعبرية كفرعين رئيسيين، والألمانية واللاتينية والانجليزية كفروع ثانوية. ثم تقدم فى صيف العام نفسه لأداء الامتحان النهائى الوحيد فى الدراسات الشرقية وهو امتحان الدكتوراة فى الفلسفة استناداً إلى أطروحة حول الفعل فى اللغة التكرية. وفى شتاء ١٨٩٨/١٨٩٩ قضى ليتمان فصلا دراسياً إضافياً فى جامعة ستراسبورغ لدى المستشرق الأصيل الألمعى والعالمى فى الوقت نفسه تيودور نولدكه Theodor Noeldeke(٨)، جد زوجته فيما بعد.

وفى هاله تصادق مع الأمريكى الشاب W.K.(٩) Prentice، وهو طالب كان يدرس اللغات الكلاسيكية. ومن هذه الصداقة نشأت علاقة متينة بجامعة برنستون. وحصل على فرصة ثمينة وهى الالتحاق بعضوية حملة استكشافية أثرية لهذه الجامعة نفسها من ١٨٩٩ الى ١٩٠٠ فى اول رحلة أبحاث إلى سوريا وفلسطين. وفى عام ١٩٠١ استدعى ليحاضر فى برنستون، وفى عام ١٩٠٤ أوفد من هناك للمرة الثانية فى حملة استكشافية أمريكية إلى اثيوبيا، لكنه لم يمكث فيها حتى النهاية، إذ حصل من برلين أثناء طريقه فى تلك الرحلة على أمر مشرف وهو أن يترأس حملة استكشافية ألمانية برعاية الامبراطور ڤيلهلم الثانى إلى أكسوم.

وبينما مكث ليتمان فى اثيوبيا كرئيس لحملة اكسوم الألمانية هذه حصل عام ١٩٠٦ على استدعاء من جامعة ستراسبورغ ليشغل كرسى الدراسات الشرقية كخلف لاستاذه الذى احيل على التقاعد، تيودور نولدكه. ولبى هذا الاستدعاء بكل بهجة وانهى بذلك شطراً من حياته ملئ بالرحلات الاستكشافية. ومن عام ١٩٠٦ حتى تقاعده

عام ١٩٥١ ظل يعمل استاذاً نظامياً للدراسات الشرقية فى الجامعات الألمانية. وحتى عام ١٩١٤ ظل يدرس فى ستراسبورغ — مع فترتى انقطاع قضى الأولى منهما وهو يحاضر فى جامعة القاهرة الحديثة آنذاك، والثانية فى تركيا لحل رموز النقوش الليدية التى وجدت فى ساردس — وعمل من ١٩١٤ حتى ١٩١٦ كخلف لڤلهاوزن J. Wellhausen[١٠]، فى غوتنجن، ومن ١٩١٨ حتى ١٩٢١ كخلف لبيكر C. H. Becker[١١] فى بون، وابتداء من ١٩٢١ كخلف لزايبولد Chr. Fr. Seybold[١٢] فى توبنجن.

ومن جامعة توبنجن كان يمضى عدة مرات خلال الحربين إلى القاهرة والاسكندرية لالقاء محاضرات علمية وللاشتراك فى جلسات المجمع اللغوى فى القاهرة. ولكن وطنه الثانى ظل تلك المدينة الجامعية السوابية. وقد رفض أثناء عمله عروض من جامعات برلين وهايدلبرغ وميونيخ وبالتيمور و غوتنجن.

وكان اتجاهه الاختصاصى ضمن حقل الاستشراق الواسع نتيجة موهبة لغوية فردية هذبت منذ الصغر، وتأثير متواصل عميق الأثر من اساتذته المستشرقين ديلمان وبريتوريوس ونولدكه. وقد حدد هذا الاتجاه اكثر بعد إنهاء دراسته بفضل رحلاته الاستكشافية وما نجم عنها من مهمات ووجهات نظر خاصة. وقد تركز اهتمامه وجهده العلمى على فك رموز النقوش السامية. وكان يعمل بلا هوادة وفى دقة متناهية على حل النقوش التدمرية والنبطية والسريانية والعبرية والعربية والاثيوبية وشرحها. وقد عمل بخبرة متناهية كذلك على حل النقوش السبئية واليونانية واللاتينية والليدية وتفسيرها. ومن اهتماماته العلمية الكبيرة أيضاً حقل اللغات الحبشية الواسع الذى لم يتطرق إليه إلا القليلون. فبالإضافة إلى اهتمامه بالاثيوبية وهى اللغة الكلاسيكية اتجه إلى البحث فى اللغة الامهارية الحديثة وكذلك فى لغة غالا، والهررى وتيجرينيا وخاصة لغة تيجرى. ولم يقتصر فى ذلك على الحقل اللغوى البحت، بل عالج كذلك مسائل الوزن الشعرى والأدب («فن شعر الغالا» و«تاريخ الادب الاثيوبى») وأوضاع اثيوبيا الحديثة على اختلاف انواعها. وقد اهتم بوجه خاص بجمع الاشعار الشعبية والمواد الفولكلورية بوجه عام من البلاد التى كان يزورها أى من البقاع الناطقة بالحبشية والعربية، كما كان مهتماً بتقديم هذه المواد للقراء عن طريق ترجمتها ما وسعه ذلك. وهنا يكمن جانب هام آخر من جوانب نشاطه العلمى. فنحن مدينون إلى ولعه الشديد بالجمع والنشر فيما نملك اليوم من عدد كبير من النصوص العامية، العربية والحبشية،



Enno Littmann.

اينو ليتمان.
نشكر السيدة إلزا ليتمان بتوبنجن لإرسالها الينا هذه الصورة.

فى اللغات الأصلية أو بصيغ مترجمة. كما أن ترجمة ألف ليلة وليلة فى مجلداتها الست وفى لغة دقيقة واسلوب فنى رائع، يمكن كذلك أن تنسب إلى حقل اهتمامه وعمله هذا.

وإلى جانب كل ذلك فهناك عدد كبير من الحقول الجانبية التى أجرى ليتمان فيها بحوثاً علمية: كالعهدين القديم والحديث والاسلام واللغة التركية ولغة الغجر والألمانية السفلى وغير ذلك كثير. وإن فهرس المؤلفات الواسع الذى أعده انتون شال Anton Schall[١٣] والذى نشر عام ١٩٥٥ فى المؤلف التذكارى «قرن من الاستشراق» بمناسبة العيد الثمانين للمستشرق الكبير ليشير إلى اتساع وعمق اتجاهه العلمى. فكثيراً ما تحتوى متنوعاته الصغيرة معارف وتفسيرات لغوية هامة. وقد أفاد كثيراً وبوجه خاص فيما كان ينقده من الكتب بأسلوب واضح متحفظ نقاد. وأخيراً،

لا بد أن نذكر فى هذا الخصوص ايضاً عمله كمشرف على إصدار الفهرس الحبشى Bibliotheca Abessinica (من ١٩٠٤ حتى ١٩١١) ومجلة الدراسات السامية (من ١٩٢٢ حتى ١٩٣٤).

إن الكتب والمقالات التى ألفها ونشرها ليتمان خلال حياته المديدة ستخلد وتثمر فى الدوائر المختصة وغيرها أيضاً. ولكن صورة هذا العالم الكبير لن تتم إذا نسينا فيه الإنسان الحيوى النشيط. إذ لم يكن استاذ اللغات الشرقية فى توبنجن عالماً جافاً. بل إنه كان يتمتع بموهبة نادرة وهى قدرته على تمثيل النوادر والتجارب والمواقف التى شهدها أثناء ترحاله وتجواله بأسلوب تمثيلى بارع، وإعادتها من الذاكرة فى تصوير يكاد يشبه الحقيقة. وكان يسبغ بذلك جواً من الانفراج والمرح على طلابه وينقلهم بطريقة مسلية إلى أوساط شرقية خالصة. وكان فى الاحاديث الخاصة سيداً فى رواية النوادر والملح وفى تقليد اللهجات بفضل مواهبه اللغوية النادرة. وكان يحب العشرة المرحة الطبيعية بوجه عام، وخاصة فى الندوات الصغيرة. وكانت تربطه أواصر الصداقة بعدد كبير من الرجال حتى بعد فترة عزوبته. وبعد زواجه واصل عشرة أصدقائه فى إطار الأسرة، وراح يستقبل الزائرين القادمين من قريب وبعيد فى منزله الجميل فى شارع موريكه ويستضيفهم على الرحب والسعة. وكانت تروى الأقاصيص والأحاديث الذكية فى الأمسيات الطويلة أثناء تدخين الغليون أو السيجار واحتساء كأس من الخمر.

ولم يكن ليتمان يهوى الإفراط فى الكد. وكان متحفظاً فى الأمور الشخصية ويكاد يكون خجولا إزاءها. ولم يكن يتحدث كثيراً عما كان يثيره فى أعماق نفسه. ولكن طبيعته الأصيلة كانت تشع بوضوح لا غموض فيه جواً من الصفاء والجلال. وفى كثير من طيب العنصر وحب المساعدة والمسالمة والتواضع على غير جهل بقدره الحقيقى، أصبح المستشار السرى البروسى، ذو القامة المديدة والرأس الذى يشع تعبيراً وفكراً ثاقباً، أصبح مع مرور الأعوام والأجيال السيد الجليل الحقيقى للاستشراق الألمانى. وقد تعرف أثناء رحلاته الكثيرة على عدد كبير من البشر فى الشرق أيضاً. وبفضل قدرته على محادثة أهل البلاد بلغتهم الأصلية، وبفضل اهتمامه العلمى والانسانى بأعمالهم ومشاغلهم لم يكسب احترامهم واعجابهم الشديدين فحسب، بل ونال حبهم وصداقتهم أيضاً.

وخلافاً لمواطنه ياسپرز، لم يكن ليتمان يهتم بالفلسفة. كما أن القضايا اللاهوتية لم تثر اهتمامه رغم دراسته اللاهوتية. ويمكن اعتباره بشئ من التحفظ ابناً متأخراً من ابناء عهد التنوير العقلى وتابعاً من اتباع المذهب الوضعى. وكان دافع المعرفة العلمية لديه يشق من حيث المبدأ سبيل الطريقة الاستقرائية. وكان يهتم بالدرجة الأولى بالحقائق القائمة سواء كانت نقوشاً أم أشكالا لغوية أم مواد فولكلورية. فكان يسعى إلى ايضاحها وتفسيرها متجنباً بقدر ما وسعه أن يضيع فى التأملات التاريخية الفكرية. ولذا فانه لم يكن كذلك مؤرخا حقيقياً رغم إعجابه الشديد فى سنوات دراسته بإدوارد ماير ويوليوس ڤلهاوزن فيما بعد. وحتى فى حقل أبحاثه الخاص قلما وجد نفسه مستعداً لتقديم ابحاث تركيبية شاملة. ولم يتمكن من تنفيذ مشروعه الذى اعلن عنه طويلا وهو تأليف كتاب فى قواعد اللغة الاثيوبية. ولكن بسبب طريقة عمله الحذرة والهادفة إلى إيضاح الحقائق والمتون وتفسيرها ظلت نتائج أبحاثه صامدة أمام النقد والطعن.

وبسبب الانجازات الكبيرة التى حققها إينو ليتمان تجاوز تقديره وشهرته حدود ألمانيا وتعداها إلى الدول الأوروبية الأخرى والولايات المتحدة والشرق الأدنى. وكان يحمل درجة الدكتوراه الفخرية فى اللاهوت من جامعة هاله، والدكتوراه الفخرية فى الفلسفة من جامعة القاهرة، وكان عضواً فى المجامع العلمية فى برلين وغوتنجن وماينز وأمستردام وبروكسل والقاهرة وكوبنهاجن وباريس وروما، كما كان عضواً فخرياً فى الاكاديمية العلمية فى ڤيينا، والرئيس الأول ثم العضو الفخرى لجمعية المستشرقين الألمانية، وكان فارس مرتبة السلام فى نظام pour le mérite وحائزاً على اوسمة أجنبية رفيعة. ومن الطبيعى أن هذه الأمجاد لم تلق فى نفسه الرفض، ولكنه كان يتلقاها بالتواضع المعروف عنه، ولم يحاول أن يتباهى بها قط. وكانت رغبته الأخيرة أيضاً أنه يود حين سيحين الأجل أن يغادر العالم والحياة بهدوء، تماماً كما جاءهما بهدوء. وقد تمت مراسيم إحراق جسده ومباركته فى أضيق دائرة من أفراد عائلته وبعض أصدقاء الأسرة. وبسيرة بسيطة مختصرة كان قد كتبها بنفسه لهذه المناسبة، وقد قرئت فى هذا الاحتفال الجنازى العائلى الضيق، تكلم بطبيعته المتكاملة المتناسقة لآخر مرة. إن هذا العالم العظيم ليستحق الخلود ببساطة ودون تزوير فى ذاكرة جميع من تعلموا منه، ومن كانوا مقربين إليه، ومن قدروه وأجلوه.

ترجمة: محمد على حشيشو

تعليقات

١) كارل ياسبرز (Karl Jaspers): فيلسوف معاصر ولد فى ١٨٨٣/٢/٢٣ فى اولدنبورغ، وأصبح استاذاً فى هايدلبرغ وبازل. وبدأ حياته كطبيب نفسى، وما لبث أن أصبح مع هايدجر مؤسس الفلسفة الوجودية.

٢) إميل كاوتش (Emil Kautzsch): عالم لاهوتى بروتستانتى ولد عام ١٨٤١ فى پلاون وتوفى عام ١٩١٠ فى هاله. واصبح استاذ العهد القديم فى بازل عام ١٨٧٢، وفى توبنجن عام ١٨٨٠ وفى هاله عام ١٨٨٨.

٣) إدوارد ماير (E. Meyer): مؤرخ عاش بين ١٨٥٥ و١٩٣٠.

٤) أوتو بريمر (Otto Bremer): من علماء اللغة الألمانية ولد فى شترالزوند عام ١٨٦٢ وأصبح استاذاً للغة الألمانية فى هاله عام ١٩٠٥.

٥) آوغست ديلمان (August Dillmann): مستشرق وعالم لاهوتى بروتستانتى. ولد فى ولاية ڤورتنبرغ بألمانيا فى ١٨٢٣ وتوفى فى برلين عام ١٨٩٤. عين عام ١٨٥٤ استاذاً فى كيل، وعام ١٨٦٤ فى غيسن، وعام ١٨٦٩ فى برلين. برز فى أبحاثه فى اللغة الاثيوبية، كما ألف عدة شروح لكتب العهد القديم.

٦) فرانتز بريتوريوس (Franz Praetorius): عالم باللغات السامية ولد فى برلين عام ١٨٤٧ وتوفى فى بريسلاو عام ١٩٢٧. أصبح استاذاً فى بريسلاو عام ١٨٨٠ وفى هاله عام ١٨٩٣. وقد نشر ابحاثا علمية تتناول اللغة الحبشية وتفسير النقوش السامية وقواعد اللغة العبرية وأوزانها الشعرية.

٧) جيورج ياكوب (Georg Jakob): مستشرق مختص باللغة التركية وعلوم الاسلام، ولد عام ١٨٦٢ وتوفى عام ١٩٣٧. أصبح منذ عام ١٩١٢ استاذاً للغات الشرقية فى جامعة كيل واهتم خاصة بدراسة التصوف واصحاب الطرق كالبكتاشية. وله مؤلف طريف وهام حول تاريخ مسرح العرائس وخيال الظل فى الشرق والغرب (انظر فكر وفن، العدد ١١).

٨) تيودور نولدكه (Theodor Nöldeke): بشأن هذا المستشرق الكبير راجع المقالة المنشورة فى فكر وفن، العدد ٩، الصفحة ٣٣.

٩) و. ك. پرينتس (W. K. Prentice): عالم اميركى، اختصاصى فى اللغات الكلاسيكية، ولد عام ١٨٧١.

١٠) يوليوس ڤلهاوزن (J. Wellhausen): مستشرق وعالم لاهوت پروتستانتى، ولد فى هاملن عام ١٨٤٤ وتوفى فى جوتنجن عام ١٩١٨، ويعتبر أهم عالم مختص بالعهد القديم فى القرن التاسع عشر. أصبح استاذاً للاهوت فى غرايفزڤالد عام ١٨٧٢، واستاذا اللغات الشرقية فى هاله عام ١٨٨٢، ثم فى ماربورغ عام ١٨٨٥، وفى جوتنجن عام ١٨٩٢. له مؤلفات وأبحاث عظيمة فى اللاهوت وتاريخ العهد القديم. وكمستشرق بارز اكتشف فى الأناجيل آثاراً ذات اصول آرامية. وكعالم باللغة العربية وعلوم الإسلام فقد شرح ڤلهاوزن «بقايا الوثنية العربية» وألف أول تاريخ نقدى للفترة الإسلامية الأولى فى كتابه «الامبراطورية العربية وسقوطها»، كما ألف أيضا كتاب الأحزاب الدينية السياسية المعارضة فى بواكر عهد الاسلام. (انظر فكر وفن، العدد ١٣)

١١) كارل هاينرش بيكر (Carl Heinrich Becker): مستشرق وسياسى بروسى، ولد فى امستردام عام ١٨٧٦ وتوفى فى برلين عام ١٩٣٣. وقد عمل استاذاً فى هايدلبرغ وهامبورغ وبون وبرلين. وعمل منذ عام ١٩١٦ فى وزارة الثقافة البروسية وأصبح من عام ١٩٢٥ حتى ١٩٣٠ وزيرا للثقافة. ومن أعماله كوزير للثقافة إصلاح نظم التعليم الجامعى وتأسيس الأكاديميات التربوية واكاديمية الشعراء. ومن أهم مؤلفاته فى حقل الاستشراق «مقالات وبحوث فى تاريخ مصر فى العهد الإسلامى، (مجلدان، ١٩٠٢–١٩٠٣) و«دراسات إسلامية» (مجلدان، ١٩٢٤–١٩٣٢)، وتولى منذ عام ١٩١٠ إصدار مجلة «الإسلام» الألمانية المعروفة.

١٢) زايبولد (Chr. Fr. Seybold): ولد عام ١٨٥٩ وكان استاذ اللغات السامية فى جامعة توبنجن، وقد حقق ونشر آثار ابن أنبارى، كما أصدر القاموس اللاتينى – العربى وغير ذلك من المصنفات العربية الكلاسيكية. توفى عام ١٩٢١.

١٣) أنتون شال (Anton Schall): استاذ اللغات السامية وعلوم الاسلام فى جامعة هايدلبرغ ومن المستشرقين المعاصرين الألمان المعروفين. من مؤلفاته الهامة «دراسات حول المفردات اليونانية فى اللغة السريانية» وكتاب «حول فن الشعر الاثيوبى».

ليتمان استاذاً وأباً

بقلم مراد كامل

قال الدكتور طه حسين فى حفل تأبين الاستاذ ليتمان بمجمع اللغة العربية: «وما أنسى فلن أنسى الاستاذ ليتمان حين لقيته فى مؤتمر من مؤتمرات المستشرقين، فى مؤتمر ليبزج، وكنت ألقى حديثى فى هذا المؤتمر، وإذا الاستاذ ليتمان – وكان رئيس الجلسة فى ذلك اليوم – يبكى بكاء شديداً، كأنه تأثر أن يرى تلميذه يتحدث بين يدى هذا الجمع من العلماء المستشرقين الذين أقبلوا إلى هذا المؤتمر فى ليبزج.

كانت إذن بين ليتمان وبينى هذه المودة التى تكون بين الآباء والابناء».

ومن المعروف ان الدكتور طه حسين والمرحوم الاستاذ على عبد الرازق كانا من تلاميذ الاستاذ ليتمان فى الجامعة المصرية القديمة، والتى كان ليتمان عميداً لكلية الآداب بها فترة من الزمان، كما كان الأمير أحمد فؤاد (الملك فؤاد فيما بعد) مديراً لها.

والواقع أن ما أحس به طه حسين وعبر عنه بهذه الكلمات، وهو من الرعيل الأول من تلاميذ ليتمان، أحسسنا به نحن فيما بعد، ولمسناه من معاملة الاستاذ الأب.

كنا نحيط به فى منزله فى قاعة من قاعات مكتبته نستمع اليه يحاضرنا، يرعى كل منا بعطف خاص. وأذكر انى

حين حضرت من مصر اليه كنت أجهل الألمانية تماما، وكان يزاملنى أحد الاسبان، وهو يجهل الالمانية ومعنا طالب ألمانى. وكنا نقرأ النص الاثيوبى عليه يترجمه الالمانى بالالمانية والاسبانى باللاتينية وأنا بالعربية.

كان لى زميل أجنبى يحضر رسالة الدكتوراه على الاستاذ ليتمان، وأتى اليه يوماً يبكى ويذكر له أن حكومته قد انهت بعثته وأنه يريد أن يتقدم إلى الدكتوراه خوفا من أن يعود الى بلده دون الحصول على شهادته. وكان ليتمان يعرف أن بينه وبين إتمامها بعض الوقت، وتحركت عاطفة الأبوة وتغلبت على موقف الاستاذية فقبل الرسالة. ولما تبين له أن الطالب استغل ما عرف عن ليتمان من عطف على أبنائه الطلبة، لم يغضب وانما أضاع من وقته الثمين فيما بعد حوالى الخمسمائة ساعة، يصحح الرسالة حتى تطبع على الوضع العلمى اللائق.

ذكرياته

اعتاد ليتمان أن يدعو طلبته فى آخر كل فصل دراسى على حفل عائلى فى منزله، وكان يقص علينا من ذكرياته الكثيرة. أذكر وهو يتحدث عن استاذه نولدكه، أن نولدكه كان يدعو طلبته أيضاً فى آخر كل فصل دراسى وكان يقابلهم فى منزله بسترة المنزل، ويلاحظ ليتمان أنه كان يجد أزرار هذه السترة تنقص زراً كل عام حتى لم يبق فيها من الازرار شئ عام وفاته.

ويحدثنا عن الملك فؤاد أنه كان يتحدث معه بالايطالية بطلاقة ولكن بلهجة روما.

ويذكر أنه كان فى صحراء الشام ومر بخيمة منعزلة ورأى ثلاثة أطفال يلعبون خارجها، وما كانت أشد دهشته حين سمع الأم تنادى أطفالها من الداخل وتحدثهم بلهجة ألمانية سويبية Schwäbisch.

هل المصرى سُبّه؟

كنت اسكن فى توبنجن فى غرفة فى الشارع الرئيسى، وكان اليوم صيفاً، وأنا جالس إلى مكتبى. وفى غرفة مجاورة تحيط بنوافذها زهور الجارونيا وقفت صاحبة المنزل تسقى الزهور. وسقط بعض الماء على عامل بورشة اصلاح السيارات فى أسفل المنزل فأخذ يسب. وأطلت صاحبة المنزل من النافذة ورأت العامل فقالت له: «يا مصرى»، ثارت ثائرته وأخذ يسبها ويلعنها.

ولم أصدق أذنى بادئ الأمر، فذهبت إليها أسألها اذا كنت ما سمعته صحيحا، وهل قالت له يا مصرى؟ فقالت نعم هذا من قرية بفيفنجن Pfäffingen ونلقبهم بالمصريين.

فعجبت لهذا وأخذت أسأل عن بفيفنجن وهى قرية من توبنجن يجرى فى واديها رافد من روافد نهر النكر يسمى الأمَرْ وعرضه لا يزيد عن المتر، ويمر السائر الى هناك على جسر خشبى يسميه الاهالى جسر قناة السويس، ووجدت وادى الأمَرْ جهة بفيفنجن متسعاً اتساعا لا يتفق مع ضيق النهر الصغير.

وساءلت نفسى، هل مر من هنا بعض الغجر، وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم المصريين (جبسى)؟ ولكنى وجدت الناس هناك من الالمان الصرف وسحنتهم ألمانية، وليس بهم ما يدل على دم غجرى دخل عليهم.

وذهبت إلى الاستاذ ليتمان، وقلت له أنت تحب الآداب الشعبية وتعشقها، فهل لك أن تشرح لى معنى هذا؟ وكيف اصبحت عندكم كلمة «مصرى» سبة؟

ولم تمض الا أيام حتى جاء متهللا، فقد توصل إلى كشف السر، وتعليل أصل الموضوع. فوجد أن رافد الأمَرْ ضيق جداً وهو يجرى تحت الشوارع فى توبنجن، بينما نهر النكر متسع. ووجد أن حوض نهر النكر فى هذه المنطقة ضيق جدا، بينما وجد أن حوض الأمر فى بفيفنجن متسع وخصب. وقد سمى الطلبة فى توبنجن الأمر على سبيل الدعابة نهر النيل، وبطبيعة الحال الأرض التى يجرى فيها الأمَر هى مصر أى بفيفنجن، وسمى الناس سكانها بالمصريين.

هذا هو تعليل الاستاذ ليتمان لمسألة معقدة غامضة، تدل على أنه كان ثاقب النظر فى كل ما يتعلق بحياة الشعوب وتفكيرهم.

سرعة خاطره

ذهبت مع الاستاذ ليتمان إلى أحدى المكتبات فى حى من أحياء القاهرة القديمة، وكان يريد أن يشترى بعض الكتب، وأخذ يناقش صاحب المكتبة فى الثمن. فقال له صاحب المكتبة انت خواجه ومعك من النقود ما يكفى أن تدفع القيمة التى طلبتها منك. فرد عليه الاستاذ ليتمان على البديهة مداعباً، ابداً، أنا حتى ساكن فى درب المفلسين. فظن صاحب المكتبة أن هناك دربا يسمى درب المفلسين يسكنه من لا مال عنده، فرق لحاله وتجاوز له عن نصف قيمة الكتب.

كان الاستاذ ليتمان فى طريقه إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة وكنت أصحبه، وكان عليه فى هذا اليوم أن يناقش

رسالة دكتوراه عن الف ليلة وليلة للدكتورة سهير القلماوى. وبينما كان فى طريقه الى دخول الكلية بالجيزة، قابله ساعى مدير الجامعة واسمه عبد العاطى وكان يعرف الاستاذ ليتمان منذ أن كان عميدا فى الجامعة القديمة، فبادره بالتحية، فقال له ليتمان ملاطفاً يا عبد العاطى أنا اليوم مسرور جداً لأنى امتحن بنت ابنى يقصد سهير القلماوى وهى تلميذة الدكتور طه حسين الذى يعتبره ليتمان من أبنائه. فرد عليه عبد العاطى يا استاذ ليتمان مصر مليئة بأولادك واولاد أولادك. فقال له ليتمان أخفض صوتك حتى لا تسمعك زوجتى وتصدق ما تقوله، وتخاف أن لا يبقى لها من الميراث شيئا.

طلبت اليه فى الاحتفالات باليوبيل الفضى لجامعة القاهرة صورة فوتوغرافية وكان قد بلغ الخامسة والسبعين من عمره، لأن الجامعة كانت قد كلفتنى بالكتابة عنه نبذة تنشر فى كتاب البوبيل الفضى، وهو ذكرى مرور ٢٥ عاما على انشاء الجامعة، فأعطانى صورة له وهو فى سن الستين. فقلت له هذه صورتك وانت فى الستين، فرد على قائلا انشر هذه الصورة، لأنى لا اريد أن يتذكرنى الناس بعد موتى باكثر من هذه السن وهذا الشكل والسحنة.

ملاحظات ثاقبة

كنت فى برلين وارسل لى الاستاذ ليتمان خطابا يطلب منى الرد على بعض المسائل. وتأخرت فى الرد عليه. ولما حضرت إلى توبنجن وقابلته أخذ يعتذر عنى لتأخرى فى الرد عليه لكثرة مشاغلى وقال لى أنى نظمت أوقاتى بأن خصصت يوم الاثنين من كل اسبوع للرد على البريد وبهذا أنهى ما على أولا بأول. وكانت هذه طريقته فى التوبيخ والتوجيه، وذلك فى رفق ورقة.

وبهذه المناسبة أذكر أنه فى يوم من أيام شهر يونيه الحار وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر، دعا الاستاذ ليتمان طلبته فى نهاية الفصل الدراسى إلى حفل شاى — كما تعود ذلك .. واجتمع الطلبة والطالبات واذا أحد الطلبة الاجانب وقد دخل علينا يلبس السموكنج وعليه كرافتة حمراء طويلة، فكتمنا ضحكنا، وفهم الاستاذ ليتمان من بريق أعيننا ما يدور بخلدنا من نقد واستفهام. فلما استوى بنا المجلس أخذ يتحدث — فيما تحدث — عن عادات الشعوب المختلفة فى لبس لباس السهرة وغير ذلك من أنواع اللباس فى المناسبات المختلفة، ويقص ما حدث له هنا وهناك، وهو فى ذلك كله يريد أن يلقن صاحبنا درساً، بدون أن يوجه اليه الكلام. وعلى أى حال لم يظهر صاحبنا بهذا المظهر فيما بعد فى أى حفل من الحفلات.

كان من سوء حظى أن أبدأ بدراسة اللغة الألمانية فى توبنجن، وزاد الطين بلة أن النص الذى بدأت أدرسه وأترجمه، كان مقدمة كتاب قواعد اللغة الاثيوبية لديلمان. وتبدأ المقدمة بجملة فى أول الصفحة وتنتهى عند ثلث الصفحة الأخير، ويتخللها جمل اعتراضية وجمل موصوله وما إلى ذلك مما هو معروف بطريقة كتابة العلماء الالمان فى القرن الماضى، والمتأثر باسلوب الكتابة اللاتينية فى العصور الوسطى. والحقيقة أن هذه البداية فى تعلم الالمانية قد كونت عندى عقدة نحو الالمانية وصورت لى اللغة الالمانية بأنها صعبة المنال، معقدة الاسلوب، لا سبيل إلى معرفتها مهما بلغت من سحر هارون أو حكمة سليمان.

وسألنى الاستاذ ليتمان عن حالى فى دراسة الالمانية وما احرزته من تقدم فى معرفتها. فقلت أدور منذ شهرين عند جملة واحدة، وشرحت له ما ألاقيه من عقبات وما أواجهه من صعوبات. فقال لى لا تيأس، ودخل معى إلى مكتبته ووقف حيث وضع ترجمة الف ليلة وليلة. وقال أتعرف كيف أمكننى أن أنهى هذه الترجمة فى وقت قصير، وعلى خير وجه؟ طريقة واحدة، ومنهج واحد يجب أن يضعه المترجم نصب عينيه: وهو أن يقسم الجملة الطويلة إلى جمل قصيرة، وبهذا يصل إلى هدفه فى اسلوب سهل ممتع، مفهوم من القارئ، به رقة وأناقة. وكان هذا هو الطريق الذى سلكته فى ترجمة الف ليلة وليلة. وأصبح هذا الدرس نبراساً لى فى حياتى حين أترجم وحين اكتب أيضاً.

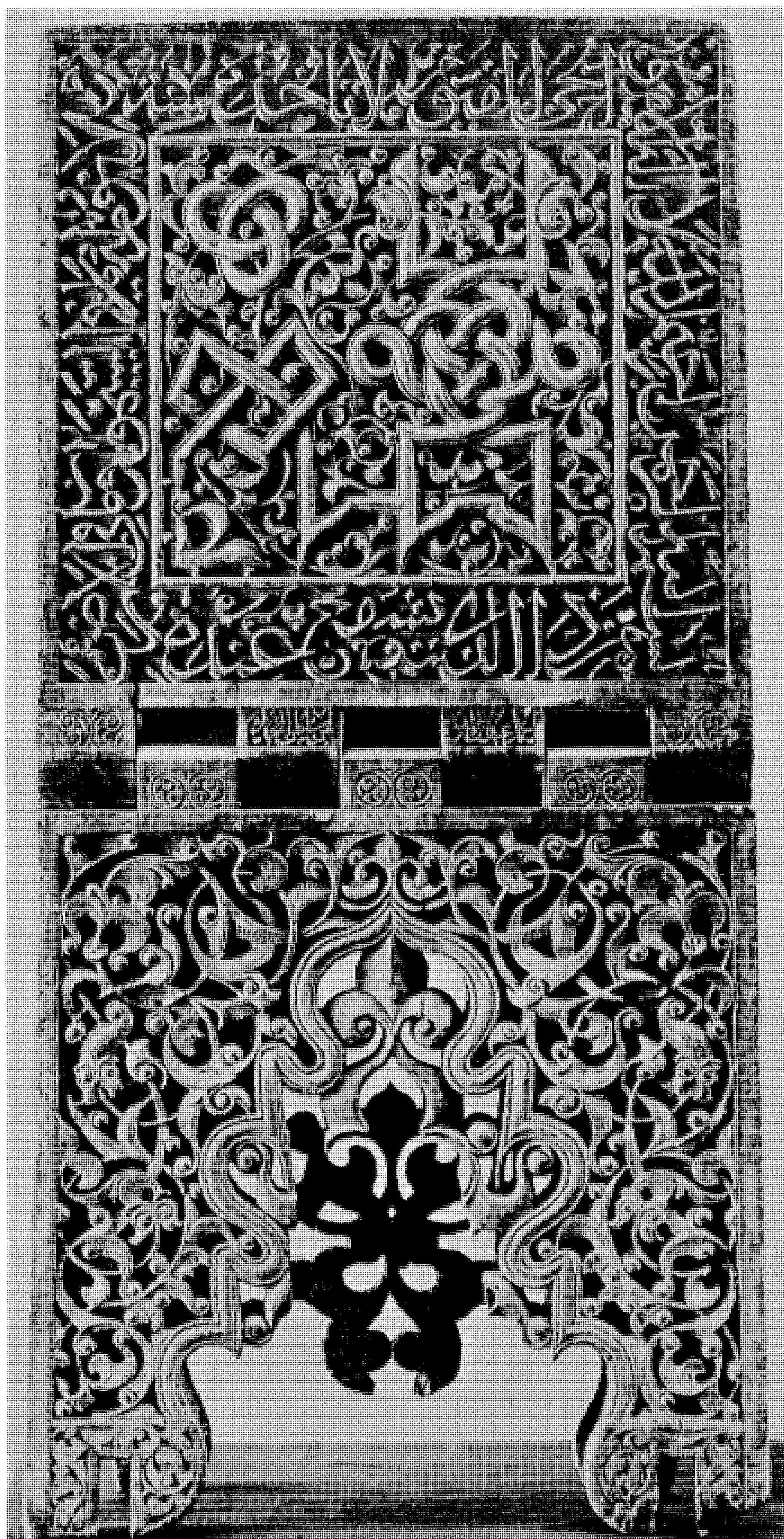
يقول الاستاذ ليتمان كنت فى أكسوم فى اثيوبيا فطلبت من أحد العمال أن يأتينى بحجرة وأشرت على حجرة كبيرة وتلفت العامل حوله وقال للاستاذ انى لا أرى حجرة، وأنما ما أراه حجراً، لأن الحجر كبير والحجرة صغيرة. وقد نبهت هذه العبارة الاستاذ ليتمان — كما يقول — أن التاء هنا ليست للمؤنث أو للوحدة وانما هى للتصغير. وقد ذكرت له أن هذا الاستعمال شائع أيضا فى العربية الحديثة. وجعله هذا يفكر فى الكثير من اسماء الاعلام العربية القديمة للذكور التى تنتهى بالتاء هى فى الواقع ليست مؤنثة، بل هى نوع من التصغير لم تأخذ به اللغة العربية ولا اللغات السامية. وهذا النوع موجود فى بعض لغات جنوب افريقيا، فى لغة الناما مثلا، وفيها تقسم الاسماء الى أقسام مختلفة يدخل الكبير تحت قسم المذكر،

والصغير يتدرج تحت المؤنث، ولهذا كان فى هذه اللغة ثدى المرأة مذكراً لأنه «كبير»، وثدى الرجل مؤنثاً لأنه «صغير». والواقع أن هذه الملاحظة العابرة التى ذكرها الاستاذ ليتمان نبهتنى لكثير من أشباهها فى دراسة اللهجات العربية الحديثة.

اهتم الاستاذ ليتمان بدراسة أسماء الاعلام وألف فيها، لأنه كان يرى أن العالم يمكنه أن يستخلص كثيرا من الدراسات الاجتماعية والتقاليد من خلال الاسماء. ويقص علينا أنه حين كان فى رحلة من رحلاته فى جنوب صحراء الشام للكشف عن النقوش الصفوية والثمودية واللحباشية، قابل أحد البدو، فسأله عن اسمه، فقال اسمى سكران، فسأله الاستاذ ليتمان متبسطاً معه: سكران من شرب أى نوع من الخمر؟ فرد عليه على الفور: لا أنا سكران من دم الاعداء. يقول الاستاذ ليتمان فتذكرت ما يقول العرب قديما: إن أسماء عبيدنا لنا، وأسماءنا لاعدائنا.

فى رحلة من رحلات الاستاذ ليتمان الكشفية جنوبى حوران، كان قد حصل على خارطة جغرافية للمنطقة وضعها أحد الضباط الانجليز. وقرأ على الخارطة اسماً لواد من الأودية أطلق عليه «وادى الويسكيات». وشعر الاستاذ ليتمان أن الاسم الحقيقى لهذا الوادى اختلط على الضابط البريطانى مع الويسكى. وحاول أن يصل إلى الخطأ الذى وقع فيه الضابط فلم يسعفه التخمين. وصمم الاستاذ ليتمان أن يتحمل مشقة السفر إلى هذا الوادى حتى يكشف عن اسمه الأصلى. وحين وصل إلى المنطقة أخذ يسأل البدو هناك عن اسم الأودية التى تقع فى هذه المنطقة أو على مقربة منها. وما كانت أشد دهشته اذ علم أن الوادى الذى سماه الضابط البريطانى بالويسكيات هو وادى العُوَيْسجات.
وأنى أنهى حديثى بقصة وقعت بينى وبين الاستاذ ليتمان تدل على عظمته العلمية وروحه الأكاديمية ومعاملته الابوية.
أنكر ليتمان كما أنكر غيره من العلماء مثل كونتى روسينى وماريو مورينو، وجود أى نوع من الاوزان فى الشعر الاثيوبى. ولما ذهبت إلى اثيوبيا على رأس البعثة التعليمية المصرية، وتوليت مركز المستشار الفنى لوزارة المعارف الاثيوبية، تهيأت لى الفرص أن أقابل عدداً من العلماء الاثيوبيين. وخطر ببالى أن أنظم بعض الاشعار الأثيوبية من القنى، وعرضتها على العلماء الاثيوبيين، فقالوا لى إن الأشعار ليست سليمة. وسألتهم عن السبب، فقالوا لا ندرى سببها، وانما هى مخالفة لما تعودناه وألفناه.
وفكرت فى أن الشعر الاثيوبى، لابد أن يكون له من الوزن ما لا نعرفه، وما لا يعرفه الاثيوبيون أيضا. وهم يقرضون الشعر بحسب السماع ولم يسبق لهم أن درسوا الاوزان لا عن قرب ولا عن بعد، وانما يحسون بالصحيح منها وغير الصحيح. وقدرت أن تكون الاوزان تخالف كل ما نعرفه من أوزان فى اللغات المعروفة. وهذا ما حدا بعلماء الغرب وفى مقدمتهم ليتمان أن ينكروا وجود الاوزان فى الشعر الاثيوبى.
وبدأت بدراستى فى القنى وهو لون من ألوان الشعر الاثيوبى وهو على ثلاثة عشر نوع وكل نوع على ضروب، وتوصلت — كما خيل إلى — إلى نتيجة ايجابية.
ولكن ساورتنى الشكوك، وترددت أن أعلن على الناس ما أنكره اساتذتى من قبل. وظننت أنى جاوزت حدود المنطق العلمى إلى الخيال.
وانتظرت حتى أتى الاستاذ ليتمان إلى القاهرة فى الربيع يحاضر فى كلية الآداب. فقلت له هل لى أن أسألك معروفاً. فقال هات ما عندك. قلت فلنجلس جلسة طويلة على النيل، وذهبنا إلى حيث الهدوء، وأخذت أقص عليه قصتى، وأعرض عليه نتيجة عملى. وتوقعت أن يفض المجلس بملحة من ملحه أو نادرة من نوادره، وينهى بذلك أمر خيالى. ولكنه على العكس مما توقعت، هنئنى على هذا الكشف — كما قال — وشجعنى على الاستمرار فى بحثى، وطلب إلى أن أقوم بعرضه فى مؤتمر المستشرقين فى باريس وكان يحضر الجلسة — على غير علم منى — كونتى روسينى ومورينو.
وذكر ليتمان هذا البحث فى عرضه للدراسات الاثيوبية، كما وجه الاستاذ شال Schall فى أن يجعل من هذا البحث رسالته للأستاذية Habilitation.
هذا كله يدل على معاملة ليتمان لتلاميذه، وعلى عظمته العلمية كما قلت. فلم يؤثر عليه أن يعارض تلميذه رأيه، بل شجعه على أن يمضى فيه. ثم فاخر هو بما انتجه تلميذه وسر له ورحب به.

تلقى العلم على الاستاذ ليتمان فى مصر وفى المانيا عدداً غير قليل من الطلبة العرب. وقد أمدهم ليتمان بعلمه الغزير، وبذل معهم جهداً كبيراً، وضحى بوقته، وفتح بيته ومكتبته لابنائه من العرب، ولم يقبل على عمله أجراً أو هدية.
ونحن حين نلتقى بالطلبة الالمان الذين يقومون بالبحث والدرس فى جامعاتنا، فاننا نعطيهم ما نستطيع إعطاءه، ونبذل ما نقدر عليه من جهد، وفاء لبعض ما أسداه إلينا أساتذتنا فى المانيا.



شيخ المستشرقين الألمان :

هلموت ريتر

(١٨٩٢ - ١٩٧١)

بقلم : الأستاذة أنا ماري شِمّل

فقد الاستشراق الألمانى واحدا من كبار شيوخه. توفى هلموت ريتر فى التاسع عشر من شهر مايو عام واحد وسبعين وتسعمائة بعد الألف عن تسعة وسبعين عاما.

ليس بالامكان أن نحيط بقدر هذا العالم الفذ وقيمته العلمية والانسانية فى عجالة قصيرة كهذه. فأولئك الذين تعاونوا معه عرفوا عنه اتساع ميادين اهتماماته، وحدة ذكائه، فضلا عن ارتفاع مستوى ملكاته الفنية. أما الذين تتبعوا ما نشر فى ميدان الاستشراق الأوربى خلال العقود الخمسة الأخيرة فقد لاحظوا ولاشك تطرق ريتر إلى بحث عدد كبير من الموضوعات فى مختلف تيارات التخصص. كما أنه لم تصدر عنه دراسة واحدة، مهما كان حجمها محدودا، إلا وكانت تعتمد على مراجع غزيرة من أقدم وأوثق المصادر العلمية.

ولد هلموت ريتر فى ٢٧ فبراير ١٨٩٢ بالقرب من «كاسل» (مقاطعة هسن). وقد صار فيما بعد كل من أشقائه الخمسة الذين نشأ وترعرع معهم عالما ذائع الصيت والمكانة.

أدى هلموت ريتر خدمته العسكرية أثناء الحرب العالمية الأولى فى الجيش الألمانى بتركيا. وقد انتهز هذه الفرصة ليجمع من العراق خاصة قدرا كبيرا من المواد اللازمة للقيام ببحوث أنثروبولوجية ولغوية. وكان عنوان أول انتاج كبير له هو «قاموس عربى لعلوم التجارة». وفى جامعة هامبورج بدأ يحاضر للمرة الأولى فى معهد الدراسات الشرقية الذى كان قد أسسه الوزير البروسى «كارل هاينريش بيكر». ورغم أنه كان من أصغر محاضرى ذلك المعهد سنا، إلا أنه كان معروفا بشدته المتناهية ودقته العلمية الفائقة، مما جعل له رهبة خاصة فى نفوس الدارسين. ولقد حدثت به ملابسات شخصية إلى الرحيل إلى استانبول فى نهاية العشرينات حيث أقام عشرين عاما وصار من أقدر العارفين بالمخطوطات الاسلامية المتوفرة فى تلك المدينة. فمن كان بحاجة إلى معونة أو مشورة بشأن مخطوطة تركية أو عربية أو فارسية ولجأ إلى ريتر وجد فيه خير مرشد وخبير.

عاد ريتر إلى ألمانيا بعد نهاية الحرب العالمية الأخيرة وحاضر عدة أعوام فى جامعة فرانكفورت التى تتلمذ فيها على يديه عدد كبير من الدارسين الألمان وغير الألمان، فكان عليهم جميعا أن يتمرسوا بشدته وأمانته العلمية القصوى.

عاد ريتر مرة أخرى إلى استانبول خلال الخمسينات، وإن ظل يشكو المرض طوال الأعوام الأخيرة من حياته. حياته التى لم يفقد متعة العمل يوما واحدا فيها ولو كان يومه الأخير. وقد قضى لحظاته الأخيرة فى داره الأنيقة الكائنة بضاحية «أوبر أورزيل» التابعة لفرانكفورت/ماين.

لو تأملنا الآثار العلمية التى خلفها ريتر لتبينا اتساع رقعتها وضخامة مكانتها خاصة وأنها تعالج قدرا هائلا من موضوعات الحضارات الاسلامية كما أنها تربط مختلف ميادين الاستشراق بعضها بالبعض الآخر. فريتر هو الذى حقق أثناء إقامته فى تركيا نصوص تمثيليات القراقوز وترجمها إلى الألمانية بمهارة فائقة، حتى أنه استطاع فى هذه الترجمات أن يوجد مضاهيات ألمانية شعبية لكل لعب لفظى وارد فى الأصول الشرقية. وقد كرس هذا العالم نفسه فى أواخر حياته لبحث لهجة سريانية حديثة والترجمة عنها إلى الألمانية وتحليلها بغية انقاذ لغتها وأدبها اللذين فى سبيلهما إلى الانقراض. وهو نفسه الذى قام بتحقيق علمى نموذجى لـ«مقالات الاسلاميين» للأشعرى، فضلا عن إصداره مصنفات «المكتبة الاسلامية» Bibliotheca Islamica فى الغرب طيلة عشرات السنوات، وتقديمه للشعر الفارسى فى أوربا أجمل وأروع تقديم. ويعد الكتيب الذى ألفه بالألمانية «حول اللغة التصويرية عند نظامى» (١٩٢٧) أثرا قيما لكل مهتم بالشعر الفارسى إذ يعرض فى صفحات



قليلة خصائص شاعرية اللغة الفارسية كما لا يعرضها عمل آخر. وفى عام ١٩٣٠ قام ريتر بالتعاون مع المستشرق التشيكوسلوفاكى الشهير يان ريبكا فى تحقيق نص رائعة نظامى «هفت پيكر» (الصور السبع).

إنه لمن الصعب حقا تعيين الأثر الرئيسى الذى خلفه ريتر. ولقد صدرت دراساته المتصلة للمخطوطات الشرقية عبر عشرات السنين فى مجموعة مسلسلة من المقالات التى نشرها أول الأمر فى مجلة «الاسلام» Der Islam الألمانية ثم بعد ذلك فى مجلة «أورينس» Oriens التى كان هو مؤسسها. وكانت هذه السلسلة من الأبحاث المنشورة تحمل عنوان «لغويات» Philologika حيث يقف قارئها على قدر هائل من المواد حول المخطوطات التى تتناول لونا معينا من الموضوعات خاصة ما تعلق منها بتاريخ التصوف الاسلامى. ومن ذلك دراسته عن مولانا جلال الدين الرومى الذى عرف فيها الغرب بحلقات أتباعه ومريديه. وله دراسة أخرى عنوانها «السهرورديون الأربعة» Die vier Suhrawardis قدم فيه كبار متصوفى الاسلام فى القرن الثانى عشر. كما أن له آثارا أخرى تعالج قضايا اللغة العربية أو تتعرض لأصول الاسلام والعقيدة الاسلامية. وقد انكب ريتر فى أواخر أيامه على مخطوطات أحب المتصوفين الفارسيين إلى قلبه: فريد الدين العطار. الذى حقق له نص كتابه «الهى نامه»؛ حتى ليعد الكتاب الذى ألفه ريتر عن العطار فى عام ١٩٥٥، وصدر بالألمانية تحت عنوان «بحر النفس» Das Meer der Seele، من أروع انتاج المستشرق الكبير ومن أنفس ما كتب عامة عن متصوف وشاعر اسلامى. يحلل ريتر فى هذه الدراسة آثار العطار الأساسية، ويستعرض عبر فصول الكتاب شتى المراحل التى مرت بها شخصيته جائلا مع مختلف أبطال تلك المراحل، حتى يبلغ فى النهاية غاية المرام، وهو بلوغ النفس بحر الكل الشامل وارتماءها فى أحضانه. ولا يعكس نص ريتر الرائع أفكار العطار المستمدة من آثاره وحسب، وإنما يرجعها فى نفس الوقت إلى الأفكار الأساسية لكبار المتصوفين المسلمين، ويجابه كل جملة من جمل العطار بالعديد من المواضع المقابلة لدى هؤلاء. ويعد كتاب «بحر النفس» للأستاذ ريتر من المراجع التى لا مناص من أن يطلع عليها كل مهتم بالحياة الثقافية والدينية فى الاسلام. وهو يستحق بكل جدارة أن يترجم إلى اللغات الكبرى المتداولة.

كان اهتمام ريتر بالتصوف الاسلامى مبكرا. وتدل دراسته المنشورة فى مجلة الاسلام Der Islam الألمانية عام ١٩٢٤ عن «الحسن البصرى» على منهجه فى بحث هذه الظاهرة الدينية الثقافية، مثلما تدل عليه مقالته البالغة العمق عن «أبى يزيد البسطامى»، وهى التى نشرت ضمن مجموعة الدراسات التى صدرت تحية وتكريما للأستاذ «تشودى» Tschudi فى عام ١٩٥٤. وإن الاستشراق الأوربى مدين له بالفضل على تقديمه وصفا للحركات الايقاعية التى يقوم بها المشتركون فى حلقات الذكر من دراويش طريقة مولوى استجابة لموسيقى «السماع».

١٠/٣/٩٥٧

صديقنا الاجل الاستاذ صلاح الدين المنجد

تحيات طيبات

اشكركم على رسالتكم المؤرخة في ٢٣/٢/٩٥٧ واعتذر اليكم من
طول سكوتي كنت مشغولا جدا ولا ازال كذلك لشغل قبلته من
ال UNESCO وهو تنظيم فهرست مخطوطات دواوين الشعراء الفارسية
في الاستانه وهذا الشغل قد تبين انه اصعب واطول مما كنت اتصور
واعتقد ولا اعلم كيف أتمه الى الوقت المعين فهذا سبب تأخر
الجواب لرسائلكم وتغافلي عن الشكر على الحلاوة الشامية الآتي
وصيت اهل بيتي بكتابة رسالة شكر اليكم لانهم الذين اكلوها
واستلذوا منها... وسمعت من الاستاذ دومر انه يلاقيكم كثيرا ورسايله
مملوءة بالمدح لكم والثناء عليكم من وجوه وخاصة من تنظيمكم معهد المخطوطات
الذي لا نظير له في الشرق والغرب وكيف لا يمدحكم وقد علمنا من فضلكم
وحسن اداريكم وعلمكم ما يوجد نادرا في عالم اليوم واشكركم ايضا على ارسال
الكتب واذا لم اقرأها بعد فبعد فراغي من الشغل الحاضر الشاق وعودتي
الى المانيا تيسر مطالعتها والاستفادة منها وادعو لمرسلها
بالسلامة وكل خير

المخلص

هـ ريتر

رسالة من الاستاذ ريتر الى صلاح الدين المنجد

٣- نظرت في مجلة معهدكم واعتبرتها مفيدة نافعة
جدا وهي اول مجلة تختص بالمخطوطات والسماعات
وخطوط المؤلفين وغير ذلك والاحتياج الى مثلها
كانت ماسة من زمان طويل الا ان علماءكم لم
يروا اهمية تلك البحوث التي هي اساس كل
تحقيق في العلم فانا اهنيكم هذه الخدمة الكبيرة
للعلم، ومعجم ما نشر من المخطوطات مفيد ايضا جدا،
ووصلت صحيفتنا بالمبادلة منتظما ولا يفوتني
تقديم المجلة لقارئي Oriens بالتنويه والمدح والثناء

٤- كتبت تنويها لبعض مؤلفاتكم الا انه سينشر
في الجزء الاول من المجلد التاسع لا في المجلد الثامن

٥- سرني انكم رزقتم ولدا وادعو له ولامه بالصحة
والسلامة ولا شك انه سيجمع فضل الاب والام
ويصير من دواهي العرب في العلم والفضل وكل خير انشاء الله
وكيف وله ذلك الاب وتلك الام! وقدموا للام
تبريكاتي وتحياتي الصميمية المخلص

هـ ريتر

قطعة من رسالة ثانية من الاستاذ ريتر الى المنجد

ومن بين المخطوطات التى حققها الأستاذ ريتر نجد كتاب «سوانح» الذى ألفه بالفارسية أحمد الغزالى (شقيق الامام الغزالى). وهو يحتوى على أذكى نظرية حب صوفى كتبت بالفارسية.

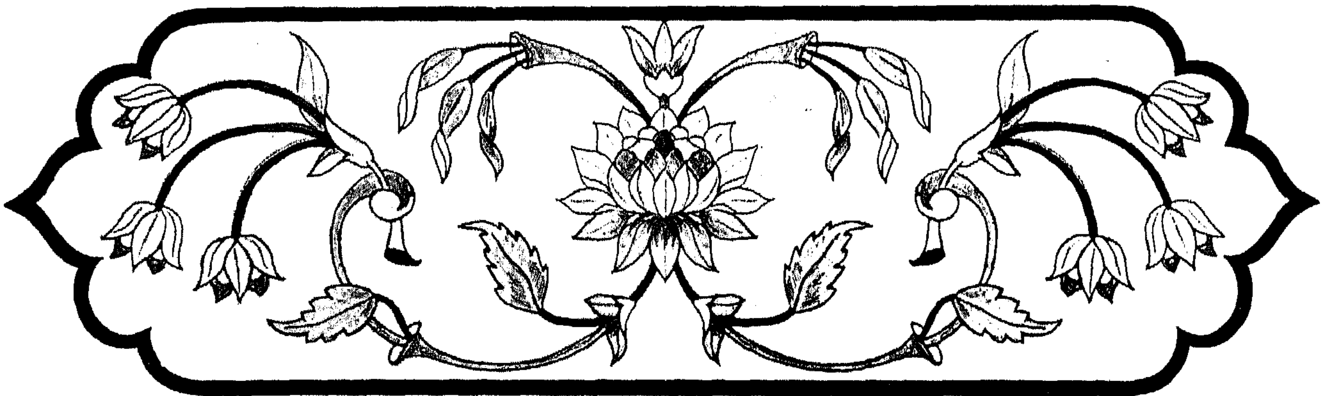
ولا يمكن إغفال دراسات الأستاذ ريتر حول الفلسفة الاسلامية وعلاقتها بالفلسفة الهيلينية، ولا اشتراكه مع «مارتين بلسنر» فى وضع كتابهما الذى يدعى Picatrix. كما لا تنسى أبحاثه القيمة حول طرق صنع الخزفيات الفارسية التى قام بها مستعينا بزملائه من أساتذة العلوم الطبيعية. ويعد فوق ذلك مقاله عن «ابن خلدون من وجهة نظر علم الاجتماع الحديث» بمثابة دراسة رائدة عن المؤرخ والفيلسوف العربى الكبير. ولا ننسى ترجمته الرائعة لكتاب «أسرار البلاغة» لمؤلفه عبد القاهر الجرجانى.

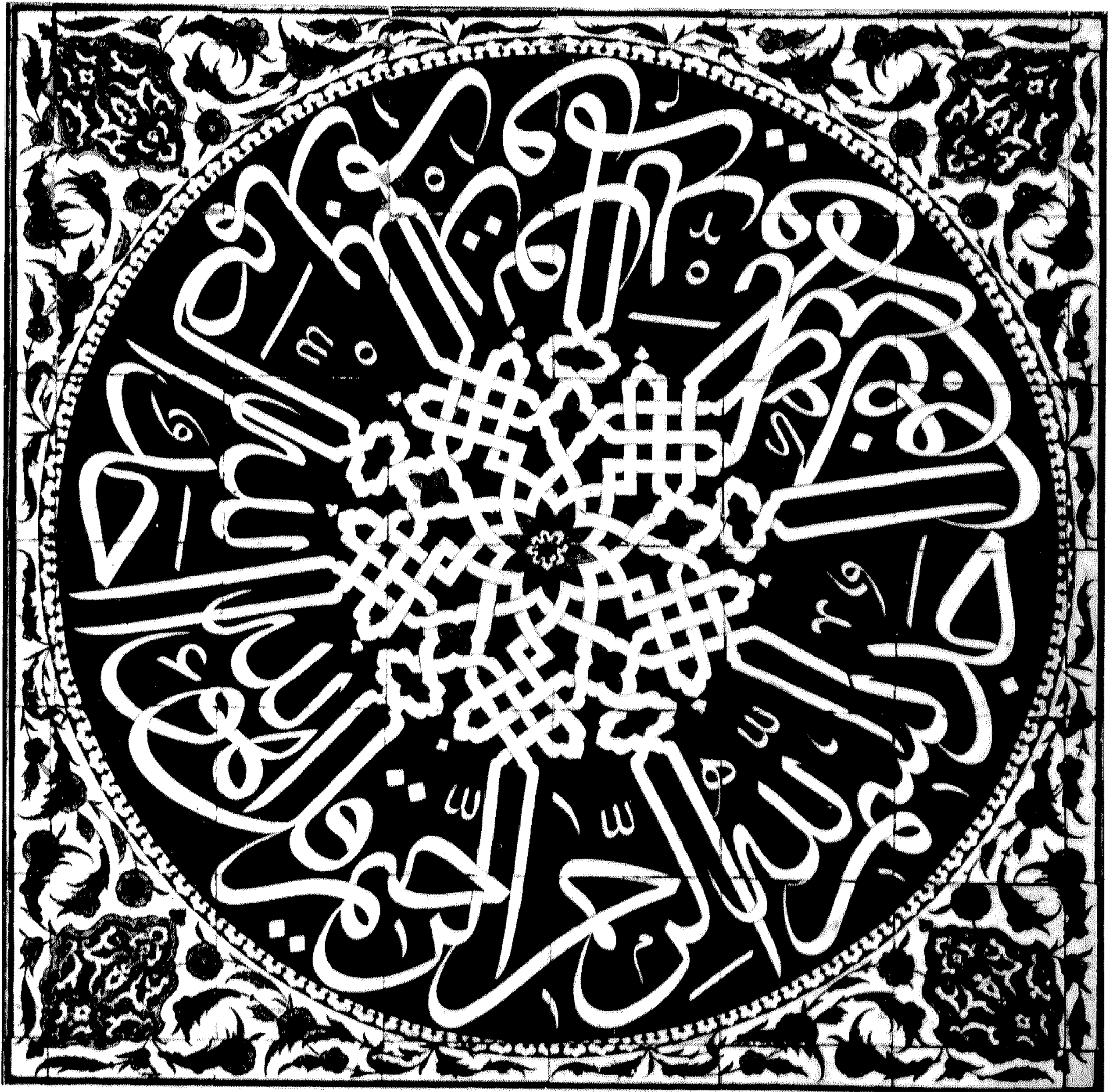
وقد قام ريتر بما لا يحصى من تعقيبات على ما تخرجه المطابع من انتاج علمى. وكانت معظم هذه التعقيبات مقالات مستقلة. بينما عرف عنه قسوته البالغة فى نقد ما يتعرض له من أعمال. ولم يكن ذلك منه إلا رغبة فى الدفاع عن الدقة والاخلاص العلميين. فالحق أن الدرس على يدى ريتر كان غاية ما يطمح إليه طلبة الاستشراق.

رأيته آخر مرة فى أنقره. كان يقضى هناك أحد أيام الآحاد، وقد صار أدمث طبعا، لا تغادره النكتة، ولا تخلو كلماته من فكر متقد غنى بالموحيات. لكم عانى فى حياته — وليس قليلا ما عاناه من جهالة المحيطين به، واستبداد المرض به فى أواخر حياته. وإننا لنعتز ونفخر إذ عرفناه — وإن موته ليسدل الستار على حقبة جليلة من حقب الاستشراق الألمانى. فلسنا نعتقد أن أحدا سيكون له من بعده ما كان يتمتع به الفقيد من عمق البحث وتباين ميادينه فى آن واحد.

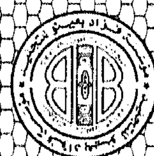
إليك ما يقول فى نهاية «بحر النفس»: «لم يعد توقف وجود الفرد نهاية تهدده، أو بوابة تفضى به إلى مصير غيبى مجهول نتطلع إليه وفرائصنا ترتعد، كما أنه لم يعد جسرا يحقق لنا أن نشهد محيا الرب المعشوق، إنما هو الانفتاح والانطفاء فى قاع الوجود ذاته، وهو تلاشى القطرة فى بحر ما وراء الدنيا الذى عنه نشأت ومنه جاءت، وفيه تظل أبدا، باعتبارها فريدة، مطرودة ومحتفظا بها فى آن واحد: ضائعة، مختفية، ومؤتمنا عليها.»

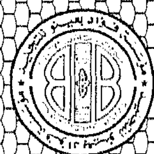
(أنيمارى شيمل)




بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس





GERMAN ORIENTALISTS

BIOGRAPHIES

AND

CONTRIBUTIONS TO ARAB STUDIES

EDITED

by

SALAHUDDIN AL MUNAǦǦID

The New Book Publishing House

BEIRUT — P.O. Box [illegible]64 — LEBANON